الشهيد سيد قطب (رحمه اللّه)

في ظلال القرآن

طبعة إلكترونية منقحة و مختصرة

قا م بإنجازها الفقير الى رحمة ربه محمد رباعـة

الجزء الثاني (2)

دار القبس للنشر الإلكتروني
ص ب: 42 أولاد موسى 35011 / بومرداس (الجزائر)
الهاتف: 78 ـ 73 ـ 20 ـ 0662

بسم الله الرحمن الرحيم

ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) البقرة {286}

مختصر فى ظلال القرآن ، الجزء الثانى (٢) الطبعة الثانية (٢) ماى ٢٠٢٢

الإهداء : الى أستاذ الجيل ، الشهيد سيد قطب الذي علمنا و نحن صغار و كبار كيف نفهم القرآن الكريم ... اللهم أرحمه و أغفر له و أسكنه دارا خير من داره فى جنة الرضوان ... آمين يا رب العالمين .

بقية سورة النساء

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَآئِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً {٢٣} وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً {٢٤} وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٥} يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {٢٦} وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً {٢٧} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً {٢٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً {٢٩} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً {٣٠} إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً {٣١} وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً {٣٢})

تعددت أسباب التحريم ، وطبقات المحارم عند شتى الأمم ، واتسعت دائرتها فى الشعوب البدائية ، ثم ضاقت فى الشعوب المترقية . والمحرمات فى الإسلام هى هذه الطبقات المبينة فى هذه الآيات . . وبعضها محرمة تحريما مؤبدا ، وبعضها محرمة تحريما مؤقتا . . وبعضها بسبب النسب ، وبعضها بسبب الرضاعة ، وبعضها بسبب المصاهرة . والمحرمات بالقرابة فى شريعة الإسلام أربع طبقات:

أولاها:أصوله مهما علوا . فيحرم عليه التزوج من أمه وجدته من جهة أبيه أو من جهة أمه مهما علون (حرمت عليكم أمهاتكم)

وثانيتها:فروعه مهما نزلوا . فيحرم عليه التزوج ببناته وبنات أولاده ذكورهم وإناثهم مهما نزلوا (وبناتكم) وثالثتها فروع أبويه مهما نزلوا . فيحرم عليه التزوج بأخته وببنات إخوته وأخواته وببنات أولاد إخوته وأخواته (وأخواتكم) (وبنات الأخ ، وبنات الأخت) .

ورابعتها الفروع المباشرة لأجداده . فيحرم عليه التزوج بعماته وخالاته ، وعمات أبيه وعمات جده لأبيه أو أمه ، وعمات أمه وعمات جدته لأبيه أو أمه (وعماتكم وخالاتكم) أما الفروع غير المباشرة للأجداد فيحل الزواج بهم . ولذلك يباح التزاوج بين أولاد الأعمام والعمات وأولاد الأخوال والخالات .

والمحرمات بالمصاهرة خمس :

١ــ أصول الزوجة مهما علون . فيحرم على الرجل الزواج بأم زوجته ، وجدتها من جهة أبيها أو من جهة أمها مهما علون . ويسرى هذا التحريم بمجرد العقد على الزوجة:سواء دخل بها الزوج أم لم يدخل (وأمهات نسائكم)

٢ـ فروع الزوجة مهما نزلن . فيحرم على الرجل الزواج ببنت زوجته ، وبنات أولادها ذكورا كانوا أم إناثا مهما نزلوا . ولا يسرى هذا التحريم إلا بعد الدخول بالزوجة (وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن . فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم)

٣ـ زوجات الأب والأجداد من الجهتين – مهما علوا – فيحرم على الرجل الزواج بزوجة أبيه , وزوجة أحد أجداده لأبيه أو أمه مهما علوا . . (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف). . أى ما سلف فى الجاهلية من هذا النكاح وقد كانت تجيزه . .

٤ـ زوجات الابناء ، وأبناء الأولاد مهما نزلوا . فيحرم على الرجل الزواج بامرأة ابنه من صلبه ، وامرأة ابن ابنه ، أو ابن بنته مهما نزل: (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم . .(وذلك إبطالا لعادة الجاهليةفى تحريم زوجة الابن المتبنى . وتحديده بابن الصلب . ودعوة أبناء التبنى إلى آبائهم – كما جاء فى سورة الأحزاب .

٥ـ أخت الزوجة وهذه تحرم تحريما مؤقتا ، ما دامت الزوجة حية وفى عصمة الرجل . والمحرم هو الجمع بين الأختين فى وقت واحد (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) أى ما سلف من هذا النكاح فى الجاهلية وقد كانت تجيزه . .

ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب والصهر . وهذه تشمل تسع محارم:

١ـ الأم من الرضاع وأصولها مهما علون (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم)

٢ـ البنت من الرضاع وبناتها مهما نزلن [وبنت الرجل من الرضاع هى من أرضعتها زوجته وهى فى عصمته]

٣ ـ الأخت من الرضاع ، وبناتها مهما نزلن (وأخواتكم من الرضاعة)

٤ـ العمة والخالة من الرضاع [والخالة من الرضاع هى أخت المرضع . والعمة من الرضاع هى أخت زوجها] .

٥ ـ أم الزوجة من الرضاع [وهى التى أرضعت الزوجة فى طفولتها] وأصول هذه الأم مهما علون . ويسرى هذا التحريم بمجرد العقد على المرأة – كما فى النسب .

٦ ـ بنت الزوجة من الرضاع [وهى من كانت الزوجة قد أرضعتها قبل أن تتزوج بالرجل] وبنات أولادها مهما نزلوا . ولا يسرى هذا التحريم إلا بعد الدخول بالزوجة .

٧ ـ زوجة الأب أو الجد من الرضاع مهما علا [والأب من الرضاع هو من رضع الطفل من زوجته . فلا يحرم على هذا الطفل الزواج بمن أرضعته فحسب ، وهى أمه من الرضاع . بل يحرم عليه كذلك الزواج بضرتها التى تعتبر زوجة أبيه من الرضاع] .

٨ ـ زوجة الابن من الرضاع مهما نزل .

٩ ـ الجمع بين المرأة وأختها من الرضاع ، أو عمتها أو خالتها من الرضاع ، أو أية امرأة أخرى ذات رحم محرم منها من ناحية الرضاع . .

والنوع الأول والثالث من هذه المحرمات ورد تحريمهما نصا فى الآية . أما سائر هذه المحرمات فهى تطبيق للحديث النبوى:" يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب " [أخرجه الشيخان]

هذه هى المحرمات فى الشريعة الإسلامية ، ولم يذكر النص علة للتحريم – لا عامة ولا خاصة – فكل ما يذكر من علل ، إنما هو استنباط ورأى وتقدير ،

فقد تكون هناك علة عامة . وقد تكون هناك علل خاصة بكل نوع من أنواع المحارم . وقد تكون هناك علل مشتركة بين بعض المحارم .

وعلى سبيل المثال يقال: إن الزواج بين الأقارب يضوى الذرية ، ويضعفها مع امتداد الزمن . لأن استعدادات الضعف الوراثية قد تتركز وتتأصل فى الذرية . على عكس ما إذا تركت الفرصة للتلقيح الدائم بدماء أجنبية جديدة ، تضاف استعداداتها الممتازة ، فتجدد حيوية الأجيال واستعداداتها . أو يقال: إن بعض الطبقات المحرمة كالأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت . وكذلك نظائرهن من الرضاعة . وأمهات النساء ، وبنات الزوجات - الربائب والحجور – يراد أن تكون العلاقة بهن علاقة رعاية وعطف ، واحترام وتوقير , فلا تتعرض لما قد يجد فى الحياة الزوجية من خلافات تؤدى إلى الطلاق والانفصال - مع رواسب هذه الانفصال – فتخدش المشاعر التى يراد لها الدوام . أو يقال:إن بعض هذه الطبقات كالربائب فى الحجور ، والأخت مع الأخت ، وأم الزوجة وزوجة الأب ، لا يراد خدش المشاعر البنوية أو الأخوية فيها . فالأم التى تحس أن ابنتها قد تزاحمها فى زوجها ، والبنت والأخت كذلك ، لا تستبقى عاطفتها البريئة تجاه بنتها التى تشاركها حياتها ، أو أختها التى تتصل بها ، أو أمها ، وهى أمها ! وكذلك الأب الذى يشعر أن إبنه قد يخلفه على زوجته . والابن الذى يشعر أن أباه الراحل أو المطلق غريم له ، لأنه سبقه على زوجته ! ومثله يقال فى حلائل الأبناء الذين من الأصلاب , بالنسبة لما بين الابن والأب من علاقة لا يجوز أن تشاب ! أو يقال:إن علاقة الزواج جعلت التوسيع نطاق الأسرة ، ومدها إلى ما وراء رابطة القرابة . ومن ثم فلا ضرورة لها بين الأقارب الأقربين ، الذين تضمهم آصرة القرابة القريبة . ومن ثم حرم الزواج من هؤلاء لانتفاء الحكمة فيه ، ولم يبح من القريبات إلا من بعدت صلته ، حتى ليكاد أن يفلت من رباط القرابة . وأيا ما كانت العلة ، فنحن نسلم بأن اختيار الله لا بد وراءه حكمة ، ولا بد فيه مصلحة . وسواء علمنا أو جهلنا ، فإن هذا لا يؤثر فى الأمر شيئا ، ولا ينقص من وجوب الطاعة والتنفيذ ، مع الرضى والقبول . فالإيمان لا يتحقق فى قلب ، ما لم يحتكم إلى شريعة الله ، ثم لا يجد فى صدره حرجا منها ويسلم بها تسليما .

ثم تبقى كلمة أخيرة عامة عن هذه المحارم ، ونص التشريع القرآنى المبين لها ، إن هذه المحرمات كانت محرمة فى عرف الجاهلية – فيما عدا حالتين اثنتين هما:ما نكح الآباء من النساء ، والجمع بين الأختين . فقد كانتا جائزتين – على كراهة من المجتمع الجاهلى ولكن الإسلام – وهو يحرم هذه المحارم كلها – لم يستند إلى عرف الجاهلية فى تحريمها . إنما حرمها ابتداء ، مستندا إلى سلطانه الخاص . وجاء النص (حرمت عليكم أمهاتكم . . إلخ. .)

والأمر فى هذا ليس أمر شكليات ؛ إنما هو أمر هذا الدين كله . وإدراك العقدة فى هذا الأمر هو إدراك لهذا الدين كله ، وللأصل الذى يقوم عليه:أصل الألوهية وإخلاصها لله وحده . .

إن هذا الدين يقرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده ، لأنهما أخص خصائص الألوهية . فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله . فالله – وحده – هو الذى يحل للناس ما يحل ، ويحرم على الناس ما يحرم . وليس لأحد غيره أن يشرع فى هذا وذاك ، وليس لأحد أن يدعى هذا الحق . لأن هذا مرادف تماما لدعوى الألوهية ! ومن ثم فإن الجاهلية تحرم أو تحلل ، فيصدر هذا التحريم والتحليل عنها باطلا بطلانا أصليا ، غير قابل للتصحيح ، لأنه لا وجود له منذ الابتداء . فإذا جاء الإسلام إلى ما أحلت الجاهلية أو حرمت ، فهو يحكم ابتداء ببطلانه كلية بطلانا أصليا , ويعتبره كله غير قائم ، والمسألة على هذا الوضع هى مسألة الألوهية وخصائصها . وهى مسألة الدين ومفهومه . وهى مسألة الإيمان وحدوده . . فلينظر المسلمون فى أنحاء الأرض أين هم من هذا الأمر ؟ أين هم من الدين ؟ وأين هم من الإسلام . . إن كانوا ما يزالون يصرون على ادعائهم للإسلام !!!

(وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً {٢٤} وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ

الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٥} يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {٢٦} وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً {٢٧} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً {٢٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً {٢٩} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً {٣٠} إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً {٣١} وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً {٣٢} وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً {٣٣} الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً {٣٤} وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً {٣٥}

نمضى مع سورة النساء فى هذا الجزء ، الذى يتضمن معظم أهداف السورة وموضوعاتها ، ونجد فى هذا الجزء من الأهداف الأساسية للسورة والموضوعات الرئيسية عناصر كثيرة ... هذا الدرس تكملة لما جاء فى هذه السورة عن تنظيم الأسرة ، على قواعد الفطرة ، ولا يعود السياق بعد ذلك إلا فى موضعين لبيان بعض الأحكام التكميلية فى هذا الموضوع الأساسى الهام ، الذى يترتب على تنظيمه جريان الحى ومما يلاحظ – بوجه عام – أن السياق يربط ربطا دقيقا بين هذه التنظيمات والأحكام وبين الأصل الأول الكبير للإيمان وهو أن هذه التنظيمات والأحكام صادرة من الله . وهى مقتضى ألوهيته . فأخص خصائص الألوهية – كما كررنا ذلك فى مطلع السورة – هو الحاكمية , والتشريع للبشر ، ووضع الأسس التى تقوم عليها حياتهم وارتباطاتهم .

والسياق ما ينى يكرر هذا الارتباط الدقيق ؛ وينبه إلى هذه الخاصية من خصائص الألوهية . ويكرر كذلك الإشارة إلى صدور هذه التنظيمات عن العليم الحكيم . . وهى إشارة ذات مغزى . . فالأمر فى هذا المنهج الإلهى كله هو قبل كل شىء أمر العلم الشامل الكامل ، والحكمة المدركة البصيرة . . هذه الخصائص الإلهية التى يفقدها الإنسان , فلا يصلح بعدها أبدا لوضع المنهج الأساسى لحياة الإنسان ! ومن هنا شقوة الإنسان فى الأرض كلما حاد عن منهج العليم الحكيم ، وراح يخبط فى التيه بلا دليل ، ويزعم أنه قادر ، بجهله وطيشه وهواه ، أن يختار لنفسه ولحياته خيرا مما يختاره الله !!!

لقد سبق فى نهاية الجزء الرابع بيان المحرمات من النساء حرمة ذاتية . وذلك فى قوله تعالى: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ... الخ) أما هذه التكملة (والمحصنات من النساء . . .) فتتعلق بالمحرمات لأنهن فى عصمة رجال اخرين . محصنات بالزواج منهم:فهن محرمات على غير أزواجهن ، لا يحل نكاحهن . . . وذلك تحقيقا للقاعدة الأولى فى نظام المجتمع الإسلامى , من قيامه على قاعدة الأسرة ، وجعلها وحدة المجتمع ، وصيانة هذه الأسرة من كل شائبة ، ومن كل اختلاط فى الأنساب ، ينشأ من "شيوعية " الاتصال الجنسى ، أو ينشأ من انتشار الفاحشة ، وتلوث المجتمع بها . والأسرة القائمة على الزواج العلنى ، الذى تتخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه ، ويتم به الإحصان – وهو الحفظ والصيانة – هى أكمل نظام يتفق مع فطرة "الإنسان" وحاجاته الحقيقية ، الناشئة من كونه إنسانا ، لحياته غاية أكبر من غاية الحياة الحيوانية - وإن كانت تتضمن هذه الغاية فى ثناياها – ويحقق أهداف المجتمع الإنسانى , كما يضمن لهذا المجتمع السلم المطمئنة:سلم الضمير . وسلم البيت . وسلم المجتمع فى نهاية المطاف . والملاحظ بصفة ظاهرة ، أن الطفل الإنسانى يحتاج إلى فترة رعاية أطول من الفترة التى يحتاج إليها طفل أى حيوان آخر . كما أن التربية التى يحتاج إليها ليصبح قادرا على إدراك مقتضيات الحياة الإنسانية الاجتماعية المترقية – التى يتميز بها الإنسان - تمتد إلى فترة طويلة أخرى . وإذا كانت غاية الميل الجنسى فى الحيوان تنتهى عند تحقيق الاتصال الجنسى والتناسل والإكثار ، فإنها فى الإنسان لا تنتهى عند تحقيق هذا الهدف ، إنما هى تمتد إلى هدف أبعد هو الارتباط الدائم بين الذكر والأنثى - بين الرجل والمرأة – ليتم إعداد الطفل

الإنسانى لحماية نفسه وحفظ حياته ، وجلب طعامه وضرورياته ، كما يتم – وهذا هو الأهم بالنسبة لمقتضيات الحياة الإنسانية – تربية هذا الطفل وتزويده برصيد من التجارب الإنسانية والمعرفة الإنسانية يؤهله للمساهمة فى حياة المجتمع الإنسانى , والمشاركة فى حمل تبعته من اطراد الترقى الإنسانى عن طريق الأجيال المتتابعة . ومن ثم لم تعد اللذة الجنسية هى المقوم الأول فى حياة الجنسين فى عالم الإنسان ؛ إنما هى مجرد وسيلة الالتقاء بينهما ويطول بعد الاتصال الجنسى للقيام بواجب المشاركة فى اطراد نمو النوع . ولم يعد "الهوى " الشخصى هو الحكم فى بقاء الارتباط بين الذكر والأنثى . إنما الحكم هو "الواجب" . . . واجب النسل الضعيف الذى يجىء ثمرة للالتقاء بينهما ، وواجب المجتمع الإنسانى الذى يحتم عليهما تربية هذا النسل إلى الحد الذى يصبح معه قادرا على النهوض بالتبعة الإنسانية , وتحقيق غاية الوجود الإنسانى .

وكل هذه الاعتبارات تجعل الارتباط بين الجنسين على قاعدة الأسرة ، هو النظام الوحيد الصحيح . كما تجعل تخصيص امرأة لرجل هو الوضع الصحيح الذى تستمر معه هذه العلاقة . والذى يجعل "الواجب" لا مجرد اللذة ولا مجرد الهوى ، هو الحكم فى قيامها , ثم فى استمرارها ، ثم فى معالجة كل مشكلة تقع ,ثم عند فصم عقدتها عند الضرورة القصوى . ومن هنا ندرك مدى الجريمة التى تزاولها الأقلام والأجهزة الدنسة ، المسخرة لتوهين روابط الأسرة ، والتصغير من شأن الرباط الزوجى ، وتشويهه وتحقيره ، للإعلاء من شأن الارتباطات القائمة على مجرد الهوى المتقلب ، والعاطفة الهائجة ، والنزوة الجامحة . وتمجيد هذه الارتباطات ، بقدر الحط من الرباط الزوجى !

(والمحصنات من النساء – إلا ما ملكت أيمانكم . .). وهذا الاستثناء يتعلق بالسبايا اللواتى كن يؤخذن أسيرات فى حروب الجهاد الإسلامى وهن متزوجات فى دار الكفر والحرب . حيث تنقطع علاقاتهن بأزواجهن الكفار ، بانقطاع الدار . ويصبحن غير محصنات . فلا أزواج لهن فى دار الإسلام . ومن ثم يكفى استبراء أرحامهن بحيضة واحدة ؛ يظهر منها خلو أرحامهن من الحمل . ويصبح بعدها نكاحهن حلالا - إن دخلن فى الإسلام – أو أن يباشرهن من غير عقد نكاح من يقعن فى سهمه ، باعتبارهن ملك يمين . سواء أسلمن أم لم يسلمن . وقبل أن يمضى السياق القرآنى فى تقرير ما يحل بعد تلك المحرمات ، يربط بين أصل التحريم والتحليل ومصدر التحريم والتحليل . المصدر الذى ليس لغيره أن يحرم أو يحلل ; أو يشرع للناس شيئا فى أمور حياتهم جميعا (كتاب الله عليكم) هذا عهد الله عليكم وميثاقه وكتابه فليست المسألة هوى يتبع ، أو عرفا يطاع ، أو موروثات بيئة تتحكم . . إنما هو كتاب الله وعهده وميثاقه ، فإذا انتهى السياق من بيان المحرمات ، وربطها بأمر الله وعهده ، أخذ فى بيان المجال الذى يملك فيه الناس أن يلبوا دوافع فطرتهم فى التزاوج ، والطريقة التى يحب الله أن يلتقى بها أفراد الجنسين لتكوين البيوت ، وإقامة مؤسسات الأسرة ، والمتاع بهذا الالتقاء فى نظافة وطهر وجد تليق بهذا الأمر العظيم (وأحل لكم – ما وراء ذلكم – أن تبتغوا بأموالكم . . محصنين غير مسافحين . . فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن – فريضة – ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة . إن الله كان عليما حكيما) ففيما وراء هذه المحرمات المذكورة فالنكاح حلال ، وللراغبين فيه أن يبتغوا النساء , بأموالهم – أى لأداء صداقهن – لا لشراء أعراضهن بالأموال من غير نكاح ! ومن ثم قال (محصنين غير مسافحين) ولم يكتف بتقرير هذا القيد فى صورته الإيجابية المثبته ... (محصنين) بل أردفها بنفى الصورة الأخرى (غير مسافحين)زيادة فى التوكيد والإيضاح ، فى معرض التشريع والتقنين . . ثم لكى يرسم صورة لطبيعة العلاقة الأولى التى يحبها ويريدها ، علاقة النكاح ، وصورة لطبيعة العلاقة الأخرى التى يكرهها وينفيها ، علاقة المخادنة أو البغاء . . وقد كانت هذه وتلك معروفة فى مجتمع الجاهلية ، ومعترفا بها كذلك من المجتمع ! جاء فى حديث عائشة – رضى الله عنها (ان النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء:فنكاح منها نكاح الناس اليوم . يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ثم ينكحها . . والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته – إذا طهرت من طمثها – أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . . ونكاح آخر . يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها , فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال ، بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم:قد عرفتم الذى كان من أمركم , وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان . تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل . والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن ،فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ،

جمعوا لها ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاطه ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك)فالنوعان الثالث والرابع هما السفاح الذى ينص على نفيه – سواء منه المخادنة والبغاء - والأول هو الإحصان الذى ينص على طلبه . . أما الثانى فما ندرى كيف نسميه !!!

والقرآن يصور طبيعة النوع الذى يريده الله . . فهو إحصان . . هو حفظ وصيانة . . هو حماية ووقاية . . هو إحصان للرجل وإحصان للمرأة . ففى هذه القراءة (محصنين) بصيغة اسم الفاعل ، وفى قراءة أخرى (محصنين)بصيغة اسم المفعول . وكلا المعنيين يتحقق فى هذه الصورة النظيفة القويمة العفيفة . وهو إحصان للبيت والأسرة والأطفال . والآخر:سفاح . . مفاعلة من السفح ، وهو إراقة الماء فى المنحدر الواطىء ! مسافحة يشترك فيها الرجل والمرأة ، فيريقان ماء الحياة ، الذى جعله الله لامتداد النوع , ورقيه ، عن طريق اشتراك الرجل والمرأة فى إنجاب الذرية وتربيتها وحضانتها وصيانتها . فإذا هما يريقانه للذة العابرة ، والنزوة العارضة . يريقانه فى السفح الواطىء ! فلا يحصنهما من الدنس ، ولا يحصن الذرية من التلف ، ولا يحصن البيت من البوار ! وهكذا يرسم التعبير القرآنى صورتين كاملتين لنوعين من الحياة ؛ فى كلمتين اثنتين . ويبلغ غايته من تحسين الصورة التى يرتضيها ، وتبشيع الصورة التى لا يرتضيها ، بينما هو يقرر حقيقة كل من الصورتين فى واقع الحياة . وذلك من بدائع التعبير فى القرآن .

فإذا انتهى من هذا القيد للابتغاء بالأموال . عاد ليقرر كيف يبتغى بالأموال (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) فهو يجعل صداق المرأة فريضة لها مقابل الاستمتاع بها . فمن أراد أن يستمتع بامرأة من الحلائل – وهن ما وراء ذلكم من المحرمات – فالطريق هو ابتغاؤها للإحصان – أى عن طريق النكاح أى [الزواج] لا عن أى طريق آخر – وعليه أن يؤدى لها صداقها حتما مفروضا , لا نافلة ، ولا تطوعا منه ، ولا إحسانا ، فهو حق لها عليه مفروض وبعد تقرير هذا الحق للمرأة وفرضيته ، يدع الباب مفتوحا لما يتراضى عليه الزوجان بينهما وفق مقتضيات حياتهما المشتركة ، ووفق مشاعرهما وعواطفهما أحدهما تجاه الآخر ... (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) فلا حرج عليهما فى أن تتنازل الزوجة عن مهرها – كله أو بعضه – بعد بيانه وتحديده . وبعد أن أصبح حقا لها خالصا تتصرف فيه كما تتصرف فى سائر أموالها بحرية – ولا جناح عليهما فى أن يزيدها الزوج على المهر ، أو يزيدها فيه . فهذا شأنه الخاص . وهذا شأنهما معا يتراضيان عليه فى حرية وسماحة ، ثم يجىء التعقيب . يربط هذه الأحكام بمصدرها ؛ ويكشف عما وراءها من العلم الكاشف , والحكمة البصيرة (إن الله كان عليما حكيما) فهو الذى شرع هذه الأحكام . وهو الذى شرعها عن علم وعن حكمة الدرس الثانى:٢٥ الزواج من الإماء وعقوبتهن عند المخالفة ... فإذا كانت ظروف المسلم تحول بينه وبين الزواج من حرة تحصنها الحرية وتصونها ، فقد رخص له فى الزواج من غير الحرة ، إذا هو لم يصبر حتى يستطيع الزواج من حرة ، وخشى المشقة ،إن هذا الدين يتعامل مع "الإنسان" فى حدود فطرته ، وفى حدود طاقته . وفى حدود واقعه , وفى حدود حاجاته الحقيقية . . وحين يأخذ بيده ليرتفع به من حضيض الحياة الجاهلية إلى مرتقى الحياة الإسلامية لا يغفل فطرته وطاقته وواقعه وحاجاته الحقيقية , بل يلبيها كلها وهو فى طريقه إلى المرتقى الصاعد ، وقد كان فى المجتمع المسلم الأول رقيق يتخلف من الحروب ؛ ريثما يتم تدبير أمره . . إما بإطلاق سراحه امتنانا عليه بلا مقابل . وإما فداء مقابل إطلاق سراح أسارى المسلمين , أو مقابل مال – حسب الملابسات والظروف المنوعة فيما بين المسلمين وأعدائهم المحاربين – وقد عالج الإسلام هذا الواقع بإباحة مباشرة ملك اليمين – كما جاء فى الآية السابقة – لمن هن ملك يمينه . لمواجهة واقع فطرتهن كما أسلفنا . مباشرتهن إما بزواج منهن – إن كن مؤمنات – أو بغير زواج ، بعد استبراء أرحام المتزوجات منهن فى دار الحرب ، بحيضة واحدة . . ولكنه لم يبح لغير سادتهن مباشرتهن إلا أن يكون ذلك عن طريق الزواج . لم يبح لهن أن يبعن أعراضهن فى المجتمع لقاء أجر ، ولا أن يسرحهن سادتهن فى المجتمع يزاولن هذه الفاحشة لحسابهم كذلك ! وفى هذه الآية ينظم طريقة نكاحهن والظروف المبيحة لهذا النكاح (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات ، فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) إن الإسلام يؤثر الزواج من حرة فى حالة الطول – أى القدرة على نكاح الحرة – ذلك أن الحرة تحصنها الحرية وتعلمها كيف تحفظ عرضها ، وكيف تصون حرمة زوجها . فهن (محصنات)هنا – لا بمعنى متزوجات , فقد سبق تحريم نكاح المتزوجات – ولكن بمعنى حرائر ، محصنات بالحرية ، وما تسبغه على الضمير من كرامة ، وما توفره للحياة من ضمانات . فالحرة ذات أسرة وبيت وسمعة ولها من يكفيها ، وهى تخشى العار ، وفى نفسها أنفة وفى ضميرها عزة , فهى تأبى السفاح والانحدار . ولا شىء من هذا كله لغير الحرة . ومن ثم فهى ليست محصنة ، وحتى إذا تزوجت ، فإن رواسب من عهد الرق تبقى فى نفسها ، فلا يكون لها الصون والعفة والعزة التى للحرة . فضلا على أنه ليس لها شرف عائلى تخشى تلويثه . . مضافا

إلى هذا كله أن نسلها من زوجها كان المجتمع ينظر إليهم نظرة أدنى من أولاد الحرائر . فتعلق بهم هجنة الرق فى صورة من الصور . . وكل هذه الاعتبارات كانت قائمة فى المجتمع الذى تشرع له هذه الآية ، لهذه الاعتبارات كلها آثر الإسلام للمسلمين الأحرار ألا يتزوجوا من غير الحرائر , إذا هم استطاعوا الزواج من الحرائر . وجعل الزواج من غير الحرة رخصة في حالة عدم الطول . مع المشقة فى الانتظار . ولكن إذا وجدت المشقة ، وخاف الرجال العنت . عنت المشقة أو عنت الفتنة . فإن الدين لا يقف أمامهم يذودهم عن اليسر والراحة والطمأنينة . فهو يحل – إذن – الزواج من المؤمنات غير الحرائر اللواتى فى ملك الآخرين . ويعين الصورة الوحيدة التي يرضاها للعلاقة بين الرجال الأحرار وغير الحرائر . وهى ذاتها الصورة التى رضيها من قبل في زواج الحرائر ، فأولا يجب أن يكن مؤمنات (فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) وثانيا:يجب أن يعطين أجورهن فريضة لهن لا لسادتهن . فهذا حقهن الخالص (فآتوهن أجورهن) وثالثا:يجب أن تكون هذه الأجور فى صورة صداق ، وأن يكون الاستمتاع بهن فى صورة نكاح .لا مخادنة ولا سفاح ، والمخادنة أن تكون لواحد . والسفاح أن تكون لكل من أراد . محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان .

وقد كان المجتمع إذ ذاك يعرف هذه الأنواع من الاتصال الجنسي بين الحرائر كما سلف من حديث عائشة – رضى الله عنها – كما كان يعرف كذلك بين غير الحرائر أنواعا من البغاء . وقد كان سادة من أشراف القوم يرسلون رقيقاتهم يكسبن بأجسامهن فى هذا السبيل القذر ، لحساب سادتهن . وكان لعبدالله بن أبى بن سلول – رأس المنافقين فى المدينة وهو من سادة قومه – أربع جوار يكسبن له من هذا السبيل ! وكانت هذه بقايا أو حال الجاهلية ، التى جاء الإسلام ليرفع العرب منها ، ويطهرهم ويزكيهم ، كما يرفع منها سائر البشرية كذلك !

وكذلك جعل الإسلام طريقا واحدة للمعاشرة بين الرجال الأحرار وهؤلاء "الفتيات" ، هى طريق النكاح ، الذى تتخصص فيه امرأة لرجل لتكوين بيت وأسرة ، لا الذى تنطلق فيه الشهوات انطلاق البهائم . وجعل الأموال في أيدى الرجال لتؤدى صداقا مفروضا ، لا لتكون أجرا فى مخادنة أو سفاح . . وكذلك طهر الإسلام هذه العلاقات حتى في دنيا الرقيق من وحل الجاهلية ، الذى تتلبط فيه البشرية كلما ارتكست فى الجاهلية ! والذى تتلبط فيه اليوم في كل مكان ، لأن رايات الجاهلية هى التى ترتفع في كل مكان ، لا راية الإسلام ! ولكن – قبل أن نتجاوز هذا الموضع من الآية – ينبغى أن نقف أمام تعبير القرآن عن حقيقة العلاقات الإنسانية التى تقوم بين الأحرار والرقيق فى المجتمع الإسلامى ، وعن نظرة هذا الدين إلى هذا الأمر عندما واجهه المجتمع الإسلامى . إنه لا يسمى الرقيقات:رقيقات . ولا جوارى . ولا إماء . إنما يسميهن "فتيات" (فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) وهو لا يفرق بين الأحرار وغير الأحرار تفرقة عنصرية تتناول الأصل الإنسانى – كما كانت الاعتقادات والاعتبارات السائدة فى الأرض كلها يومذاك – إنما يذكر بالأصل الواحد , ويجعل الآصرة الإنسانية والآصرة الإيمانية هما محور الارتباط (والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض) وهو لا يسمى من هن ملك لهم سادة . إنما يسميهم "أهلا" (فانكحوهن بإذن أهلهن) وهو لا يجعل مهر الفتاة لسيدها . فمهرها إنما هو حق لها . لذلك يخرج من قاعدة أن كسبها كله له . فهذا ليس كسبا ، إنما هو حق ارتباطها برجل (وآتوهن أجورهن) وهو يكرمهن عن أن يكن بائعات أعراض بثمن من المال ، إنما هو النكاح والإحصان (محصنات غير مسافحات ولامتخذات أخدان) وكلها لمسات واعتبارات تحمل طابع التكريم لإنسانية هؤلاء الفتيات ، حتى وهن فى هذا الوضع ، الذى اقتضته ملابسات وقتية ، لا تطعن فى أصل الكرامة الإنسانية . ثم يقرر الإسلام عقوبة مخففة على من ترتكب الفاحشة من هؤلاء الفتيات بعد إحصانها بالزواج , واضعا فى حسابه واقعها وظروفها التى تجعلها أقرب إلى السقوط فى الفاحشة ، وأضعف فى مقاومة الإغراء من الحرة ، مقدرا أن الرق يقلل من الحصانة النفسية ، لأنه يغض من الشعور بالكرامة ، والشعور بشرف العائلة – وكلاهما شعور يثير الإباء فى نفس الحرة – كما يقدر الحالة الاجتماعية والاقتصادية ، واختلافها بين الحرة والأمة . وأثرها فى جعل هذه أكثر تسامحا فى عرضها ، وأقل مقاومة لإغراء المال وإغراء النسب ممن يراودها عن نفسها ! يقدر الإسلام هذا كله فيجعل حد الأمة – بعد إحصانها – نصف حد الحرة المحصنة بالحرية قبل زواجها (فإذا أحصن . فإن أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) ومفهوم أن النصف يكون من العقوبة التي تحتمل القسمة . وهى عقوبة الجلد . ولا يكون فى عقوبة الرجم . إذ لا يمكن قسمتها ! فإذا زنت الجارية المؤمنة المتزوجة عوقبت بنصف ما تعاقب به الحرة البكر . أما عقوبة الجارية البكر فمختلف عليها بين الفقهاء . هل تكون هذا الحد نفسه – وهو نصف ما على الحرة البكر – ويتولاه الإمام ؟ أم تكون تأديبا يتولاه سيدها ودون النصف من الحد ؟ وهو خلاف يطلب فى كتب الفقه . ثم تنتهى الآية ببيان أن

الزواج من الإماء رخصة لمن يخشى المشقة أو الفتنة . فمن استطاع الصبر – فى غير مشقة ولا فتنة – فهو خير . لما أسلفناه من الملابسات التى تحيط بالزواج من الإماء (ذلك لمن خشى العنت منكم . وأن تصبروا خير لكم . والله غفور رحيم) إن الله لا يريد أن يعنت عباده ، ولا أن يشق عليهم ، ولا أن يوقعهم فى الفتنة . وهو هنا يهيب بالصبر حتى تتهيأ القدرة على نكاح الحرائر ؛ فهن أولى أن تصان نفوسهن بالزواج ، وان تقوم عليهن البيوت ، وأن ينجبن كرام الأبناء ، وأن يحسن الإشراف على الجيل الناشىء ، وأن يحفظن فراش الأزواج . . فأما إذا خشى العنت:عنت المشقة عند الصبر ، وعنت الفتنة التى لا تقاوم ، فهناك الرخصة ، والمحاولة لرفع مستوى الإماء ، بذلك التكريم الذى يضفيه عليهن . فهن(فتياتكم) وهم (أهلهن) والجميع بعضهم من بعض يربطهم الإيمان (والله غفور رحيم) فمغفرة الله ورحمته وراء كل خطيئة ، ووراء كل اضطرار . ثم يجىء التعقيب الشامل على تلك الأحكام ؛ وعلى تلك التنظيمات التى شرعها الله للأسرة فى المنهج الإسلامى ، ليرفع بها المجتمع المسلم من وهدة الحياة الجاهلية ؛ وليرفع بها مستواه النفسى والخلقى والاجتماعى إلى القمة السامقة النظيفة الوضيئة التى رفعه إليها . يجىء التعقيب ليكشف للجماعة المسلمة عن حقيقة ما يريده الله لها بهذا المنهج وبتلك الأحكام والتشريعات والتنظيمات ؛ وعن حقيقة ما يريده بها الذين يتبعون الشهوات ويحيدون عن منهج الله (يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا) يريد الله ليكشف لكم عن حكمته ؛ ويريد لكم أن تروا هذه الحكمة ، وأن تتدبروها ، وأن تقبلوا عليها مفتوحى الأعين والعقول والقلوب ؛ فهى ليست معميات ولا ألغازا فهذا المنهج هو منهج الله الذى سنه للمؤمنين جميعا . وهو منهج ثابت فى أصوله ، موحد فى مبادئه ، مطرد فى غاياته وأهدافه . . هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد . ومنهج الأمة الواحدة التى يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون . بذلك يجمع القرآن بين المهتدين إلى الله فى كل زمان ومكان ؛ ويكشف عن وحدة منهج الله فى كل زمان ومكان ؛ ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيمانى الموصول ، فى الطريق اللاحب الطويل . وهى لفتة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأمته ومنهجه وطريقه . . إنه من هذه الأمة المؤمنة بالله ، تجمعها أصرة المنهج الإلهى ، على اختلاف الزمان والمكان , واختلاف الأوطان ؛ والألوان وتربطها سنة الله المرسومة للمؤمنين فى كل جيل , ومن كل قبيل (ويتوب عليكم) فهو - سبحانه – يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ليرحمكم ويأخذ بيدكم إلى التوبة من الزلل ، والتوبة من المعصية . ليمهد لكم الطريق ، ويعينكم على السير فيه (والله عليم حكيم) العلم بنفوسكم وأحوالكم . والعلم بما يصلح لكم وما يصلحكم . والحكمة فى طبيعة المنهج وفى تطبيقاته على السواء (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) وفى هذا الميدان الخاص الذى تواجهه الآيات السابقة:ميدان تنظيم الأسرة ؛ وتطهير المجتمع ; وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة ، التى يحب الله أن يلتقى عليها الرجال والنساء ; وتحريم ما عداها من الصور ، وتبشيعها وتقبيحها فى القلوب والعيون . . فى هذا الميدان الخاص ما الذى يريده الله وما الذى يريده الذين يتبعون الشهوات ؟ فأما ما يريده الله فقد بينته الآيات السابقة فى السورة . وفيها إرادة التنظيم ، وإرادة التطهير ، وإرادة التيسير ، وإرادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال . وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال:دينى ، أو أخلاقى , أو اجتماعى يريدون أن ينطلق السعار الجنسى المحموم بلا حاجز ولا كابح ، من أى لون كان . السعار المحموم الذى لا يقر معه قلب ، ولا يسكن معه عصب ، ولا يطمئن معه بيت ، ولا يسلم معه عرض ، ولا تقوم معه أسرة . يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم ، ينزو فيها الذكران على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة ! كل هذا الدمار ، وكل هذا الفساد ، وكل هذا الشر باسم الحرية , وهى – فى هذا الوضع – ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة ، واللمسة الأخيرة فى التعقيب تتولى بيان رحمة الله بضعف الإنسان ، فيما يشرعه له من منهج وأحكام . والتخفيف عنه ممن يعلم ضعفه ، ومراعاة اليسر فيما يشرع له ، ونفى الحرج والمشقة والضرر والضرار (يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا) لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هى المعول الأول الذى حطم الحضارات القديمة . حطم الحضارة الإغريقية وحطم الحضارة الرومانية وحطم الحضارة الفارسية . وهذه الفوضى ذاتها هى التى اخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة ؛ وقد ظهرت آثار التحطيم شبه كاملة فى انهيارات فرنسا التى سبقت فى هذه الفوضى ؛وبدأت هذه الآثار تظهر فى أمريكا والسويد وانجلترا ، وغيرها من دول الحضارة الحديثة . (يقول طبيب فرنسى نطاسى يدعى الدكتور ليريه:إنه يموت فى فرنسا ثلاثون ألف نسمة بالزهرى , وما يتبعه من الأمراض الكثيرة فى كل سنة . وهذا المرض هو أفتك الأمراض بالأمة الفرنسية بعد حمى [الدق] . وهذه جريرة مرض واحد من الأمراض السرية التى فيها عدا هذا أمراض كثيرة أخرى)

وقد كتبت إحدى المجلات الأمريكية منذ أكثر من ربع قرن تقول:

"عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم . وهى جميعها فى تسعير سعير لأهل الأرض ، أولها:الأدب الفاحش الخليع الذى لا يفتأ يزداد فى وقاحة ورواجه بعد الحرب العالمية [الأولى] بسرعة عجيبة . والثانى الأفلام السينمائية التى لا تذكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى فحسب ، بل تلقنهم دروسًا عملية فى بابه . والثالث انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء ، الذى يظهر فى ملابسهن ، بل فى عريهن ، وفى إكثارهن من التدخين ، واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام . . هذه المفاسد الثلاث فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالى الأيام . ولا بد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر . فإن نحن لم نجد من طغيانها ، فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابهًا لتاريخ الرومان ، ومن تبعهم من سائر الأمم ، الذين قد أوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء ، مع ما كانوا فيه من خمر ونساء ، أو مشاغل رقص ولهو وغناء" (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا)

والفقرة الثانية، تتناول جانبًا من العلاقات المالية فى المجتمع المسلم , لتنظيم طرق التعامل فى هذا الجانب ؛ لضمان طهارة التعامل بين الأفراد عامة ; ثم لتقرير حق النساء كالرجال فى الملك والكسب – كل حسب نصيبه – وأخيرا لتنظيم التعامل فى عقود الولاء التى كانت سارية فى الجاهلية وفى القسم الأول من صدر الإسلام , لتصفية هذا النظام ، وتخصيص الميراث بالأقارب ؛ ومنع عقود الولاء الجديدة :

إنها حلقة فى سلسلة التربية ، وحلقة فى سلسلة التشريع . . والتربية والتشريع فى المنهج الإسلامى متلازمان ؛ أو متداخلان ؛ أو متكاملان . . فالتشريع منظور فيه إلى التربية ; كما هو منظور فيه إلى تنظيم شؤون الحياة الواقعية ؛ والتوجيهات المصاحبة للتشريع منظور فيها إلى تربية الضمائر ؛ كما أنه منظور فيها إلى حسن تنفيذ التشريع ، وفى هذه الفقرة نجد النهى للذين آمنوا عن أكل أموالهم بينهم بالباطل – وبيان الوجه الحلال للربح فى تداول الأموال – وهو التجارة – ونجد إلى جانبه تصوير أكل الأموال بالباطل بأنه قتل للأنفس ؛ وهلكة وبوار . ونجد إلى جانبه كذلك التحذير من عذاب الآخرة ، ومس النار ! . . وفى الوقت ذاته نجد التيسير والوعد بالمغفرة والتكفير , والعون على الضعف والعفو عن التقصير . . كذلك نجد تربية النفوس على عدم التطلع إلى ما أنعم الله على البعض ، والتوجه إلى الله – صاحب العطاء – وسؤال من بيده الفضل والعطاء . وذلك التوجيه مصاحب لتقرير حق الرجال ونصيبهم فيما اكتسبوا ، وحق النساء ونصيبهن فيما اكتسبن ، وهذا وذلك مصحوب بأن الله كان بكل شيء عليمًا . . كما أن بيان التصرف فى عقود الولاء ، والأمر بالوفاء بها نجده مصحوبًا بأن الله كان على كل شيء شهيدًا ، وهى لمسات وجدانية مؤثرة مصاحبة للتشريع ، وتوجيهات تربوية من صنع العليم بالإنسان ، وتكوينه النفسى ، ومسالك نفسه ودروبها الكثيرة ،

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً {٢٩} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً {٣٠} إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً {٣١}النداء للذين آمنوا ، والنهى لهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) مما يوحى بأنها عملية تطهير لبقايا رواسب الحياة الجاهلية فى المجتمع الإسلامى ؛ واستجاشة ضمائر المسلمين بهذا النداء: يا أيها الذين آمنوا . . واستحياء مقتضيات الإيمان . مقتضيات هذه الصفة التى يناديهم الله بها ، لينهاهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل . وأكل الأموال بالباطل يشمل كل طريقة لتداول الأموال بينهم لم يأذن بها الله ، أو نهى عنها ، ومنها الغش والرشوة والقمار واحتكار الضروريات لإغلائها ، وجميع أنواع البيوع المحرمة – والربا فى مقدمتها – ولا نستطيع أن نجزم إن كان هذا النص قد نزل بعد تحريم الربا أو قبله ؛ فإن كان قد نزل قبله ، فقد كان تمهيدًا للنهى عنه . فالربا أشد الوسائل أكلا للأموال بالباطل . وإن كان قد نزل بعده ، فهو يشمله فيما يشمل من ألوان أكل أموال الناس بالباطل . واستثنى العمليات التجارية التى تتم عن تراض بين البائع والشارى (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) وه استثناء منقطع ، تأويله:ولكن إذا كانت تجارة عن تراض منكم فليست داخلة فى النص السابق . . ولكن مجيئها هكذا فى السياق القرآنى ، يوحى بنوع من الملابسة بينها وبين صور التعامل الأخرى ، التى توصف بأنها أكل لأموال الناس بالباطل . . وندرك هذه الملابسة إذا استصحبنا ما ورد فى آيات النهى عن الربا – فى سورة البقرة – من قول المرابين فى وجه تحريم الربا: (إنما البيع مثل الربا) ورد الله عليهم فى الآية

نفسها (وأحل الله البيع وحرم الربا). . فقد كان المرابون يغالطون ، وهم يدافعون عن نظامهم الاقتصادى الملعون . فيقولون:إن البيع – وهو التجارة – تنشأ عنها زيادة فى الأموال وربح . فهو – من ثم – مثل الربا . فلا معنى لإحلال البيع وتحريم الربا ! والفرق بعيد بين طبيعة العمليات التجارية والعمليات الربوية أولا ، وبين الخدمات التى تؤديها التجارة للصناعة وللجماهير ؛ والبلاء الذى يصبه الربا على التجارة وعلى الجماهير . فهذه الملابسة بين الربا والتجارة ، هى التى لعلها جعلت هذا الاستدراك – (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)يجىء عقب النهى عن أكل الأموال بالباطل . وإن كان استثناء منقطعًا كما يقول النحويون ! (ولا تقتلوا أنفسكم . إن الله كان بكم رحيما) تعقيب يجىء بعد النهى عن أكل الأموال بالباطل ؛ فيوحى بالآثار المدمرة التى ينشئها أكل الأموال بالباطل فى حياة الجماعة ؛ إنها عملية قتل . . يريد الله أن يرحم الذين آمنوا منها ، حين ينهاهم عنها ! ويلى ذلك . تهديدهم بعذاب الآخرة ؛ بعد تحذيرهم من مقتلة الحياة الدنيا ودمارها . الآكل فيهم والمأكول ؛ فالجماعة كلها متضامنة فى التبعة ؛ ومتى تركت الأوضاع المعتدية الظالمة ، التى تؤكل فيها الأموال بالباطل تروج فيها فقد حقت عليها كلمة الله فى الدنيا والآخرة (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما ، فسوف نصليه نارا) (وكان ذلك على الله يسيرا) فما يمنع منه مانع ، ولا يحول دونه حائل ، ولا يتخلف , متى وجدت أسبابه ، عن الوقوع ! وفى مقابل اجتناب "الكبائر" – ومنها أكل الأموال بينهم بالباطل – يعدهم الله برحمته , وغفرانه ، وتجاوزه عما عدا الكبائر ؛ مراعاة لضعفهم الذى يعلمه – سبحانه – وتيسيرا عليهم ، وتطمينا لقلوبهم ؛ وعونا لهم على التحاجز عن النار ؛ باجتناب الفواحش الكبار (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ، نكفر عنكم سيئاتكم ، وندخلكم مدخلا كريما) إن هذا الهتاف ، وهذه التكاليف ، لا تغفل – فى الوقت ذاته – ضعف الإنسان وقصوره ; ولا تتجاوز به حدود طاقته وتكوينه ؛ ولا تتجاهل فطرته وحدودها ودوافعها ؛ ولا تجهل كذلك دروب نفسه ومنحنياتها الكثيرة . ومن ثم هذا التوازن بين التكليف والطاقة . وبين الأشواق والضرورات . وبين الدوافع والكوابح . وبين الأوامر والزواجر . وبين الترغيب والترهيب . وبين التهديد الرعيب بالعذاب عند المعصية والإطماع العميق فى العفو والمغفرة ، وفى سياق الحديث عن الأموال ، وتداولها فى الجماعة ، تجىء تكملة فيما بين الرجال والنساء من ارتباطات ومعاملات . وفيما كان من عقود الولاء وعلاقاتها بنظام التوريث العام . الذى سبق تفصيله فى أوائل السورة (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض . . للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن . . واسألوا الله من فضله . إن الله كان بكل شىء عليما . ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون . والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم . إن الله كان على كل شىء شهيدًا)

والنص عام فى النهى عن تمنى ما فضل الله بعض المؤمنين على بعض . . من أى أنواع التفضيل , فى الوظيفة والمكانة ، وفى الاستعدادات والمواهب ، وفى المال والمتاع . . وفى كل ما تتفاوت فيه الأنصبة فى هذه الحياة . . والتوجه بالطلب إلى الله ، وسؤاله من فضله مباشرة ؛ بدلا من إضاعة النفس حسرات فى التطلع إلى التفاوت ؛ وبدلا من المشاعر المصاحبة لهذا التطلع من حسد وحقد ؛ ومن حنق كذلك ونقمة ، أو من شعور بالضياع والحرمان ، والتهاوى والتهافت أمام هذا الشعور . . وما قد ينشأ عن هذا كله من سوء ظن بالله ؛ وسوء ظن بعدالة التوزيع ، النص عام فى هذا التوجيه العام . ولكن موضعه هنا من السياق ، وبعض الروايات عن سبب النزول ، قد تخصص من هذا المعنى الشامل تفاوتا معينا ، وتفضيلا معينا هو الذى نزل هذا النص يعالجه . . هو التفاضل فى أنصبة الرجال وأنصبة النساء . . كما هو واضح من سياق الآية فى عمومها بعد ذلك . . وهذا الجانب – على أهميته الكبرى فى تنظيم العلاقة بين شطرى النفس البشرية وإقامتها على الرضا وعلى التكامل ؛ وإشاعة هذا الرضا - من ثم – فى البيوت وفى المجتمع المسلم كله ؛ إلى جانب إيضاح الوظائف المنوعة فيه بين الجنسين والمهام . . هذا الجانب على أهميته هذه لا ينفى عموم النص مع خصوص السبب . . ولهذا روت التفاسير المأثورة ، هذا المعنى وذاك ، قال الإمام أحمد:حدثنا سفيان ، عن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال:قالت أم سلمة:يا رسول الله ،تغزو الرجال ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث فأنزل الله (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) وقال السدى فى الآية:إن رجالا قالوا:إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء ،كما لنا فى السهام سهمان ! وقالت النساء:إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء ، فإننا لا نستطيع أن نقاتل ، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا ! فأبى الله ذلك ، ولكن قال لهم:سلونى من فضلى . قال ليس بعرض الدنيا . . وروى مثل ذلك عن قتادة . .كذلك وردت روايات أخرى بإطلاق معنى الآية: قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية ، قال:" ولا يتمنى الرجل فيقول:ليت لى مال فلان وأهله . فنهى الله عن ذلك . ولكن يسأل من فضله" . . وقال الحسن ومحمد بن سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا . . ونجد فى الأقوال الأولى ظلالا من رواسب الجاهلية فى تصور ما بين الرجال والنساء من روابط ؛ كما نجد روائح للتنافس بين الرجال والنساء ، لعلها

قد أثارتها تلك الحريات والحقوق الجديدة التي علمها الإسلام للمرأة ، تمشيًا مع نظريته الكلية فى تكريم الإنسان بجنسيه ، وفى إنصاف كل جنس فيه وكل طبقة وكل أحد . . إنصافه حتى من نفسه التى بين جنبيه . . ولكن الإسلام إنما كان يستهدف من هذا كله تحقيق منهجه المتكامل بكل حذافيره . لا لحساب الرجال ، ولا لحساب النساء ! ولكن لحساب "الإنسان" ولحساب "المجتمع المسلم" ولحساب الخلق والصلاح والخير فى إطلاقه وعمومه . وحساب العدل المطلق المتكامل الجوانب والأسباب . وأما الأجر والثواب , فقد طمأن الله الرجال والنساءعليه , فحسب كل إنسان أن يحسن فيما وكل إليه ليبلغ مرتبة الإحسان عند الله على الإطلاق ، وهكذا نجد معالم التوازن الشامل ، والتقدير الدقيق فى المنهج الإسلامى الحكيم ، الذى شرعه الحكيم العليم ، ونسجل هنا ما منحه الإسلام للمرأة في هذا النص من حق الملكية الفردية (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) وهو الحق الذى كانت الجاهلية العربية – كغيرها من الجاهليات القديمة – تحيف عليه ، ولا تعترف به للمرأة – إلا فى حالات نادرة – ولا تفتأ تحتال للاعتداء عليه . إذ كانت المرأة ذاتها مما يستولى عليه بالوراثة ، كالمتاع ! وهو الحق الذى ظلت الجاهليات الحديثة – التى تزعم أنها منحت المرأة من الحقوق والاحترام ما لم يمنحه لها منهج آخر – تتحيفه ، فبعضها يجعل الميراث لأكبر وارث من الذكور . وبعضها يجعل إذن الولى ضروريًا لتوقيع أى تعاقد للمرأة بشأن المال ؛ ويجعل إذن الزواج ضروريًا لكل تصرف مالى من الزوجة فى مالها الخاص ! وذلك بعد ثورات المرأة وحركاتها الكثيرة ؛ وما نشأ عنها من فساد فى نظام المرأة كله ، وفى نظام الأسرة , وفى الجو الأخلاقى العام . فأما الإسلام فقد منحها هذا الحق ابتداء ؛ وبدون طلب منها ، وبدون ثورة ، وبدون جمعيات نسوية ، وبدون عضوية برلمان !! منحها هذا الحق تمشيًا مع نظرته العامة إلى تكريم الإنسان جملة ؛ وإلى تكريم شقى النفس الواحدة ؛ وإلى إقامة نظامه الاجتماعى كله على أساس الأسرة ؛ وإلى حياطة جو الأسرة بالود والمحبة والضمانات لكل فرد فيها على السواء . ومن هنا كانت المساواة فى حق التملك وحق الكسب بين الرجال والنساء من ناحية المبدأ العام (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٣٣)

والآن نجيء إلى النص الأخير فى هذه الفقرة ؛ وهو ينظم التصرف فى عقود الولاء التى سبقت أحكام الميراث . هذه الأحكام التى حصرت الميراث فى القرابة . بينما عقود الولاء كانت تجعلها كذلك فى غير القرابة على ما سيأتى بيانه: (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٣٣) بعد أن ذكر أن للرجال نصيبًا مما اكتسبوا ، وللنساء نصيبًا مما اكتسبن . . وبين - فيما سلف - أنصبة الذكور والإناث فى الميراث . . ذكر أن الله جعل لكل موالى من قرابته يرثونه . يرثونه مما آل اليه من الوالدين والأقربين . . فالمال يظل يتداول بهذا الإرث جيلا بعد جيل . يرث الوارثون ثم يضمون إلى ميراثهم ما يكتسبون ؛ ثم يرثهم من يلونهم من الأقربين . . وهى صورة تمثل دورة المال فى النظام الإسلامى ؛ وأنها لا تقف عند جيل ؛ ولا تتركز فى بيت ولا فرد . . إنما هو التوارث المستمر ، والتداول المستمر ، وحركة التوزيع الدائبة ؛ وما يتبعها من تعديل فى المالكين ، وتعديل فى المقادير ، بين الحين والحين ، ثم عطف على العقود ، التى أقرتها الشريعة الإسلامية والتى تجعل الإرث يذهب أحيانًا إلى غير الأقرباء وهى عقود الموالاة ، وقد عرف المجتمع الإسلامى أنواعًا من هذه العقود:

الأول عقد ولاء العتق ، وهو النظام الذى يصبح بمقتضاه الرقيق – بعد عتقه – بمنزلة العضو في أسرة مولاه [مولى العتق] فيدفع عنه المولى الدية ، إذا ارتكب جناية توجب الدية – كما يفعل ذلك حيال أقربائه من النسب – ويرثه إذا مات ولم يترك عصبة . .

والثانى عقد الموالاة . وهو النظام الذى يبيح لغير العربى – إذا لم يكن له وارث من أقاربه – أن يرتبط بعقد مع عربى هو [مولى الموالاة] . فيصبح بمنزلة عضو فى أسرة مولاه . يدفع عنه المولى الدية – إذا ارتكب جناية توجب الدية – ويرثه إذا مات .

والنوع الثالث ، هو الذى عقده النبى ﷺ أول العهد بالمدينة ، بين المهاجرين والأنصار . فكان المهاجر يرث الأنصارى ، مع أهله – كواحد منهم – أو دون أهله إن كانوا مشركين فصلت بينهم وبينه العقيدة . .

والنوع الرابع . . كان فى الجاهلية ، يعاقد الرجل الرجل ، ويقول:"وترثنى وأرثك" . .

وقد جعل الإسلام يصفى هذه العقود ؛ وبخاصة النوعين الثالث والرابع . بتقرير أن الميراث سببه القرابة . والقرابة وحدها . ولكنه لم يبطل العقود التى سبق عقدها . فأمضاها على ألا يجدد سواها . وقال الله سبحان (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) وشدد فى هذا وأشهد الله على العقد وعلى التصرف فيه (إن الله كان على كل شىء شهيدًا) وقال رسول الله ﷺ (لا حلف فى الإسلام . وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة) [رواه أحمد ومسلم] . وقد سار الإسلام فى تصفية هذه العقود سيرته فى كل ما يتعلق بالأنظمة المالية ، فى علاجه لها - بدون أثر رجعى - فهكذا صنع فى الربا حين أبطله . أبطله منذ نزول النص , وترك لهم ما سلف منه ؛ ولم يأمر برد الفوائد الربوية . وإن كان لم يصحح العقود السابقة على النص ، ما لم يكن قد تم قبض تلك الفوائد . فأما هنا فقد احترم تلك العقود ؛ على ألا ينشأ منها جديد . لما يتعلق بها - فوق الجانب المالى - من ارتباطات أخذت طابع العضوية العائلية بتشابكاتها الكثيرة المعقدة . فترك هذه العقود القائمة تنفذ ؛ وشدد فى الوفاء بها ؛ وقطع الطريق على الجديد منها ؛ قبل أن تترتب عليه أية آثار تحتاج إلى علاج ! وفى هذا التصرف يبدو التيسير ، كما يبدو العمق والإحاطة والحكمة والشمول ، فى علاج الأمور فى المجتمع . حيث كان الإسلام يصوغ ملامح المجتمع المسلم يومًا بعد يوم ; ويمحو ويلغى ملامح الجاهلية فى كل توجيه وكل تشريع .

والموضوع الأخير فى هذا الدرس ، هو تنظيم مؤسسة الأسرة ؛ وضبط الأمور فيها ؛ وتوزيع الاختصاصات ، وتحديد الواجبات ؛ وبيان الإجراءات التى تتخذ لضبط أمور هذه المؤسسة ; والمحافظة عليها من زعازع الأهواء والخلافات ؛ واتقاء عناصر التهديم فيها والتدمير , جهد المستطاع:

(الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم , فالصالحات قانتات ، حافظات للغيب بما حفظ الله . واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن , واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن الله كان عليًا كبيرا . وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها , إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما . إن الله كان عليمًا خبيرا)

إن الأسرة - كما قلنا - هى المؤسسة الأولى فى الحياة الإنسانية . الأولى من ناحية أنها نقطة البدء التى تؤثر فى كل مراحل الطريق . والأولى من ناحية الأهمية لأنها تزاول إنشاء وتنشئة العنصر الإنسانى ، وهو أكرم عناصر هذا الكون ، فى التصور الإسلامى وإذا كانت المؤسسات الأخرى كالمؤسسات المالية والصناعية والتجارية . . وما إليها . . لا يوكل أمرها - عادة - إلا لأكفأ المرشحين لها ; ممن تخصصوا فى هذا الفرع علميًا ، ودربوا عليه عمليًا ، فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للإدارة والقوامة . . إذا كان هذا هو الشأن فى المؤسسات . فأولى أن تتبع هذه القاعدة فى مؤسسة الأسرة ، التى تنشئ أثمن عناصر الكون . . العنصر الإنسانى ، والمسلم به ابتداء أن الرجل والمرأة كلاهما من خلق الله . وأن الله - سبحانه - لا يريد أن يظلم أحدًا من خلقه ، وهو يهيئه ويعده لوظيفة خاصة ، ويمنحه الاستعدادات اللازمة لإحسان هذه الوظيفة ! وقد خلق الله الناس ذكرا وأنثى . . زوجين على أساس القاعدة الكلية فى بناء هذا الكون . . وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل . . وهى وظائف ضخمة أولًا وخطيرة ثانيًا . وليست هينة ولا يسيرة ، بحيث تؤدى بدون إعداد عضوى ونفسى وعقلى عميق غائر فى كيان الأنثى ! فكان عدلًا كذلك أن ينوط بالشطر الثانى - الرجل - توفير الحاجات الضرورية . وتوفير الحماية كذلك للأنثى ؛ كى تتفرغ لوظيفتها الخطيرة ؛ ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل . . ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها فى آن واحد ! وكان عدلًا كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص فى تكوينه العضوى والعصبى والعقلى والنفسى ما يعينه على أداء وظائفه هذه . وأن تمنح المرأة فى تكوينها العضوى والعصبى والعقلى والنفسى ما يعينها على أداء وظيفتها تلك . ومن ثم زودت المرأة - فيما زودت به من الخصائص - بالرقة والعطف ، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة - بغير وعى ولا سابق تفكير ، وكذلك زود الرجل بالخشومنة والصلابة ، وبطء الانفعال والاستجابة ; واستخدام الوعى والتفكير قبل الحركة والاستجابة . لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذى كان يمارسه فى أول عهده بالحياة إلى القتال الذى يمارسه دائمًا لحماية الزوج والأطفال . إلى تدبير المعاش . . إلى سائر تكاليفه فى الحياة . . لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروى قبل الإقدام ؛ وإعمال الفكر ، والبطء فى الاستجابة بوجه عام ! . . وكلها عميقة فى تكوينه عمق خصائص المرأة فى تكوينها ، وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامة ، وأفضل فى مجالها . . كما أن تكليفه بالإنفاق - وهو فرع من توزيع الاختصاصات - يجعله بدوره أولى بالقوامة ، لأن تدبير المعاش للمؤسسة ومن فيها داخل فى هذه القوامة ؛ والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها ، وهذان هما العنصران

اللذان أبرزهما النص القرآنى ، وهو يقرر قوامة الرجال على النساء فى المجتمع الإسلامى . قوامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد . ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات . ولها أسبابها من العدالة فى التوزيع من ناحية ; وتكليف كل شطر - فى هذا التوزيع - بالجانب الميسر له ، والذى هو معان عليه من الفطرة . إنها مسائل خطيرة . . أخطر من أن تتحكم فيها أهواء البشر . . وأخطر من أن تترك لهم يخبطون فيها خبط عشواء . . وحين تركت لهم ولأهوائهم فى الجاهليات القديمة والجاهليات الحديثة ، هددت البشرية تهديداً خطيراً فى وجودها ذاته ؛ وفى بقاء الخصائص الإنسانية ، التى تقوم بها الحياة الإنسانية وتتميز ، وبعد بيان واجب الرجل وحقه والتزاماته وتكاليفه فى القوامة ، يجىء بيان طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة وسلوكها وتصرفها الإيمانى فى محيط الأسرة (فالصالحات قانتات ، حافظات للغيب بما حفظ الله) فمن طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن صفتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها ، أن تكون . . قانتة . . مطيعة . والقنوت فى هذه الحالة بمعنى الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة ، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومعاظلة ! ومن ثم قال:قانتات . ولم يقل طائعات . لأن مدلول اللفظ الأول نفسى ، وظلاله رخية ندية . . وهذا هو الذى يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطرى النفس الواحدة . فى المحضن الذى يرعى الناشئة ، ويطبعهم بجوه وأنفاسه وظلاله وإيقاعاته ! ومن طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن صفتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها كذلك , أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها فى غيبته - وبالأولى فى حضوره - فلا تبيح من نفسها فى نظرة أو نبرة - بله العرض والحرمة - مالا يباح إلا له هو - بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة ، وما لا يباح ، لا تقرره هى ، ولا يقرره هو إنما يقرره الله سبحانه (بما حفظ الله ..) فأما غير الصالحات . . فهن الناشزات . [من الوقوف على النشز وهو المرتفع البارز من الأرض] وهى صورة حسية للتعبير عن حالة نفسية . فالناشز تبرز وتستعلى بالعصيان والتمرد . . والمنهج الإسلامى لا ينتظر حتى يقع النشوز بالفعل ، وتعلن راية العصيان ; وتسقط مهابة القوامة ؛ وتنقسم المؤسسة إلى معسكرين . . فالعلاج حين ينتهى الأمر إلى هذا الوضع قلما يجدى . ولا بد من المبادرة فى علاج مبادى ء النشوز قبل استفحاله . لأن مآله إلى فساد فى هذه المنظمة الخطيرة ، لا يستقر معه سكن ولا طمأنينة ، ولا تصلح معه تربية ولا إعداد للناشئين فى المحضن الخطير . ومآله بعد ذلك إلى تصدع وانهيار ودمار للمؤسسة كلها ؛ وتشرد للناشئين فيها ؛ أو تربيتهم بين عوامل هدامة مفضية إلى الأمراض النفسية والعصبية والبدنية . . وإلى الشذوذ (واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن . واهجروهن فى المضاجع . واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن الله كان علياً كبيراً) واستحضار ما سبق لنا بيانه من تكريم الله للإنسان بشطريه . ومن حقوق للمرأة نابعة من صفتها الإنسانية . . ومن احتفاظ للمرأة المسلمة بشخصيتها المدنية بكامل حقوقها . . بالإضافة إلى أن قوامة الرجل عليها لا تفقدها حقها فى اختيار شريك حياتها ; والتصرف فى أمر نفسها والتصرف فى أمر مالها . . إلى اخر هذه المقومات البارزة فى المنهج الإسلامى ، يجعلنا نفهم بوضوح - حين لا تنحرف القلوب بالهوى والرءوس بالكبر ! - لماذا شرعت هذه الإجراءات التأديبية أولًا . والصورة التى يجب أن تؤدى بها ثانيًا . . إنها شرعت كإجراء وقائى - عند خوف النشوز - للمبادرة بإصلاح النفوس والاوضاع ، لا لزيادة إفساد القلوب ، وملئها بالبغض والحنق ، أو بالمذلة والرضوخ الكظيم ! إنها . . أبدًا . . ليست معركة بين الرجل والمرأة . يراد لها بهذه الإجراءات تحطيم رأس المرأة حين تهم بالنشوز ؛ وردها إلى السلسلة كالكلب المسجور ! إن هذا قطعًا . . ليس هو الإسلام . . إنما هو تقاليد بيئية فى بعض الأزمان . نشأت مع هو ان "الإنسان" كله . لا هون شطر منه بعينه . . فأما حين يكون هو الإسلام , فالأمر مختلف جدًا فى الشكل والصورة . وفى الهدف والغاية . . . (واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن) هذا هو الإجراء الأول . . الموعظة . . وهذا هو أول واجبات القيم ورب الأسرة . عمل تهذيبى . مطلوب منه فى كل حالة ولكنه فى هذه الحالة بالذات ، يتجه اتجاهًا معينًا لهدف معين . هو علاج أعراض النشوز قبل أن تستفحل وتستعلن . ولكن العظة قد لا تنفع . لأن هناك هوى غالبًا ، أو انفعالًا جامحًا ، أو استعلاء بجمال . أو بمال . أو بمركز عائلى . . أو بأى قيمة من القيم . تنسى الزوجة أنها شريكة فى مؤسسة ، وليست ندًا فى صراع أو مجال افتخار ! . . هنا يجىء الإجراء الثانى . . حركة استعلاء نفسية من الرجل على كل ما تدل به المرأة من جمال وجاذبية أو قيم أخرى , ترفع بها ذاتها عن ذاته ، أو عن مكان الشريك فى مؤسسة عليها قوامة (واهجروهن فى المضاجع) والمضجع هو موضع الإغراء والجاذبية ، التى تبلغ فيها المرأة الناشز المتعالية قمة سلطانها . فإذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الإغراء ، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التى تعتز بها . وكانت - فى الغالب - أميل إلى التراجع والملاينة , أمام هذا الصمود من رجلها ، وأمام بروز خاصية قوة الإرادة والشخصية فيه , فى أحراج مواضعها ! على أن هناك أدبًا معينا فى هذا الإجراء . . إجراء الهجر فى المضاجع ، وهو ألا يكون هجراً ظاهراً فى غير مكان خلوة الزوجين لا يكون هجراً أمام الأطفال ، يورث نفوسهم شراً وفساداً ، ولا هجراً أمام الغرباء يذل الزوجة أو يستثير كرامتها ،

فتزداد نشوزًا . فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة , ولا إفساد الأطفال ! . . وكلا الهدفين يبدو أنه مقصود من هذا الإجراء ولكن هذه الخطوة قد لا تفلح كذلك ، فهل تترك المؤسسة تتحطم ؟ إن هناك إجراء ولو أنه أعنف – ولكنه أهون وأصغر من تحطيم المؤسسة كلها بالنشوز .. (واضربوهن) واستصحاب المعانى السابقة كلها ، واستصحاب الهدف من هذه الإجراءات كلها يمنع أن يكون هذا الضرب تعذيبًا للانتقام والتشفى . ويمنع أن يكون إهانة للاذلال والتحقير . ويمنع أن يكون أيضا للقسر والإرغام على معيشة لا ترضاها . . ويحدد أن يكون ضرب تأديب , مصحوب بعاطفة المؤدب المربى ، كما يزاولة الأب مع أبنائه وكما يزاوله المربى مع تلميذه ، ومعروف - بالضرورة – أن هذه الإجراءات كلها لا موضع لها فى حالة الوفاق بين الشريكين فى المؤسسة الخطيرة ، وإنما هى لمواجهة خطر الفساد والتصدع . فهى لا تكون إلا وهناك انحراف ما هو الذى تعالجه هذه الإجراءات ،وحين لا تجدى الموعظة ، ولا يجدى الهجر فى المضاجع . . لا بد أن يكون هذا الانحراف من نوع آخر ، ومن مستوى آخر ، لا تجدى فيه الوسائل الأخرى . . وقد تجدى فيه هذه الوسيلة ! وشواهد الواقع ، والملاحظات النفسية على بعض أنواع الانحراف ، تقول إن هذه الوسيلة تكون أنسب الوسائل لإشباع انحراف نفسى معين ، وإصلاح سلوك صاحبه وإرضائه فى الوقت ذاته ! على أنه من غير أن يكون هناك هذا الانحراف المرضى ، الذى يعينه علم النفس التحليلى بالاسم ؛ إذ نحن لا نأخذ تقريرات علم النفس مسلمات "علمية " ، فهو لم يصبح بعد "علمًا" بالمعنى العلمى ، كما يقول الدكتور "الكسيس كاريل" ، فربما كان من النساء من لا تحس قوة الرجل الذى تحب نفسها أن تجعله قيمًا وترضى به زوجًا ، إلا حين يقهرها عضليًا ! وليست هذه طبيعة كل امرأة . ولكن هذا الصنف من النساء موجود . وهو الذى قد يحتاج إلى هذه المرحلة الأخيرة . . ليستقيم . ويبقى على المؤسسة الخطيرة . . فى سلم وطمأنية ! وعلى أية حال ، فالذى يقرر هذه الإجراءات ، هو الذى خلق . وهو أعلم بمن خلق . وكل جدال بعد قول العليم الخبير مهاترة ؛ وكل تمرد على اختيار الخالق وعدم تسليم به , مفض إلى الخروج من مجال الإيمان كله ، وقد أبيحت هذه الإجراءات لمعالجة أعراض النشوز – قبل استفحالها – وأحيطت بالتحذيرات من سوء استعمالها ، فور تقريرها وإباحتها . وتولى الرسول ﷺ بسنته العملية فى بيته مع أهله ، وبتوجيهاته الكلامية علاج الغلو هنا وهناك ، وتصحيح المفهومات فى أقوال كثيرة ، ورد فى السنن والمسند:عن معاوية بن حيدة القشيرى ، أنه قال:يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال:" أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت . ولا تضرب الوجه . ولا تقبح ، ولا تهجر إلا فى البيت " وقال ﷺ " لا يضرب أحدكم امرأته كالبعير يجلدها أول النهار . ثم يضاجعها آخره . " وعلى أية حال فقد جعل لهذه الإجراءات حد تقف عنده – متى تحققت الغاية – عند مرحلة من مراحل هذه الإجراءات . فلا تتجاوز إلى ما وراءها (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً) (إن الله كان عليًا كبيرا) ذلك حين لا يستعلن النشوز ، وإنما تتقى بوادره . فأما إذا كان قد استعلن. أو إذا أدى استخدام تلك الوسائل بالفعل إلى غير نتيجة . . فى هذه الحالات كلها يشير المنهج الإسلامى الحكيم بإجراء أخير ؛ لإنقاذ المؤسسة العظيمة من الانهيار . قبل أن ينفض يديه منها ويدعها تنهار (وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها . إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما . إن الله كان عليمًا خبيرا) إنه يلجأ إلى هذه الوسيلة الأخيرة – عند خوف الشقاق – فيبادر قبل وقوع الشقاق فعلا . . ببعث حكم من أهلها ترتضيه ، وحكم من أهله يرتضيه . يجتمعان فى هدوء . بعيدين عن الانفعالات النفسية ، والرواسب الشعورية ، والملابسات المعيشية ، التى كدرت صفو العلاقات بين الزوجين .. حريصين على سمعة الأسرتين الأصليتين . مشفقين على الأطفال الصغار . بريئين من الرغبة فى غلبة أحدهما على الآخر يجتمع الحكمان لمحاولة الإصلاح . فإن كان فى نفسى الزوجين رغبة حقيقية فى الإصلاح , وكان الغضب فقط هو الذى يحجب هذه الرغبة ، فإنه بمساعدة الرغبة القوية فى نفس الحكمين ، يقدر الله الصلاح بينهما والتوفيق (إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما) فهما يريدان الإصلاح ، والله يستجيب لهما ويوفق (إن الله كان عليمًا خبيرا)

....هناك أكثر من مناسبة واحدة ، تربط بين مطلع هذا الدرس ؛ وبين محور السورة كلها ، وموضوعاتها الأساسية من ناحية ؛ وبينه وبين موضوعات الدرس السابق فى هذا الجزء من ناحية أخرى . فهذا الدرس بدء جولة فى تنظيم حياة المجتمع المسلم ؛ وتخليصه من رواسب الجاهلية , وتثبيت الملامح الإسلامية الجديدة ; والتحذير من أهل الكتاب – وهم اليهود بالمدينة – وما جبلوا عليه من شر ونكر ؛ وما ينفثونه فى المجتمع المسلم ، وما يبذلونه من جهود لتعويق نموه وتكامله – وبخاصة من الناحية الأخلاقية ، وناحية التكافل والتعاون ، اللتين هما موضع القوة النامية فى هذا المجتمع الجديد ، وفى هذه الجولة جديدة ، بدأ بالقاعدة الأولية التى يقوم عليها المجتمع المسلم – قاعدة التوحيد الخالص – التى تنبثق منها حياته ؛ وينبثق منها منهج هذه الحياة ، فى كل جانب ، وفى كل اتجاه ، ثم جاءت الفقرة الثانية فى الدرس ؛ تبين

بعض أحكام الصلاة والطهارة ؛ وتتخذ خطوة فى طريق تحريم الخمر – ولم تكن قد حرمت بعد – حلقات متماسكة بعضها مع بعض . ومع الدرس السابق . ومع محور السورة .

(وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ به شَيْئاً وَبالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً{٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{٣٧} وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً{٣٨} وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِمْ عَلِيماً{٣٩} إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً{٤٠} فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً{٤١} يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً{٤٢} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً){٤٣}

هذه الفقرة تبدأ بالأمر بعبادة الله وحده ، والنهى عن إشراك شيء به . ويلى الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك ، الأمر بالإحسان إلى تلك المجموعات من الأسرة الخاصة ، والأسرة الإنسانية ؛ وتقبيح البخل والخيلاء والفخر وأمر الناس بالبخل , وكتمان فضل الله – من أى نوع سواء كان من المال أم من العلم والدين – والتحذير من اتباع الشيطان ؛ والتلويح بعذاب الآخرة ، وما فيه من خزى وافتضاح (اعبدوا الله . . ولا تشركوا به شيئا) الأمر الأول بعبادة الله ، والنهى الثانى لتحريم عبادة أحد – معه نهيا باتا ، شاملا ، لكل أنواع المعبودات التى عرفتها البشرية (ولا تشركوا به شيئا) شيئا كائنا ما كان ، من مادة أو حيوان أو إنسان أو ملك أو شيطان ، ثم ينطلق إلى الأمر بالإحسان إلى الوالدين – على التخصيص – ولذوى القربى – على التعميم ومعظم الأوامر تتجه إلى توصية الذرية بالوالدين – وإن كانت لم تغفل توجيه الوالدين إلى الذرية ؛ فقد كان الله أرحم بالذرارى من آبائهم وأمهاتهم فى كل حال . والذرية بصفة خاصة أحوج إلى توجيهها للبر بالوالدين . بالجيل المدبر المولي . إذ الأولاد - فى الغالب – يتجهون بكينونتهم كلها ، وبعواطفهم ومشاعرهم واهتماماتهم إلى الجيل الذى يخلفهم ؛ لا الجيل الذى خلفهم ! وبينما هم مدفوعون فى تيار الحياة إلى الأمام , غافلون عن التلفت إلى الوراء ، تجيئهم هذه التوجيهات من الرحمن الرحيم ... يبدأ بالإحسان إلى الوالدين . ويتوسع منهما إلى ذوى القربى . ومنهم إلى اليتامى والمساكين – ولو أنهم قد يكونون أبعد مكانا من الجار . ذلك أنهم أشد حاجة وأولى بالرعاية – ثم الجار ذو القرابة . فالجار الأجنبى – مقدمين على الصاحب المرافق - لأن الجار قربه دائم ، أما الصاحب فلقاؤه على فترات – ثم الصاحب المرافق - وقد ورد فى تفسيره أنه الجليس فى الحضر ، الرفيق فى السفر – ثم ابن السبيل . العابر المنقطع عن أهله وماله . ثم الرقيق الذين جعلتهم الملابسات "ملك اليمين" ولكنهم يتصلون بأصرة الإنسانية الكبرى بين بنى آدم أجمعين . ويعقب على الأمر بالإحسان ، بتقبيح الاختيال والفخر ، والبخل والتبخيل ، وكتمان نعمة الله وفضله ، والرياء فى الإنفاق ؛ والكشف عن سبب هذا كله ، وهو عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، واتباع الشيطان وصحبته (إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) . (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله . وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا !) وقد ورد أن هذه النصوص نزلت فى جماعة من يهود المدينة . . وهي صفات تنطبق على اليهود , كما تنطبق على المنافقين . . وكلاهما كان موجودا فى المجتمع المسلم فى ذلك الحين . . وقد تكون الإشارة إلى كتمانهم ما آتاهم الله من فضله ، تعنى كذلك كتمانهم للحقائق التى يعرفونها فى كتبهم عن هذا الدين ، وعن رسوله الأمين . . ولكن النص عام , والسياق بصدد الإحسان بالمال وبالمعاملة . فأولى أن نترك مفهومه عاما . لأنه الأقرب إلى طبيعة السياق ، وحين ينتهى من عرض سوءات نفوسهم ؛ وسوءات سلوكهم ؛ ومن عرض أسبابها من الكفر بالله واليوم الآخر ، وصحبة الشيطان واتباعه ؛ ومن الجزاء المعد المهيأ لأصحاب هذه السوءات , وهو العذاب المهين . . عندئذ يسأل فى استنكار (وماذا عليهم لو آمنوا بالله ، واليوم الآخر ، وأنفقوا مما رزقهم الله ؟ وكان الله بهم عليما . إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما) أجل ! ماذا عليهم ؟ ما الذى يخشونه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإنفاق من رزق الله . والله عليم بهم بما أنفقوا وبما استقر فى قلوبهم من بواعث . والله لا يظلم مثقال ذرة فلا خشية من الجهل بإيمانهم وإنفاقهم . ولا خوف من الظلم فى جزائهم ، بل هناك الفضل والزيادة ، بمضاعفة

الحسنات ، والزيادة من فضل الله بلا حساب ؟ ثم يختم الأوامر والنواهى ، والتحضيض والترغيب ، بمشهد من مشاهد القيامة ؛ يجسم موقفهم فيه ، ويرسم حركة النفوس والمشاعر كأنها شاخصة متحركة . على طريقة القرآن فى مشاهد القيامة: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً) ٤١ (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً) (٤٢) إنه يمهد لمشهد القيامة ، بأن الله لا يظلم مثقال ذرة وإذن فهو العدل المطلق الذى لا يميل ميزانه قيد شعره ، وأنه يضاعف الحسنات ويؤتى فضلا عنها أجرا من لدنه عظيما ، فهى الرحمة إذن لمن يستحقون الرحمة ؛ والفضل المطلق لمن كانوا يرجون الفضل , بالإيمان والعمل ، فأما هؤلاء . هؤلاء الذين لم يقدموا إيمانا ، ولم يقدموا عملا . . هؤلاء الذين لم يقدموا إلا الكفر وسوء العمل . . فكيف يكون حالهم يومذاك ؟ كيف يكون الحال ، إذا جئنا من كل أمة بشهيد – هو نبيها الذى يشهد عليها – وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ؟ وعندئذ يرتسم المشهد شاخصا ساحة العرض الواسعة وكل أمة حاضرة . وعلى كل أمة شهيد بأعمالها ، وهؤلاء الكافرون المختالون الفخورون الباخلون ، الكاتمون لفضل الله ، المراءون الذين لم يبتغوا وجه الله هؤلاء هم نكاد نراهم من خلال التعبير ! واقفين فى الساحة وقد انتدب الرسول ﷺ للشهادة ! هؤلاء هم بكل ما أضمروا وأظهروا . بكل ما كفروا وما أنكروا . بكل ما اختالوا وما افتخروا . بكل ما بخلوا وبخلوا . بكل ما راءوا وتظاهروا . . هؤلاء هم فى حضرة الخالق الذى كفروا به , الرازق الذى كتموا فضله وبخلوا بالإنفاق مما أعطاهم . فى اليوم الآخر الذى لم يؤمنوا به . فى مواجهة الرسول الذى عصوه فكيف ؟ ؟ ؟ إنها المهانة والخزى ، والخجل والندامة . . مع الاعتراف حيث لا جدوى من الإنكار ، والسياق القرآنى لا يصف هذا كله من الظاهر . إنما يرسم "صورة نفسية" تتضح بهذا كله وترتسم حواليها تلك الظلال كلها . ظلال الخزى والمهانة ، والخجل والندامة (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثا !)

ثم يواصل السياق بتحديد ظروف تتنافى مع قدسية الصلاة ، مع تحديد أحكام التيمم و هو بديل عن الوضوء فى حالات معينة (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى – حتى تعلموا ما تقولون – ولا جنبا – إلا عابرى سبيل – حتى تغتسلوا . وإن كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ، فتيمموا صعيدا طيبا ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم . إن الله كان عفوا غفورا) الخمر كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الرومانى ف أوج جاهليته ؛ وللمجتمع الفارسى أيضا . وكذلك هى اليوم ظاهرة مميزة للمجتمع الأوربى والمجتمع الأمريكى فى أوج جاهليته ! والشأن أيضا كذلك فى جاهلية المجتمع الإفريقى المتخلفة من الجاهلية الأولى ! فى السويد – وهى أرقى أمم الجاهلية الحديثة – كانت كل عائلة فى النصف الأول من القرن الماضى تعد الخمر الخاصة بها . وكان متوسط ما يستهلكه الفرد ، حوالى عشرين لترا . وأحست الحكومة خطورة هذه الحال ، وما ينشره من إدمان ؛ فاتجهت إلى سياسة احتكار الخمور ، وتحديد الاستهلاك الفردى ، ومنع شرب الخمور فى المحال العامة ولكنها عادت فخففت هذه القيود منذ أعوام قليلة ! فأبيح شرب الخمر فى المطاعم بشرط تناول الطعام . ثم أبيحت الخمر فى عدد محدود من المحال العامة ، حتى منتصف الليل فقط ! وبعد ذلك يباح شرب "النبيذ والبيرة" فحسب ! وإدمان الخمر عند المراهقين يتضاعف . . ! أما فى أمريكا ، فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانونا فى سنة ١٩١٩ سمى قانون "الجفاف" ! من باب التهكم عليه ، لأنه يمنع "الرى" بالخمر ! وقد ظل هذا القانون قائما مدة أربعة عشر عاما ، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه فى سنة ١٩٣٣ . وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة فى المجتمع الجاهلى ببضع آيات من القرآن . وهذا هو الفرق فى علاج النفس البشرية وفى علاج المجتمع الإنسانى بين منهج الله , ومناهج الجاهلية قديما وحديثا على السواء ! ولكى ندرك تغلغل هذه الظاهرة فى المجتمع الجاهلى ، يجب أن نعود إلى الشعر الجاهلى ; حيث نجد "الخمر" عنصرا أساسيا من عناصر المادة الأدبية ؛ كما أنه عنصر أساسى من عناصر الحياة كلها .

يقول طرفة بن العبد:

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى

فمنهن سبقى العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وما زال تشـرابى الخمور ولذتى وأفردت إفـــراد البعيـــر المعبد

ويقول المنخل اليشكرى:

ولقد شربت من المدامة بالصغير وبالكبير

فإذا سكـــــــرت فإننى رب الخورنق والسدير

وإذا صحوت فإنـــــنى رب الشويهة والبعير

وغير هذا كثير فى الشعر الجاهلى . .

ورواية الحوادث التى صاحبت مراحل تحريم الخمر فى المجتمع المسلم ، والرجال الذين كانوا أبطال هـذه الحوادث . . وفيهم عمر ، وعلى ، وحمزة ، وعبدالرحمن بن عوف . . وأمثال هذا الطراز من الرجال . . تشى بمدى تغلغل هذه الظاهرة فى الجاهلية العربية . وتكفى عن الوصف المطول المفصل: يقول عمـر رضـى الله عنه فى قصة إسلامه . . فى رواية . . "كنت صاحب خمر فى الجاهلية . فقلت لو أذهب إلى فـلان الخمـار فأشرب . . . "

وظل عمر يشرب الخمر فى الإسلام . حتى إذا نزلت آية (يسألونک عن الخمر والميسر . قل فيهمـا إثـم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما) قال:"اللهم بين لنا بيانا شافيا فى الخمر" . . واستمر حتى إذا نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا مـا تقولـون) قـال اللهم بين لنا بيانا شافيا فى الخمر ! حتى إذا نزلت آية التحريم الصريحة (إنما الخمر والميسر والأنصـاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنمـا يريـد الشـيطان أن يوقـع بيـنكم العـداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهـون) قال:انتهينـا انتهينـا ! وانتهى . .

لقد عالج المنهج الربانى هذا كله ببضع آيات من القرآن ؛ وعلـى مراحـل ، وفـى رفـق وتـؤدة . وكسـب المعركة . دون حرب . ودون تضحيات . ودون إراقة دماء . . والذى أريق فقط هـو دنـان الخمـر وزقاقهـا وجرعات منها كانت فى أفواه الشاربين – حين سمعوا آية التحريم - فمجوها من أفـواهم . ولـم يبلعوهـا . كما سيجىء ! فى مكة – حيث لم يكن للإسلام دولة ولا سلطان . . إلا سلطان القرآن – وردت فى القرآن المكى تلميحة سريعة إلى نظرة الإسلام للخمر . تدرک من ثنايا العبارة . وهى مجرد إشارة جاء فى سـورة النحل (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) وفى المدينة حيث قامت للإسلام دولة وكان له سلطان . . لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسـيف السـلطان . إنمـا كـان أولا سـلطان القرآن . . وبدأ المنهج عمله فى رفق وفى يسر ، وفى خبرة بالنفس البشرية ، والأوضاع الاجتماعية ... ثـم يقرر السياق الغسل لرفع الجنابة ولإستعداد لآداء الصلاة (يا أيها الـذين آمنـوا لا تقربـوا الصـلاة وأنـتم سكارى – حتى تعلموا ما تقولون – ولا جنبا – إلا عابرى سبيل – حتى تغتسلوا . . .) وتختلف الأقوال فى المقصود من (عابرى سبيل) كما تختلف فى معنى قرب الصلاة المنهى عنه . .

فقول:إن المقصود هو عدم قرب المساجد ، أو المكث فيها ، لمن كان جنبـا ، حتـى يغتسـل . إلا أن يكـون عابرا بالمسجد مجرد عبور . وقد كان جماعة من الصحابة أبواب بيوتهم تفتح فى مسجد الرسـول ﷺ وهـو طريقهم من وإلى هذه البيوت . فرخص لهم فى المرور – وهم جنب – لا بالمكث فى المسجد – ولا الصلاة بطبيعة الحال – إلا بعد الاغتسال .

وقول:إن المقصود هو الصلاة ذاتها ، والنهى عن أدائها للجنب – إلا بعد الاغتسال – مـالم يكـن مسـافرا . فيحل له عندئذ أن يقصد المسجد وأن يصلى – بلا اغتسال – ولكن بالتيمم . الـذى يسـد مسـد الغسـل – عندئذ – كما يسد مسد الوضوء . .

وفى (لامستم النساء). . أقوال كذلك:

قول:إنه كناية عن الجماع . . فهو يستوجب الغسل . وقول:إنه يعنى حقيقة اللمس . . لمس أى جزء من جسم الرجل لجسم المرأة . . وهو يستوجب الوضوء فى بعض المذاهب ، ولا يستوجبه فى بعضها . بتفصيلات تطلب فى كتب الفروع نذكر منها إجمالا; أ- اللمس يوجب الوضوء إطلاقا . ب" اللمس يوجب الوضوء إذا كان اللامس ممن تثور الشهوة فى نفسه باللمس . وإذا كانت الملموسة ممن تثير الشهوة باللمس . ج" اللمس يوجب الوضوء إذا أحس اللامس نفسه - حسب تقديره فى كل حالة - أن اللمسة أثارت فى نفسه حركة . د" اللمس لا يوجب الوضوء إطلاقا ، ولا العناق ولا التقبيل للزوجة ،ولكل قول سنده من أفعال أو من أقوال الرسول ﷺ على طريقة الاختلافات الفقهية فى الفروع .

والذى نرجحه فى معنى (او لامستم النساء) أنه كناية عن الفعل الذى يستوجب الغسل أى الجماع و العلاقة الحميمية الشرعية الكاملة بين الزوجين وبذلك نستغنى هنا عن كل الخلافات فى مسألة الوضوء ، وفى جميع هذه الحالات المذكورة ، سواء كانت الحالة تستوجب الغسل أو تستوجب الوضوء للصلاة . . حين لا يوجد الماء - وكذلك حين يوجد ولكن استعماله يكون ضارا أو غير مقدور عليه - يغنى عن الغسل والوضوء:التيمم . وقد جاء اسمه من نص الآية (فتيمموا صعيدا طيبًا) أى فاقصدوا صعيدا طيبا . . طاهرا . . والصعيد كل ما كان من جنس الأرض من تراب . أو حجر . أو حائط . ولو كان التراب مما على ظهر الدابة . أو فى الفراش من ذرات التراب المتطاير . متى كان هناك تراب يتطاير عند ضرب اليدين به . وطريقة التيمم:إما خبطة واحدة بالكفين على الصعيد الطاهر . ثم نفضهما . ثم مسح الوجه . ثم مسح اليدين إلى المرفقين بهما . . وإما خبطتان:خبطة يمسح بها الوجه ، وخبطة يمسح بها الذراعان . . ولا داعى هنا لذكر الخلافات الفقهية الدقيقة فيما وراء هذا . . فهذا الدين يسر ، وفى شرعية التيمم يتجلى معنى التيسير واضحا:

(إن الله كان عفوا غفورًا) وهو التعقيب الموحى بالتيسير . وبالعطف على الضعف ، وبالمسامحة فى القصور . والمغفرة فى التقصير . .

إن بعض الباحثين فى حكمة التشريعات والعبادات الإسلامية ، يندفعون أحيانا فى تعليل هذه الأحكام ؛ بصورة توحى بأنهم استقصوا هذه الحكمة ؛ فلم يعد وراء ما استقصوه شىء ! وهذا منهج غير سليم فى مواجهة النصوص القرآنية والأحكام التشريعية . . ما لم يكن قد نص على حكمتها نصا . . وأولى:أن نقول دائما:إن هذا ما استطعنا أن نستشرفه من حكمة النص أو الحكم . وأنه قد تكون دائما هنالك أسرار من الحكمة لم يؤذن لنا فى استجلائها ! وبذلك نضع عقلنا البشرى - فى مكانه - أمام النصوص والأحكام الإلهية . بدون إفراط ولا تفريط . .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ {٤٤} وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً {٤٥} مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً {٤٦} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً {٤٧} إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً {٤٨} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً {٤٩} انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً {٥٠} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً {٥١} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً {٥٢} أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً {٥٣} أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً {٥٤} فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً {٥٥} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً {٥٦} وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً) {٥٧}

من هذا الدرس ، تبدأ المعركة التى يخوضها القرآن بالجماعة المسلمة , فى مواجهة الجاهلية المحيطة بها – واليهود من أهل الكتاب خاصة – تلك المعركة التى شهدنا مواقعها ومجالاتها فى سورتي موازين جديدة ، وينشىء فيها قيما جديدة ؛ ويستنقذ فطرتها من ركام الجاهلية ؛ ويمحو ملامح الجاهلية فى النفس والمجتمع ؛ وينشىء ويثبت ملامح الإسلام الوضيئة الجميلة . . ثم يقودها فى المعركة مع أعدائها المتربصين بها فى الداخل والخارج . . اليهود والمنافقين والمشركين . . وهى على أتم استعداد للقائهم ، والتفوق عليهم ؛ بمتانة بنائها الداخلى الجديد:الاعتقادى والأخلاقى والاجتماعى والتنظيمى سواء . . ولقد كان التفوق الحقيقى للمجتمع المسلم على المجتمعات الجاهلية من حوله – بما فيها مجتمع اليهود القائم فى قلب المدينة – هو تفوقه فى البناء الروحى والخلقى والاجتماعى والتنظيمى – بفضل المنهج القرآنى الربانى – قبل أن يكون تفوقا عسكريا أو اقتصاديا أو ماديا على العموم ! بل هو لم يكن قط تفوقا عسكريا واقتصاديا – ماديا – فقد كان أعداء المعسكر الإسلامى دائما أكثر عددا ، وأقوى عدة ، وأغنى مالا ، وأوفر مقدرات مادية على العموم ! سواء فى داخل الجزيرة العربية ، أو فى خارجها فى زمن الفتوحات الكبرى بعد ذلك . وبهذا التفوق الساحق على الجاهلية فى بنائها الروحى والخلقى والاجتماعى – ومن ثم السياسى والقيادى – اجتاح الإسلام الجاهلية . . اجتاحها أولا فى الجزيرة العربية . واجتاحها ثانيا فى الإمبراطوريتين العظيمتين الممتدتين حوله:إمبراطوريتى كسرى وقيصر . . ثم بعد ذلك فى جوانب الأرض الأخرى . سواء كان معه جيش وسيف ، أم كان معه مصحف وأذان !

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، يشترون الضلالة ، ويريدون أن تضلوا السبيل ? والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا ، وكفى بالله نصيرا . من الذين هادوا , يحرفون الكلم عن مواضعه . ويقولون:سمعنا وعصينا ، واسمع – غير مسمع – وراعنا . ليا بألسنتهم ، وطعنا فى الدين . ولو أنهم قالوا:سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا ، لكان خيرا لهم وأقوم . ولكن لعنهم الله بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلاً) إنه التعجيب الأول – من سلسلة التعجيبات الكثيرة – من موقف أهل الكتاب – من اليهود - يوجه الخطاب فيه إلى الرسول ﷺ أو إلى كل من يرى هذا الموقف العجيب المستنكر (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب . . يشترون الضلالة . ويريدون أن تضلوا السبيل) لقد كان من شأن أن يؤتوا نصيبا من الكتاب . . الهداية . . فقد آتاهم الله التوراة , على يدى موسى عليه السلام ، لتكون هداية لهم من ضلالتهم الأولى . . ولكنهم يدعون هذا النصيب . يدعون الهداية . ويشترون الضلالة ! والتعبير بالشراء يعنى القصد والنية فى المبادلة ! ففى أيديهم الهدى ولكنهم يتركونه ويأخذون الضلالة . فكأنما هى صفقة عن علم وعن قصد وعمد . لا عن جهل أو خطأ أو سهو ! وهو أمر عجيب مستنكر , يستحق التعجيب منه والاستنكار . ولكنهم لا يقفون عند هذا الأمر العجيب المستنكر . بل هم يريدون أن يضلوا المهتدين . يريدون أن يضلوا المسلمين . . بشتى الوسائل وشتى الطرق . هذه هى اللمسة:الأولى ، والثانية ، هى تنبيه للمسلمين وتحذير ؛ من الاعيب اليهود وتدبيرهم . . وياله من تدبير ! وإثارة كذلك لنفوس المسلمين ضد الذين يريدون لهم الضلالة بعد الهدى . وقد كان المسلمون يعتزون بهذا الهدى ؛ ويعادون من يحاول ردهم عنه إلى جاهليتهم التى عرفوها وعرفوا الإسلام . فكرهوها وأحبوا الإسلام ! وكرهوا كل من يحاول ردهم إليها فى قليل أو كثير ومن ثم يعقب على إبراز هذه المحاولة من اليهود ، بالتصريح بأن هؤلاء أعداء للمسلمين . وبتطمين الجماعة المسلمة إلى ولاية الله ونصره ، إزاء تلك المحاولة (والله أعلم بأعدائكم . وكفى بالله وليا . وكفى بالله نصيرا) وقد كان التعجيب من أهل الكتاب عامة – وكان المفهوم أن المعنيين هم يهود المدينة - ولكن السياق لا يكتفى بهذا المفهوم . بل يمضى فيعين اليهود . ثم يصف حالهم وتصرفاتهم وسوء أدبهم مع الرسول ﷺ فى هذه الفترة التى يبدو أنها كانت فى أوائل سنوات الهجرة ، قبل أن تخضد شوكتهم فى المدينة (من الذين هادوا ، يحرفون الكلم عن مواضعه ؛ ويقولون:سمعنا وعصينا . واسمع – غير مسمع - وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين .) لقد بلغ من التوائهم ، وسوء أدبهم مع الله عز وجل:أن يحرفوا الكلام عن المقصود به . والأرجح أن ذلك يعنى تأويلهم لعبارات التوراة بغير المقصود منها . وذلك كى ينفوا ما فيها من دلائل على الرسالة الأخيرة ؛ ومن أحكام كذلك وتشريعات يصدقها الكتاب الأخير ؛ وتدل وحدتها فى الكتابين على المصدر الواحد ؛ وتبعا لهذا على صحة رسالة النبى ﷺ . وتحريف الكلم عن المقصود به ، ليوافق الأهواء ، ظاهرة ملحوظة فى كل رجال دين ينحرفون عن دينهم ، ويتخذونه حرفة وصناعة ، يوافقون بها أهواء ذوى السلطان فى كل زمان ؛ وأهواء الجماهير التى تريد التفلت من الدين . . واليهود أبرع من يصنع ذلك . وإن كان فى زماننا هذا من محترفى دين المسلمين من ينافسون – فى هذه الخصلة - اليهود ! ثم بلغ من التوائهم وسوء أدبهم مع رسول الله ﷺ أن يقولوا له:سمعنا يا محمد ما تقول . ولكننا عصينا ! فلا نؤمن ولا نتبع ولا نطيع ! – مما يدل على أن هذه الآيات نزلت فى وقت مبكر ، و كانت لليهود هذه الجرأة على مواجهة النبى ﷺ ثم يضيفون إلى التبجح سوء الأدب والخلق

والالتواء أيضا . إذ يقولون للرسول ﷺ (واسمع – غير مسمع – وراعنا) ففي ظاهر اللفظ أنهم يقولون:اسمع – غير مأمور بالسمع [وهي صيغة تأدب] – وراعنا:أي:انظر إلينا نظرة رعاية لحالنا أو نظرة اهتمام لوضعنا . بما أنهم أهل كتاب , فلا ينبغي أن يدعوا إلى الإسلام كالمشركين ! أما في اللى الذى يلوونه ، فهم يقصدون:اسمع – لا سمعت ، ولا كنت سامعا ! – [أخزاهم الله] . وراعنا يميلونها إلى وصف "الرعونة " ! وهكذا . . تبجح وسوء أدب ، والتواء ومداهنة ، وتحريف للكلم عن مواضعه وعن معانيه . .إنها يهود !!! وبعد أن يحكى القرآن هذا عنهم ؛ يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب ؛ والأدب الجدير بمن أوتوا نصيبا منه . ويطمعهم – بعد ذلك كله – فى الهداية والجزاء الحسن والفضل والخير من الله . لو ثابوا إلى الطريق القويم . وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم . وأنها هكذا كانت وهكذا تكون (ولو أنهم قالوا:سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا ، لكان خيرا لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلاً) فهم لا يواجهون الحق بهذه الصراحة وهذه النصاعة وهذه الاستقامة . ولو أنهم واجهوه هكذا بالألفاظ الصريحة التى لا التواء فيها (سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا) لكان هذا خيرا لهم ، وأقوم لطبيعتهم وأنفسهم وحالهم . ولكن واقع الأمر أنهم – بسبب كفرهم – مطرودون من هداية الله . فلا يؤمن منهم إلا القليل . وصدق قول الله . . فلم يدخل فى الإسلام – فى تاريخه الطويل – إلا القليل من اليهود . ممن قسم الله لهم الخير ، وأراد لهم الهدى ؛ باجتهادهم للخير وسعيهم للهدى . أما كتلة اليهود ، فقد ظلت طوال أربعة عشر قرنا ، حربا على الإسلام والمسلمين . منذ أن جاورهم الإسلام فى المدينة إلى اللحظة الحاضرة ، بعد ذلك يتجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب – اليهود – دعوة إلى الكتاب المصدق لما بين أيديهم ؛ وتهديدا لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم . ودمغا لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخاص ، الذى عليه دينهم ، والله لا يغفر أن يشرك به . . وفي الوقت ذاته بيان عام لحدود المغفرة الواسعة ؛ وبشاعة الشرك حتى إنه ليخرج من هذه الحدود (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً (٤٧) إنه نداء لهم بالصفة التى كان من شأنها أن يكونوا أول المستجيبين ؛ وبالسبب الذى كان من شأنه أن يكونوا أول المسلمين (يا أيها الذين أوتوا الكتاب ، آمنوا بما نزلنا ، مصدقا لما معكم) فهم أوتوا الكتاب ، فليس غريبا عليهم هذا الهدى . والله الذى آتاهم الكتاب هو الذى يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصدقا لما معهم . فليس غريبا عليهم كذلك . وهو مصدق لما معهم ، ولو كان الإيمان بالبينة . أو بالأسباب الظاهرة . لآمنت يهود أول من آمن . ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح . وكانت لها أحقاد وعناد . وكانت هى بطبعها منحرفة صلبة الرقبة . . كما تعبر عنهم التوراة بأنهم شعب صلب الرقبة ! " . ومن ثم لم تؤمن . ومن ثم يجيئها التهديد العنيف القاسى (من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها . أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت . وكان أمر الله مفعولا). . وطمس الوجوه إزالة معالمها المميزة لآدميتها ؛ وردها على أدبارها , دفعها لأن تمشى القهقرى ، وقد يكون المقصود هو التهديد بمعناه المادى ؛ الذى يفقدهم آدميتهم ويردهم يمشون على أدبارهم ؛ ويكون كذلك اللعن الذى أصاب أصحاب السبت ، وهم الذين احتالوا على صيد السمك يوم السبت ، وهو محرم عليهم فى شريعتهم ، هو مسخهم بالفعل قردة وخنازير . . كما قد يكون المقصود طمس معالم الهدى والبصيرة فى نفوسهم , وردهم إلى كفرهم وجاهليتهم ، قبل أن يؤتيهم الله الكتاب . والكفر بعد الإيمان , والهدى بعد الضلال ، طمس للوجوه والبصائر ، وارتداد على الأدبار دونه كل ارتداد . والتعقيب على هذا التهديد: (كان أمر الله مفعولا . فيه توكيد للتهديد ، يناسب كذلك طبيعة اليهود ! ثم يجيء تعقيب يتضمن تهديدا آخر فى الآخرة . تهديدا بعدم المغفرة لجريمة الشرك . مع فتح أبواب الرحمة الإلهية كلها لما دون ذلك من الذنوب (إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩) وسياق الآية هكذا يتضمن اتهامَ اليهود بالشرك ؛ ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد . ولا يذكر هنا القول أو الفعل الذى يعده عليهم شركا . وعلى أية حال فاليهود على عهد الرسالة المحمدية كانت عقائدهم فى الجزيرة حافلة بالوثنيات , منحرفة عن التوحيد . والتهديد هنا موجه إليهم بأن الله يغفر ما دون الشرك - لمن يشاء – ولكنه لا يتسامح فى إثم الشرك العظيم ولا مغفرة عنده لمن لقيه مشركا به ، لم يرجع فى الدنيا عن شركه . إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد . فلا يبقى لهم معه أمل فى مغفرة . إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون . مقطوعة الصلة بالله رب العالمين . وما تشرك النفس بالله , وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا – وأمامها دلائل التوحيد فى صفحة الكون وفى هداية الرسل – ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية . إنما تفعله وقد فسدت فسادا لا رجعة فيه ! وتلفت فطرتها التى برأها الله عليها ، وارتدت أسفل سافلين ، وتهيأت بذاتها لحياة الجحيم ! أما ما وراء ذلك من الذنوب – والكبائر – فإن الله يغفره – لمن يشاء – فهو داخل فى حدود المغفرة ، أخرج ابن أبى حاتم – بإسناده – عن جابر بن عبدالله قال:قال رسول الله ﷺ " ما

من نفس تموت ، لا تشرك بالله شيئًا ، إلا حلت لها المغفرة ، إن شاء الله عذبها ، وإن شاء غفر لهـا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " ثم يمضي القرآن – وهو يخوض المعركة بالجماعة المسلمة مع اليهود في المدينة – يعجب من أمر هؤلاء الخلق ؛ الذين يزعمـون أنهـم شـعب الله المختـار ؛ ويثنون على أنفسهم ؛ ويزكونها ؛ بينما هم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويتطاولون على الله ورسوله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ؟ بل الله يزكى من يشاء ، ولا يظلمون فتـيلا . انظـر كيـف يفتـرون علـى الله الكذب ! وكفى به إثما مبيناً)

ودعوى اليهود أنهم شعب الله المختار هى دعواهم من قديم . وقد اختـارهم الله فعـلا لحمـل الأمانـة وأداء الرسالة ، وفضلهم على العالمين فى ذلك الأوان ؛ وأهلك لهم فرعون وملأه , وأورثهم الأرض المقدسة . . ولكنهم هم انحرفوا بعد ذلك عن منهج الله ؛ وعتوا فى الأرض عتوا كبيرا ، واجترحوا السيئات التى تضج منها الأرض ، وأحل لهم أحبارهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحله لهم ، واتبعوهم ؛ ولم ينكـروا علـيهم حق الألوهية هذا الذى ادعوه عمليا – بهذا التحريم والتحليل – وقد بدل هؤلاء الأحبـار فـى شـريعة الله ، ليرضوا ذوى السلطان والشرفاء ؛ وليملقوا كذلك رغبات الجماهير وأهواءهم . وبـذلك اتخـذوا أحبـارهم أربابا من دون الله . وأكلوا الربا . . ووهنت علاقتهم بدين الله وكتابة الذى أنزله عليهم . . وعل الرغم مـن ذلك كله – وغيره كثير – فقد ظلوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه . وأن النار لن تمسهم إلا إياما معدودة . وأنه لا يهتدى ولا يقبل عند الله إلا من كان هودا ! كأن المسألة مسألة قرابة ونسب ومحاباة بينهم وبين الله – تعالى عن ذلك علوا كبيرا –

فالله لا تصل بينه وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب ؛ إنما تربط عباده به العقيدة المستقيمة والعمل الصالح ، والاستقامة على منهج الله . . فمن أخل بهذا فقد غضب الله عليه . ويشتد غضبه إذا كان قد أتى الضـالين الهدى فانحرفوا عنه ! وما شأن هؤلاء اليهود إلا شأن من يزعمون الإسلام اليوم ، ويحسبون أنهم مـن أمـة محمد ﷺوأن الله لا بد ناصرهم ، ومخرج لهم اليهود من أرضهم . . بينما هم ينسلخون انسلاخا كاملا مـن دين الله الذى هو منهجه للحياة ؛ فينبذونه من حياتهم ؛ ولا يتحاكمون إلى كتـاب الله لا فـى أقضـيتهم ولا فى اقتصادهم ، ولا فى اجتماعهم , ولا فى آدابهم ، ولا فى تقاليدهم . وكل ما لهـم مـن الإسـلام أسـماء المسلمين ! وأنهم ولدوا فى أرض كان المسلمون يسكنونها ذات يوم ! ويقيمون فيها دين الله ، ويحكمون منهجه فى الحياة ! والله يعجب رسوله ﷺ من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم . وأمر " المسلمين" المعاصرين أعجب ، (وأشد إثارة للتعجيب والتعجب !! (انظُرْ كَيفَ يَفْترونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً) إنه ليس الناس هم الذين يزكون أنفسهم ؛ ويشهدون لها بالصلاح والقـرب مـن الله واختيـارَ الله . إنّما الله هو الذى يزكى من يشاء . فهو أعلم بالقلوب والأعمال .

ويمضي السياق فى التعجيب من أمر أولئك الذين يزكون أنفسهم . . بينما هم يؤمنون بالباطل وبالأحكـام التى لا تستند إلى شرع الله ، وليس لها ضابط منه يعصمها من الطغيـان:الجبـت والطـاغوت" وبينمـا هـم يشهدون للشرك والمشركين بأنهم أهدى من المؤمنين بكتاب الله ومنهجه وشريعته ، ويحمل عليهم – بعد التعجيب من أمرهم ، وذكر هذه المخازى عنهم – حملة عنيفة ؛ ويـرذلهم تـرذيلا شـديدا ؛ ويظهـر كـامن طباعهم من الحسد والبخل ; والأسباب الحقيقية التى تجعلهم يقفون هذا الموقف إلى جانب انحـرافهم عـن دين إبراهيم - الذى يفخرون بالانتساب إليه – وينهى هذه الحملة بتهديدهم بجهنم . (وكفى بجهنم سـعيراً)

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، يؤمنون بالجبت والطـاغوت ، ويقولـون للـذين كفروا:هـؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ! أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصـيرا . أم لهـم نصـيب من الملك ؟ فإذا لا يؤتون الناس نقيرا . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله مـن فضـله ؟ فقـد آتينـا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ؛ وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنـه ؛ وكفـى بجهـنم سعيراً) لقد كان الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، أولى الناس أن يتبعوا الكتاب ؛ وأن يكفروا بالشرك الذى يعتنقه ، وأن يحكموا كتاب الله فى حياتهم ، فلا يتبعوا الطاغوت - وهو كل شرع لم يـأذن بـه الله ، وكـل حكم ليس له من شريعة الله سند – ولكن اليهود - الذين كانوا يزكون أنفسهم ، ويتباهون بأنهم أحباء الله – كانوا فى الوقت ذاته يتبعون الباطل والشرك باتباعهم للكهانة وتركهم الكهان والأحبار يشرعون لهم ما لم يأذن به الله . وكانوا يؤمنون بالطاغوت ؛ وهو هذا الحكم الذى يقوم على غير شريعة الله . . وهو طـاغوت لما فيه من طغيان – بادعاء الإنسان إحدى خصائص الألوهية – وهى الحاكمية - وبعدم انضباطه بحدود من

شرع الله ، تلزمه العدل والحق . فهو طغيان ، وهو طاغوت ; والمؤمنون به والمتبعون له ، مشركون أو كافرون . . يعجب الله من أمرهم ، وقد أوتوا نصيبا من الكتاب ، فلم يلتزموا بما أوتوه من الكتاب !

ولقد كانوا يضيفون إلى الإيمان بالجبت والطاغوت ، وقوفهم في صف المشركين الكفار , ضد المؤمنين الذين آتاهم الله الكتاب أيضا (ويقولون للذين كفروا:هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا) وكان عجيبا أن يقول اليهود:إن دين المشركين خير من دين محمد ومن معه ، وإن المشركين أهدى سبيلا من الذين آمنوا بكتاب الله ورسوله ﷺ ولكن هذا ليس بالعجيب من اليهود . . إنه موقفهم دائما من الحق والباطل ، ومن أهل الحق وأهل الباطل . . إنهم ذوو أطماع لا تنتهي ، وذوو أهواء لا تعتدل ، وذوو أحقاد لا تزول ! وهم يقولونها اليوم وغدا . إنهم يشوهون بوسائل الدعاية والإعلام التي في أيديهم كل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض ؛ ويعينون عليها أهل الباطل لتشويهها وتحطيمها - بالضبط كما كانوا يعينون مشركي قريش ويستنصرون بهم في الوقت ذاته – لتشويه الحركة الإسلامية الأولى وتحطيمها ، و لكن الله لهم بالمرصاد اليوم وبعد غد (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا . وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا) ولكنهم أحيانا – لخبثهم ولتمرسهم بالحيل الماكرة ولملابسات العصر الحديث – قد لا يثنون ثناء مكشوفا على الباطل وأهله . بل يكتفون بتشويه الحق وأهله . ليعينوا الباطل على هدمه وسحقه . ذلك أن ثناءهم المكشوف (أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً) ٥٢ (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً) (٥٣) في هذا الزمان – أصبح متهما ، وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين ، الذين يعملون لحسابهم ، في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان . . بل لقد يبلغ بهم المكر والحذق أحيانا ، أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم ، الذين يسحقون لهم الحق وأهله . ويتظاهروا كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام . ليبعدوا الشبهة تماما عن أخلص حلفائهم ، الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة ! ولكنهم لا يكفون أبدا عن تشويه الإسلام وأهله . . لأن حقدهم على الإسلام ، وعلى كل شبح من بعيد لأي بعث إسلامي ، أضخم من أن يداروه . . ولو للخداع والتمويه ! إنها جبلة واحدة ، وخطة واحدة ، وغاية واحدة . . هي التي من أجلها يجبههم الله باللعنة والطرد ، وفقدان النصير . والذي يفقد نصرة الله فما له من ناصر وما له من معين ولو كان أهل الأرض كلهم له ناصر وكلهم له معين (أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً) ٥٢ (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً) (٥٣) ولقد يهولنا اليومَ أن تجد دول الغرب كلها نصيرا لليهود . فنسأل:وأين وعد الله بأنه لعنهم ، وأن من يلعن الله فلن تجد له نصيرا ؟ ولكن الناصر الحقيقي ليس هو الناس . ليس هو الدول . ولو كانت تملك القنابل الأيدروجينية والصواريخ إنما الناصر الحق هو الله . القاهر فوق عباده:ومن هؤلاء العباد من يملكون القنابل الأيدروجينية والصواريخ ! والله ناصر من ينصره (ولينصرن الله من ينصره) والله معين من يؤمن به حق الإيمان , ويتبع منهجه حق الاتباع ؛ ويتحاكم إلى منهجه في رضى وفي تسليم ، فلا يهولننا ما نلقاه من نصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليهود . فهم في كل زمان ينصرونهم على الإسلام والمسلمين . . فليست هذه هي النصرة . . ولكن كذلك لا يخدعننا هذا . فإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين! ويوم يكونون مسلمين! وليحاول المسلمون أن يجربوا – مرة واحدة – أن يكونوا مسلمين . ثم يروا بأعينهم إن كان يبقى لليهود نصير . أو أن ينفعهم هذا النصير ! وبعد التعجيب من أمرهم وموقفهم وقولهم ؛ وإعلان اللعنة عليهم والخذلان . . يأخذ في استنكار موقفهم من الرسول ﷺ والمسلمين ؛ وغيظهم من أن يمن الله عليهم هذه المنة ، منة الدين والنصر والتمكين . وحسدهم لهم على ما أعطاهم الله من فضله . وهم لم يعطوهم من عندهم شيئا ! ويكشف في الوقت ذاته عن كزازة طبيعتهم ؛ واستكثار أي عطاء يناله غيرهم ؛ مع أن الله قد أفاض عليهم وعلى آبائهم فلم يعلمهم هذا الفيض السماحة ; ولم يمنعهم من الحسد والكنود (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً{٥٣} أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً{٥٤} فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً) {٥٥} يا عجبا ! إنهم لا يطيقون أن ينعم الله على عبد من عباده بشيء من عنده . . فهل همَ شركاؤه – سبحانه ! – هل لهم نصيب في ملكه ، الذي يمنح منه ويفيض ؟ ولو كان لهم نصيب لضنوا – بكزازتهم وشحهم – أن يعطوا الناس نقيرا . . والنقير هو النقرة تكون في ظهر النواة – وهذه لا تسمح كزازة يهود وأثرتها البغيضة أن تعطيها للناس ، لو كان لها في الملك نصيب ! والحمد لله أن ليس لها في الملك نصيب . . وإلا لهلك الناس جميعا وهم لا يعطون حتى النقير !!! أم لعله حسد لرسول الله ﷺ والمسلمين على ما آتاهم الله من فضله ، من هذا الدين الذي أنشأهم نشأة أخرى ووهب لهم ميلادا جديدا ، وجعل لهم وجودا إنسانيا متميزا ؛ ووهبهم النور والثقة والطمأنينة واليقين وإنه فعلا للحسد من يهود . مع تفويت أطماعها في السيادة الأدبية والاقتصادية على العرب الجاهلين المتفرقين المتخاصمين . . يوم أن لم يكن لهم دين ، ولكن لماذا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من

النبوة والتمكين في الأرض ? وهم غارقون في فضل الله من عهد إبراهيم . . الذى آتاه الله الكتاب والحكمة – وهى النبوة – وآتاهم الملك كذلك والسيادة . وهم لم يرعوا الفضل ولم يحتفظوا بالنعمة , ولم يصونوا العهد القديم ، بل كان منهم فريق من غير المؤمنين . ومن يؤت هذا الفضل كله لا يليق أن يكون منهم جاحدون كافرون ! (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه) إنه لمن ألأم الحسد:أن يحسد ذو النعمة الموهوب ! لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة ! أما أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة ، فهذا هو الشر الأصيل العميق ! شر يهود المتميز الفريد ! ومن ثم يكون التهديد بالسعير ، هو الجزاء المقابل لهذا الشر النكير (وكفى بجهنم سعيرا) !

وعندما يبلغ السياق هذا المقطع من ذكر الإيمان والصدود عن الإيمان فى آل إبراهيم , يعقب بالقاعدة الشاملة للجزاء . جزاء المكذبين ، وجزاء المؤمنين ، هؤلاء وهؤلاء أجمعين فى كل دين وفى كل حين ؛ ويعرض هذا الجزاء فى صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة الرعيبة (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب . إن الله كان عزيزا حكيما . والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة ، وندخلهم ظلا ظليلا) ... (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) إنه مشهد لا يكاد ينتهى . مشهد شاخص متكرر . يشخص له الخيال ، ولا ينصرف عنه ! إنه الهول . وللهول جاذبية آسرة قاهرة ! والسياق يرسم ذلك المشهد ويكرره بلفظ واحد (كلما) ويرسمه كذلك عنيفا مفزعا بشطر جميلة (كلما نضجت جلودهم) ويرسمه عجيبا خارقا للمألوف بتكملة الجملة . .(بدلناهم جلودا غيرها). . ويجمل الهول الرهيب المفزع العنيف كله فى جملة شرطية واحدة لا تزيد ! (مِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً{٥٥} ذلك جزاء الكفر – وقد تهيأت أسباب الإيمان – وهو مقصود . وهو جزاء وفاق: (ليذوقوا العذاب)ذلك , أن الله قادر على الجزاء . حكيم فى توقيعة (إن الله كان عزيزا حكيمًا) وفى مقابل هذا السعير المتأجج . وفى مقابل الجلود الناضجة المشوية المعذبة . . كلما نضجت بدلت . ليعود الاحتراق من جديد . ويعود الألم من جديد . فى مقابل هذا المشهد المكروب الملهوف . . نجد (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فى جنات ندية (تجرى من تحتها الأنهار) ونجد فى المشهد ثباتا وخلودا مطمئنا أكيدا (خالدين فيها أبدًا) ونجد فى الجنات والخلد الدائم أزواجا مطهرة (لهم فيها أزواج مطهرة) ونجد روح الظلال الندية يرف على مشهد النعيم (وندخلهم ظلا ظليلا) تقابل كامل فى الجزاء . وفى المشاهد . وفى الصور . وفى الإيقاع .

(إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{٦٢} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{٦٣} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً{٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥} وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً{٦٦} وَإِذاً لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨} وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً{٦٩} ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيماً{٧٠}

حين ننظر إلى الديوان المأثور والحياة الواقعية . . فى ظل القرآن وواقع الحياة الإسلامية:يتبين لنا على وجه التأكيد والتحديد ، أنها كانت نشأة ولم تكن خطوة ولا مرحلة ولا وثبة ! كانت "إخراجًا" من صنع الله ؛ كتعبير القرآن الدقيق ، وكانت أعجب نشأة ؛ وأغرب إخراج . . فيهى المرة الأولى والأخيرة – فيما نعلم – التى تنبثق فيها أمة من بين دفتى كتاب ! و"تخرج" فيها حياة من خلال الكلمات ! ولكن لا عجب . . فهذه الكلمات . . كلمات الله ، ومن أراد المجادلة والمماحلة ، فليقل لنا أين كانت هذه الأمة قبل أن

"يخرجهًا" الله بكلماته ؛ وقيل أن ينشئها الله بقرآنه ؟ إننا نعرف أنها كانت في الجزيرة العربية ! ولكن أين كانت فى الوجود "الإنسانى" ؟ أين كانت فى سجل الحضارة البشرية ؟ أين كانت فى التاريخ العالمي ؟ أين كانت تجلس على المائدة العالمية الإنسانية ؟ وماذا كانت تقدم على هذه المائدة ، فيعرف باسمها ويحمل طابعها ؟ فبسبب من هذا الكتاب ذكرت هذه الأمة فى الأرض ؛ وكان لها دورها فى التاريخ ؛ وكان لها "وجود إنساني" ابتداء ، وحضارة عالمية ثانيا . . ذلك بينما يريد جماعة من الحمقى أن يرفضوا نعمة الله هذه على الأمة العربية ؛ ويجحدوا فضل الله في أن جعل كلمته الأخيرة لأهل الأرض قاطبة في العرب وبلسانهم . . ومن ثم جعل لهم وجودا وذكرا وتاريخا وحضارة - يريدون أن يخلعوا هذا الرداء الذى ألبسهم الله إياه ؛ وأن يمزقوا هذه الراية التى قادتهم إلى الذكر والمجد . . بل إلى الوجود يوم أخرج الله منهم الأمة المسلمة ! حين كان القرآن يصنع ذلك كله . . كان يبدأ فيقيم للجماعة المسلمة تصورها الصحيح , ببيان شرط الإيمان وحد الإسلام ؛ ويربط بهذا التصور - فى هذه النقطة بالذات - نظامها الأساسى ، الذى يميز وجودها من وجود الجاهلية حولها ؛ ويفردها بخصائص الأمة التى أخرجت للناس ، لتبين للناس ، وتقودهم إلى الله . نظامها (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً) (٦٥) ويقول لها:إن الناس لا يؤمنون - ابتداء - إلا أنَ يتحاكموا إلىَ منهج الله ؛ ممثلا - فى حياة الرسول ﷺ- فى أحكام الرسول . وباقيا بعده فى مصدريه القرآن والسنة بالبداهة ; ولا يكفى أن يتحاكموا إليه - ليحسبوا مؤمنين - بل لا بد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين (فلا وربك . . لا يؤمنون . . حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليمًا) فهذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام . ويقول لها:إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت - أى إلى غير شريعة الله - لا يقبل منهم زعمهم أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله . فهو زعم كاذب (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت - وقد أمروا أن يكفروا به - ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدًا) ويقول لها:إن علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل الله والتحاكم إلى رسول الله (وإذا قيل لهم:تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) ويقول لها:إن منهجها الإيمانى ونظامها الأساسى ، أن تطيع الله - عز وجل - فى هذا القرآن - وأن تطيع رسول الله ﷺ فى سنته - وأولى الأمر من المؤمنين الداخلين فى شرط الإيمان وحد الإسلام معكم (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول . وأولى الأمر منكم) ويقول لها:إن المرجع ، فيما تختلف فيه وجهات النظر في المسائل الطارئة المتجددة . والأقضية التى لم ترد فها أحكام نصية هو الله ورسوله . . أى شريعة الله وسنة رسوله (فإن تنازعتم فى شىء ، فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) هذا هو الموضوع الخطير الذى يتناوله هذا الدرس . بالإضافة إلى بيان وظيفة الأمة المسلمة في الأرض . من إقرار مبادى ء العدل والخلق على أساس منهج الله القويم السليم (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ؛ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعا بصيرا) والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى . . الأمانة التي ناط الله بها فطرة الإنسان ؛ والتى أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها "الإنسان" . . أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه . فهذه أمانة الفطرة الإنسانية خاصة ، ومن هذه الأمانة الكبرى ، تنبثق سائر الأمانات ، التى يأمر الله أن تؤدى:

ومن هذه الأمانات: أمانة الشهادة لهذا الدين . . الشهادة له فى النفس أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له . ترجمة حية في شعورها وسلوكها . حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس . فيقولوا:ما أطيب هذا الإيمان وأحسنة وأزكاه ؛ وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال ! فتكون هذه شهادة لهذا الدين فى النفس يتأثر بها الآخرون . . والشهادة له بدعوة الناس إليه ، وبيان فضله ومزيته - بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية - فما يكفى أن يؤدى المؤمن الشهادة للإيمان فى ذات نفسه ، إذا هو لم يدع إليها الناس كذلك ، وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان . وهى إحدى الأمانات . .

ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره فى الأرض ؛ منهجا للجماعة المؤمنة ؛ ومنهجا للبشرية جميعا . . المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيلة ، وبكل ما تملك الجماعة من وسيلة . فإقرار هذا المنهج فى حياة البشر هو كبرى الأمانات ؛ بعد الإيمان الذاتى . ولا يعفى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا جماعة . . ومن ثم ف " الجهاد ماض إلى يوم القيامة " على هذا الأساس . . أداء لإحدى الأمانات . .

ومن هذه الأمانات – الداخلة فى ثنايا – ما سبق – أمانة التعامل مع الناس ؛ ورد أماناتهم إليهم:أمانة المعاملات والودائع المادية . وأمانة النصيحة للراعى وللرعية . وأمانة القيام على الأطفال الناشئة . وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها . . وسائر ما يجلوه المنهج الربانى من الواجبات والتكاليف فى كل مجالى الحياة على وجه الإجمال . . فهذه من الأمانات التى يأمر الله أن تؤدى ؛ ويجملها النص هذا الإجمال . .

فأما الحكم بالعدل بين(الناس) فالنص يطلقه هكذا عدلا شاملا بين (الناس) جميعا . لا عدلا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب . ولا عدلا مع أهل الكتاب ، دون سائر الناس . . وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه "إنساناً" . فهذه الصفة – صفة الناس – هى التى يترتب عليها حق العدل فى المنهج الربانى . وهذه الصفة يلتقى عليها البشر جميعا:مؤمنين وكفارا . أصدقاء وأعداء . سودا وبيضا . عربا وعجما . والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل – متى حكمت فى أمرهم – هذا العدل الذى لم تعرفه البشرية قط – فى هذه الصورة – إلا على يد الإسلام ، وإلا فى حكم المسلمين ، وإلا فى عهد القيادة الإسلامية للبشرية . . والذى افتقدته من قبل ومن بعد هذه القيادة ؛ فلم تذق له طعما قط , فى مثل هذه الصورة الكريمة التى تتاح للناس جميعا .

ثم يجىء التعقيب الأخير فى الآية ؛ يعلق الأمر بالله ومراقبته وخشيته ورجائه (إن الله كان سميعا بصيراً) والتناسق بين المأمور به من التكاليف ؛ وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ; وبين كون الله سبحانه (سميعا بصيراً) مناسبة واضحة ولطيفة معا . . فالله يسمع ويبصر ، قضايا العدل وقضايا الأمانة . والعدل كذلك فى حاجة إلى الاستماع البصير وإلى حسن التقدير ، وإلى مراعاة الملابسات والظواهر ، وإلى التعمق فيما وراءالملابسات والظواهر . وأخيرا فإن الأمر بهما يصدر عن السميع البصير بكل الأمور .

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ؛ وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر . . منكم . . فإن تنازعتم فى شىء ، فردوه إلى الله والرسول . إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا) وفى هذا النص القصير يبين الله – سبحانه – شرط الإيمان وحد الإسلام . فى الوقت الذى يبين فيه قاعدة النظام الأساسى فى الجماعة المسلمة ؛ وقاعدة الحكم ، ومصدر السلطان . . وكلها تبدأ وتنتهى عند التلقى من الله وحده ؛ والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصا ، من جزيئات الحياة التى تعرض فى حياة الناس على مدى الأجيال ؛ مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام . . ليكون هنالك الميزان الثابت ، الذى ترجع إليه العقول والآراء والأفهام ! إن" الحاكمية " لله وحده فى حياة البشر – ما جل منها وما دق ، وما كبر منها وما صغر - والله قد سن شريعة أودعها قرآنه . وأرسل بها رسولا يبينها للناس . ولا ينطق عن الهوى . فسنته ﷺ من ثم شريعة من شريعة الله . والله واجب الطاعة . ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة . فشريعته واجبة التنفيذ .وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله – ابتداء – وأن يطيعوا الرسول – بما له من هذه الصفة . صفة الرسالة من الله – فطاعته إذن من طاعة الله ، (إن كنم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فأما أولو الأمر ؛ فالنص يعين من هم (وأولى الأمر . . منكم . .) أى من المؤمنين . . الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين فى الآية . . من طاعة الله وطاعة الرسول ؛ وإفراد الله – سبحانه – بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء ; والتلقى منه وحده – فيما نص عليه – والرجوع إليه أيضا فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء ، مما لم يرد فيه نص ؛ لتطبيق المبادى ء العامة فى النصوص عليه . والنص يجعل طاعة الله أصلا ؛ وطاعة رسوله أصلا كذلك – بما أنه مرسل منه – ويجعل طاعة أولى الأمر . . منكم . . تبعا لطاعة الله وطاعة رسوله . فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم ، كما كررها عند ذكر الرسول ﷺ ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله – بعد أن قرر أنهم (منكم) بقيد الإيمان وشرطه ، والسنة تقرر حدود هذه الطاعة ، على وجه الجزم واليقين فى الصحيحين من حديث الأعمش:" إنما الطاعة فى المعروف " وفيهما من حديث يحيى القطان:" السمع والطاعة على المرء المسلم . فيما أحب أو كره . ما لم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " . ذلك فيما ورد فيه نص صريح . فأما الذى لم يرد فيه نص . وأما الذى يعرض من المشكلات والأقضية ، على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات – ولا يكون فيه نص قاطع ، أو لا يكون فيه نص على الإطلاق . . مما تختلف فى تقديره العقول والآراء والأفهام - فإنه لم يترك كذلك تيها . بلا ميزان . ووضع هذا النص القصير ، منهج الاجتهاد كله ، وحدده بحدوده ; وأقام "الأصل" الذى يحكم منهج الاجتهاد أيضا (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) ردوه إلى النصوص التى تنطبق عليه ضمنا . فإن لم توجد النصوص التى تنطبق على هذا النحو , فردوه إلى المبادى ء الكلية العامة فى منهج الله وشريعته . . وهذه ليست عائمة , ولا فوضى ، ولا هى من المجهلات التى تتيه

فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول . وهناك – فى هذا الدين – مبادى ء أساسية واضحة كل الوضوح ، تغطى كل جوانب الحياة الأساسية ، وتضع لها سياجا خرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) وبعد أن يضع النص المسألة فى هذا الوضع الشرطى ، يقدمها مرة أخرى فى صورة "العظة" والترغيب والتحبيب ؛ على نحو ما صنع فى الأمر بالأمانة والعدل ثم التحبيب فيها والترغيب (ذلك خير وأحسن تأويلا . .) ذلك خير لكم وأحسن مآلا . خير فى الدنيا وخير فى الآخرة . وأحسن مآلا فى الدنيا وأحسن مآلا فى الآخرة كذلك . وحين ينتهى السياق من تقرير هذه القاعدة الكلية فى شرط الإيمان وحد الإسلام ، وفى النظام الأساسى للأمة المسلمة ، وفى منهج تشريعها وأصوله . . يلتفت إلى الذين ينحرفون عن هذه القاعدة ؛ ثم يزعمون – بعد ذلك – أنهم مؤمنون (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت – وقد أمروا أن يكفروا به – ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدًا)ألم تر إلى هذا العجب العاجب . . قوم . . يزعمون . . الإيمان . ثم يهدمون هذا الزعم فى آن ؟! قوم (يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك). ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى منهج آخر ، وإلى حكم آخر ، يريدون أن يتحاكموا إلى ، الطاغوت الذى لا يستمد مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . ومن ثم فهو طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية . وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضا ! وهم لا يفعلون هذا عن جهل ، ولا عن ظن ، إنما هم يعلمون يقينا ويعرفون تماما ، أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه (وقد أمروا أن يكفروا به) فليس فى الأمر جهالة ولا ظن . بل هو العمد والقصد . ومن ثم لا يستقيم ذلك الزعم أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ! إنما هو الشيطان الذى يريد بهم الضلال الذى لا يرجى منه مآب (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدًا) فهذه هى العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت . وهذا هو الدافع الذى يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت ! هذا هو الدافع يكشفه لهم . لعلهم يتنبهون فيرجعوا . ويكشفه للجماعة المسلمة ، لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك . ويمضى السياق فى وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله إلى الرسول وما أنزل من قبله . . ذلك الذى يزعمون أنهم آمنوا به (وإذا قيل لهم:تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) يا سبحان الله ! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه ! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطرى . . وإلا ما كان نفاقا ، إن المقتضى الفطرى البديهى للإيمان ، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به ، وإلى من آمن به . فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل ، وبالرسول وما أنزل إليه . ثم دعى إلى هذا الذى آمن به ، ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه ؛ كانت التلبيه الكاملة هى البديهية الفطرية . فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية . ويكشف عن النفاق . وينبى ء عن كذب الزعم الذى زعمه من الإيمان ! ثم يعرض مظهرا من مظاهر النفاق فى سلوكهم ؛ حين يقعون فى ورطة أو كارثة بسبب عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﷺ أو بسبب ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت . ومعاذيرهم عند ذلك . وهى معاذير النفاق (فكيف إذا أصابتهم مصيبة – بما قدمت أيديهم – ثم جاؤوك يحلفون بالله:إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم فى وسط الجماعة المسلمة – يومذاك – حيث يصبحون معرضين للنبذ والمقاطعة والازدراء فى الوسط المسلم . فما يطيق المجتمع المسلم أن يرى من بينه ناسا يزعمون أنهم آمنوا بالله وما أنزل ، وبالرسول وما أنزل إليه ; ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة الله ؛ أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها ، أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم ؛ نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل ، ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت ؛ فى قضية من قضاياهم . أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من الله لهم . لعلهم يتفكرون ويهتدون . . وأياما ما كان سبب المصيبة ؛ فالنص القرانى ، يسأل مستنكرا:فكيف يكون الحال حينئذ ! كيف يعودون إلى الرسول ﷺ (يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) إنها حال مخزية . . حين يعودون شاعرين بما فعلوا . . غير قادرين على مواجهة الرسول ﷺ بحقيقة دوافعهم . وفى الوقت ذاته يحلفون كاذبين:أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت – وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية – إلا رغبة فى الإحسان والله - سبحانه – يكشف عنهم هذا الرداء المستعار . ويخبر رسوله ﷺ أنه يعلم حقيقة ما تنطوى عليه جوانحهم . ومع هذا يوجهه إلى أخذهم بالرفق ، والنصح لهم بالكف عن هذا الالتواء (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم . فأعرض عنهم وعظهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) أولئك الذين يخفون حقيقة نواياهم وبواعثهم ؛ ويحتجون بهذه الحجج ، ويعتذرون بهذه المعاذير . والله يعلم خبايا الضمائر ومكنونات الصدور . . ولكن السياسة التى كانت متبعة - فى ذلك الوقت – مع المنافقين كانت هى الإغضاء عنهم ، وأخذهم بالرفق ، واطراد الموعظة والتعليم والتعبير العجيب (وقل لهم . . فى أنفسهم . . قولا بليغا) تعبير مصور كأنما القول يودع مباشرة فى الأنفس ، ويستقر مباشرة فى القلوب . وهو يرغبهم فى العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله

وكنف رسوله . . بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الإحتكام إلى الطاغوت ؛ ومن الصدود عن الرسول ﷺ حين يدعون إلى التحاكم إلى الله والرسول . . فالتوبة بابها مفتوح ، والعودة إلى الله لم يفت أوانها بعد ؛ واستغفارهم الله من الذنب ، واستغفار الرسول لهم ، فيه القبول ! ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية:وهى أن الله قد أرسل رسله ليطاعوا - بإذنه - لا ليخالف عن أمرهم . ولا ليكونوا مجرد وعاظ ! ومجرد مرشدين ! (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيمًا) وهذه حقيقة لها وزنها . . إن الرسول ليس مجرد "واعظ" يلقى كلمته ويمضى . لتذهب فى الهواء - بلا سلطان - كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل ؛ أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول "الدين" . وأمام الذين (ظلموا أنفسهم) يميلهم عن هذا المنهج ، الفرصة التى دعا الله المنافقين إليها على عهد رسول الله ﷺ ورغبهم فيها (ولو أنهم - إذ ظلموا أنفسهم - جاؤوك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيمًا ، والله تواب فى كل وقت على من يتوب . والله رحيم فى كل وقت على من يؤوب . وهو - سبحانه - يصف نفسه بصفته . ويعد العائدين إليه ، المستغفرين من الذنب ، قبول التوبة وإفاضة الرحمة . . والذين يتناولهم هذا النص ابتداء كان لديهم فرصة استغفار الرسول ﷺ وقد انقضت فرصتها . وبقى باب الله مفتوحا لا يغلق . ووعده قائما لا ينقض . فمن أراد فليقدم . ومن عزم فليتقدم ، وأخيرا يجىء ذلك الإيقاع الحاسم الجازم . إذ يقسم الله - سبحانه - بذاته العلية , أنه لا يؤمن مؤمن ، حتى يحكم رسول الله ﷺ فى أمره كله . ثم يمضى راضيا بحكمه , مسلما بقضائه . ليس فى صدره حرج منه ، ولا فى نفسه تلجلج فى قبوله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت , ويسلموا تسليمًا) ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحد الإسلام . يقرره الله سبحانه بنفسه . ويقسم عليه بذاته . فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل فى تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام ، ولا تأويل لمؤول ، ومن ثم لم يكتب عليهم ما يشق ، وما يدعو الكثيرين منهم للتقصير والمعصية . ولو أنهم استجابوا للتكاليف اليسيرة التى كتبها الله عليهم ؛ واستمعوا للموعظة التى يعظهم الله بها ؛ لنالوا خيرا عظيما فى الدنيا والآخرة ؛ ولأعانهم الله بالهدى ، كما يعين كل من يجاهد للهدى بالعزم والقصد والعمل والإرادة ، فى حدود الطاقة (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً (٦٦) وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً)(٦٨) وقتل النفس ، والخروج من الديار . . مثلان للتكاليف الشاقة ، التى لو كتبت عليهم ما فعلها إلا قليل منهم . وهى لم تكتب لأنه ليس المراد من التكاليف أن يعجز عنها عامة الناس بل المراد أن يؤديها الجميع ، وأن يقدر عليها الجميع ، وإن هى إلا العزيمة - عزيمة الفرد العادى - وإخلاص النية . والبدء فى الطريق . وعندئذ يكون ما يعد الله به العاملين (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا . وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما . ولهديناهم صراطا مستقيمًا) فمجرد البدء ، يتبعه العون من الله . ويتبعه التثبيت على المضى فى الطريق . ويتبعه الأجر العظيم ، وتتبعه الهداية إلى الطريق المستقيم ، فى الوقت ذاته ليس اليسر - فى هذا المنهج - هو الترخص . ليس هو تجميع الرخص كلها فى هذا الدين وجعلها منهج الحياة . فهذا الدين عزائم ورخص . والعزائم هى الأصل والرخص للملابسات الطارئة . . وبعض المخلصين حسنى النية ، الذين يريدون دعوة الناس إلى هذا الدين ، يعمدون إلى "الرخص" فيجمعونها ويقدمونها للناس , على أنها هى هذا الدين . ويقولون لهم:انظروا كم هو ميسر هذا الدين ! وبعض الذين يتملقون شهوات السلطان أو شهوات الجماهير ، يبحثون عن "منافذ" لهذه الشهوات من خلال الأحكام والنصوص ؛ ويجعلون هذه المنافذ هى الدين ! وهذا الدين ليس هذا وليس ذاك . إنما هو بجملته . برخصه وعزائمة . ميسر للناس يقدر عليه الفرد العادى ، حين يعزم . ويبلغ فيه تمام كماله الذاتى - فى حدود بشريته - كما يبلغ تمام كماله الذاتى فى الحديقة الواحدة:العنب والخوخ والكمثرى والتوت والتين والقثاء . . ولا تكون كلها ذات طعم واحد . . ولا يقال عن أحدها:إنه غير ناضج - حين يبلغ نضجه الذاتى - إذا كان طعمه أقل مرتبة من النوع الآخر ! وفى نهاية هذه الجولة ، يعود السياق إلى الترغيب ؛ واستجاشة القلوب ، والتلويح للأرواح بالمتاع الحبيب . . متاع الصحبة فى الآخرة للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين (ومن يطع الله والرسول ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقا ! ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليمًا) إنها اللمسة التى تستجيش مشاعر كل قلب ، فيه ذرة من خير ؛ وفيه بذرة من صلاح وفيه أثارة من التطلع إلى مقام كريم فى صحبة كريمة ، فى جوار الله الكريم . . وهذه الصحبة لهذا الرهط العلوى . . إنما هى من فضل الله . فما يبلغ إنسان بعمله وحده وطاعته وحدها أن ينالها . . إنما هو الفضل الواسع الغامر الفائض العميم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً {٧١} وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً {٧٢} وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً {٧٣} فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً {٧٤} وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً {٧٥} الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً {٧٦} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً {٧٧} أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَالِ هَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً {٧٨} مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً {٧٩} مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً {٨٠} وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً {٨١} أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً {٨٢} وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً {٨٣} فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً {٨٤} مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً {٨٥} وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً {٨٦} اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً {٨٧} فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً {٨٨} وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً {٨٩} إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً {٩٠} سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّواْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً {٩١} وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً {٩٢} وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً {٩٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً {٩٤}

نرجح أن تكون مجموعة هذه الآيات ، نزلت في وقت مبكر . . ربما كان ذلك بعد غزوة أحد ، وقبل الخندق . فصورة الصف المسلم التى تبدو من خلال هذه الآيات توحي بهذا . توحي بوجود جماعات تخوض المعركة مع الضعف البشرى ومع رواسب الجاهلية ومع المعسكرات المعادية في وقت واحد . ونرى منهج القرآن في التربية – وهو يعمل فى النفوس الحية فى عالم الواقع – ونرى طرفا من الجهد الموصول الذى بذله هذا المنهج ، حتى انتهى بهذه المجموعة – المختلفة الدرجات ، المتخلفة السمات ، الملتقطة ابتداء من سفح الجاهلية – إلى ذلك التناسق والتكامل والارتفاع , الذى نشهده فى أواخر أيام الرسول ﷺ بقدر ما تسمح به الفطرة البشرية كذلك ! وهذا كثيرا . .

يفيدنا في إدراك طبيعة النفس البشرية ، وما تحمله من استعدادات الضعف واستعدادات القوة . متمثلة فى خير الجماعات . . الجماعة التى رباها رسول الله ﷺ بالمنهج القرآنى . .

ويفيدنا في إدراك طبيعة المنهج القرآنى فى التربية ؛ وكيف كان يأخذ هذه النفوس ؛ وكيف كان يتلطف لها ؛ وكيف كان ينسق الصف ، الذى يحتوى على نماذج شتى من مستويات شتى . حيث نراه وهو يعمل فى عالم الواقع . . على الطبيعة . . !

ويفيدنا فى أن نقيس حالنا وحال المجموعات البشرية ؛ على واقع النفس البشرية ، ممثلة فى تلك الجماعة المختارة . . كى لا نيأس من أنفسنا حين نطلع على مواضع الضعف , فنترك العلاج والمحاولة ! وكى لا تبقى الجماعة الأولى – على كل فضلها – مجرد حلم طائر فى خيالنا ، لا مطمع لنا فى محاولة السير على خطاها . من السفح الهابط ، فى المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة !

وكل هذه ذخيرة ، حين نخرج بها – من الحياة فى ظلال القرآن – نكون قد جنينا خيرا كثيرا إن شاء الله . . إن من خلال هذه المجموعة من آيات هذا الدرس يبدو لنا أنه كان فى الصف المسلم يومذاك:

"أ" من يبطىء نفسه عن الجهاد فى سبيل الله ، ومن يبطىء غيره . ثم يحسبها غنيمة إذا لم يخرج فسلم ، على حين أصابت المسلمين مصيبة ! كما يعدها خسارة إذا لم يخرج فغنم المسلمون ، لأنه لم يكن له سهم فى الغنيمة ! وبذلك يشترى الدنيا بالآخرة !

"ب" وكان فيه من المهاجرين أنفسهم – وممن كانت تأخذهم الحماسة للقتال ودفع العدوان وهم فى مكة ، مكفوفون عن القتال – من يأخذهم الجزع حينما كتب عليهم القتال فى المدينة ؛ ويتمنى لو أن الله أمهلهم إلى أجل ، ولم يكتب عليهم القتال الآن !

"ج" ومن كان يرجع الحسنة – حين تصيبه – إلى الله ؛ ويرجع السيئة – حين تصيبه – إلى النبى ﷺ لا لشدة إيمانه بالله طبعا ؛ ولكن لتجريح القيادة والتطير بها !

"د" ومن كان يقول:طاعة ، فى حضرة الرسول ﷺ فإذا خرج بيت هو ومن لف لفه غير الذى يقول !

"ه" ومن كان يتناول الشائعات ، فيذيع بها فى الصف ؛ محدثا بها ما يحدثه من البلبة , قبل أن يتثبت منها ، من القيادة التى يتبعها !

"و" ومن كان يشك فى أن مصدر هذه الأوامر والتوجيهات كلها هو الله سبحانه . ويظن أن بعضها من عند النبى ﷺلا مما أوحى له به !

"ز" ومن كان يدافع عن بعض المنافقين – كما سيأتى فى مطلع الدرس التالى – حتى لتنقسم الجماعة المسلمةفى أمرهم فئتين . . مما يوحى بعدم التناسق فى التصور الإيمانى وفى التنظيم القيادى [من ناحية عدم فهم المجموع لوظيفة القيادة وعلاقتهم بها فى مثل هذه الشؤون] . .

وقد يكون هؤلاء جميعا مجموعة واحدة من المنافقين ؛ أو مجموعتين:المنافقين . وضعاف الإيمان ، الذين لم تنضج شخصيتهم الإيمانية – ولو كان بعضهم من المهاجرين . . ولكن وجود تلك المجموعة أو هاتين المجموعتين فى الصف المسلم – وهو يواجه العداوات المحيطة به فى المدينة من اليهود ، وفى مكة من المشركين ، وفى الجزيرة العربية كلها من المتربصين . . من شأنه أن يحدث خلخلة فى الصف ؛ تحتاج إلى تربية طويلة ، وإلى جهاد طويل ! ونحن نرى فى هذا الدرس نماذج من هذا الجهاد ، ومن هذه التربية . وعلاجا لكل خبيئة فى النفس أو فى الصف . فى دقة ، وفى عمق ، وفى صبر كذلك ، يتمثل فى صبر النبى ﷺ قائد هذا الصف ، الذى يتولى تربيته بالمنهج القرآنى:

"أ" نرى الأمر بالحذر ، فلا يخرج المجاهدون المؤمنون فرادى ، للسرايا أو المهام الجهادية . بل يخرجون "ثبات" أى سرايا أو فصائل . . أو يخرجون جميعا فى جيش متكامل . لأن الأرض حولهم ملغمة ! والعداوات حولهم شتى ، والكمين قد يكون كامنا بينهم من المنافقين , أو ممن يؤويهم المنافقون واليهود من عيون الأعداء المتربصين !

"ب" ونرى تصويرا منفرا للمبطئين يبدو فيه سقوط الهمة ؛ وحب المنفعة القريبة ؛ والتلون من حال إلى حال ، حسب اختلاف الأحوال ! وكذلك نرى التعجيب من حال أولئك الذين كانوا شديدى التحمس فى مكة للقتال ، فلما كتب عليهم فى المدينة عراهم الجزع .

"ج" ونرى وعد الله لمن يقاتلون فى سبيل الله ، بالأجر العظيم ، وإحدى الحسنيين (ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيمًا)

"د" ونرى تصوير القرآن لشرف القصد ، وارتفاع الهدف ، ونبل الغاية ، فى القتال الذى يدفعهم إليه . . (فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون:ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) . .

"ه" كما نرى تصوير القرآن لأحقية الغاية التى يجاهد لها الذين آمنوا وقوة السند ; إلى جانب بطلان غاية الذين كفروا وضعف سندهم فيها (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله , والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفًا)

"و" ونرى معالجة المنهج القرآنى للتصورات الفاسدة ، التى تنشأ عنها المشاعر الفاسدة والسلوك الضعيف . وذلك بتصحيح هذه التصورات الاعتقادية . . مرة فى بيان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة: (قل:متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلًا) . . ومرة فى تقرير حتمية الموت ونفاذ المقدر فيه ؛ مهما يتخذ المرء من الاحتياط ، ومهما ينكل عن الجهاد: (أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة) . . ومرة فى تقرير حقيقة قدر الله وعمل الإنسان: وإن تصبهم حسنة يقولوا:هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا:هذه من عندك . قل:كل من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك . .

"ز" ونرى القرآن يؤكد حقيقة الصلة بين الله – سبحانه – ورسوله [ص] وأن طاعته من طاعته . ويقرر أن هذا القرآن كله من عنده ؛ ويدعوهم إلى تدبر الوحدة الكاملة فيه ، الدالة على وحدة مصدره (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً (٧١)

"ح" ثم نراه – بعد أن يصف حال المرجفين بالأنباء – يوجههم إلى الطريق الأسلم ، المتفق مع قاعدة التنظيم القيادى للجماعة: (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم , لعلمه الذين يستنبطونه منهم) . .

"ط" ويحذرهم من عاقبة هذا الطريق ، وهو يذكرهم فضل الله عليهم فى هدايتهم (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلًا)

ونستطيع أن ندرك مدى الخلخلة التى كانت تنشئها هذه الظواهر فى الجماعة المسلمة ؛ والتى كانت تحتاج إلى مثل هذا الجهد الموصول ، المنوع الأساليب . . حين نسمع الله – سبحانه - يأمر نبيه ﷺ بأن يجاهد – ولو كان وحيدا – وأن يحرض المؤمنين عل القتال . فيكون مسئولا عن نفسه فحسب والله يتولى المعركة (فقاتل فى سبيل الله – لا تكلف إلا نفسك – وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلًا) وفى هذا الأسلوب ما فيه من استجاشة القلوب ، واستثارة الهمم ؛ بقدر ما فيه من استجاشة الأمل فى النصر ، والثقة ببأس الله وقوته ، لقد كان القرآن يخوض المعركة بالجماعة المسلمة فى ميادين كثيرة . وكان أولها ميدان النفس ضد الهواجس والوساوس وسوء التصور ورواسب الجاهلية ، والضعف البشرى – حتى ولو لم يكن صادرا عن نفاق أو انحراف – وكأن يسوسها بمنهجه الربانى لتصل إلى مرتبة القوة ، ثم إلى مرتبة التناسق فى الصف المسلم . وهذه غاية أبعد وأطول أمدا . فالجماعة حين يوجد فيها الأقوياء كل القوة ، لا يغنيها هذا ، إذا وجدت اللبنات المخلخلة فى الصف بكثرة . . ولا بد من التناسق مع اختلاف المستويات . . وهى تواجه المعارك الكبيرة .

(يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم . فانفروا ثبات ، أو انفروا جميعا . وإن منكم لمن ليبطئن . فإن أصابتكم مصيبة قال:قد أنعم الله على ، إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن – كأن لم تكن

بينكم وبينه مودة – يا ليتنى كنت معهم , فأفوز فوزا عظيما). . إنها الوصية للذين آمنوا:الوصية من القيادة العليا ، التى ترسم لهم المنهج ، وتبين لهم الطريق . وإن الإنسان ليعجب ، وهو يراجع القرآن الكريم ؛ فيجد هذا الكتاب يرسم للمسلمين – بصفة عامة طبعا – الخطة العامة للمعركة وهى ما يعرف باسم " استراتيجية المعركة " . ففى الآية الأخرى يقول للذين أمنوا (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة) فيرسم الخطة العامة للحركة الإسلامية . وفى هذه الآية يقول للذين آمنوا (خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا وهى تبين ناحية من الخطة التنفيذية أو ما يسمى "التاكتيك" وهكذا نجد هذا الكتاب لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب ؛ ولا يعلمهم الآداب والأخلاق فحسب – كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين ! إنما هو يأخذ حياتهم كلها جملة . ويعرض لكل ما تتعرض له حياة الناس من ملابسات واقعية . فيحذرهم ابتداء (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) خذو حذركم من عدوكم جميعا . وبخاصة المندسين فى الصفوف من المبطئين ، الذين سيرد ذكرهم فى الآية (فانفروا ثبات أو انفروا جميعً) ثبات . جميع ثبة:أى مجموعة . . والمقصود لا تخرجوا للجهاد فرادى . ولكن اخرجوا مجموعات صغيرة ، أو الجيش كله . . حسب طبيعة المعركة . . ذلك أن الآحاد قد يتصيدهم الإعداء , المبثوثون فى كل مكان . وبخاصة إذا كان هؤلاء الأعداء منبثين فى قلب المعسكر الإسلامى . . وهم كانوا كذلك ، ممثلين فى المنافقين ، وفى اليهود ، فى قلب المدينة (وإن منكم لمن ليبطئن . فإن أصابتكم مصيبة قال:قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن – كأن لم تكن بينكم وبينه مودة – يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيمًا) انفروا جماعات نظامية . أو انفروا جميعا . ولا ينفر بعضكم ويتثاقل بعضكم – كما هو واقع – وخذوا حذركم . لا من العدو الخارجى وحده ؛ ولكن كذلك من المعوقين المبطئين المخذلين ؛ سواء كانوا يبطئون أنفسهم – أى يقعدون متثاقلين – أو يبطئون غيرهم معهم ؛ وهو الذى يقع عادة من المخذلين المثبطين ! ولفظة (ليبطئن) مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر ؛ وإن اللسان ليتعثر فى حروفها وجرسها ، حتى يأتى على آخرها ، وهو يشدها شدا ؛ وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملا بهذا التعثر والتثاقل فى جرسها . وذلك من بدائع التصوير الفنى فى القرآن ، الذى يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة .

وكذلك يشى تركيب الجملة كلها (وإن منكم لمن ليبطئن) بأن هؤلاء المبطئين – وهم معدودون من المسلمين (منكم) يزاولون عملية التبطئة كاملة ، ويصرون عليها إصرارا ، ويجتهدون فيها اجتهادا . . وذلك بأسلوب التوكيد بشتى المؤكدات فى الجملة ! مما يوحى بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطئة ، وشدة أثرها فى الصف المسلم ؛ وشدة ما يلقاه منها ! ومن ثم يسلط السياق الأضواء الكاشفة عليهم ، وعلى دخيلة نفوسهم ؛ ويرسم حقيقتهم المنفرة (وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً) (٧٣) فها هم أولاء ، بكل بواعثهم ، وبكل طبيعتهم وبكل أعمالهم وأقوالهم . . ها هم أولاء مكشوفين للأعين ، كما لو كانوا قد وضعوا تحت مجهر ، يكشف النوايا والسرائر ؛ ويكشف البواعث والدوافع . إنهم يبطئون ويتلكأون ، ولا يصارحون ، ليمسكوا العصا من وسطها كما يقال ! وتصورهم للربح والخسارة هو التصور الذى يليق بالمنافقين الضعاف الصغار ، يتخلفون عن المعركة . فإن أصابت المجاهدين محنة ، وابتلوا الابتلاء الذى يصيب المجاهدين - فى بعض الأحايين – فرح المتخلفون ؛ وحسبوا أن فرارهم من الجهاد ، ونجاتهم من الابتلاء نعمة (فإن أصابتكم مصيبة قال:قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدًا) إنهم لا يخجلون – وهم يعدون هذه النجاة مع التخلف نعمة – أن ينسبوها لله . الله الذى خالفوا عن أمره فقعدوا ! والنجاة فى هذه الملابسة لا تكون من نعمة الله أبدا . فنعمة الله لا تنال بالمخالفة . ولو كان ظاهرها نجاة ! فأما إذا كانت الأخرى . . فانتصر المجاهدون ؛ الذين خرجوا مستعدين لقبول كل ما يأتيهم به الله . . ونالهم فضل من الله بالنصر والغنيمة . . ندم المتخلفون أن لم يكونوا شركاء فى معركة رابحة ! رابحة بحسب مفهومهم القريب الصغير للربح والخسارة ! (ولئن أصابكم فضل من الله ، ليقولن – كأن لم تكن بينكم وبينه مودة – يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيمًا) إنها أمنية الفوز الصغير بالغنيمة والإياب ، هى التى يقولون عنها: (فوزا عظيمًا) والمؤمن لا يكره الفوز بالإياب والغنيمة ؛ بل مطلوب منه أن يرجوه من الله . والمؤمن لا يتمنى وقوع البلاء بل مطلوب منه أن يسأل الله العافية . . ولكن التصور الكلى للمؤمن غير هذا التصور ، الذى يرسمه التعبير القرآنى لهذه الفئة رسما مستنكرا منفرا ، إن المؤمن لا يتمنى البلاء بل يسأل الله العافية . ولكنه إذا ندب للجهاد خرج - غير متثاقل – خرج يسأل الله إحدى الحسنيين:النصر أو الشهادة . . وكلاهما فضل من الله ؛ وكلهما فوز عظيم . فيقسم له الله الشهادة ، فإذا هو راض بما قسم الله ؛ أو فرح بمقام الشهادة عند الله . ويقسم له الله الغنيمة والإياب ، فيشكر الله على فضله , ويفرح بنصر الله . لا لمجرد النجاة ! وهذا هو الأفق الذى أراد الله أن

يرفع المسلمين إليه ؛ وهو يرسم لهم هذه الصورة المنفرة لذلك الفريق(منهم)وهو يكشف لهم عن المندسين فى الصف من المعوقين ، ليأخذوا منهم حذرهم ؛ كما يأخذون حذرهم من أعدائهم !_ومن وراء التحذير والاستنهاض للجماعة المسلمة في ذلك الزمان ، يرتسم نموذج إنسانى متكرر في بنى الإنسان ، فى كل زمان ومكان، في هذه الكلمات المعدودة من كلمات القرآن ! ثم تبقى هذه الحقيقة تتملاها الجماعة المسلمة أبدا . وهي أن الصف قد يوجد فيه أمثال هؤلاء . فلا ييئس من نفسه . ولكن يأخذ حذره ويمضى . ويحاول بالتربية والتوجيه والجهد , أن يكمل النقص ، ويعالج الضعف ، وينسق الخطى والمشاعر والحركات !

ثم يمضى السياق يحاول أن يرفع ويطلق هؤلاء المبطئين المثقلين بالطين ! وأن يوقظ فى حسهم التطلع إلى ما هو خير وأبقى . . الآخرة . . وأن يدفعهم إلى بيع الدنيا وشراء الآخرة . ويعدهم على ذلك فضل الله فى الحالتين ، وإحدى الحسنيين:النصر أو الشهادة (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) فليقاتل - فى سبيل الله – فالإسلام لا يعرف قتالا إلا فى هذا السبيل . لا يعرف القتال للغنيمة ولا يعرف القتال للسيطرة . ولا يعرف القتال للمجد الشخصى أو القومى ! إنما يقاتل فى سبيل الله . لإعلاء كلمة الله فى الأرض . ولتمكين منهجه من تصريف الحياة . ولتمتيع البشرية بخيرات هذا المنهج ، وعدله المطلق" بين الناس" مع ترك كل فرد حرا فى اختيار العقيدة التي يقتنع بها . . في ظل هذا المنهج الربانى الإنسانى العالمى العام ، وحين يخرج المسلم ليقاتل فى سبيل الله ، بقصد إعلاء كلمة الله ، وتمكين منهجه في الحياة . ثم يقتل . . يكون شهيدا . وينال مقام الشهداء عند الله . . وحين يخرج لأى هدف آخر – غير هذا الهدف – لا يسمى "شهيدا" ولا ينتظر أجره عند الله ، بل عند صاحب الهدف الأخر الذى خرج له . . والذين يصفونه حينئذ بأنه "شهيد" يفترون على الله الكذب ; ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكى به الله الناس . افتراء على الله !بهذه اللمسة يتجه المنهج القرآنى إلى رفع هذه النفوس ؛ وإلى تعليقها بالرجاء في فضل الله العظيم ، فى كلتا الحالتين . وأن يهون عليها ما تخشاه من القتل ، وما ترجوه من الغنيمة كذلك ! فالحياة أو الغنيمة لا تساوى شيئا إلى جانب الفضل العظيم من الله . كما يتجه إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هى اشترت الدنيا بالآخرة ولم تشتر الآخرة بالدنيا [ولفظ يشرى من ألفاظ الضد فهى غالبا بمعنى يبيع] فهى خاسرة سواء غنموا أو لم يغنموا فى معارك الأرض . وأين الدنيا من الآخرة ؟ وأين غنيمة المال من فضل الله ؟ وهو يحتوى المال – فيما يحتويه – ويحتوى سواه ؟! ثم يلتفت السياق إلى المسلمين . يلتفت من أسلوب الحكاية والتصوير عن أولئك المبطئين ; إلى أسلوب الخطاب للجماعة المسلمة كلها . يلتفت إليها لاستجاشة مروءة النفوس , وحساسية القلوب ؛ تجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؛ الذين كانوا يقاسون فى مكة ما يقاسون على أيدى المشركين غير قادرين على الهجرة إلى دار الإسلام والفرار بدينهم وعقيدتهم ؛ وهم يتطلعون إلى الخلاص ، ويدعون الله أن يجعل لهم مخرجا من دار الظلم والعدوان . . يلتفت هذه الالتفاتة ليوحى إليهم بسمو المقصد , وشرف الغاية ، ونبل الهدف ، فى هذا القتال ، الذى يدعوهم أن ينفروا إليه ، غير متثاقلين ولا مبطئين . وذلك فى أسلوب تحضيضى ؛ يستنكر البطء والقعود (وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله ، والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان . الذين يقولون:ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا ؟). . وكيف تقعدون عن القتال فى سبيل الله ؛ واستنفاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؟ هؤلاء الذين ترتسم صورهم فى مشهد مثير لحمية المسلم ، وكرامة المؤمن , ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق ؟ ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف ، مشهد مؤثر مثير . لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا – وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة – وهذا المشهد كله معروض فى مجال الدعوة إلى الجهاد . وهو وحده يكفى . لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات . . وهو أسلوب عميق الوقع ، بعيد الغور فى مسارب الشعور والإحساس ، ثم لمسة نفسية أخرى ، لاستنهاض الهمم ، واستجاشة العزائم ، وإنارة الطريق ، وتحديد القيم والغايات والأهداف ، التي يعمل لها كل فريق: (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ؛ والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفا) الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ؛ لتحقيق منهجه ، وإقرار شريعته ، وإقامة العدل" بين الناس" باسم الله . لا تحت أى عنوان آخر . اعترافا بأن الله وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم: والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، لتحقيق مناهج شتى – غير منهج الله – وإقرار شرائع شتى – غير شريعة الله – وإقامة قيم شتى – غير التي أذن بها الله – ونصب موازين شتى غير ميزان الله ! ويأمر الله الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ؛ ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان (فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا)

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة ، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد . مقتنعى الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله ، ليس لأنفسهم منها نصيب ، ولا لذواتهم منها حظ . وليست لقومهم , ولا لجنسهم ، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء . . إنما هي لله وحده ، ولمنهجه وشريعته . وأنهم يواجهون قوما أهل باطل ؛ يقاتلون لتغليب الباطل على الحق . لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية – وكل مناهج البشر جاهلية – على شريعة منهج الله ؛ ولتغليب شرائع البشر الجاهلية – وكل شرائع البشر جاهلية – على الله ؛ ولتغليب ظلم البشر – وكل حكم للبشر من دون الله ظلم – على عدل الله ، الذى هم مأمورون أن يحكموا به بين الناس ومن هنا يتقرر مصير المعركة فى حس المؤمنين ، وتتحدد نهايتها . قبل أن يدخلوها . وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن فى المعركة – فهو واثق من النتيجة – أم بقى حتى غلب ، ورأى بعينيه النصر ؛ فهو واثق من الأجر العظيم (أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (٧٨) مَّا أَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً (٧٩) مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً) ٨١ (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً) (٨٢) وها نحن أولاء نرى الجهد الذى بذله المنهج فى إنشاء هذا التصور وتثبيته . فلم يكن الأمر هينا . ولم يكن مجرد كلمة تقال . ولكنه كان جهدا موصولا ، لمعالجة شح النفس , وحرصها على الحياة – بأى ثمن – وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة . . وفى الدرس بقية من هذا العلاج ، وذلك الجهد الموصول . إن السياق يمضى – بعد هذا – إلى التعجيب من أمر طائفة أو أكثر من المسلمين – قيل إن بعضهم من المهاجرين ، الذين كانت تشتد بهم الحماسة – وهم فى مكة يلقون الأذى والاضطهاد – ليؤذن لهم فى قتال المشركين . حيث لم يكن مأذونا لهم – بعد فى قتال ، للحكمة التى يعلمها الله ؛ والتى قد نصيب طرفا من معرفتها فيما سنذكره بعد . . فلما كتب عليهم القتال ، بعد أن قامت للإسلام دولة فى المدينة ، وعلم الله أن فى هذا الإذن خيرا لهم وللبشرية . . إذا هم – كما يصورهم القرآن – "يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ! وقالوا:ربنا لم كتبت علينا القتال ! لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! " ممن إذا أصابهم الحسنة قالوا :هذه من عند الله . وإن أصابتهم السيئة قالوا للرسول ﷺ هذه من عندك . وممن يقولون:طاعة حتى إذا خرجوا من عند الرسول ﷺ بيت طائفة منهم غير الذى تقول ..

يمضى السياق ليعجب من شأن هؤلاء ، ! ويصحح لهم – ولغيرهم – سوء التصور والإدراك لحقائق الموت والحياة ، والأجل والقدر ، والخير والشر ، والنفع والضرر ، والكسب والخسارة ، والموازين والقيم ؛ ويبين لهم حقائقها فى أسلوب يصور الحقائق فى صورتها الموحية المؤثرة (ألم تر إلى الذين قيل لهم:كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا:ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل:متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت . ولو كنتم فى بروج مشيدة . وإن تصبهم حسنة يقولوا:هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل:كل من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك . وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا . من يطع الرسول فقد أطاع الله ؛ من تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) هؤلاء الذين تتحدث عنهم هذه الآيات ؛ قد يكونون هم أنفسهم الذين تحدثت عنهم مجموعة سابقة فى هذا الدرس (وإن منكم لمن ليبطئن ...) ويكون الحديث كله عن تلك الطائفة من المنافقين ؛ التى تصدر منها هذه الأعمال وهذه الأقوال كلها . والحق . . أننا نجد أنفسنا – أمام هذه الآيات كلها – فى موقف لا نملك الجزم فيه بشيء . والروايات الواردةعنها ليس فيها جزم كذلك بشيء . . حتى فى آيات المجموعة الأولى . التى ورد أنها فى طائفة من المهاجرين ؛ كما ورد أنها فى طائفة من المنافقين !(ألم تر إلى الذين قيل لهم:كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل:متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة) يعجب الله – سبحانه – من أمر هؤلاء الناس ؛ الذين كانوا يتدافعون حماسة إلى القتال ويستعجلونه وهم فى مكة ، يتلقون الأذى والاضطهاد والفتنة من المشركين . حين لم يكن مأذونا لهم فى القتال للحكمة التى يريدها الله . فلما أن جاء الوقت المناسب الذى قدرة الله ؛ وتهيأت الظروف المناسبة وكتب عليهم القتال – فى سبيل الله – إذا فريق منهم شديد الجزع ، شديد الفزع ، حتى ليخشى الناس الذين أمروا بقتالهم – وهم ناس من البشر – كخشية الله . . (أو أشد خشية)!! وإذا هم

يقولون – فى حسرة وخوف وجزع – (ربنا لم كتبت علينا القتال ؟). . وهو سؤال غريب من مؤمن . وهو دلالة على عدم وضوح تصوره لتكاليف هذا الدين ؛ ولوظيفة هذا الدين أيضا . . ويتبعون ذلك التساؤل ، بأمنية حسيرة مسكينة ! (لولا أخرتنا إلى أجل قريب !) وأمهلتنا بعض الوقت ، قبل ملاقاة هذا التكليف الثقيل المخيف ! إن أشد الناس حماسة واندفاعا وتهورا ، قد يكونون هم أشد الناس جزعا وانهيارا وهزيمة عندما يجد الجد ، وتقع الواقعة . . بل إن هذه قد تكون القاعدة ! ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالبا ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف . لا عن شجاعة واحتمال وإصرار . كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال . قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة ؛ فتدفعهم قلة الإحتمال ، إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأى شكل . دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار . وأغلب الظن أن هذا الفريق الذى تعنيه هذه الآيات كان من ذلك الصنف ، الذى يلذعه الأذى فى مكة فلا يطيقه ؛ ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة . فيندفع يطلب من الرسول ﷺ أن يأذن له بدفع الأذى ، أو حفظ الكرامة . والرسول ﷺ يتبع فى هذا أمر ربه بالتريث والانتظار , وبعد لسع الحوادث عن الذوات والأشخاص ؛ لم يعد يرى للقتال مبررا ؛ أو على الأقل لم يعد يرى للمسارعة به ضرورة ! (فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا:ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب !).وأيا ما كانت حكمة الله من وراء هذه الخطة ، فقد كان هناك المتحمسون يبدون لهفتهم على اللحظة التى يؤذن لهم فيها بالقتال (فلما كتب عليهم القتال ، إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا:ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب !) وكان وجود هذه الطائفة فى الصف المسلم ينشىء فيه حالة من الخلخلة وينشىء فيه حالة من عدم التناسق بين هذه الطائفة الجزوع الهلوع , وبين الرجال المؤمنين ، ذوى القلوب الثابتة المطمئنة ، المستقبلة لتكاليف الجهاد - على ما فيها من مشقة – بالطمأنينة والثقة والعزم والحماسة أيضا . ولكن فى موضعها المناسب . فالحماسة فى تنفيذ الأمر حين يصدر هى الحماسة الحقيقية . أما الحماسة قبل الأمر ، فقد تكون مجرد اندفاع وتهور ؛ يتبخر عند مواجهة الخطر ! وكان القرآن يعالج هذه الحالة بمنهجه الربانى (قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة) إنهم يخشون الموت ، ويريدون الحياة . ويتمنون فى حسرة مسكينة ! لو كان الله قد أمهلهم بعض الوقت ؛ ومد لهم – شيئا – فى المتاع بالحياة ! والقرآن يعالج هذه المشاعر فى منابتها ؛ ويجلو غبش التصور لحقيقة الموت والأجل (قل متاع الدنيا قليل) متاع الدنيا كله . إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها فى جملته قليلا ؟ ما الذى يملكون تحقيقه من المتاع فى أيام ، أو أسابيع ، أو شهور ، أو سنين . ومتاع الدنيا كله والدنيا بطولها قليل ! ؟ (والآخرة خير لمن اتقى) فالدنيا - أولا – ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة . . إنها مرحلة . . ووراءها الآخرة والمتاع فيها هو المتاع – فضلا على أن المتاع فيها طويل كثير – فهى (خير). . (خير لمن اتقى) وتذكر التقوى هنا والخشية والخوف فى موضعها . التقوى لله . فهو الذى يتقى ، وهو الذى يخشى . وليس الناس الذين سبق أن قال:إنهم يخشونهم كخشية الله – أو أشد خشية ! – والذى يتقى الله لا يتقى الناس . والذى يعمر قلبه الخوف من الله لا يخاف أحدا . فماذا يملك له إذا كان الله لا يريد ؟ (ولا تظلمون فتيلا) فلا غبن ولا ضير ولا بخس ؛ إذا فاتهم شيء من متاع الدنيا . فهناك الآخرة . وهناك الجزاء الأوفى ؛ الذى لا يبقى معه ظلم ولا بخس فى الحساب الختامى للدنيا والآخرة جميعا ! ولكن بعض الناس قد تهفو نفسه – مع هذا كله – إلى أيام تطول به فى هذه الأرض ! حتى وهو يؤمن بالآخرة ، وهو ينتظر جزاءها الخير . . وبخاصة حين يكون فى المرحلة الإيمانية التى كانت فيها هذه الطائفة ! هنا تجيء اللمسة الأخرى التى تصحح التصور عن حقيقة الموت والحياة ، والأجل والقدر ؛ وعلاقة هذا كله بتكليف القتال ، الذى جزعوا له هذا الجزع ، وخشوا الناس فيه هذه الخشية ! (أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة) فالموت حتم فى موعده المقدر . ولا علاقة له بالحرب والسلم . ولا علاقة له بحصانة المكان الذى يحتمى به الفرد أو قلة حصانته . ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال إذن ، ولا هذا التكليف والتعرض للناس فى الجهاد يعجله عن موعده ، هذا أمر وذاك أمر ؛ ولا علاقة بينهما إنما العلاقة هناك بين الموت والأجل . بين الموعد الذى قدره الله وحلول ذلك الموعد ، وليست هنالك علاقة أخرى ولا معنى إذن لتمنى تأجيل القتال . ولا معنى إذن لخشية الناس فى قتال أو فى غير قتال ! وبهذه اللمسة الثانية يعالج المنهج القرآنى كل ما يهجس فى الخاطر عن هذا الأمر ؛ وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف ومن ذعر . . .وبهذا ربما ينتهى الحديث عن تلك الطائفة من المهاجرين . ويبدأ الحديث عن طائفة أخرى من الطوائف المنبثة فى المجتمع الإسلامى ، والتى يتألف منها الصف المسلم ومن سواها . . هذا وإن كان السياق لا انقطاع فيه ، ولا فصل ، ولا وقفة تنبىء بأن الحديث الآتى عن طائفة أخرى ، وأن الحديث عن هذه الطائفة قد انتهى . . ولكننا نمضى مع الاعتبارات التى أسلفناها (وإن تصبهم حسنة يقولوا:هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا:هذه من عندك ! قل:كل من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا

يكادون يفقهون حديثا ؟! ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك . وأرسلناك للناس رسولا . وكفى بالله شهيدا . من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظًا) إن الذين يقولون هذا القول ، وينسبون ما يصيبهم من الخير إلى الله ، وما يصيبهم من الضر إلى النبى ﷺ يحتمل فيهم وجوه:

الوجه الأول:أنهم يتطيرون بالنبى ﷺ فيظنونه – حاشاه – شؤما عليهم . يأتيهم السوء من قبله . فإن أجدبت السنة ، ولم تنسل الماشية ، أو إذا أصيبوا فى موقعة ؛ تطيروا بالرسول ﷺ فأما حين يصيبهم الخير فينسبون هذا إلى الله !

الوجه الثانى:أنهم يريدون عامدين تجريح قيادة الرسول ﷺ تخلصا من التكاليف التى يأمرهم بها . وقد يكون تكليف القتال منها – أو أخصها – فبدلا من أن يقولوا:إنهم ضعاف يخشون مواجهة القتال ، يتخذون ذلك الطريق الملتوى الآخر ! ويقولون:إن الخير يأتيهم من الله ، وإن السوء لا يجيئهم إلا من قبل الرسول ﷺ ومن أوامره . وهم يعنون بالخير أو السوء النفع أو الضر القريب الظاهر !

والوجه الثالث:هو سوء التصور فعلا لحقيقة ما يجرى لهم وللناس فى هذه الحياة ، وعلاقته بمشيئة الله .وطبيعة أوامر النبى ﷺ لهم ؛ وحقيقة صلة الرسول بالله سبحانه وتعالى . .

إن القضية التى تتناولها هذه الآيات ، هى جانب من قضية كبيرة . . القضية المعروفة فى تاريخ الجدل والفلسفة فى العالم كله باسم "قضية القضاء والقدر" أو" الجبر والاختيار" . . وقد وردت فى أثناء حكاية ذلك الفريق من الناس ؛ ثم فى الرد عليهم , وتصحيح تصورهم . والقرآن يتناولها ببساطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض . . فلنعرضها كما وردت وكما رد عليها القرآن الكريم (وإن تصبهم حسنة يقولوا:هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل:كل من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟) إن الله هو الفاعل الأول ، والفاعل الواحد ، لكل ما يقع فى الكون ، وما يقع للناس , وما يقع من الناس . فالناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا . ولكن تحقق الفعل - أى فعل – لا يكون إلا بإرادة من الله وقدر .

فنسبة إنشاء الحسنة أو إنشاء السيئة ، وإيقاعها بهم ، للرسول ﷺ وهو بشر منهم مخلوق مثلهم – نسبة غير حقيقية ؛ تدل على عدم فقههم لشىء ما فى هذا الموضوع . إن الإنسان قد يتجه ويحاول تحقيق الخير ؛ بالوسائل التى أرشد الله إلى أنها تحقق الخير . ولكن تحقق الخير فعلا يتم بإرادة الله وقدره . لأنه ليست هناك قدرة – غير قدرة الله – تنشىء الأشياء والأحداث وتحقق ما يقع فى هذا الكون من وقائع . وإذن يكون تحقق الخير – بوسائله التى اتخذها الإنسان وباتجاه الإنسان وجهده – عملا من أعمال القدرة الإلهية . وإن الإنسان قد يتجه إلى تحقيق السوء . أو يفعل ما من شأنه إيقاع السوء . ولكن وقوع السوء فعلا ، ووجوده أصلا ، لا يتم إلا بقدرة الله وقدر الله . لأنه ليس هناك قدرة منشئة للأشياء والأحداث فى هذا الكون غير قوة الله . وفى الحالتين يكون وجود الحدث وتحققه من عند الله . . وهذا ما تقرره الآية الأولى . .أما الآية الثانية: ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك . .) فإنها تقرر حقيقة أخرى . ليست داخلة ولا متداخلة مع مجال الحقيقة الأولى . . إنها فى واد آخر . . والنظرة فيها من زاوية أخرى: إن الله – سبحانه – قد سن منهجا ، وشرع طريقا ، ودل على الخير ، وحذر من الشر . . فحين يتبع الإنسان هذا المنهج ، ويسير فى هذا الطريق ، ويحاول الخير ، ويحذر الشر . . فإن الله يعينه على الهدى كما قال: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا). . ويظفر الإنسان بالحسنة . . ولا يهم أن تكون من الظواهر التى يحسبها الناس من الخارج كسبا . . إنما هى الحسنة فعلا فى ميزان الله تعالى . . وتكون من عند الله . لأن الله هو الذى سن المنهج وشرع الطريق ودل على الخير وحذر من الشر . . وحين لا يتبع الإنسان منهج الله الذى سنه ، ولا يسلك طريقه الذى شرعه ، ولا يحاول الخير الذى دله عليه ، ولا يحذر الشر الذى حذره منه . . حينئذ تصيبه السيئة . السيئة الحقيقية . سواء فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معا . . ويكون هذا من عند نفسه . لأنه هو الذى لم يتبع منهج الله وطريقه ، وهذا معنى غير المعنى الأول ، ومجال غير المجال الاول ، كما هو واضح فيما نحسب ، ولا يغير هذا من الحقيقة الأولى شيئا . وهى أن تحقق الحسنة ، وتحقق السيئة ووقوعهما لا يتم إلا بقدرة الله وقدره . لأنه المنشىء لكل ما ينشأ . المحدث لكل ما يحدث .الخالق لكل ما يكون . . أيا كانت ملابسة إرادة الناس وعملهم فى هذا الذى يحدث , وهذا الذى يكون . ثم يبين لهم حدود وظيفة الرسول ﷺ وعمله وموقف الناس منه ، وموقفه من الناس ، ويرد الأمر كله إلى

الله فى النهاية (وأرسلناك للناس رسولا . وكفى بالله شهيدا . من يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظًا) إن وظيفة الرسول هى أداء الرسالة . لا إحداث الخير ولا إحداث السوء . فهذا من أمر الله – كما سلف – والله شهيد على أنه أرسل النبى ﷺ لأداء هذه الوظيفة (وكفى بالله شهيدً ا) وأمر الناس مع الرسول ﷺ أن من أطاعه فقد أطاع الله . فلا تفرقه بين الله ورسوله . ولا بين قول الله وقول رسوله . . ومن تولى معرضا مكذبا فأمره إلى الله من ناحية حسابه وجزائه . ولم يرسل الرسول ﷺ ليجبر الناس على الهدى ، ويكرههم على الدين ، وليس موكلا بحفظهم من العصيان والضلال . فهذا ليس داخلا فى وظيفة الرسول ؛ ولا داخلا فى قدرة الرسول . بهذا البيان يصحح تصورهم عن حقيقة ما يقع لهم . . فكله لا ينشأ ولا يتحقق إلا بإرادة الله وقدره . وما يصيبهم من حسنة أو سيئة – بأى معنى من معانى الحسنة أو السيئة , سواء حسب ما يرونه هم فى الظاهر ، أو ما هو فى حقيقة الأمر والواقع – فهو من عند الله . لأنه لا ينشى ء شيئا ولا يحدثه ولا يخلقه ويوجده إلا الله حقائق - هكذا – واضحة مريحة ، بينة صريحة ؛ تبنى التصور ، وتريح الشعور ؛ وتمضى شوطا مع تعليم الله لهذه الجماعة ، وإعدادها لدورها الكبير الخطير .

بعد ذلك يحكى السياق عن حالة فريق من الناس ، إذا كان عند رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن وما فيه من التكاليف قالوا (طاعة) قالوها هكذا جامعة شاملة . طاعة مطلقة . لا اعتراض ولا استفهام ولا استيضاح ولا استثناء ! ولكن ما إن يخرجوا من عند رسول الله ﷺ حتى تبيت طائفة منهم غير الذى تقول ؛ وتروح فى ما بينها تتآمر على عدم التنفيذ ؛ وعلى اتخاذ خطة للتخلص من التكليف . والله - سبحانه – يطمئن النبى ﷺ والمخلصين فى الصف . يطمئنهم بأن عينه على هذه الطائفة التى تبيت وتمكر . وشعور المسلمين بأن عين الله على المبيتين الماكرين يثبت قلوبهم ، ويسكب فيها الطمأنينة إلى أن هذه الطائفة لن تضرهم شيئا بتآمرها وتبيتها . ثم هى تهديد ووعيد للمتآمرين المبيتين ؛ فلن يذهبوا مفلحين ، ولن يذهبوا ناجين (والله يكتب ما يبيتون). وكانت الخطة التى وجه الله إليها نبيه ﷺفى معاملة المنافقين ، هى أخذهم بظاهرهم - لا بحقيقة نواياهم – والإعراض والتغاضى عما يبدر منهم . . وهى خطة فتلتهم فى النهاية ، وأضعفتهم ، وجعلت بقاياهم تتوارى ضعفا وخجلا . . وهنا طرف من هذه الخطة (فأعرض عنهم) ومع هذا التوجيه بالإغضاء عنهم ، التطمين بكلاءة الله وحفظة مما يبيتون (وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا) وهنا يعرض عليهم القرآن خطة ، هى غاية ما يبلغه المنهج الربانى من تكريم الإنسان والعقل الإنسانى ، واحترام هذا الكائن البشرى وإدراكه ، الذى وهبه له الخالق المنان . يعرض عليهم الاحتكام فى أمر القرآن إلى إدراكهم هم وتدبر عقولهم . . ويعين لهم منهج النظر الصحيح ؛ كما يعين لهم الظاهرة التى لا تخطى ء إذا اتبعها ذلك المنهج . وهى ظاهرة واضحة كل الوضوح فى القرآن من جهة ؛ ويمكن للعقل البشرى إدراكها من جهة أخرى . . ودلالتها على أنه من عند الله دلالة لا تمارى (أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) وفى هذا العرض ، وهذا التوجيه ، منتهى الإكرام للإنسان وإدراكه وشخصيته والتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التى لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبدا . . ومستوياتها ومجالاتها ، مما تختلف العقول والأجيال فى إدراك مداها . ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها – بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه – ما يملك إدراكه ، فى محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى . ومن ثم فإن كل أحد ، وكل جيل ، مخاطب بهذه الآية . ومستطيع – عند التدبر وفق منهج مستقيم – أن يدرك من هذه الظاهرة – ظاهرة عدم الاختلاف ، أو ظاهرة التناسق – ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه . . تتجلى ظاهرة عدم الاختلاف ، أو ظاهرة التناسق ، ابتداء فى التعبير القرآنى من ناحية الأداء وطرائقه الفنية . . ففى كلام البشر تبدو القمم والسفوح ; التوفيق والتعثر . القوة والضعف . التحليق والهبوط . الرفرفة والثقلة . الإشراق والانطفاء . . إلى آخر الظواهر التى تتجلى معها سمات البشر . وأخصها سمة" التغير" والاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال . يبدو ذلك فى كلام البشر ، واضحا عندما تستعرض أعمال الأديب الواحد ، أو المفكر الواحد ، أو الفنان الواحد ، أو السياسى الواحد ، أو القائد العسكرى الواحد . . أو أى كان فى صناعته ؛ التى يبدو فيها الوسم البشرى واضحا . . وهو:التغير ، والاختلاف . . هذه الظاهرة واضح كل الوضوح أن عكسها وهو:الثبات ، والتناسق ، هو الظاهرة الملحوظة فى القرآن – ونحن نتحدث فقط عن ناحية التعبير اللفظى والأداء الأسلوبى – فهناك مستوى واحد فى هذا الكتاب المعجز – تختلف ألوانه باختلاف الموضوعات التى يتناولها - ولكن يتحد مستواه وأفقه ، والكمال فى الأداء بلا تغير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى . . كما هو الحال فى كل ما يصنع الإنسان . . إنه يحمل طابع الصنعة الإلهية ; ويدل على الصانع . يدل على الموجود الذى لا يتغير من حال إلى حال ، ولا تتوالى عليه الأحوال ! . وتتجلى ظاهرة عدم الاختلاف . . والتناسق المطلق الشامل الكامل . . بعد ذلك فى ذات المنهج الذى تحمله العبارات . ويؤديه الأداء . . منهج التربية للنفس البشرية

والمجتمعات البشرية – ومحتويات هذا المنهج وجوانبه الكثيرة – ومنهج التنظيم للنشاط الإنسانى للأفراد وللمجتمع الذى يضم الأفراد – وشتى الجوانب والملابسات التى تطرأ فى حياة المجتمعات البشرية على توالى الأجيال – ومنهج التقويم للإدراك البشرى ذاته وتناول شتى قواه وطاقاته وإعمالها معا فى عملية الإدراك ! – ومنهج التنسيق بين الكائن الإنسانى بجملته – فى جميع مجتمعاته وأجياله ومستوياته – وبين هذا الكون الذى يعيش فيه ؛ ثم بين دنياه وآخرته ؛ وما يشتجر فى العلاقة بينهما من ملابسات لا تحصى فى عالم كل فرد ؛ وفى عالم "الإنسان" وهو يعيش فى هذا الكون بشكل عام . . وإذا كان الفارق بين صنعة الله وصنعة الإنسان واضحا كل الوضوح فى جانب التعبير اللفظى والأداء الفنى ، فإنه أوضح من ذلك فى جانب التفكير والتنظيم والتشريع . فما من نظرية بشرية ، وما من مذهب بشرى ، إلا وهو يحمل الطابع البشرى . جزئية النظر والرؤية . . والتأثر الوقتى بالمشكلات الوقتية . . وعدم رؤية المتناقضات فى النظرية أو المذهب أو الخطة ؛ التى تؤدى إلى الاصطدام بين مكوناتها – إن عاجلا وإن آجلا – كما تؤدى إلى إيذاء بعض الخصائص فى الشخصية البشرية الواحدة التى لم يحسب حساب بعضها ; أو فى مجموعة الشخصيات الذين لم يحسب حساب كل واحدة منها . . إلى عشرات ومئات من النقائص والاختلاف ، الناشئة من طبيعة الإدراك البشرى المحدود ، ومن الجهل البشرى بما وراء اللحظة الحاضرة ، فوق جهله بكل مكونات اللحظة الحاضرة – فى أية لحظة حاضرة ! – وعكس ذلك كله هو ما يتسم به المنهج القرآنى الشامل المتكامل ، الثابت الأصول ؛ ثبات النواميس الكونية ؛ الذى يسمح بالحركة الدائمة – مع ثباته – كما تسمح بها النواميس الكونية ! وتدبر هذه الظاهرة ، فى آفاقها هذه ، قد لا يتسنى لكل إدراك ، ولا يتسنى لكل جيل . بل المؤكد أن كل إدراك سيتفاوت مع الآخر فى إدراكها ؛ وكل جيل سيأخذ بنصيبه فى إدراكها ويدع آفاقا منها للأجيال المترقية ، فى جانب من جوانب المعرفة أو التجربة . . إلا أنه يتبقى من وراء كل الاختلاف البشرى الكثير فى إدراك هذه الظاهره – كاختلافه الكثير فى كل شىء آخر ! – بقية يلتقى عليها كل إدراك ، ويلتقى عليها كل جيل . . وهى أن هذه الصنعة شىء وصنعة البشر شىء آخر . وأنه لا اختلاف فى هذه الصنعة ولا تفاوت ، وإنما وحدة وتناسق . . ثم يختلف الناس بعد ذلك ما يختلفون فى إدراك آماد وآفاق وأبعاد وأنواع ذلك التناسق ! . وإلى هذا القدر الذى لا يخطئه متدبر – حين يتدبر – يكل الله تلك الطائفة ، كما يكل كل أحد ، وكل جماعة ، وكل جيل . وإلى هذا القدر من الإدراك المشترك يكل إليهم الحكم على هذا القرآن ؛ وبناء اعتقادهم فى أنه من عند الله . ولا يمكن أن يكون من عند غير الله . ويحسن أن نقف هنا وقفة قصيرة ، لتحديد مجال الإدراك البشرى فى هذا الأمر وفى أمر الدين كله . فلا يكون هذا التكريم الذى كرمه الله للإنسان بهذا التحكيم ، سبيلا إلى الغرور , وتجاوز الحد المأمون ؛ والانطلاق من السياج الحافظ من المضى فى التيه بلا دليل ! إن مثل هذه التوجيهات فى القرآن الكريم يساء إدراكها ، وإدراك مداها . فيذهب بها جماعة من المفكرين الإسلاميين – قديما وحديثا – إلى إعطاء الإدراك البشرى سلطة الحكم النهائية فى أمر الدين كله . ويجعلون منهندا لشرع الله . بل يجعلونه هو المسيطر على شرع الله ! الأمر ليس كذلك . . الأمر أن هذه الأداة العظيمة – أداة الإدراك البشرى – هى بلا شك موضع التكريم من الله – ومن ثم يكل إليها إدراك الحقيقة الأولى:حقيقة أن هذا الدين من عند الله . لأن هناك ظواهر يسهل إدراكها ؛ وهى كافية بذاتها للدلالة – دلالة هذا الإدراك البشرى ذاته – على أن هذا الدين من عند الله . . ومتى أصبحت هذه القاعدة الكبيرة مسلما بها ، أصبح من منطق هذا الإدراك ذاته أن يسلم – بعد ذلك – تلقائيا بكل ما ورد فى هذا الدين – لا يهم عندئذ أن يدرك حكمته الخفية أو لا يدركها . فالحكمة متحققه حتما ما دام من عند الله . ولا يهم عندئذ أن يرى "المصلحة " متحققة فيه فى اللحظة الحاضرة . فالمصلحة متحققة حتما ما دام من عندالله . . والعقل البشرى ليس ندا لشريعة الله – فضلا على أن يكون الحاكم عليها – لأنه لا يدرك إلا إدراكا ناقصا فى المدى المحدود ؛ ويستحيل أن ينظر من جميع الزوايا وإلى جميع المصالح - لا فى اللحظة الواحدة ولا فى التاريخ كله – بينما شريعة الله تنظر هذه النظرة ; فلا ينبغى أن يكون الحكم فيها ، أو فى حكم ثابت قطعى من أحكامها موكولا إلى الإدراك البشرى . . وأقصى ما يتطلب من الإدراك البشرى أن يتحرى إدراك دلالة النص وانطباقه ؛ لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه ! فالمصلحة متحققة أصلا بوجود النص من قبل الله تعالى . . إنما يكون هذا فيما لا نص فيه ، مما يجد من الأقضية ؛ وهذا سبق بيان المنهج فيه ، وهو رده إلى الله والرسول . . وهذا هو مجال الاجتهاد الحقيقى . إلى جانب الاجتهاد فى فهم النص ، والوقوف عنده ، لا تحكيم العقل البشرى فى أن مدلوله يحمل المصلحة أو لا يحملها !!! إن مجال العقل البشرى الأكبر فى معرفة نواميس الكون والإبداع فى عالم المادة . . وهو ملك عريض !!! يجب أن نحترم الإدراك البشرى بالقدر الذى أراده الله له من التكريم فى مجاله الذى يحسنه – ثم لا نتجاوز به هذا المجال . كى لا نمضى فى التيه بلا دليل . إلا دليلا يهجم على ما لا يعرف من مجاهل الطريق . . وهو عندئذ أخطر من المضى بلا دليل !!!

ويمضى السياق يصور حال طائفة أخرى . أو يصف فعلة أخرى لطائفة فى المجتمع المسلم (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا)

والصورة التى يرسمها هذا النص ، هى صورة جماعة فى المعسكر الإسلامى ، لم تألف نفوسهم النظام ؛ ولم يدركوا قيمة الإشاعة فى خلخلة المعسكر ؛ وفى النتائج التى تترتب عليها ، وقد تكون قاصمة ؛ لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ؛ ولم يدركوا جدية الموقف ؛ وأن كلمة عابرة وفلتة لسان ، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته ، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال ؛ وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال ! أو – ربما – لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقى الكامل لهذا المعسكر ؛ وهكذا لا يعنيهم ما يقع له من جراء أخذ كل شائعة والجرى بها هنا وهناك ، وإذاعتها ، حين يتلقاها لسان عن لسان . سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف . . فكلتاهما قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة ! – فإن إشاعة أمر الأمن مثلا فى معسكر متأهب مستيقظ متوقع لحركة من العدو تحدث نوعا من التراخى – مهما تكن الأوامر باليقظة- لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر ! وفى ذلك التراخى قد تكون القاضية ! . . كذلك إشاعة أمر الخوف فى معسكر مطمئن لقوته , ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة . وقد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكا , وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف . . وقد تكون كذلك القاضية ! وعلى أية حال فهى سمة المعسكر الذى لم يكتمل نظامه ؛ أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته . أو هما معا . . ويبدو أن هذه السمة وتلك كانتا واقعتين فى المجتمع المسلم حينذاك ; باحتوائه على طوائف مختلفة المستويات فى الإيمان ، ومختلفة المستويات فى الإدراك , ومختلفة المستويات فى الولاء . . . وهذه الخلخلة هى التى كان يعالجها القرآن بمنهجه الربانى . والقرآن يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أى لو أنهم ردوا ما يبلغهم من أنباء الأمن أو الخوف إلى الرسول ﷺ إن كان معهم , أو إلى أمرائهم المؤمنين ، لعلم حقيقته القادرون على استنباط هذه الحقيقة ؛ واستخراجها من ثنايا الأنباء المتناقضة ، والملابسات المتراكمة . و يربط القلوب بالله فى هذا ، ويذكرها بفضله ، ويحركها إلى الشكر على هذا الفضل ، ويحذرها من اتباع الشيطان الواقف بالمرصاد ؛ الكفيل بإفساد القلوب لولا فضل الله ورحمته (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) آية واحدة تحمل هذه الشحنة كلها ؛ وتتناول القضية من أطرافها ؛ وتتعمق السريرة والضمير ; وهى تضع التوجيه والتعليم !!! ذلك أنه من عند الله . . (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وحين يصل السياق إلى هذا الحد من تقويم عيوب الصف ؛ التى تؤثر فى موقفه فى الجهاد وفى الحياة – ومنذ أول الدرس وهذا التقويم مطرد لهذه العيوب – عندئذ ينتهى إلى قمة التحضيض على القتال الذى جاء ذكره فى ثنايا الدرس . قمة التكليف الشخصى ، الذى لا يقعد الفرد عنه تبطئة ولا تخذيل ، ولا خلل فى الصف ، ولا وعورة فى الطريق . حيث يوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بأن يقاتل – ولو كان وحيدا – فإنه لا يحمل فى الجهاد إلا تبعة شخصه ﷺ وفى الوقت ذاته يحرض المؤمنين على القتال . . وكذلك يوحى إلى النفوس بالطمأنينة ورجاء النصر:فالله هو الذى يتولى المعركة . والله أشد بأسا وأشد تنكيلا (فقاتل فى سبيل الله – لا تكلف إلا نفسك – وحرض المؤمنين . عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا . والله أشد بأسا وأشد تنكيلا) ومن خلال هذه الآية – بالإضافة إلى ما قبلها – تبرز لنا ملامح كثيرة فى الجماعة المسلمة يومذاك . كما تبرز لنا ملامح كثيرة فى النفس البشرية فى كل حين:

"أ" يبرز لنا مدى الخلخلة فى الصف المسلم ؛ وعمق آثار التبطئة والتعويق والتثبيط فيه ; حتى لتكون وسيلة الاستنهاض والاستجاشة ، هى تكليف النبى ﷺ أن يقاتل فى سبيل الله – ولو كان وحده – ليس عليه إلا نفسه ؛ مع تحريض المؤمنين . غير متوقف مضيه فى الجهاد على استجابتهم أو عدم استجابتهم ! ولو أن عدم استجابتهم – جملة – أمر لا يكون .

"ب" كما يبرز لنا مدى المخاوف والمتاعب فى التعرض لقتال المشركين يومذاك . . حتى ليكون أقصى ما يعلق الله به رجاء المؤمنين:أن يتولى هو سبحانه كف بأس الذين كفروا ؛ فيكون المسلمون ستارا لقدرته فى كف بأسهم عن المسلمين . . مع إبراز قوة الله – سبحانه - وأنه أشد بأسا وأشد تنكيلا . . وإيحاء هذه الكلمات واضح عن قوة بأس الذين كفروا يومذاك ؛ والمخاوف المبثوثة فى الصف المسلم . . وربما كان هذا بين أحد والخندق . فهذه أحرج الأوقات التى مرت بها الجماعة المسلمة فى المدينة ؛ بين المنافقين , وكيد اليهود ، وتحفز المشركين !

"ج" كذلك تبرز لنا حاجة النفس البشرية ؛ وهي تدفع إلى التكاليف التى تشق عليها ، إلى شدة الارتباط بالله ؛ وشدة الطمأنينة إليه ؛ وشدة الاستعانة به ؛ وشدة الثقة بقدرته وقوته . . فكل وسائل التقوية غير هذه لا تجدى حين يبلغ الخطر قمته . وهذه كلها حقائق يستخدمها المنهج الربانى ؛ والله هو الذى خلق هذه النفوس . وهو الذى يعلم كيف تربى وكيف تقوى وكيف تستجاش وكيف تستجيب . .

وبمناسبة تحريض الرسول ﷺ للمؤمنين على القتال الذى ورد الأمر به فى آخر الدرس , وذكر المبطئين المثبطين فى أوله ، يقرر قاعدة عامة فى الشفاعة – وهى تشمل التوجيه والنصح والتعاون (مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً) (٨٥) فالذى يشجع ويحرض ويعاون على القتال فى سبيل الله ، يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها . والذى يبطىء ويثبط تكون له تبعة فيها وفى آثارها . . وكلمة "كفل" توحى بأنه متكفل بجرائرها . والمبدأ عام فى كل شفاعة خير ، أو شفاعة سوء . وقد ذكر المبدأ العام بمناسبة الملابسة الخاصة ، على طريقة المنهج القرآنى ، فى إعطاء القاعدة الكلية من خلال الحادثة الجزئية ، وربط الواقعة المفردة بالمبدأ العام كذلك . وربط الأمر كله بالله , الذى يرزق بكل شىء . أو الذين يمنح القدرة على كل شىء . وهو ما يفسر كلمة "مقيت" فى قوله تعالى فى التعقيب (وكان الله على كل شىء مقيتا) ثم استطرد السياق بعد ذكر الشفاعة إلى الأمر برد التحية بخير منها أو بمثلها (وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (٨٦) وقد جاء الإسلام بتحيته الخاصة ، التى تميز المجتمع المسلم ؛ وتجعل كل سمة فيه – حتى السمات اليومية العادية – متفردة متميزة ؛ لا تندغم ولا تضيع فى سمات المجتمعات الأخرى ومعالمها . . جعل الإسلام تحيته:"السلام عليكم" أو "السلام عليكم ورحمة الله" أو "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" . . والرد عليها بأحسن منها بالزيادة على كل منها – ما عدا الثالثة فلم تبق زيادة لمستزيد – فالرد على الأولى (وعليكم السلام ورحمة الله) والرد على الثانية (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته) والرد على الثالثة (وعليكم) إذ أنها استوفت كل الزيادات ، فترد بمثلها . . . وهكذا روى عن النبى ﷺ

ونقف أمام اللمسات الكامنة فى آية التحية هذه:

إنها - أولا – تلك السمة المتفردة ، التى يحرص المنهج الإسلامى على أن يطبع بها المجتمع المسلم بحيث تكون له ملامحه الخاصة ، وتقاليده الخاصة – كما أن له شرائعه الخاصة ونظامه الخاص

وهى - ثانيا – المحاولة الدائمة لتوثيق علاقات المودة والقربى بين أفراد الجماعة المسلمة . . وإفشاء السلام ، والرد على التحية بأحسن منها ، من خير الوسائل لإنشاء هذه العلاقات وتوثيقها . وقد سئل رسول الله ﷺ أى العمل خير ؟ قال:" تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف " . . هذا فى إفشاء السلام بين الجماعة المسلمة ابتداء . وهو سنة . أما الرد عليها فهو فريضة بهذه الآية .

وهى - ثالثا – نسمة رخية فى وسط آيات القتال قبلها وبعدها . . لعل المراد منها أن يشار إلى قاعدة الإسلام الأساسية . . السلام . . فالإسلام دين السلام . وهو لا يقاتل إلا لإقرار السلام فى الأرض ، بمعناه الواسع الشامل . السلام الناشىء من استقامة الفطرة على منهج الله .

....

يبدأ هذا الدرس بقاعدة التصور الإسلامى الأساسية و هى التوحيد وإفراد الله – سبحانه - بالألوهية ؛ ثم يبنى على هذه القاعدة أحكاما شتى فى معاملة المجتمع المسلم مع المعسكرات المختلفة ، إن أوربا بقانونها الدولى – وكل ما تفرع عنه من المنظمات الدولية – لم تبدأ فى هذا الاتجاه إلا فى القرن السابع عشر الميلادى [الحادى عشر الهجرى] . ولم يزل هذا القانون - فى جملته – حبرا على ورق ؛ ولم تزل هذه المنظمات – فى جملتها – أدوات تختفى وراءها الأطماع الدولية ؛ ومنابر للحرب الباردة ! وليست أداة لإحقاق حق ؛ ولا لتحقيق عدل ! وقد دعت إليها منازعات بين دول متكافئة القوى . ولكن كلما اختل هذا التكافؤ لم يعد للقوانين الدولية قيمة ، ولا للمنظمات الدولية عمل ذو قيمة ! أما الإسلام – المنهج الربانى للبشر – فقد وضع أسس المعاملات الدولية فى القرن السابع الميلادى [الأول الهجرى] . ووضعها من عند نفسه ؛ دون أن تضطره إلى ذلك ملابسات القوى المتكافئة . فهو كان يضعها ليستخدمها هو ، وليقيم

المجتمع المسلم علاقاته مع المعسكرات الأخرى على أساسها . ليرفع للبشرية راية العدالة ، وليقيم لها معالم الطريق . ولو كانت المعسكرات الأخرى – الجاهلية – لا تعامل المجتمع المسلم بتلك المبادىء من جانبها . . فلقد كان الإسلام ينشىء هذه المبادىء إنشاء وللمرة الأولى . . وهذه القواعد للمعاملات الدولية متفرقة فى مواضعها ومناسباتها من سور القرآن ، وهى تؤلف فى مجموعها قانونا كاملا للتعامل الدولى . يضم حكما لكل حالة من الحالات التى تعرض بين المعسكر الإسلامى والمعسكرات الأخرى:محاربة . ومهادنة ومحالفة . ومحايدة . ومرتبطة مع محارب ، أو مهادن ، أو محالف ، أو محايد (اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً (٨٧) فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَنَ يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً) وهى تتعلق بالتعامل معَ الطوائف التالية:

"أ" المنافقين غير المقيمين فى المدينة .

"ب" الذين يرتبطون بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق . .

"ج" المحايدين الذين تضيق صدورهم بحرب المسلمين أو حرب قومهم كذلك . وهم على دينهم .

"د" المتلاعبين بالعقيدة الذين يظهرون الإسلام إذا قدموا المدينة ويظهرون الكفر إذا عادوا إلى مكة .

"ه" حالات القتل الخطأ بين المسلمين والقتل العمد على اختلاف المواطن والأقوام . .

وسنجد أحكاما صريحة واضحة فى جميع هذه الحالات ؛ التى تكون جانبا من مبادىء التعامل فى المحيط الدولى . شأنها شأن بقية الأحكام ، التى تتناول شتى العلاقات الأخرى .

ونبدأ من حيث بدأ السياق القرآنى بالقاعدة الأولية التى يقوم عليها بناء الإسلام كله . وبناء النظام الإسلامى (الله لا إله إلا هو ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . ومن أصدق من الله حديثا) إنه من توحيد الله – سبحانه – وإفراده بالألوهية تبدأ خطوات المنهج الربانى – سواء فى تربية النفوس أم فى إقامة المجتمع ، ووضع شرائعه وتنظيمه ؛ وسواء كانت هذه الشرائع متعلقة بالنظام الداخلى للمجتمع المسلم ، أم بالنظام الدولى ، الذى يتعامل هذا المجتمع على أساسه مع المجتمعات الأخرى . ومن ثم نجد هذا الافتتاح لمجموعة الآيات المتضمنة لطائفة من قواعد التعامل الخارجية والداخلية أيضا . كذلك من الاعتقاد فى الآخرة ، وجمع الله الواحد لعباده ، ليحاسبهم هناك على ما أتاح لهم فى الدنيا من فرص العمل والابتلاء ، تبدأ خطوات هذا المنهج فى تربية النفوس , وإثارة الحساسية فيها تجاه التشريعات والتوجيهات ؛ وتجاه كل حركة من حركاتها فى الحياة . . فهو الابتلاء فى الصغيرة والكبيرة فى الدنيا ؛ والحساب على الصغيرة والكبيرة فى الآخرة ، وبعد هذه اللمسة للقلوب يبدأ فى إستنكار حالة من التميع فى مواجهة النفاق والمنافقين ؛ وقلة الحسم فى موضع الحسم فى معاملة الجماعة المسلمة لهم ؛ وانقسام هذه الجماعة فئتين فى أمر طائفة من المنافقين – من خارج المدينة كما سنبين – حيث يشى هذا الاستنكار بما كان فى المجتمع المسلم يومئذ من عدم التناسق ؛ كما يشى بتشدد الإسلام فى ضرورة تحديد الأمور وحسمها ، وكراهة التميع فى التعامل مع المنافقين والنظر إليهم ; والارتكان إلى ظاهرهم . . ما لم يكن ذلك عن خطة مقررة هادفة (فما لكم فى المنافقين فئتين ؟ والله أركسهم بما كسبوا ؛ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ? ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء . فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم ، واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا)

وقد وردت فى شأن هؤلاء المنافقين روايات ، أهمها روايتان:

قال الإمام أحمد:حدثنا بهز ، حدثنا شعبة ، قال عدى بن ثابت:أخبرنى عبدالله بن يزيد , عن زيد ابن ثابت ، أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد ، فرجع ناس خرجوا معه . فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم ، فرقتين:فرقة تقول:نقتلهم ، وفرقة تقول:لا . هم المؤمنون ! فأنزل الله: (فما لكم فى المنافقين فئتين) فقال رسول الله

ﷺ إنها طيبة . وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد [أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة]

وقال العوفى عن ابن عباس:نزلت فى قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام ؛ وكانوا يظاهرون المشركين . فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم . فقالوا:إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس . . وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة ، قالت فئة من المؤمنين:اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم ، فإنهم يظاهرون عدوكم . وقالت فئة أخرى من المؤمنين:سبحان الله:- أو كما قالوا - أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به ؟ من أجل إنهم لم يهاجروا ، ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم وأموالهم ؟ فكانوا كذلك فئتين ,والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شىء ، فنزلت: (فما لكم فى المنافقين فئتين) [رواه ابن أبى حاتم، وقد روى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم قريب من هذا] ومع أن الرواية الأولى أوثق من ناحية السند والإخراج إلا أننا نرجح مضمون الرواية الثانية ، بالاستناد إلى الواقع التاريخى ؛ فالثابت أن منافقى المدينة لم يرد أمر بقتالهم ؛ ولم يقاتلهم الرسول ﷺ. إنما كانت هناك خطة أخرى مقررة فى التعامل معهم . هى خطة الإغضاء عنهم ، وترك المجتمع نفسه ينبذهم ، وتقطيع الأسناد من حولهم بطرد اليهود - وهم الذين يغرونهم ويملون لهم - من المدينة أولا . ثم من الجزيرة العربية كلها أخيرا . . أما هنا فنحن نجد أمرا جازما بأخذهم أسرى ، وقتلهم حيث وجدوا:مما يقطع بأنهم مجموعة أخرى غير مجموعة المنافقين فى المدينة . . وقد يقال:إن الأمر بأخذهم أسرى وقتلهم مشروط بقوله تعالى: (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا ، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم) . فهو تهديد ليقلعوا عما هم فيه . . وقد يكونون أقلعوا فلم ينفذ الرسول ﷺ هذا الأمر فيهم . . ولكن كلمة(يهاجروا) تقطع - فى هذه الفترة - بأنهم ليسوا من أهل المدينة . وأن المقصود هو أن يهاجروا إلى المدينة ؛ فقد كان هذا قبل الفتح . ومعنى الهجرة - قبل الفتح - كان محددا بأنه الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ؛ والانضمام للجماعة المسلمة ؛ والخضوع لنظامها . وإلا فهو الكفر أو النفاق ، وكل هذا يؤيد ترجيح الرواية الثانية . وأن هؤلاء المنافقين كانوا جماعة من مكة - أو ممن حولها - يقولون كلمة الإسلام بأفواههم , ويظاهرون عدو المسلمين بأعمالهم (فما لكم فى المنافقين فئتين ؛ والله أركسهم بما كسبوا ؟ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ? ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء . فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم ، واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) إننا نجد فى النصوص استنكارا لانقسام المؤمنين فئتين فى أمر المنافقين ؛ وتعجبا من اتخاذهم هذا الموقف ؛ وشدة وحسما فى التوجيه إلى تصور الموقف على حقيقته ، وفى التعامل مع أولئك المنافقين كذلك . وكل ذلك يشي بخطر التميع فى الصف المسلم حينذاك - وفى كل موقف مماثل - التميع فى النظرة إلى النفاق والمنافقين ؛ لأن فيها تميعا كذلك فى الشعور بحقيقة هذا الدين . ما لكم فئتين فى شأن المنافقين . والله أوقعهم فيما هم فيه بسبب سوء نيتهم وسوء عملهم ، وهى شهادة من الله حاسمة فى أمرهم . بأنهم واقعون فى السوء بما أضمروا وبما عملوا من سوء ، ثم استنكار آخر (أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟) ولعله كان فى قول الفريق . . المتسامح !! . . ما يشير إلى إعطائهم فرصة ليهتدوا , ويتركوا اللجلجة ! فاستنكر الله هذا فى شأن قوم استحقوا أن يوقعهم الله فى شر أعمالهم وسوء مكاسبهم . (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) فإنما يضل الله الضالين . أى يمد لهم فى الضلالة حين يتجهون هم بجهدهم ونيتهم إلى الضلالة . وعندئذ تغلق فى وجوههم سبل الهداية ؛ بما بعدوا عنها ، وسلكوا غير طريقها ; ونبذوا العون والهدى ، وتنكروا لمعالم الطريق ! ثم يخطو السياق خطوة أخرى فى كشف موقف المنافقين . . إنهم لم يضلوا أنفسهم فحسب ; ولم يستحقوا أن يوقعهم الله فى الضلالة بسعيهم ونيتهم فحسب . . إنما هم كذلك يبتغون إضلال المؤمنين (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) إنهم قد كفروا . . على الرغم من أنهم تكلموا بما تكلم به المسلمون ، ونطقوا بالشهادتين نطقا يكذبه العمل فى مظاهرة أعداء المسلمين . . وهم لا يريدون أن يقفوا عند هذا الحد . فالذى يكفر لا يستريح لوجود الإيمان فى الأرض ووجود المؤمنين . ولا بد له من عمل وسعى ، ولا بد له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر . ليكونوا كلهم سواء ، والقرآن يلمس مشاعر المؤمنين لمسة قوية مفزعة لهم ، وهو يقول لهم (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) فقد كانوا حديثى عهد بتذوق حلاوة الإيمان بعد مرارة الكفر . وبالنقلة الضخمة التى يجدونها فى أنفسهم ، بين مشاعرهم ومستواهم ومجتمعهم فى الجاهلية . . ثم فى الإسلام . وكان الفرق واضحا بارزا فى مشاعرهم وفى واقعهم ، تكفى الإشارة إليه لاستثارة عداوتهم كلها لمن يريد أن يردهم إلى ذلك السفح الهابط - سفح الجاهلية - الذى التقطهم منه الإسلام ؛ فسار بهم صعدا فى المرتقى الصاعد ، نحو القمة السامقة . ومن ثم يتكىء المنهج القرآنى على هذه الحقيقة ؛ فيوجه إليهم الأمر فى لحظة التوفز والتحفز والانتباه للخطر البشع الفظيع الذى يتهددهم من

قبل هؤلاء (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيراً) ونحس من النهى عن اتخاذ أولياء منهم . . أنه كانت ما تزال للروابط والوشائج العائلية والقبلية بقايا فى نفوس المسلمين فى المدينة – وربما كان للمصالح الاقتصادية أيضا – وكان المنهج القرانى يعالج هذه الرواسب ؛ ويقرر للأمة المسلمة قواعد ارتباطاتها . كما يقرر قواعد تصورها فى الوقت ذاته . كان يعلمها أن الأمة لا تقوم على روابط العشيرة والقبيلة ، أو روابط الدم والقرابة . أو روابط الحياة فى أرض واحدة أو مدينة واحدة ، أو روابط المصالح الاقتصادية فى التجارة وغير التجارة . . إنما تقوم الأمة على العقيدة ؛ وعلى النظام الاجتماعى المنبثق من هذه العقيدة . ومن ثم فلا ولاية بين المسلمين فى دار الإسلام ، وبين غيرهم ممن هم فى دار الحرب . . ودار الحرب هى يومئذ مكة موطن المهاجرين الأول . . لا ولاية حتى يهاجر أولئك الذين يتكلمون بكلمة الإسلام ؛ وينضموا إلى المجتمع المسلم – أى إلى الأمة المسلمة - حيث تكون هجرتهم لله وفى سبيل الله . من أجل عقيدتهم ، لا من أجل أى هدف آخر ؛ ولإقامة المجتمع المسلم الذى يعيش بالمنهج الإسلامى لا لأى غرض آخر . . بهذه النصاعة . وبهذا الحسم . وبهذا التحديد الذى لا يقبل أن تختلط به شوائب أخرى ، أو مصالح أخرى ، أو أهداف أخرى ، فإن هم فعلوا . فتركوا أهلهم ووطنهم ومصالحهم . . فى دار الحرب . . وهاجروا إلى دار الإسلام ، ليعيشوا بالنظام الإسلامى ، المنبثق من العقيدة الإسلامية ، القائم على الشريعة الإسلامية . . إن هم فعلوا هذا فهم أعضاء فى المجتمع المسلم ، مواطنون فى الأمة المسلمة . وإن لم يفعلوا وأبوا الهجرة ، فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال (فإن تولوا فخذوهم [أى أسرى] واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيراً) وهذا الحكم – كما قلنا – هو الذى يرجح عندنا ، أنهم لم يكونوا هم منافقى المدينة . إذ قد اتبعت مع منافقى المدينة سياسة أخرى .

إن الإسلام يتسامح مع مخالفيه جهارا نهارا في العقيدة . . ولكنه لا يتسامح مع من يقولون الإسلام كلمة باللسان تكذبها الأفعال . لا يتسامح مع من يقولون:إنهم يوحدون الله ويشهدون أن لا إله إلا الله . ثم يعترفون لغير الله بخاصية من خصائص الألوهية ، كالحاكمية والتشريع للناس ؛ فيصم أهل الكتاب بأنهم مشركون , لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم . . لا لأنهم عبدوهم . ولكن لأنهم أحلوا لهم الحلال ، وحرموا عليهم الحرام فاتبعوهم ! ولا يتسامح فى وصف جماعة من المنافقين بأنهم مؤمنون . لأنهم شهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . ثم بقوا فى دار الكفر ، يناصرون أعداء المسلمين ذلك أن التسامح هنا ليس تسامحا . إنما هو تميع . والإسلام عقيدة التسامح . ولكنه ليس عقيدة "التميع" . إنه تصور جاد . ونظام جاد . والجد لا ينافى التسامح . ولكنه ينافى التميع . ثم استثنى من هذا الحكم – حكم الأسر والقتل – لهذا الصنف من المنافقين ، الذين يعينون أعداء المسلمين – من يلجأون إلى معسكر بينه وبين الجماعة الإسلامية عهد – عهد مهادنه أو عهد ذمة – ففى هذه الحالة يأخذون حكم المعسكر الذى يلتجئون إليه ، ويتصلون به (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق)

ويبدو فى هذا الحكم اختيار الإسلام للسلم ، حيثما وجد مجالًا للسلم لا يتعارض مع منهجه الأساسى . من حرية الإبلاغ وحرية الاختيار ؛ وعدم الوقوف فى وجه الدعوة ، بالقوة مع كفالة الأمن للمسلمين ؛ وعدم تعريضهم للفتنة ، أو تعريض الدعوة الإسلامية ذاتها للتجميد والخطر . ومن ثم يجعل كل من يلجأ ويتصل ويعيش بين قوم معاهدين – عهد ذمة أو عهد هدنة – شأنه شأن القوم المعاهدين . يعامل معاملتهم ، ويسالم مسالمتهم . وهى روح سلمية واضحة المعالم فى مثل هذه الأحكام . كذلك يستثنى من الأسر والقتل جماعة أخرى . هى الأفراد أو القبائل أو المجموعات التى تريد أن تقف على الحياد ، فيما بين قومهم وبين المسلمين من قتال . إذ تضيق صدورهم أن يقاتلوا المسلمين مع قومهم . كما تضيق صدورهم أن يقاتلوا قومهم مع المسلمين . فيكفوا أيديهم عن الفريقين بسبب هذا التحرج من المساس بهؤلاء أو هؤلاء (أو جاؤوكم ، حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) وواضح كذلك فى هذا الحكم الرغبة السلمية فى اجتناب القتال ؛ حيثما كف الآخرون عن التعرض للمسلمين ودعوتهم ؛ واختاروا الحياد بينهم وبين المحاربين لهم . وهؤلاء الذين يتحرجون أن يحاربوا المسلمين أو يحاربوا قومهم . . كانوا موجودين فى الجزيرة ; وفى قريش نفسها ؛ ولم يلزمهم الإسلام أن يكونوا معه أو عليه . فقد كان حسبه ألا يكونوا عليه . ويحبب الله المسلمين فى انتهاج هذه الخطة مع المحايدين المتحرجين . فيكشف لهم عن الفرض الثانى الممكن فى الموقف ! فلقد كان من الممكن – بدل أن يقفوا هكذا على الحياد متحرجين – أن يسلطهم الله على المسلمين فيقاتلوهم مع أعدائهم المحاربين ! فأما وقد كفهم الله عنهم على هذا النحو ، فالسلم أولى ، وتركهم وشأنهم هو السبيل (ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم . فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا إليكم السلم . فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً) وهكذا يلمس المنهج التربوى الحكيم

نفوس المسلمين المتحمسين ، الذين قد لا يرضون هذا الموقف من هذا الفريق . يلمسه بما فى هذا الموقف من فضل الله وتدبيره ؛ ومن كف لجانب من العداء والأذى كان سيضاعف العبء على عاتق المسلمين . ويعلمهم أن يأخذوا الخير الذى يعرض فلا يرفضوه , ويجتنبوا الشر الذى يأخذ طريقه بعيدا عنهم ، فلا يناوشوة . . طالما أن ليس فى هذا كله تفريط فى شىء من دينهم ، ولا تمييع لشىء من عقيدتهم ؛ ولا رضى بالدنية فى طلب السلم الرخيصة ! ولكن هناك طائفة أخرى ، لا يتسامح معها الإسلام هذا التسامح . لأنها طائفة منافقة شريرة كالطائفة الأولى . وليست مرتبطة بميثاق ولا متصلة بقوم لهم ميثاق . فالإسلام إزاءها إذن طليق . يأخذها بما اخذ به طائفة المنافقين الأولى(ستجدون آخرين ، يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم . كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها . فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ، ويكفوا أيديهم ؛ فخذوهم ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) حكى ابن جرير عن مجاهد ، أنها نزلت فى قوم من أهل مكة ، كانوا يأتون النبى ﷺ فيسلمون رياء ؛ ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان ، يبتغون بذلك أن يأمنوا ها هنا , وها هنا . فأمر بقتلهم – إن لم يعتزلوا ويصلحوا – ولهذا قال تعالى: (فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم) المهادنة والصلح (ويكفوا أيديهم) أى عن القتال (فخذوهم) أسراء (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى حيث وجدتموهم (وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) وهكذا نرى صفحة من حسم الإسلام وجديته ، إلى جانب سماحته وتغاضيه . . هذه فى موضعها , وتلك فى موضعها . وطبيعة الموقف ، وحقيقة الواقعة ، هى التى تحدد هذه وتلك ، ورؤية هاتين الصفحتين – على هذا النحو – كفيلة بأن تنشىء التوازن فى شعور المسلم ; كما تنشىء التوازن فى النظام الإسلامى – السمة الأساسية الأصيلة – فأما حين يجىء المتشددون فيأخذون الأمر كله عنفا وحماسة وشدة واندفاعا فليس هذا هو الإسلام ! وأما حين يجىء المتميعون المترققون المعتذرون عن الجهاد فى الإسلام ، كأن الإسلام فى قفص الاتهام وهم يترافعون عن المتهم الفاتك الخطير ! فيجعلون الأمر كله سماحة وسلمًا وإغضاء وعفوا ؛ ومجرد دفاع عن الوطن الإسلامى وعن جماعة المسلمين – وليس دفعًا عن حرية الدعوة وإبلاغها لكل زاوية فى الأرض بلا عقبة . وليس تأمينا لأى فرد فى كل زاوية من زوايا الأرض يريد أن يختار الإسلام عقيدة . وليس سيادة لنظام فاضل وقانون فاضل يأمن الناس كلهم فى ظله ، من اختار عقيدته ومن لم يخترها سواء . . فأما حينئذ فليس هذا هو الإسلام .

لا يوجد سبب يبلغ من ضخامته أن يفوق ما بين المسلم والمسلم من وشيجة العقيدة . ومن ثم لا يقتل المسلم المسلم أبدا . وقد ربطت بينهما هذه الرابطة الوثيقة . اللهم إلا أن يكون ذلك خطأ . . وللقتل الخطأ توضع التشريعات والأحكام . فأما القتل العمد فلا كفارة له . لأنه وراء الحسبان ! ووراء حدود الإسلام ! (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ . ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله – إلا أن يصدقوا – فإن كان من قوم عدو لكم – وهو مؤمن – فتحرير رقبة مؤمنة . وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين . توبة من الله . وكان الله عليما حكيمًا) (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيمًا) وهذه الأحكام تتناول أربع حالات:ثلاث منها من حالات القتل الخطأ – وهو الأمر المحتمل وقوعه بين المسلمين فى دار واحدة – دار الإسلام – أو فى ديار مختلفة بين شتى الأقوام – والحالة الرابعة حالة القتل العمد . وهى التى يستبعد السياق القرآنى وقوعها ابتداء . فليس من شأنها أن تقع . إذ ليس فى هذه الحياة الدنيا كلها ما يساوى دم مسلم يريقه مسلم عمدا .. ومن ثم يبدأ حديثه عن أحكام القتل الخطأ (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ). .

فهذا هو الاحتمال الوحيد فى الحس الإسلامى . . وهو الاحتمال الحقيقى فى الواقع . . فإن وجود مسلم إلى جوار مسلم مسألة كبيرة . كبيرة جدا . ونعمة عظيمة . عظيمة جدا . ومن العسير تصور أن يقدم مسلم على إزالة هذه النعمة عن نفسه ؛ والإقدام على هذه الكبيرة عن عمد وقصد . . إن هذا العنصر . . المسلم . . عنصر عزيز فى هذه الأرض . . وأشد الناس شعورا بإعزاز هذا العنصر هو المسلم مثله . . فمن العسير أن يقدم على إعدامه بقتله . . وهذا أمر يعرفه أصحابه . يعرفونه فى نفوسهم ومشاعرهم . وقد علمهم الله إياه بهذه العقيدة . وبهذه الوشيجة . وبهذه القرابة التى تجمعهم فى رسول الله ﷺ ثم ترتقى فتجمعهم فى الله سبحانه الذى ألف بين قلوبهم . ذلك التأليف الربانى العجيب . فأما إذا وقع القتل خطأ فهناك تلك الحالات الثلاث ، التى يبين السياق أحكامها هنا :

الحالة الأولى:أن يقع القتل على مؤمن أهله مؤمنون فى دار الإسلام . ويجب فى هذه الحالة تحرير رقبة مؤمنة ، ودية تسلم إلى أهله . . فأما تحرير الرقبة المؤمنة ، فهو تعويض للمجتمع المسلم عن قتل نفس

مؤمنة باستحياء نفس مؤمنة . وكذلك هو تحرير الرقاب في حس الإسلام . وأما الدية فتسكين لثائرة النفوس ، وشراء لخواطر المفجوعين ، وتعويض لهم عن بعض ما فقدوا من نفع المقتول ، ومع هذا يلوح الإسلام لأهل القتيل بالعفو- إذا اطمأنت نفوسهم إليه - لأنه أقرب إلى جو التعاطف والتسامح في المجتمع المسلم (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله - إلا أن يصدقوا)

والحالة الثانية:أن يقع القتل على مؤمن وأهله محاربون للإسلام في دار الحرب . . وفي هذه الحالة يجب تحرير رقبة مؤمنة لتعويض النفس المؤمنة التي قتلت ، وفقدها الإسلام . ولكن لا يجوز أداء دية لقومه المحاربين ، يستعينون بها على قتال المسلمين ! ولا مكان هنا لاسترضاء أهل القتيل وكسب مودتهم ، فهم محاربون ، وهم عدو للمسلمين .

والحالة الثالثة:أن يقع القتل على مؤمن قومه معاهدون - عهد هدنة أو عهد ذمة - ولم ينص على كون المقتول مؤمنا في هذه الحالة . مما جعل بعض المفسرين والفقهاء يرى النص على إطلاقه . ويرى الحكم بتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله - المعاهدين - ولو لم يكن مؤمنا . لأن عهدهم مع المؤمنين يجعل دماءهم مصونة كدماء المسلمين .

ولكن الذي يظهر لنا أن الكلام ابتداء منصب على قتل المؤمن . (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ). ثم بيان للحالات المتنوعة التي يكون فيها القتيل مؤمنا . وإذا كان قد نص في الحالة الثانية فقال: إن كان من قوم عدو لكم - وهو مؤمن فقد كان هذا الاحتراز مرة أخرى بسبب ملابسة أنه من قوم عدو . ويؤيد هذا الفهم النص على تحرير رقبة مؤمنة في هذه الحالة الثالثة . مما يوحي بأن القتيل مؤمن فأعتقت رقبة مؤمنة تعويضا عنه . وإلا لكفى عتق رقبة إطلاقا دون شرط الإيمان . .

ذلك القتل الخطأ . فأما القتل العمد ، فهو الكبيرة التي لا ترتكب مع إيمان ؛ والتي لا تكفر عنها دية ولا عتق رقبة ؛ وإنما يوكل جزاؤها إلى عذاب الله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه . وأعد له عذابا عظيمًا) إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب - بغير حق - ولكنها كذلك جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة ، التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم . إنها تنكر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها . ومن ثم قرنت بالشرك في مواضع كثيرة ؛ واتجه بعضهم - ومنهم ابن عباس - إلى أنه لا توبة منها . . ولكن البعض الآخر استند إلى قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به , ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فرجا للقاتل التائب المغفرة . . وفسر الخلود بأنه الدهر الطويل . واحتراسا من وقوع القتل ولو كان خطأ ؛ وتطهيرا لقلوب المجاهدين حتى ما يكون فيها شيء إلا لله ، وفي سبيل الله . . يأمر الله المسلمين إذا خرجوا غزاة ، ألا يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا ؛ وأن يكتفوا بظاهر الإسلام في كلمة اللسان (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ؛ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا . تبتغون عرض الحياة الدنيا . فعند الله مغانم كثيرة . كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم . فتبينوا . إن الله كان بما تعملون خبيرا) وقد وردت روايات كثيرة في سبب نزول الآية:خلاصتها أن سرية من سرايا المسلمين لقيت رجلا معه غنم له . فقال السلام عليكم . يعني أنه مسلم . فاعتبر بعضهم أنها كلمة يقولها لينجو بها ، فقتله . ومن ثم نزلت الآية ، تحرج على مثل هذا التصرف ؛ وتنفض عن قلوب المؤمنين كل شائبة من طمع في الغنيمة ؛ أو تسرع في الحكم . . وكلاهما يكرهه الإسلام . والله سبحانه يذكر الذين آمنوا بجاهليتهم القريبة وما كان فيها من تسرع ورعونة ؛ وما كان فيها من طمع في الغنيمة . ويمن عليهم أن طهر نفوسهم ورفع أهدافهم ، فلم يعودوا يغزون ابتغاء عرض الحياة الدنيا كما كانوا في جاهليتهم . ويمن عليهم أن شرع لهم حدودا وجعل لهم نظاما ؛ فلا تكون الهيجة الأولى هي الحكم الآخر . كما كانوا في جاهليتهم كذلك . . وقد يتضمن النص إشارة إلى أنهم هم كذلك كانوا يخفون إسلامهم - على قومهم - من الضعف والخوف ، فلا يظهرونه إلا عند الأمن مع المسلمين ، وأن ذلك الرجل القتيل كان يخفي إسلامه على قومه ، فلما لقي المسلمين أظهر لهم إسلامه وأقرأهم سلام المسلمين (كذلك كنتم من قبل . فمن الله عليكم . فتبينوا . إن الله كان بما تعملون خبيرا)

(لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَىَ وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً {٩٥} دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً {٩٦} إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً

فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً{٩٧} إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً{٩٨} فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً{٩٩} وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٠٠} وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً{١٠١} وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٠٢} فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً{١٠٣} وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً) {١٠٤}

الجهاد والهجرة في هذا الدرس وثيق الصلة ، شديد اللحمة بالدرس السابق والدرس الذى قبله كذلك . فهو تكملة موضوعية لموضوع الدرسين السابقين . ولو الرغبة فى إقرار مبادىء المعاملات الدولية – كما يقررها الإسلام – لاعتبرناهما معا مع هذا الدرس درسا واحدا (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً) (٩٧)

وقد تلا هذه الفقرة فقرة أخرى فيها تحذير وتهديد لمن يظلون قاعدين هنالك فى دار الكفر - وهم قادرون على الهجرة منها بدينهم وعقيدتهم – حتى تتوفاهم الملائكة (ظالمى أنفسهم) (فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) ثم تلتها فقرة أخرى عن ضمان الله سبحانه لمن يهاجر فى سبيله ، منذ اللحظة التى يخرج فيها من بيته ، قاصدا الهجرة إلى الله خالصة . عالج فيها كل المخاوف التى تهجس فى النفس البشرية وهى تقدم على هذه المخاطرة ، المحفوفة بالخطر ، الكثيرة التكاليف فى الوقت ذاته . كذلك يلم هذا الدرس بكيفية الصلاة عند الخوف – فى ميدان القتال أو فى أثناء طريق الهجرة - وتدل هذه العناية بالصلاة فى هذه الآونة الحرجة ، على طبيعة نظرة الإسلام إلى الصلاة – وينتهى الدرس بلمسة قوية عميقة التأثير ؛ فى التشجيع على الجهاد فى سبيل الله ؛ فى وجه الآلام والمتاعب التى تصيب المجاهدين (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم . . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون . وترجون من الله ما لا يرجون) ويرسم هذا الدرس – بجملة الموضوعات التى يعالجها ، وبطرائق العلاج التى يسلكها – ما كان يعتمل فى جسم الجماعة المسلمة ، وهى تواجه مشاق التكوين الواقعية ؛ ومشكلات التكوين العملية . وما كان يشتجر فى النفوس من عوامل الضعف البشرى ؛ ومن رواسب الماضى الجاهلى ، ومن طبيعة الفطرة البشرية وهى تواجه التكاليف بمشاقها وآلامها ؛ مع ما يصاحب هذه المشاق والآلام من أشواق ومن تطلع إلى الوفاء كذلك (لا يستوى القاعدون من المؤمنين – غير أولى الضرر – والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة . وكان الله غفورا رحيمًا) إن هذا النص القرآنى كان يواجه حالة خاصة فى المجتمع المسلم وما حوله ؛ وكان يعالج حالة خاصة فى هذا المجتمع من التراخى – من بعض عناصره – فى النهوض بتكاليف الجهاد بالأموال والأنفس . سواء كان المقصود أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة احتفاظا بأموالهم , إذ لم يكن المشركون يسمحون لمهاجر أن يحمل معه شيئا من ماله ؛ أو توفيرا لعناء الهجرة وما فيها من مخاطر ، إذ لم يكن المشركون يتركون المسلمين يهاجرون ، وكثيرا ما كانوا يحبسونهم ويؤذونهم – أو يزيدون فى إيذائهم بتعبير أدق – إذا عرفوا منهم نية الهجرة . . سواء كان المقصود هم أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة – وهو ما نرجحه - أو كان المقصود بعض المسلمين فى دار الإسلام ، الذين لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس – من غير المنافقين المبطئين الذين ورد ذكرهم فى درس سابق – أو كان المقصود هؤلاء وهؤلاء ممن لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس فى دار الحرب ودار الإسلام سواء . إن هذا النص كان يواجه هذه الحالة الخاصة ؛ ولكن التعبير القرآنى يقرر قاعدة عامة ; يطلقها من قيود الزمان ، وملابسات البيئة ؛ ويجعلها هى القاعدة التى ينظر الله بها إلى المؤمنين فى كل زمان وفى كل مكان – قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والانفس – غير اولى الضرر الذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس ، او يقعدهم الفقر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال – عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين والآخرين الذين

يجاهدون بأموالهم وأنفسهم . . قاعدة عامة على الإطلاق (لا يستوى القاعدون من المؤمنين – غير أولى الضرر – والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) ولا يتركها هكذا مبهمة ، بل يوضحها ويقررها ، ويبين طبيعة عدم الاستواء بين الفريقين (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) وهذه الدرجة يمثلها رسول الله ﷺ فى مقامهم فى الجنة . فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قال: إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله . وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، ثم يعود السياق بعد تقرير هذا الفارق فى المستوى بين القاعدين من المؤمنين – غير اولى الضرر – والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم ، فيقرر أن الله وعد جميعهم الحسنى (وكلا وعد الله الحسنى) فإذا انتهى من هذا الاستدراك عاد لتقرير القاعدة الأولى ؛ مؤكدا لها ، متوسعا فى عرضها ; ممعنا فى الترغيب فيما وراءها من أجر عظيم (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة . وكان الله غفورا رحيمًا) وهذا التوكيد . . وهذه الوعود . . وهذا التمجيد للمجاهدين . . والتفضيل على القاعدين يشى بحقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى:هى أن هذه النصوص كانت تواجه حالات قائمة فى الجماعة المسلمة كما أسلفنا وتعالجها . وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكا لطبيعة النفس البشرية ، ولطبيعة الجماعات البشرية ، وأنها مهما بلغت فى مجموعها من التفوق فى الإيمان والتربية فهى دائما فى حاجة إلى علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير فى مواجهة التكاليف ، وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس

والحقيقة الثانية: هى قيمة الجهاد بالأموال والأنفس فى ميزان الله واعتبارات هذا الدين وأصالة هذا العنصر فى طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام . لما يعلمه الله – سبحانه - من طبيعة الطريق ؛ وطبيعة البشر ؛ وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام فى كل حين .

إن" الجهاد" ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة . إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة ! وليست المسألة – كما توهم بعض المخلصين – أن الإسلام نشأ فى عصر اللإمبراطوريات ; فاندس فى تصوراتأهله - اقتباسا مما حولهم – أنه لا بد لهم من قوة قاهرة لحفظ التوازن ! إن الله – سبحانه – يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك ! ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه . لأنه طريق غير طريقهم ، ومنهج غير منهجهم . ليس بالأمس فقط . ولكن اليوم وغدا . وفى كل أرض ، وفى كل جيل ! وإن الله – سبحانه – يعلم أن الشر متبجح ، ولا يمكن أن يكون منصفا . ولا يمكن أن يدع الخير ينمو – مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة ! – فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر . ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل . ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان ؛ ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة ! ومن ثم لا بد من الجهاد . . لابد منه فى كل صورة . . ولا بد أن يبدأ فى عالم الضمير . ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود . ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح . ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة . . وإلا كان الأمر انتحارا . أو كان هزلا لا يليق بالمؤمنين ! ولا بد من بذل الأموال والأنفس . كما طلب الله من المؤمنين . وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . فأما أن يقدر لهم الغلب ؛ أو يقدر لهم الاستشهاد ; فذلك شأنه – سبحانه – وذلك قدره المصحوب بحكمته . . أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم . . والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل . . والشهداء وحدهم الذين يستشهدون . .

بعد ذلك يتحدث عن فريق من القاعدين ؛ أولئك الذين يظلون قاعدين فى دار الكفر لا يهاجرون ; تمسك بهم أموالهم ومصالحهم ، أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق – وهم قادرون لو أرادوا واعتزموا التضحية – أن يهاجروا . . حتى يحين أجلهم ، وتأتى الملائكة لتتوفاهم . يتحدث عنهم فيصورهم صورة زرية منكرة ، تستنهض كل قاعد منهم للفرار بدينه وعقيدته ، وبمصيره عند ربه ؛ من هذا الموقف الذى يرسمه لهم (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم . . قالوا:فيم كنتم ؟ قالوا:كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا:ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورًا) لقد كان هذا النص يواجه حالة واقعة فى الجزيرة العربية – فى مكة وغيرها – بعد هجرة رسول الله ﷺ وقيام الدولة المسلمة . فقد كان هناك مسلمون لم يهاجروا . حبستهم أموالهم ومصالحهم – حيث لم يكن المشركون يدعون مهاجرا يحمل معه شيئا من ماله -أو حبسهم إشفاقهم وخوفهم من مشاق الهجرة ، وجماعة حبسهم عجزهم الحقيقى ، من الشيوخ والنساء

والولدان الذين لا يستطيعون حيلة للهرب ولا يجدون سبيلا للهجرة ، وقد اشتد أذى المشركين لهؤلاء الباقين من أفراد المسلمين ؛ بعد عجزهم عن إدراك الرسول ﷺ وصاحبه ، وبعد قيام الدولة المسلمة . وبعد تعرضها لتجارة قريش في بدر ، وانتصار المسلمين ذلك الانتصار الحاسم . فأخذ المشركون يسومون هذه البقية المتخلفة ألوانا من العذاب والنكال ، ويفتنونهم عن دينهم في غيظ شديد . وقد فتن بعضهم عن دينهم فعلا ؛ واضطر بعضهم إلى إظهار الكفر تقية ، ومشاركة المشركين عبادتهم ، وكانت هذه التقية جائزة لهم يوم أن لم تكن لهم دولة يهاجرون إليها - متى استطاعوا - فأما بعد قيام الدولة ، ووجود دار الإسلام فإن الخضوع للفتنة , أو الالتجاء للتقية ، وفي الوسع الهجرة والجهر بالإسلام ، والحياة في دار الإسلام . . أمر غير مقبول . وهكذا نزلت هذه النصوص ؛ تسمى هؤلاء القاعدين محافظة على أموالهم ومصالحهم ، أو إشفاقا من مشاق الهجرة ومتاعب الطريق . . حتى يحين أجلهم (ظالمي أنفسهم) بما أنهم حرموها الحياة في دار الإسلام ، وألزموها الحياة في دار الكفر، وتوعدهم ب (جهنم وساءت مصيرا) ولكن التعبير القرآني - على أسلوب القرآن - يعبر في صورة ، ويصور في مشهد حي نابض بالحركة والحوار (إن الذين توفاهم الملائكة . . ظالمي أنفسهم . . قالوا:فيم كنتم ؟ قالوا:كنا مستضعفين في الأرض ! قالوا ألم تكن أرض الله واسعة ، فتهاجروا فيها ؟) إنه يصور حقيقة . ولكنه يستخدم هذه الحقيقة في موضعها أحسن استخدام ، في علاج النفس البشرية ، ومشهد الاحتضار بذاته مشهد ترتجف له النفس البشرية ، وتتحفز لتصور ما فيه . وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافا وتحفزا وحساسية . ولكن الملائكة لا يتوفونهم - ظالمي أنفسهم - في صمت . بل يقلبون ماضيهم ، ويستنكرون أمرهم ! ويسألونهم:فيم أضاعوا أيامهم ولياليهم ؟ وماذا كان شغلهم وهمهم في الدنيا: (قالوا:فيم كنتم ؟) ويجيب هؤلاء المحتضرون ، في لحظة الاحتضار ، على هذا الاستنكار ، جوابا كله مذلة , ويحسبونه معذرة على ما فيه من مذلة (قالوا:كنا مستضعفين في الأرض) كنا مستضعفين . يستضعفنا الأقوياء . كنا أذلاء في الأرض لا نملك من أمرنا شيئا . وعلى كل ما في هذا الرد من مهانة تدعو إلى الزراية ؛ وتنفر كل نفس من أن يكون هذا موقفها في لحظة الاحتضار ، بعد أن يكون هذا موقفها طوال الحياة . . فإن الملائكة لا يتركون هؤلاء المستضعفين الظالمي أنفسهم . بل يجبهونهم بالحقيقة الواقعة ، ويؤنبونهم على عدم المحاولة ، والفرصة قائمة (قالوا:ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟) إنه لم يكن العجز الحقيقي هو الذي يحملهم - إذن - على قبول الذل والهوان والاستضعاف , والفتنة عن الإيمان . . إنما كان هناك شيء آخر . . حرصهم على أموالهم ومصالحهم وأنفسهم يمسكهم في دار الكفر ، وهناك دار الإسلام . ويمسكهم في الضيق وهناك أرض الله الواسعة . والهجرة إليها مستطاعة ؛ مع احتمال الآلام والتضحيات ، وهنا ينهى المشهد المؤثر ، بذكر النهاية المخيفة (فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا) ثم يستثني من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر من الشيوخ الضعاف ، والنساء والأطفال ؛ فيعلقهم بالرجاء في عفو الله ومغفرته ورحمته . بسبب عذرهم البين وعجزهم عن الفرار (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورًا) ويمضي هذا الحكم إلى آخر الزمان ؛ متجاوزا تلك الحالة الخاصة التي كان يواجهها النص في تاريخ معين ، وفي بيئة معينة . . يمضي حكما عاما ؛ يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه في أية أرض ؛ وتمسكه أمواله ومصالحه ، أو قراباته وصداقاته ؛ أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها . متى كان هناك - في الأرض في أي مكان - دار للإسلام ; يأمن فيها على دينه ، ويجهر فيها بعقيدته ، ويؤدي فيها عباداته ؛ ويحيا حياة إسلامية في ظل شريعة الله ، ويستمتع بهذا المستوى الرفيع من الحياة . .

أما السياق القرآني فيمضي في معالجة النفوس البشرية ؛ إلى تواجه مشاق الهجرة ومتاعبها ومخاوفها ؛ وتشفق من التعرض لها ، سواء وصل المهاجر إلى وجهته أو مات في طريقه ، في حالة الهجرة في سبيل الله ، وبضمان الله للمهاجر منذ أن يخرج من بيته مهاجرا في سبيله . ووعده بالسعة والمتنفس في الأرض والمنطلق ، فلا تضيق به الشعاب والفجاج (ومن يهاجر - في سبيل الله - يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله - ثم يدركه الموت - فقد وقع أجره على الله . وكان الله غفورا رحيما) إن المنهج الرباني القرآني يعالج في هذه الآية مخاوف النفس المتنوعة ؛ وهي تواجه مخاطر الهجرة ؛ في مثل تلك الظروف التي كانت قائمة ؛ والتي قد تتكرر بذاتها أو بما يشابهها من المخاوف في كل حين . فهو يحدد الهجرة بأنها (في سبيل الله) وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام . فليست هجرة للثراء ، أو هجرة للنجاة من المتاعب ، أو هجرة للذائذ والشهوات , أو هجرة لأي عرض من أعراض الحياة . ومن يهاجر هذه الهجرة - في سبيل الله - يجد في الأرض فسحة ومنطلقا فلا تضيق به الأرض ، ولا يعدم الحيلة والوسيلة . للنجاة وللرزق والحياة (ولكن الأجل قد يوافي في أثناء الرحلة والهجرة في سبيل الله . . والموت - كما تقدم في سياق السورة - لا علاقة له بالأسباب الظاهرة ؛ إنما هو

حتم محتوم عندما يحين الأجل المرسوم . وسواء أقام أم هاجر ، فإن الأجل لا يستقدم ولا يستأخر (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله – ثم يدركه الموت – فقد وقع أجره على الله)أجره كله . أجر الهجرة والرحلة والوصول إلى دار الإسلام والحياة في دار الإسلام . . فماذا بعد ضمان الله من ضمان ؟ ومع ضمانة الأجر التلويح بالمغفرة للذنوب والرحمة فى الحساب . وهذا فوق الصفقة الأولى (وكان الله غفورا رحيمًا) إنها صفقة رابحة دون شك . يقبض فيها المهاجر الثمن كله منذ الخطوة الأولى – خطوة الخروج من البيت مهاجرا إلى الله ورسوله – والموت هو الموت . فى موعده الذى لا يتأخر . والذى لا علاقة له بهجرة أو إقامة . ولو أقام المهاجر ولم يخرج من بيته لجاءه الموت في موعده . ولخسر الصفقة الرابحة . فلا أجر ولا مغفرة ولا رحمة . بل هنالك الملائكة تتوفاه ظالما لنفسه ! وشتان بين صفقة وصفقة ! وشتان بين مصير ومصير ! ويخلص لنا من هذه الآيات عدة اعتبارات

منها مدى كراهية الإسلام للقعود عن الجهاد فى سبيل الله ؛ والقعود عن الانضمام للصف المسلم المجاهد . . اللهم إلا من عذرهم الله من أولى الضرر ، ومن العاجزين عن الهجرة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . .

و مدى عمق عنصر الجهاد وأصالته فى العقيدة الإسلامية ، وفى النظام الإسلامى , وفى المقتضيات الواقعية لهذا المنهج الربانى .

و أن النفس البشرية هى النفس البشرية ؛ وأنها قد تحجم أمام الصعاب , أو تخاف أمام المخاطر ، وتكسل أمام العقبات ، فى خير الأزمنة وخير المجتمعات . وأن منهج العلاج فى هذه الحالة ، ليس هو اليأس من هذه النفوس . ولكن استجاشتها ، وتشجيعها , وتحذيرها ، وطمأنتها فى آن واحد . وفق هذا المنهج القرآنى الربانى الحكيم .

كيف كان هذا القرآن يواجه واقع الحياة ؛ ويقود المجتمع المسلم ؛ ويخوض المعركة – فى كل ميادينها – وأول هذه الميادين هو ميدان النفس البشرية ؛ وطبائعها الفطرية ، ورواسبها كذلك من الجاهلية . وكيف ينبغى أن نقرأ القرآن ، ونتعامل معه ونحن نواجه واقع الحياة والنفس بالدعوة إلى الله .

بعد ذلك يستطرد الى رخصة ، يبيحها الله للمهاجرين ، أو الضاربين فى الأرض للجهاد أو للتجارة . فى حالة خوفهم أن يأخذهم الذين كفروا أسارى . فيفتنوهم عن دينهم . وهى رخصة القصر من الصلاة – وهو غير القصر المرخص به للمسافر إطلاقا سواء خاف فتنة الذين كفروا أو لم يخف – فهذا قصر خاص (وإذا ضربتم فى الأرض ، فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة – إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا – إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا)إن الضارب فى الأرض فى حاجة ماسة إلى الصلة الدائمة بربه ، تعينه على ما هو فيه , وتكمل عدته وسلاحه فيما هو مقدم عليه ، وما هو مرصود له فى الطريق . . والصلاة أقرب الصلات إلى الله . وهى العدة التى يدعى المسلمون للاستعانة بها فى الشدائد والملمات . فكلما كان هناك خوف أو مشقة قال لهم (واستعينوا بالصبر والصلاة) ومن ثم يجىء ذكرها هنا فى إبانها المناسب ، وفى وقت الحاجة إليها والاضطرار ، والمعنى الذى نختاره فى القصر هنا هو المعنى الذى اختاره الإمام الجصاص . وهو أنه ليس القصر فى عدد الركعات بجعلها اثنتين فى الصلاة الرباعية . فهذا مرخص به للمسافر إطلاقا ، بلا تخصيص حالة الخوف من الفتنة . بل هذا هو المختار فى الصلاة للمسافر - كفعل رسول الله ﷺ فى كل سفر – بحيث لا يجوز إكمال الصلاة فى السفر فى أرجح الأقوال . وإذن فهذه الرخصة الجديدة – فى حالة خوف الفتنة – تعنى معنى جديدا غير مجرد القصر المرخص به لكل مسافر . إنما هو قصر فى صفة الصلاة ذاتها . كالقيام بلا حركة ولا ركوع ولا سجود ولا قعود للتشهد . حيث يصلى الضارب فى الأرض قائما وسائرا وراكبا , ويومىء للركوع والسجود ، وكذلك لا يترك صلته بالله فى حالة الخوف من الفتنه ، ولا يدع سلاحه الأول فى المعركة , ويأخذ حذره من عدوه (إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) وبمناسبة الحديث عن صلاة الضارب فى الأرض ، الخائف من فتنة الذين كفروا ، يجىء حكم صلاة الخوف فى أرض المعركة ؛ وتحتشد جنبات هذا الحكم الفقهى بلمسات نفسية وتربوية شتى (وإذا كنت فيهم ، فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم ؛ فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم . ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ؛ وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فيميلون عليكم ميلة واحدة . ولا جناح عليكم – إن كان بكم أذى من مطر ، أو كنتم مرضى – أن تضعوا أسلحتكم . وخذوا حذركم ، إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا فإذا

قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً) أول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة فى ساحة المعركة ! ولكن هذا طبيعى بل بديهى فى الاعتبار الإيمانى . إن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة . بل أنها السلاح ! فلا بد من تنظيم استخدام هذا السلاح ، بما يتناسب مع طبيعة المعركة ، وجو المعركة !

و ما يجب التأكيد عليه أولا: أن أولئك الرجال – الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الربانى – يلقون عدوهم بهذا السلاح الذى يتفوقون فيه قبل أى سلاح . لقد كانوا متفوقين فى إيمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة ؛ ويشعرون أنه معهم فى المعركة . متفوقين كذلك فى إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله ؛ ويشعرون أنه أرفع الأهداف جميعا . متفوقين أيضا فى تصورهم للكون والحياة ولغاية وجودهم الإنسانى ، تفوقهم فى تنظيمهم الاجتماعى الناشىء من تفوق منهجهم الربانى . . وكانت الصلاة رمزا لهذا كله ، وتذكير بهذا كله . ومن ثم كانت سلاحا فى المعركة . بل كانت هى السلاح !

ثانيا : هو هذه التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو . وهذا الحذر الذى يوصى المؤمنون به تجاه عدوهم الذى يتربص بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم ، ليميل عليهم ميلة واحدة ! ومع هذا التحذير والتخويف ، التطمين والتثبيت ؛ إذ يخبرهم أنهم إنما يواجهون قوما كتب الله عليهم الهوان: (إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا). . وهذا التقابل بين التحذير والتطمين ؛ وهذا التوازن بين استثارة حاسة الحذر وسكب فيض الثقة ؛ هو طابع هذا المنهج فى تربية النفس المؤمنة والصف المسلم ، فى مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم !

أما كيفية صلاة الخوف ؛ فتختلف فيها آراء الفقهاء ، أخذا من هذا النص ، ولكننا نكتفى بالصفة العامة ، دون دخول فى تفصيل الكيفيات المتنوعة (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم . ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك . وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) والمعنى: إذا كنت فيهم فأممتهم فى الصلاة ، فلتقم طائفة منهم تصلى معك الركعة الأولى . على حين تقف طائفة أخرى بأسلحتها من ورائكم لحمايتكم . فإذا أتمت الطائفة الأولى الركعة الأولى رجعت فأخذت مكان الحراسة ، وجاءت الطائفة التى كانت فى الحراسة ولم تصل . فلتصل معك ركعة كذلك ـ وهنا يسلم الإمام إذ يكون قد أتم صلاته ركعتين ـ عندئذ تجىء الطائفة الأولى فتقضى الركعة الثانية التى فاتتها مع الإمام . وتسلم - بينما تحرسها الطائفة الثانية – ثم تجىء الثانية فتقضى الركعة الأولى التى فاتتها وتسلم - بينما تحرسها الطائفة الأولى ، وبذلك تكون الطائفتان قد صلتا بإمامة الرسول ﷺ وكذلك مع خلفائه وأمرائه ، وأمراء المسلمين [منهم] فى كل معركة (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فيميلون عليكم ميلة واحدة) وهى رغبة فى نفوس الكفار تجاه المؤمنين دائمة . والسنون تتوالى ، والقرون تمر ، فتؤكد هذه الحقيقة ، التى وضعها الله فى قلوب المجموعة المؤمنة الأولى . وهو يضع لها الخطط العامة للمعركة . كما يضع لها الخطة الحركية أحيانا . على هذا النحو الذى رأينا فى صلاة الخوف . على أن هذا الحذر ، وهذه التعبئة النفسية ، وهذا الاستعداد بالسلاح المستمر ، ليس من شأنه أن يوقع المسلمين فى المشقة . فهم يأخذون منه بقدر الطاقة (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر ، أو كنتم مرضى ، أن تضعوا أسلحتكم) فحمل السلاح فى هذه الحالة يشق ، ولا يفيد . ويكفى أخذ الحذر ؛ وتوقع عون الله ونصره (وخذوا حذركم . إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا) ولعل هذا الاحتياط ، وهذه اليقظة ، وهذا الحذر يكون أداة ووسيلة لتحقيق العذاب المهين الذى أعده الله للكافرين . فيكون المؤمنون هم ستار قدرته ؛ وأداة مشيئته . . وهى الطمأنينة مع ذلك الحذر ؛ والثقة فى النصر على قوم أعد الله لهم عذابا مهينا (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم . فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة . إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) وهكذا يوجههم إلى الاتصال بالله فى كل حال ، وفى كل وضع ، إلى جانب الصلاة . . فهذه هى العدة الكبرى ، وهذا هو السلاح الذى لا يبلى ، فأما حين الاطمئنان (فأقيموا الصلاة) أقيموها كاملة تامة بلا قصر، فهى فريضة ذات وقت محدد لأدائها . ومتى زالت أسباب الرخصة فى صفة من صفاتها عادت إلى صفتها المفروضة الدائمة . ومن قوله تعالى: (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) يأخذ الظاهرية رأيهم فى عدم قضاء الفائتة من الصلاة لأنها لا تجزى ولا تصح . لأن الصلاة لا تصح إلا فى ميقاتها المعين . فمتى فات الميقات ، فلا سبيل لإقامة الصلاة . . والجمهور على صحة قضاء الفوائت . وعلى تحسين التبكير فى الأداء ، والكراهية فى التأخير . . ولا ندخل بعد هذا فى تفصيلات الفروع . .

ويختم هذا الدرس بالتشجيع على المضي فى الجهاد ؛ مع الألم والضنى والكلال . ويلمس القلوب المؤمنة لمسة عميقة موحية ، تمس أعماق هذه القلوب ، وتلقى الضوء القوى على المصائر والغايات والاتجاهات: (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون . وترجون من الله ما لا يرجون . وكان الله عليما حكيمًا) إنهن كلمات معدودات . يضعن الخطوط الحاسمة ، ويكشفن عن الشقة البعيدة ، بين جبهتى الصراع . . إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح فى المعركة . ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه . إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح والالآواء ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء ، إن المؤمنين يتوجهون إلى الله بجهادهم ، ويرتقبون عنده جزاءهم فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون ، لا يتجهون لله , ولا يرتقبون عنده شيئا فى الحياة ولا بعد الحياة ، فإذا أصر الكفار على المعركة ، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارا ، وإذا احتمل الكفار آلامها ، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام . وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال ، وتعقب آثارهم ، حتى لا تبقى لهم قوة ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار . وأن تعلم أنها إن كانت تألم ، فإن عدوها كذلك يألم ، والألم أنواع ، والقرح ألوان (وترجون من الله ما لا يرجون) وهذا هو العزاء العميق . وهذا هو مفرق الطريق (وكان الله عليما حكيمًا) يعلم كيف تعتلج المشاعر فى القلوب . ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح . .

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً{١٠٥} وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{١٠٦} وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً{١٠٧} يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً{١٠٨} هَاأَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً{١٠٩} وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً{١١٠} وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً{١١١} وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً{١١٢} وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً{١١٣}

هذه الآيات تحكى قصة لا تعرف لها الأرض نظيرا ، ولا تعرف لها البشرية شبيها . . وتشهد – وحدها – بأن هذا القرآن وهذا الدين لا بد أن يكون من عند الله ، و جاء فى أسباب نزولها إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت ! قال قتادة:فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته . فقال:" عمدت الى إهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة ؟ " قال:فرجعت ، ولوددت أنى خرجت من بعض مالى ولم أكلم رسول الله ﷺ فى ذلك . فأتانى عمى رفاعة فقال:يا ابن أخى ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لى رسول الله ﷺ فقال:الله المستعان . . فلم نلبث أن نزلت (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيمًا) إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة برى ء ، تامرت عليه عصبة لتوقعه فى الاتهام – وإن كانت تبرئة برىء أمرا هائلا ثقيل الوزن فى ميزان الله – إنما كانت أكبر من ذلك . كانت هى إقامة الميزان الذى لا يميل مع الهوى ، ولا مع العصبية ، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيا كانت الملابسات والأحوال . وكانت المسألة هى تطهير هذا المجتمع الجديد ؛ وعلاج عناصر الضعف البشرى فيه مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية – فى كل صورها حتى فى صورة العقيدة ، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس – وإقامة هذا المجتمع الجديد ، إننا نحس فى التعبير صرامة ، يفوح منها الغضب للحق ، والغيرة على العدل ؛ وتشيع فى جو الآيات وتفيض منها ، وأول ما يبدو هذا فى تذكير رسول الله ﷺ بتنزيل الكتاب إليه بالحق ليحكم بين الناس بما أراه الله . وإتباع هذا التذكير بالنهى عن أن يكون خصيما للخائنين ، يدافع عنهم ويجادل . وتوجيهه لاستغفار الله – سبحانه – عن هذه المجادلة (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله . ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيمًا) ثم تكرار هذا النهى ؛ ووصف هؤلاء الخائنين ، الذين جادل عنهم ﷺ بأنهم يختانون أنفسهم . وتعليل ذلك بأن الله لا يحب من كان خوانا أثيمًا (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم . إن الله لا يحب من كان خوانا أثيمًا) ويعقب الوصف بالإثم والخيانة تصوير منفر لسلوك هؤلاء الخونة الآثمين (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله – وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول) وهى صورة زرية داعية إلى الاحتقار والسخرية . زرية بما فيها من ضعف والتواء ، وهم يبيتون ما يبيتون من الكيد والمؤامرة والخيانة ؛ ويستخفون بها عن الناس . والناس لا يملكون لهم نفعا ولا ضرا . بينما الذى يملك النفع والضر معهم وهم يبيتون ما يبيتون ؛ مطلع

عليهم وهم يخفون نياتهم ويستخفون . وهم يزورون من القول مالا يرضاه ! فأى موقف يدعو إلى الزراية والاستهزاء أكثر من هذا الموقف ؟ (وكان الله بما يعملون محيطًا) إجمالا وإطلاقا ، فأين يذهبون بما يبيتون . والله معهم إذ يبيتون . والله بكل شىء محيط وهم تحت عينه وفى قبضته وبعد هذه الحملة الغاضبة على الخونة الأثمة ، والعتاب الشديد للمنافحين عنهم والمجادلين . يجىء تقرير القواعد العامة لهذه الفعلة وآثارها . وللحساب عليها والجزاء (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه . وكان الله عليما حكيما ، ومن يكسب خطيئة أو إثما ، ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينًا) إنها آيات ثلاث تقرر المبادىء الكلية التى يعامل بها الله عباده ؛ والتى يملك العباد أن يعاملوا بعضهم بعضا بها ، ويعاملوا الله على أساسها فلا يصيبهم السوء .

الآية الأولى تفتح باب التوبة على مصراعيه ، وباب المغفرة على سعته ؛ وتطمع كل مذنب تائب فى العفو والقبول (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيمًا) إنه – سبحانه - موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر منيب . .

والآية الثانية تقرر فردية التبعة . وهى القاعدة التى يقوم عليها التصور الإسلامى فى الجزاء ، والتى تثير فى كل قلب شعور الخوف وشعور الطمأنينة . الخوف من عمله وكسبه . والطمأنينة من أن لا يحمل تبعة غيره (ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه . وكان الله عليما حكيمًا)

ليست هناك خطيئة موروثة فى الإسلام ، كالتى تتحدث عنها تصورات الكنيسة . كما أنه ليست هناك كفارة غير الكفارة التى تؤديها النفس عن نفسها . . وعندئذ تنطلق كل نفس حذرة مما تكسب . مطمئنة إلى أنها لا تحاسب إلا على ما تكسب . . توازن عجيب ، فى هذا التصور الفريد . هو إحدى خصائص التصور الإسلامى وأحد مقوماته ، التى تطمئن الفطرة ، وتحقق العدل الإلهى المطلق

والآية الثالثة تقرر تبعة من يكسب الخطيئة ثم يرمى بها البرىء . . وهى الحالة المنطبقة على حالة العصابة التى يدور عليها الكلام (من يكسب خطيئة أو إثما ، ثم يرم به بريئا ، فقد احتمل بهتانا وإثما مبينًا) البهتان فى رميه البرىء . والإثم فى ارتكابه الذنب الذى رمى به البرىء . . وقد احتملهما معه . وكأنما هما حمل يحمل . على طريقة التجسيم التى تبرز المعنى وتؤكده فى التعبير القرآنى المصور .

وبهذة القواعد الثلاث يرسم القرآن ميزان العدالة الذى يحاسب كل فرد على ما اجترح . ولا يدع المجرم يمضى ناجيا إذا ألقى جرمه على سواه . . وفى الوقت ذاته يفتح باب التوبة والمغفرة على مصراعيه ؛ ويضرب موعدا مع الله – سبحانه – فى كل لحظة للتائبين المستغفرين , الذين يطرقون الأبواب فى كل حين . بل يلجونها بلا استئذان فيجدون الرحمة والغفران !

وأخيرا يمن الله على رسوله ﷺ أن عصمه من الانسياق وراء المتأمرين المبيتين ؛ فأطلعه على مؤامراتهم التى يستخفون بها من الناس ولا يستخفون بها من الله – وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول – ثم يمتن عليه المنة الكبرى فى إنزال الكتاب والحكمة وتعليمه ما لم يكن يعلم . . وهى المنة على البشرية كلها ، ممثلة ابتداء فى شخص أكرمها على الله وأقربها لله (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك . وما يضلون إلا أنفسهم . وما يضرونك من شىء . وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة . وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيمًا . إن هذه المحاولة ليست إلا واحدة من محاولات كثيرة ، شتى الألوان والأنواع ؛ مما بذله أعداء هذا الرسول الكريم ليضلوه عن الحق والعدل والصواب . ولكن الله – سبحانه - كان يتولاه بفضله ورحمته فى كل مرة . وكان الكائدون المتأمرون هم الذين يضلون ويقعون فى الضلالة . . وسيرة رسول الله ﷺ حافلة بتلك المحاولات ؛ ونجاته وهدايته ، وضلال المتأمرين وخيبتهم . والله - سبحانه – يمتن عليه بفضله ورحمته هذه ؛ ويطمئنه فى الوقت ذاته أنهم لا يضرونه شيئا . بفضل من الله ورحمة . وبمناسبة المنة فى حفظه من هذه المؤامرة الأخيرة ؛ وصيانة أحكامه من أن تتعرض لظلم برىء وتبرئة جارم ، وكشف الحقيقة له وتعريفه بالمؤامرة . . تجىء المنة الكبرى . . منة الرسالة (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيمًا) وهى منة الله على "الإنسان" فى هذه الأرض . المنة التى ولد الإنسان معها ميلادا جديدا . ونشأ بها "الإنسان" كما نشأ أول مرة بنفخة الروح الأولى . . المنة التى التقطت البشرية من سفح الجاهلية ، لترقى بها فى الطريق الصاعد ، إلى القمة السامقة . عن طريق المنهج الربانى الفريد العجيب ... المنة التى لا يعرف

قدرها إلا الذى عرف الإسلام وعرف الجاهلية - جاهلية الغابر والحاضر - وذاق الإسلام وذاق الجاهلية . . وإذا كانت منة يذكر الله بها رسوله ﷺ فلأنه هو أول من عرفها وذاقها . وأكبر من عرفها وذاقها . وأعرف من عرفها وذاقها (وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيمًا)

(لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاءِ مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً{١١٤}وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً{١١٥} إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً{١١٦} إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً{١١٧} لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً{١١٨} وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً{١١٩} يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً{١٢٠} أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً{١٢١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً{١٢٢} لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٢٣} وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً{١٢٤} وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً{١٢٥} وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً){١٢٦}

لقد تكرر فى القرآن النهى عن النجوى ؛ وهي أن تجتمع طائفة بعيدا عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة ،لتبيت أمرا . . وكان اتجاه التربية الإسلامية واتجاه التنظيم الإسلامي كذلك أن يأتى كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه ، فيعرضه على النبى ﷺ مسارة إن كان أمرا شخصيا لا يريد أن يشيع عنه شيء في الناس . أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة ، التى ليست من خصوصيات هذا الشخص والحكمة فى هذه الخطة ، هو ألا تتكون "جيوب" فى الجماعة المسلمة ؛ وألا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها ، أو بأفكارها واتجاهاتها . وألا تبيت مجموعة من الجماعة المسلمة أمرا بليل ، وتواجه به الجماعة أمرا مقررا من قبل ؛ أو تخفيه عن الجماعة وتستخفى به عن أعينها - وإن كانت لا تختفي به عن الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول ، وهذا الموضع أحد المواضع التى ورد فيها هذا النهى عن التناجى والتبييت بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها ، ولقد كان المسجد هو ندوة الجماعة المسلمة ، تتلاقى فيه وتتجمع للصلاة ولشؤون الحياة . وكان المجتمع المسلم كله مجتمعا مفتوحا ؛ تعرض مشكلاته - التى ليست بأسرار للقيادة فى المعارك وغيره ؛ والتي ليست بمسائل شخصية بحتة لا يحب أصحابها أن تلوكها الألسن - عرضا عاما (لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) والنصّ القرآنى هُنا يَستثنىَ نوعا من النجوى ، هو فى الحقيقة ليس منها ، وإن كان له شكلها (إلا من أمر بصدقة أو معروف ، أو إصلاح بين الناس) وذلك أن يجتمع الرجل الخير بالرجل الخير ، فيقول له:هلم نتصدق على فلان فقد علمت حاجته فى خفية عن الأعين . أو هلم إلى معروف معين نفعله أو نحض عليه . أو هلم نصلح بين فلان وفلان فقد علمت أن بينهما نزاعا . . وقد تتكون العصبة من الخيرين لأداء أمر من هذه الأمور ، وتتفق فيما بينها سرا على النهوض بهذا الأمر . فهذا ليس نجوى ولا تآمرا . ومن ثم سماه "أمرا" وإن كان له شكل النجوى ، فى مسارة الرجل الخير للخيرين أمثاله بأمر فى معروف يعلمه أو خطر له ، على شرط أن يكون الباعث هو ابتغاء مرضاة الله (ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) فلا يكون لهوى فى الصدقة على فلان ، أو الإصلاح بين فلان وعلان . ولا يكون ليشتهر الرجل بأنه - والله رجل طيب - ! يحض على الصدقة والمعروف ، ويسعى فى الإصلاح بين الناس ! ولا تكون هناك شائبة تعكر صفاء الاتجاه إلى الله ، بهذا الخير . فهذا هو مفرق الطريق بين العمل يعمله المرء فيرضى الله عنه ويثيبه به . والعمل نفسه يعمله المرء فيغضب الله عليه ، ويكتبه له فى سجل السيئات ! (ومن يشاقق الرسول - من بعد ما تبين له الهدى - ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك - لمن يشاء - ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدًا) وقد ذكر فى سبب نزول هذه الآيات . أن بشير بن أبيرق قد ارتد والتحق بالمشركين ، من بعد ما تبين له الهدى فقد كان فى صفوف المسلمين ، ثم اتبع غير سبيل المؤمنين ، ولكن النص عام ، ينطبق على كل حالة ، ويواجه كل حالة من مشاقة الرسول ﷺ ومشاقته كفر وشرك وردة ، ينطبق عليه ما ينطبق على ذلك الحادث القديم ، والمشاقة - لغة - أن يأخذ المرء شقا مقابلا للشق الذى يأخذه الآخر . والذى يشاق الرسولﷺ هو

الذى يأخذ له شقا وجانبا وصفا غير الصف والجانب والشق الذى يأخذه النبى ﷺ ومعنى هذا أن يتخذ له منهجا للحياة كلها غير منهجه ، وأن يختار له طريقا غير طريقه . فالرسول ﷺ جاء يحمل من عند الله منهجا كاملا للحياة يشتمل على العقيدة والشعائر التعبدية ، كما يشتمل على الشريعة والنظام الواقعى لجوانب الحياة البشرية كلها . . وهذه وتلك كلتاهما جسم هذا المنهج ، بحيث تزهق روح هذا المنهج إذا شطر جسمه فأخذ منه شق وطرح شق ! والذى يشاق الرسول ﷺ هو كل من ينكر منهجه جملة ، أو يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، فيأخذ بشق منه ويطرح شقا ! (ومن يشاقق الرسول – من بعد ما تبين له الهدى – ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى , ونصله جهنم . وساءت مصيرا !) ويعلل النص هذا المصير البائس السيء ، بأن مغفرة الله – سبحانه – تتناول كل شيء إلا أن يشرك به فهذه لا مغفرة لمن مات عليها (إن الله لا يغفر أن يشرك به . ويغفر ما دون ذلك – لمن يشاء – ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) والشرك بالله – كما أسلفنا ، يتحقق باتخاذ آلهة مع الله اتخاذا صريحا على طريقه الجاهلية العربية وغيرها من الجاهليات القديمة - كما يتحقق بعدم إفراد الله بخصائص الألوهية ; والاعتراف لبعض البشر بهذه الخصائص ، ولا غفران لذنب الشرك – متى مات صاحبه عليه – بينما باب المغفرة مفتوح لكل ذنب سواه . .عندما يشاء الله . . والسبب فى تعظيم جريمة الشرك ، وخروجها من دائرة المغفرة , أن من يشرك بالله يخرج عن حدود الخير والصلاح تماما ؛ وتفسد كل فطرته بحيث لا تصلح أبدا: (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدًا) ولو بقى خيط واحد صالح من خيوط الفطرة لشده إلى الشعور بوحدانية ربه ؛ ولو قبل الموت بساعة . . فأما وقد غرغر – وهو على الشرك – فقد انتهى أمره وحق عليه القول ونصله جهنم . وساءت مصيرا !) ثم يصف بعض أوهام الجاهلية العربية فى شركها . وأساطيرها حول اتخاذ الله بنات – هن الملائكة – وحول عبادتهم للشيطان – وقد عبدوه كما عبدوا الملائكة وتماثيلها الأصنام - كما يصف بعض شعائرهم فى تقطيع أو تشقيق آذان الأنعام المنذورة للآلهة ! وفى تغييرهم خلق الله . والشرك بالله . وهو مخالف للفطرة التى فطر الله الناس عليها (إن يدعون من دونه إلا إناثا ، وإن يدعون إلا شيطانا مريدا ، لعنه الله وقال:لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ، ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ; ولآمرنهم فليغيرن خلق الله . . ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا . يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) لقد كان العرب – فى جاهليتهم – يزعمون أن الملائكة بنات الله . ثم يتخذون لهذه الملائكة تماثيل يسمونها أسماء الإناث:"اللات . والعزى . ومناة " وأمثالها ثم يعبدون هذه الأصنام – بوصفها تماثيل لبنات الله – يتقربون بها إلى الله زلفى ، كان هذا على الأقل فى مبدأ الأمر ، ثم ينسون أصل الأسطورة ، ويعبدون الأصنام ذاتها , بل يعبدون جنس الحجر ، كذلك كان بعضهم يعبد الشيطان ، قال الكلبى:كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن . . على أن النص هنا أوسع مدلولا إنهم يدعون الشيطان – عدوهم القديم – ويستوحونه ويستمدون منه هذا الظلال . ذلك الشيطان الذى لعنه الله . والذى صرح بنيته فى إضلال فريق من أبناء آدم ، وتمنيتهم بالأمنيات الكاذبة فى طريق الغواية ، من لذة كاذبة ، وسعادة موهومة ، ونجاة من الجزاء فى نهاية المطاف ! كما صرح بنيته فى أن يدفع بهم إلى أفعال قبيحة ..وشعائر سخيفة ، من نسج الأساطير . كتمزيق آذان بعض الأنعام ، ليصبح ركوبها بعد ذلك حراما ، أو أكلها حراما – دون أن يحرمها الله – ومن تغيير خلق الله وفطرته بقطع بعض أجزاء الجسد أو تغيير شكلها فى الحيوان أو الإنسان ،كخصاء الرقيق , ووشم الجلود . وما إليها من التغيير والتشويه الذى حرمه الإسلام (وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً) ومن يجعل اللهَ مولاه فهو ناج غانم ٍ ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ، ويصور السياق القرآنى فعل الشيطان مع أوليائه ، فى مثل حالة الاستهواء (يعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا)

إنها حالة استهواء معينة هى التى تنحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد ، إلى الكفر والشرك . ولولا هذا الاستهواء لمضت الفطرة فى طريقها ، ولكان الإيمان هو هادى الفطرة وحاديها ، وإنها حالة استهواء معينة هى التى يزين فيها الشيطان للإنسان سوء عمله ، فيراه حسنا ! ويعده الكسب والسعادة فى طريق المعصية ، فيعدو معه فى الطريق ! ويمنيه النجاة من عاقبة ما يعمل فيطمئن ويمضى فى طريقه إلى المهلكة ! وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا ، وحين يرتسم المشهد على هذا النحو ، والعدو القديم يفتل الحبال ، ويضع الفخ ، ويستدرج الفريسة ، لا تبقى إلا الجبلات الموكوسة المطموسة هى التى تظل سادرة لا تستيقظ , ولا تتلفت ولا تحاول أن تعرف إلى أى طريق تساق ، وإلى أية هوة تستهوى ! (أولئك مأواهم جهنم ، ولا يجدون عنها محيصا) (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، وعد الله حقا ، ومن أصدق من الله قيلا ؟) فهى جهنم ولا محيص عنها لأولياء

الشيطان . . وهى جنات الخلد لا خروج منها لأولياء الله (وعد الله ومن أصدق من الله قيلا)؟ والصدق المطلق فى قول الله هنا ؛ يقابل الغرور الخادع ، والأمانى الكاذبة فى قول الشيطان هناك ! وشتان بين من يثق بوعد الله ، ومن يثق بتغرير الشيطان ! ثم يعقب السياق بقاعدة الإسلام الكبرى فى العمل والجزاء . . إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولا إلى الأمانى . إنه يرجع إلى أصل ثابت ، وسنة لا تتخلف ، وقانون لا يحابى . قانون تستوى أمامه الأمم – فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر – وليس أحد تخرق له القاعدة ، وتخالف من أجله السنة ، ويعطل لحسابه القانون . . إن صاحب السوء مجزى بالسوء ؛ وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة . ولا محاباة فى هذا ولا مماراة (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب . من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . . ومن يعمل من الصالحات – من ذكر أو أنثى وهو مؤمن – فأولئك يدخلون الجنة ، ولا يظلمون نقيرا ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله – وهو محسن – واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا)ولقد كان اليهود والنصارى يقولون: (نحن أبناء الله وأحباؤه). . وكانوا يقولون (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) وكان اليهود ولا يزالون يقولون (إنهم شعب الله المختار !) ولعل بعض المسلمين كانت تراود نفوسهم كذلك فكرة أنهم خير أمة أخرجت للناس . وأن الله متجاوز عما يقع منهم بما أنهم المسلمون . فجاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء إلى العمل ، والعمل وحده . ويرد الناس كلهم إلى ميزان واحد . هو إسلام الوجه لله – مع الإحسان – واتباع ملة إبراهيم وهى الإسلام . إبراهيم الذى اتخذه الله خليلا . . فأحسن الدين هو هذا الإسلام – ملة إبراهيم – وأحسن العمل هو "الإحسان" . . والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وقد كتب الإحسان فى كل شىء حتى فى إراحة الذبيحة عند ذبحها ، وحد الشفرة ، حتى لا تعذب وهى تذبح ! وفى النص تلك التسوية بين شقى النفس الواحدة ، فى موقفهما من العمل والجزاء ؛ كما أن فيه شرط الإيمان لقبول العمل ، وهو الإيمان بالله (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى – وهو مؤمن – فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) وهو نص صريح على وحدة القاعدة فى معاملة شقى النفس الواحدة – من ذكر أو أنثى . كما هو نص صريح فى اشتراط الإيمان لقبول العمل . وأنه لا قيمة عند الله لعمل لا يصدر عن الإيمان . ولا يصاحبه الإيمان . وذلك طبيعى ومنطقى . لأن الإيمان بالله هو الذى يجعل العمل الصالح يصدر عن تصور معين وقصد معلوم ؛ كما يجعله حركة طبيعية مطردة , لا استجابة لهوى شخصى ، ولا فلتة عابرة لا تقوم على قاعدة، ولقد شق على المسلمين قول الله لهم (ومن يعمل سوء ا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) فقد كانوا يعرفون طبيعة النفس البشرية ؛ ويعرفون أنها لا بد أن تعمل سوءا . مهما صلحت , ومهما عملت من حسنات . ومن ثم ارتجفت نفوسهم ، وهم يواجهون بأن كل سوء يعملونه يجزون به . ارتجفت نفوسهم كالذى يواجه العاقبة فعلا ويلامسها ، وهذه كانت ميزتهم . أن يحسوا الآخرة على هذا النحو ، ويعيشوا فيها فعلا بمشاعرهم كأنهم فيها . لا كأنها آتية لا ريب فيها فحسب ! ومن ثم كانت رجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الأكيد ! روى ابن أبى حاتم – بإسناده – عن عائشة قالت:قلت يا رسول الله إنى لأعلم أشد آية فى القرآن . فقال:" ما هى يا عائشة ؟ " قلت: (من يعمل سوءا يجز به) فقال . " ما يصيب العبد المؤمن ، حتى النكبة ينكبها " . [ورواه ابن جرير] وفى الختام يجىء التعقيب على قضية العمل والجزاء ، وقضية الشرك قبلها والإيمان ، (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً) والأرض لله ، وإحاطة الله بكل شىء فى الحياة وما بعد الحياة وبعض الفلسفات تقرر وحدانية الله . ولكن بعضها ينفى عنه الإرادة . وبعضها ينفى عنه العلم . وبعضها ينفى عنه السلطان . وبعضها ينفى عنه الملك . . إلى آخر هذا الركام الذى يسمى "فلسفات !" . . ومن ثم يصبح هذا التصور سلبيا لا فاعلية له فى حياة الناس ، ولا أثر له فى سلوكهم وأخلاقهم ؛ ولا قيمة له فى مشاعرهم وواقعهم . . كلام ! مجرد كلام ! إن الله فى الإسلام ، له ما فى السموات وما فى الأرض . فهو مالك كل شىء . . وهو بكل شىء محيط .

(يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللَّاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِن الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً {١٢٧} وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً {١٢٨} وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً {١٢٩} وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً {١٣٠} وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً {١٣١} وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً {١٣٢} إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ

عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً{١٣٣} مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً{١٣٤}

فهم كانوا يستفتون الرسول ﷺ والله – سبحانه – يتفضل فيقول للنبى ﷺ قل:إن الله يفتيكم فيهن وفى بقية الشؤون التى جاء ذكرها فى الآية . وهى لفتة لها قيمتها التى لا تقدر ، فى عطف الله سبحانه ، وتكريمه للجماعة المسلمة ؛ وهو يخاطبها بذاته ; ويرعاها بعينه ؛ ويفتيها فيما تستفتى ، وفيما تحتاج إليه حياتها الجديدة . وقد تناولت الفتوى هنا تصوير الواقع المترسب فى المجتمع المسلم من الجاهلية التى التقطه المنهج الربانى منها . كما تناولت التوجيه المطلوب ، لرفع حياة المجتمع المسلم وتطهيرها من الرواسب . (قل الله يفتيكم فيهن ؛ وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن . والمستضعفين من الولدان . وأن تقوموا لليتامى بالقسط) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية:كان الرجل فى الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقى عليها ثوبه . فإذا فعل ذلك فلم يقدر أحد أن يتزوجها أبدا . وإن كانت جميلة وهويها تزوجها ، وأكل مالها . وإن كانت دميمة منعها الرجال أبد حتى تموت . فإذا ماتت ورثها . فحرم الله ذلك ونهى عنه . . وقال فى قوله: (والمستضعفين من الولدان) كانوا فى الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات . وذلك قوله: لا تؤتونهن ما كتب لهن . . فنهى الله عن ذلك ؛ وبين لكل ذى سهم سهمه فقال:للذكر مثل حظ الأنثيين ، صغيرا أو كبيرا (يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً (١٢٧) وظاهر من هذه النصوص ، ومن النص القرآنى . مَا كان عليه الحال فى الجاهليَة ؛ فيما يختَص بالفتيات اليتيمات . فقد كانت اليتيمة تلقى من وليها الطمع والغبن:الطمع فى مالها , والغبن فى مهرها – إن هو تزوجها – فيأكل مهرها ويأكل مالها . والغبن إن لم يتزوجها كراهية لها لأنها دميمة . ومنعها أن تتزوج حتى لا يشاركه زوجها فيما تحت يده من مالها !

كذلك كان الحال فى الولدان الصغار والنساء ، إذ كانوا يحرمونهم من الميراث لأنهم لا يملكون القوة التى يدفعون بها عن ميراثهم ؛ أو أنهم غير محاربين ، فلا حق لهم فى الميراث , تحت تأثير الشعور القبلى ، الذى يجعل للمحاربين فى القبيلة كل شيء . ولا شيء للضعاف ! وهذه التقاليد الشائهة البدائية ، هى التى أخذ الإسلام يبدلها ، وينشيء مكانها تقاليد إنسانية راقية لا تعد – كما قلنا – مجرد وثبة ، أو نهضة ، فى المجتمع العربى . إنما هى فى حقيقتها نشأة أخرى ، وميلاد جديد ، وحقيقة أخرى لهذه الأمة غير حقيقتها الجاهلية ! والمهم الذى يجب أن نسجله:هو أن هذه النشأة الجديدة ، لم تكن تطورا مسبوقا بأية خطوات تمهيدية له ؛ أو أنه انبثق من واقع مادى تغير فجأة فى حياة هذا الشعب ! فالنقلة من إقامة حقوق الإرث والملك على أساس حق المحارب إلى إقامتها على أساس الحق الإنسانى ، وإعطاء الطفل واليتيمة والمرأة حقوقهم بصفتهم الإنسانية ، لا بصفتهم محاربين ! هذه النقلة لم تنشأ لأن المجتمع قد انتقل إلى أوضاع مستقرة لا قيمة فيها للمحاربين . ومن ثم قضى على الحقوق المكتسبة للمحاربين ، لأنه لم يعد فى حاجة إلى تمييزهم !

كلا ! فقد كان للمحاربين فى العهد الجديد قيمتهم كلها ؛ وكانت الحاجة إليهم ماسة ! ولكن كان هناك . . الإسلام . . كان هناك هذا الميلاد الجديد للإنسان . الميلاد الذى انبثق من خلال كتاب ؛ ومن خلال منهج ؛ فأقام مجتمعا جديدا وليدا . على نفس الأرض . وفى ذات الظروف . وبدون حدوث انقلاب لا فى الإنتاج وأدواته ! ولا فى المادة وخواصها ! وإنما مجرد انقلاب فى التصور هو الذى انبثق منه الميلاد الجديد . وحقيقة أن المنهج القرآنى قد كافح . وكافح طويلا . لطمس ومحو معالم الجاهلية فى النفوس والأوضاع , وتخطيط وتثبيت المعالم الإسلامية فى النفوس والأوضاع . . وحقيقة كذلك أن رواسب الجاهلية ظلت تقاوم ؛ وظلت تعاود الظهور فى بعض الحالات الفردية ؛ أو تحاول أن تعبر عن نفسها فى صور شتى . . ومن ثم ينتهى هذا النص القرآنى الذى يفتى فيه الله المؤمنين ، فيما يستفتون فيه الرسول ﷺ فى أمر النساء ، ويقص عليهم حقوق اليتيمات ، وحقوق الولدان الضعاف . . ينتهى بربط هذه الحقوق وهذه التوجيهات كلها ، بالمصدر الذى جاء من عنده هذا المنهج (وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليمًا) فهو غير مجهول ، وهو غير ضائع . . وهو مسجل عندالله . ولن يضيع خير سجل عند الله ، ثم نمضى خطوة أخرى مع التنظيم الاجتماعى – فى محيط الأسرة – فى هذا المجتمع الذى كان الإسلام ينشئه ، بمنهج الله المتنزل من الملأ الأعلى ، لا بعوامل التغير الأرضية فى عالم المادة أو دنيا الإنتاج (وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ

فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) فإذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة ؛ وأن تؤدى هذه الجفوة إلى الطلاق – وهو أبغض الحلال إلى الله – أو إلى الإعراض ، الذى يتركها كالمعلقة . لا هى زوجة ولا هى مطلقة , فليس هنالك حرج عليها ولا على زوجها ، أن تتنازل له عن شىء من فرائضها المالية أو فرائضها الحيوية . كأن تترك له جزءا أو كلا من نفقتها الواجبة عليه . أو أن تترك له قسمتها وليلتها ، إن كانت له زوجة أخرى يؤثرها ، وكانت هى قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية أو جاذبيتها . . هذا كله إذا رأت هى – بكامل إختيارها وتقديرها لجميع ظروفها – أن ذلك خير لها وأكرم من طلاقها (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا) هو هذا الصلح الذى أشرنا إليه ، ثم يعقب على الحكم بأن الصلح إطلاقا خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق (والصلح خير) فينسم على القلوب التى دبت فيها الجفوة والجفاف ، نسمة من الندى والإيناس ، والرغبة فى إبقاء الصلة الزوجية ، والرابطة العائلية ، وهو هنا – فى هذا الحكم – يتعامل مع هذا الإنسان . وينص على خصيصة من خصائصه فى هذا المجال (وأحضرت الأنفس الشح) أى أن الشح حاضر دائمًا فى الأنفس . وهو دائما قائم فيها . الشح بأنواعه . الشح بالمال . والشح بالمشاعر ، وفى الوقت الذى يتعامل المنهج الإسلامى مع طبيعة الشح هذه ، لا يقف عندها باعتبارها كل جوانب النفس البشرية . بل هو يهتف لها هتافا آخر ، ويعزف لها نغمة أخرى (وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) فالإحسان والتقوى هما مناط الأمر فى النهاية . ولن يضيع منهما شىء على صاحبة ، فإن الله خبير بما تعمله كل نفس ؛ خبير ببواعثه وكوامنه . . والهتاف للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى ، والنداء لها باسم الله الخبير بما تعمل ، هتاف مؤثر ، ونداء مستجاب ، ومرة أخرى نجدنا أمام المنهج الفريد ، وهو يواجه واقع النفس البشرية وملابسات الحياة البشرية ، بالواقعية المثالية ، أو المثالية الواقعية ، ويعترف بما هو كامن فى تركيبها من ازدواج عجيب فريد (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء – ولو حرصتم – فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما . وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيمًا) إن الله الذى فطر النفس البشرية ، يعلم من فطرتها أنها ذات ميول لا تملكها . ومن ثم أعطاها لهذه الميول خطاما . خطاما لينظم حركتها فقط ، لا ليعدمها ويقتلها ! من هذه الميول أن يميل القلب البشرى إلى إحدى الزوجات ويؤثرها على الأخريات . فيكون ميله إليها أكثر من الأخرى أو الأخريات . وهذا ميل لا حيلة له فيه ؛ ولا يملك محوه أو قتله . . فماذا ؟ إن الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه ؛ ولا يجعل هذا إثما يعاقبه عليه ؛ فيدعه موزعا بين ميل لا يملكه وأمر لا يطيقه ! بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء – ولو حرصوا – لأن الأمر خارج عن إرادتهم . . ولكن هنالك ما هو داخل فى إرادتهم . هناك العدل فى المعاملة . العدل فى القسمة . العدل فى النفقة . العدل فى الحقوق الزوجية كلها ، حتى الابتسامة فى الوجه , والكلمة الطيبة باللسان . . وهذا ما هم مطالبون به . هذا هو الخطام الذى يقود ذلك الميل . لينظمه لا ليقتله ! (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) فهذا هو المنهى عنه . الميل فى المعاملة الظاهرة ، والميل الذى يحرم الأخرى حقوقها فلا تكون زوجة ولا تكون مطلقة . . ومعه الهتاف المؤثر العميق فى النفوس المؤمنة ; والتجاوز عما ليس فى طاقة الإنسان (وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيمًا) وكان الرسول ﷺ وهو يقسم بين نسائه فيما يملك ، ويعدل فى هذه القسمة ، لا ينكر أنه يؤثر بعضهن على بعض . وأن هذا خارج عما يملك . فكان يقول:" اللهم هذا قسمى فيما أملك . فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك يعنى القلب " [أخرجه أبو داود] وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً) فأما حين تجف القلوب ، فلا تطيق هذه الصلة ؛ ولا يبقى فىَ نفوس الزوجين ماَ تستقيم معه الحيَاة ، فالتفرق إذن خير . لأن الإسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال ، ولا بالقيود والأغلال ؛ إنما يمسكهم بالمودة والرحمة ؛ أو بالواجب والتجمل . لا يحكم عليها أن تقيم فى سجن من الكراهية والنفرة ؛ أو فى رباط ظاهرى وانفصام حقيقى ! (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته . وكان الله واسعا حكيمًا ، فالله يعد كلا منهما أن يغنيه من فضله هو ، ومما عنده هو ؛ وهو – سبحانه – يسع عباده ويوسع عليهم بما يشاء فى حدود حكمته وعلمه بما يصلح لكل حال . ولأن هذه الأحكام الخاصة بتنظيم الحياة الزوجية ، قطاع من المنهج الربانى لتنظيم الحياة كلها ؛ و لأن هذه هى الحقيقة العميقة فى هذا المنهج الشامل الكبير ، يجىء فى سياق السورة بعد الأحكام الخاصة بتنظيم الأسرة ، ما يربطها بالنظام الكونى كله ؛ وسلطان الله فى الكون كله ، وملكية الله للكون كله . ووحدة الوصية التى وصى الله بها الناس فى كتبه كلها ؛ وثواب الدنيا وثواب الآخرة . . وهى القواعد التى يقوم عليها المنهج كله . قواعد الحق والعدل والتقوى (ولله ما فى السماوات وما فى الأرض . ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله . وإن تكفروا فإن لله ما فى السماوات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا ، ولله ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا . إن يشأ يذهبكم – أيها الناس – ويأت بآخرين ، وكان الله على ذلك قديرا . من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة . وكان الله سميعا بصيرا) ويكثر فى القرآن الكريم

التعقيب على الأحكام ، وعلى الأوامر والنواهي بأن لله ما في السماوات وما في الأرض ؛ أو بأن لله ملك السماوات والأرض . فالأمران متلازمان في الحقيقة . فالمالك هو صاحب السلطان في ملكه ؛ وهو صاحب حق التشريع لمن يحتويهم هذا الملك . والله وحده هو المالك ، ومن ثم فهو وحده صاحب السلطان الذي يشرع به للناس . فالأمران متلازمان . كذلك يبرز هنا من وصية الله – سبحانه – لكل من أنزل عليهم كتابا . . الوصية بالتقوى ، وذلك بعد تعيين من له ملكية السماوات والأرض ، ومن له حق الوصية في ملكه (ولله ما في السماوات وما في الأرض . ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) فصاحب السلطان الحقيقي هو الذي يخشى ويخاف . وتقوى الله هي الكفيلة بصلاح القلوب ، وحرصها على منهجه في كل جزئياته . كذلك يبين لمن يكفرون ضآلة شأنهم في ملك الله ؛ وهو أن أمرهم عليه سبحانه ؛ وقدرته على الذهاب بهم والمجيء بغيرهم (وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا . إن يشأ يذهبكم – أيها الناس – ويأت بآخرين . وكان الله على ذلك قديرا فهو – سبحانه – إذ يوصيهم بتقواه ، لا يعنيه في شيء ولا يضره في شيء ألا يسمعوا الوصية ، وأن يكفروا . فإن كفرهم لن ينقص من ملكه شيئا (فإن لله ما في السماوات وما في الأرض) وهو قادر على أن يذهب بهم ويستبدل قوما غيرهم ، إنما هو يوصيهم بالتقوى لصلاحهم هم ، ولصلاح حالهم . ويختم هذا التعقيب بتوجيه القلوب الطامعة في الدنيا وحدها ، إلى أن فضل الله أوسع ، فعنده ثواب الدنيا والآخرة ، وفي استطاعة الذين يقصرون همهم على الدنيا ، أن يتطلعوا بأنظارهم وراءها ؛ وأن يأملوا في خير الدنيا وخير الآخرة (من كان يريد ثواب الدنيا ، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعا بصيرا)وإنه ليكون من الحمق ، كما يكون من سقوط الهمة ، أن يملك الإنسان التطلع إلى الدنيا والآخرة معا ؛ وإلى ثواب الدنيا وثواب الآخرة جميعا – وهذا ما يكفله المنهج الإسلامي المتكامل الواقعي المثالي – ثم يكتفي بطلب الدنيا ، ويضع فيها همه ؛ ويعيش كالحيوان والدواب والهوام ؛ بينما هو يملك أن يعيش كالإنسان ! قدم تدب على الأرض وروح ترف في السماء . وكيان يتحرك وفق قوانين هذه الأرض ؛ ويملك في الوقت ذاته أن يعيش مع الملأ الأعلى !

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{١٣٥} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً{١٣٦} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً{١٣٧} بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{١٣٨} الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً{١٣٩} وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً{١٤٠} الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً{١٤١} إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً{١٤٢} مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً{١٤٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً{١٤٤} إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً{١٤٥} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً{١٤٦} مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً) {١٤٧}

ويبدأ الدرس بنداء الجماعة المؤمنة إلى النهوض بتكاليف دورها ، في إقامة العدل بين الناس على النحو الفريد الذي لم يقم إلا على يد هذه الجماعة ، متخلصة من كل عاطفة أو هوى أو مصلحة و متجردة من كل اعتبار آخر غير تقوى الله ومرضاته ، ثم يدعوهم دعوة ثانية إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وبعد هذين النداءين يأخذ السياق في حملة منوعة الأساليب على المنافقين – من بقي منهم على حالة النفاق ، ومن أعلن كفره بعد إعلان إسلامه – حملة يصور فيها طبيعة المنافقين ، ويرسم لهم فيها صورا زرية ، من واقع ما يقومون به في الصف المسلم ؛ ومن واقع مواقفهم المتلونة حسب الظروف وترد في ثنايا هذه الحملة توجيهات للمؤمنين وتحذيرات . تدل على مدى ما كان لأفاعيل المنافقين في الصف المسلم – حينذاك – من آثار ، وعلى مدى ضخامة الجبهة المنافقة وتغلغلها في حياة الجماعة المسلمة ؛

مما استدعى هذه الحملة ، مع مراعاة" الواقع" يومئذ ، وأخذ المسلمين خطوة خطوة فى الابتعاد عن المنافقين واجتنابهم . من ذلك امرهم باجتناب مجالس المنافقين التى يتداولون فيها الكفر بايات الله والاستهزاء بها . ولم يأمرهم – حينذاك – بمقاطعة المنافقين البتة . مما يدل على أن جبهة النفاق كانت ضخمة ومتغلغلة بصورة يصعب فيها على المسلمين مقاطعتهم ! كذلك ترد فى ثناياها تحذيرات للمسلمين من سمات النفاق ومقدماته ؛ كى لا يقعوا فيها . وأخصها موالاة الكافرين ، وابتغاء العزة عندهم ، والقوة بهم ! وتأمينهم بأن العزة لله جميعا ، وبأن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا , وفى نهاية الدرس تجىء تلك اللفتة العجيبة إلى استغناء الله – سبحانه – عن تعذيب العباد . فهو لا يطلب منهم إلا أن يؤمنوا ويشكروا . وهو سبحانه غنى عن إيمانهم وشكرهم (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله – ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين – إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ؛ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) إنه نداء للذين آمنوا . نداء لهم بصفتهم الجديدة . وهى صفتهم الفريدة . صفتهم التى بها أنشئوا نشأة أخرى ؛ وولدوا ميلاد آخر، وولدت معهم المهمة الجديدة التى تناط بهم ، والأمانة العظيمة التى وكلت إليهم . . أمانة القوامة على البشرية ، والحكم بين الناس بالعدل . . ومن ثم كان للنداء بهذه الصفة قيمته وكان له معناه ، وهى لمسة من لمسات المنهج التربوى الحكيم ؛ تسبق التكليف الشاق الثقيل (كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله – ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهمًا) إنها أمانة القيام بالقسط ، بالقسط على إطلاقه . فى كل حال وفى كل مجال . القسط الذى يمنع البغى والظلم – فى الأرض – والذى يكفل العدل – بين الناس – والذى يعطى كل ذى حق حقه من المسلمين وغير المسلمين (ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) وهنا يحاول المنهج تجنيد النفس فى وجه ذاتها ، وفى وجه عواطفها ، تجاه ذاتها أولا ,وتجاه الوالدين والأقربين ثانيا . . وهى محاولة شاقة . . أشق كثيرا من نطقها باللسان , ومن إدراك معناها ومدلولها بالعقل . . إن مزاولتها عمليا شىء آخر غير إدركها عقليا . ولا يعرف هذا الذى نقوله إلا من يحاول أن يزاول هذه التجربة (إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) أن الإسلام حين دفع نفوس المؤمنين – فى عالم الواقع – إلى هذه الذروة ، التى تشهد بها تجارب الواقع التى وعاها التاريخ – كان ينشىء معجزة حقيقية فى عالم البشرية . معجزة لا تقع إلا فى ظل هذا المنهج الإلهى العظيم القويم (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) والهوى صنوف شتى ذكر منها بعضها . . حب الذات هوى . وحب الأهل والأقربين هوى . والعطف على الفقير – فى موطن الشهادة والحكم – هوى . ومجاملة الغنى هوى . ومضارته هوى . والتعصب للعشيرة والقبيلة والأمة والدولة والوطن – فى موضع الشهادة والحكم – هوى .وكراهة الأعداء ولو كانوا أعداء الدين – فى موطن الشهادة والحكم – هوى . . وأهواء شتى الصنوف والألوان . . كلها مما ينهى الله الذين آمنوا عن التأثر بها ، والعدول عن الحق والصدق تحت تأثيرها . وأخيرا يجىء التهديد والإنذار والوعيد من تحريف الشهادة ، والإعراض عن هذا التوجيه فيها (وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) ويكفى أن يتذكر المؤمن أن الله خبير بما يعمل ، ليستشعر ماذا وراء هذا من تهديد خطير , يرتجف له كيانه ، فقد كان الله يخاطب بهذا القرآن المؤمنين ! (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . فقد ضل ضلالا بعيدًا) إنه النداء الثانى للذين آمنوا . بصفتهم هذه التى تفردهم من الجاهلية حولهم . وتحدد وظيفتهم وتكاليفهم . وتصلهم بالمصدر الذى يستمدون منه القوة والعون على هذه التكاليف ! فهو بيان لعناصر الإيمان التى يجب أن يؤمن بها الذين آمنوا ... هو إيمان بالله ورسوله . و بالكتاب الذى نزل على رسوله . و بالكتاب الذى أنزل من قبل .وبعد الأمر بالإيمان ، يجىء التهديد على الكفر بعناصر الإيمان ، مع التفصيل فيها فى موضع البيان قبل العقاب (ومن يكفر بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالا بعيدًا) والتعبير بالضلال البعيد غالبا يحمل معنى الإبعاد فى الضلال ، الذى لا يرجى معه هدى ; ولا يرتقب بعده مآب ! وبعد هذين النداءين للذين آمنوا يأخذ السياق فى الحملة على النفاق والمنافقين . ويبدأ بوصف حالة من حالاتهم الواقعة حينذاك ، تمثل موقف بعضهم ، وهو أقرب المواقف إلى الحديث عن الكفر والكفار (إن الذين آمنوا ثم كفروا . ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا . لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم سبيلا) إن الكفر الذى يسبق الإيمان يغفره الإيمان ويمحوه . فالذى لم يشهد النور معذور إذا هو أدلج فى الظلام . . فأما الكفر بعد الإيمان مرة ومرة . . فهو الكبيرة التى لا مغفرة لها ولا معذرة . فالذين يرتدون بعد الإيمان مرة ومرة ، إنما يفترون على الفطرة , عن معرفة . ويلجون فى الغواية عن عمد . ويذهبون مختارين إلى التيه الشارد والضلال البعيد ، ومن هنا تبدأ الحملة التى سبقت الإشارة إليها على النفاق والمنافقين بشتى أساليبها الجديرة بالدراسة والتأمل ، لمعرفة طبيعة المنهج وهو يزاول العمل على الطبيعة ; وفى واقع الحياة والقلوب ! تبدأ الحملة بهذا التهلكم الواضح فى استعمال كلمة (بشر) مكان كلمة أنذر . وفى جعل العذاب الأليم الذى ينتظر

المنافقين بشارة ! ثم ببيان سبب هذا العذاب الأليم ، وهو ولايتهم للكافرين دون المؤمنين ؛ وسوء ظنهم بالله ؛ وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة .(بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعًا) والكافرون المذكورون هنا هم – على الأرجح – اليهود ؛ الذين كان المنافقون يأوون إليهم ; ويتخنسون عندهم , ويبيتون معهم للجماعة المسلمة شتى المكائد . والله - جل جلاله – يسأل في استنكار:لم يتخذون الكافرين أولياء وهم يزعمون الإيمان ؟ لم يضعون أنفسهم هذا الموضع ، ويتخذون لأنفسهم هذا الموقف ؟ أهم يطلبون العزة والقوة عند الكافرين ؟ لقد استأثر الله – عز وجل – بالعزة ؛ فلا يجدها إلا من يتولاه ; ويطلبها عنده ؛ ويرتكن إلى حماه . وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن . وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله . وما أحوج ناسا ممن يدعون الإسلام ؛ ويتسمون بأسماء المسلمين , وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض ، أن يتدبروا هذا القرآن . . إن كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين . . وإلا فإن الله غني عن العالمين ! وأولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلسا يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها , فيسكت ويتغاضى . . يسمي ذلك تسامحا ، أو يسميه دهاء ، أو يسميه سعة صدر وأفق وإيمانا بحرية الرأي !!! وهي هي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله ؛ وهو يموه على نفسه في أول الطريق ، حياء منه أن تأخذه نفسه متلبسا بالضعف والهوان ! إن الحمية لله ، ولدين الله ، ولآيات الله . هي آية الإيمان . وما تفتر هذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد ؛ وينزاح بعدها كل حاجز ، وينجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار . وإن الحمية لتكبت في أول الأمر عمدا . ثم تهمد . ثم تخمد . ثم تموت ! فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس ، فإما أن يدفع ، وإما أن يقاطع المجلس وأهله . فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة . وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق ! وقد كان بعض المسلمين في المدينة يجلسون في مجالس كبار المنافقين – ذوي النفوذ – وكان ما يزال لهم ذلك النفوذ . وجاء المنهج القرآني ينبه النفوس أن غشيان هذه المجالس والسكوت على ما يجري فيها , هو أولى مراحل الهزيمة (وقد نزل عليكم في الكتاب:أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم ، حتى يخوضوا في حديث غيره . إنكم إذا مثلهم . إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا (والذي تحيل إليه الآية هنا مما سبق تنزيله في الكتاب ، هو قوله تعالى في سورة الأنعام - وهي مكية – (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) والتهديد الذي يرتجف له كيان المؤمن (إنكم إذا مثلهم) والوعيد الذي لا تبقى بعده بقية من تردد (إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا) ثم يأخذ في بيان سمات المنافقين ، فيرسم لهم صورة زرية منفرة ؛ وهم يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكفار بوجه ؛ ويمسكون العصا من وسطها ، ويتلوون كالديدان والثعابين (الذين يتربصون بكم . فإن كان لكم فتح من الله ، قالوا:ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا:ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة . ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيل ا) وهي صورة منفرة . تبدأ بتقرير ما يكنه المنافقون للجماعة المسلمة من الشر ، وما يتربصون بها من الدوائر وهم – مع ذلك – يتظاهرون بالمودة للمسلمين حين يكون لهم فتح من الله ونعمة فيقولون:حينئذ (ألم نكن معكم) ويعنون أنهم كانوا معهم في الموقعة – فقد كانوا يخرجون أحيانا يخذلون ويخلخلون الصفوف -:أو يعنون أنهم كانوا معهم بقلوبهم ! وأنهم ناصروهم وحموا ظهورهم ! (وإن كان للكافرين نصيب قالوا:ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟) يعنون أنهم آزروهم وناصروهم وحموا ظهورهم ؛ وخذلوا عنهم وخلخلوا الصفوف !! ولما كانت الخطة التي اتبعها الرسول ﷺ بتوجيه ربه في مسألة المنافقين ، هي الإغضاء والإعراض ، وتحذير المؤمنين وتبصيرهم بأمرهم ؛ في الطريق إلى تصفية هذا المعسكر اللعين ! فإنه يكلهم هنا إلى حكم الله في الآخرة ؛ حيث يكشف الستار عنهم ، وينالهم جزاء ما يكيدون للمسلمين (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) حيث لا مجال للكيد والتآمر والتبييت ؛ ولا مجال لإخفاء مكنونات الصدور . ويطمئن الذين آمنوا بوعد من الله قاطع ؛ أن هذا الكيد الخفي الماكر ، لن يغير ميزان الأمور ؛ ولن يجعل الغلبة والقهر للكافرين على المؤمنين (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا)وفي تفسير هذه الآية وردت رواية أن المقصود بهذا النص هو يوم القيامة . حيث يحكم الله بين المؤمنين والمنافقين فلا يكون هناك للكافرين على المؤمنين سبيل كما وردت رواية أخرى بأن المقصود هو الأمر في الدنيا بأن لا يسلط الله الكافرين على المسلمين تسليط استئصال . وإن غلب المسلمون في بعض المعارك وفي بعض الأحايين . وأنا أقرر في ثقة بوعد الله لا يخالجها شك ، أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان . إما في الشعور وإما في العمل – ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة – وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ؛ ثم يعود النصر للمؤمنين – حين يوجدون ! ثم يمضي السياق فيرسم صورة زرية أخرى للمنافقين ، مصحوبة بالتهوين من شأنهم ، وبوعيد الله لهم (إن المنافقين يخادعون الله – وهو

خادعهم – وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس . ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلًا :وهذه لمسة أخرى من لمسات المنهج للقلوب المؤمنة . فإن هذه القلوب لا بد أن تشمئز من قوم يخادعون الله . فإن هذه القلوب تعرف أن الله سبحانه – لا يخدع – وهو يعلم السر وأخفى وهي تدرك أن الذى يحاول أن يخدع الله لا بد أن تكون نفسه مجتوية على قدر من السوء ومن الجهل ومن الغفلة كبير . ومن ثم تشمئز وتحتقر ، ويقر عقب هذه اللمسة أنهم يخادعون الله (وهو خادعهم) أى مستدرجهم وتاركهم فى غيهم ، لا يقرعهم بمصيبة تنبههم ، ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم ، تاركهم يمضون في طريق الهاوية حتى يسقطوا وذلك هو خداع الله – سبحانه – لهم ، فالقوارع والمحن كثيرا ما تكون رحمة من الله ، حين تصيب العباد ، فتردهم سريعا عن الخطأ ، أو تعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وكثيرا ما تكون العافية والنعمة استدراجا من الله للمذنبين الغاوين ، لأنهم بلغوا من الإثم والغواية ما يستحقون معه أن يتركوا بلا قارعة ولا نذير ، حتى ينتهوا إلى شر مصير ، ثم يستمر السياق يرسم لهم صورا زرية شائنة ، لا تثير فى قلوب المؤمنين إلا الاشمئزاز والاحتقار (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس . ولا يذكرون الله إلا قليلًا) فهم لا يقومون إلى الصلاة بحرارة الشوق إلى لقاء الله ، والوقوف بين يديه ، والاتصال به ، والاستمداد منه . . إنما هم يقومون يراءون الناس . ومن ثم يقومون كسالى , و هم لا يذكرون الله إلا قليلا . فهم لا يتذكرون الله إنما يتذكرون الناس ! وهم لا يتوجهون إلى الله إنما هم يراءون الناس (مذبذبين بين ذلك . لا إلى هؤلاء . ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (وموقف الذبذبة والأرجحة والاهتزاز وعدم الاستقرار والثبات في أحد الصفين ، الصف المؤمن أو الصف الكافر ، موقف لا يثير إلا الاحتقار والاشمئزاز فى نفوس المؤمنين . و يوحى بضعف المنافقين الذاتى . الذى يجعلهم غير قادرين على اتخاذ موقف حاسم هنا أو هناك . . ولا على المصارحة برأي وعقيدة وموقف . . مع هؤلاء أو هؤلاء ، ويعقب على هذه الصور الزرية ، وهذه المواقف المهزوزة ، بأنهم قد حقت عليهم كلمة الله ، واستحقوا ألا يعينهم فى الهداية ، ومن ثم فلن يستطيع أحد أن يهديهم سبيلا . ولا أن يجد لهم طريقا مستقيما (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلًا) وإلى هنا يكون السياق قد بلغ من إثارة الاشمئزاز والاحتقار والاستضعاف للمنافقين فى نفوس المؤمنين مبلغا عظيما . . فيلتفت بالخطاب للمؤمنين محذرا إياهم أن يسلكوا طريق هؤلاء المنافقين ، كما يصور لهم مصير المنافقين فى الآخرة . وهو مصير مفزع رعيب ، مهين (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار . ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله . فأولئك مع المؤمنين . وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيمًا) إنها العودة إلى نداء الذين آمنوا ، نداء لهم بهذه الصفة أن يحذروا سلوك طريق المنافقين ، ويحذروا أن يتولوا الكفار من دون المؤمنين ، وهو نداء لا بد كانت هناك حاجة إليه في المجتمع المسلم يومذاك . حيث كانت الصلات ما تزال قائمة فى المجتمع بين بعض المسلمين واليهود في المدينة ؛ وبين بعض المسلمين وقرابتهم في قريش – ولو من الناحية النفسية – ونقول "بعض المسلمين "لأن هناك البعض الآخر ؛ الذى فصم كل علاقاته بالمجتمع الجاهلى – حتى مع الآباء والأبناء – وجعل العقيدة وحدها هى أصرة التجمع ووشيجة الرحم ، وطرقة أخرى عالية على هذه القلوب . غير موجهة إليها مباشرة . ولكن عن طريق التلويح . . طرقة تقرر المصير الرعيب المفزع المهين للمنافقين (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار . ولن تجد لهم نصيرا) في الدرك الأسفل . . إنه مصير يتفق مع ثقلة الأرض التى تلصقهم بالتراب ، فلا ينطلقون ولا يرتفعون . ثقلة المطامع والرغائب ، والحرص والحذر ، والضعف ، ثم يفتح لهم – بعد هذا المشهد المفزع – باب النجاة . . باب التوبة لمن أراد النجاة (إلا الذين تابوا وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله . فأولئك مع المؤمنين . وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيمًا) فالتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله ، وإخلاص الدين لله . ولكنه هنا ينص على الاعتصام بالله , وإخلاص الدين لله . لأنه يواجه نفوسا تذبذبت ، ونافقت ، وتولت غير الله . فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح ، على التجرد لله ، والاعتصام به وحده ؛ وخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة ، وتلك الأخلاق المخلخلة . . ليكون فى الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك ، وفي الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد . . وبذلك يرتفع التائبون منهم إلى مصاف المؤمنين ؛ المعتزين بعزة الله وحده . المستعلين بالإيمان . المنطلقين من ثقلة الأرض بقوة الإيمان ، وبهذه اللمسات المنوعة ، يكشف حقيقة المنافقين فى المجتمع المسلم ، ويقلل من شأنهم ; وينبه المؤمنين إلى مزالق النفاق ، ويحذرهم مصيره . ويفتح باب التوبة للمنافقين ; ليحاول من فيه منهم خير ، أن يخلص نفسه ، وينضم إلى الصف المسلم فى صدق وفي حرارة وفى إخلاص . . وأخيرا تجيء تلك اللمسة العجيبة ، الموحية المؤثرة العميقة . . أخيرا بعد ذكر العقاب المفزع ، والأجر العظيم . . لتشعر قلوب البشر أن الله فى غنى عن عذاب العباد . فما به – سبحانه – من نقمة ذاتية عليهم يصب عليهم من أجلها العذاب . وما به – سبحانه - من حاجة

لإظهار سلطانه وقوته عن هذا الطريق . وما به – سبحانه – من رغبة ذاتية في عذاب الناس . كما تحفل أساطير الوثنية كلها بمثل هذه التصورات . . وإنما هو صلاح العباد بالإيمان والشكر لله . . مع تحبيبهم في الإيمان والشكر لله . وهو الذى يشكر صالح العمل ويعلم خبايا النفوس .. (ما يفعل الله بعذابكم – إن شكرتم وآمنتم ؟ – وكان الله شاكرا عليما). . نعم ! ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران ; وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان إنها ليست رغبة التنكيل ؛ ولا التذاذ الآلام ، ولا إظهار البطش والسلطان . . تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا . وشكر الله – سبحانه – للعبد ، يلمس القلب لمسة رفيقة عميقة . . إنه معلوم أن الشكر من الله – سبحانه – معناه الرضى ، ومعناه ما يلازم الرضى من الثواب . . ولكن التعبير بأن الله – سبحانه – شاكر . . تعبير عميق الإيحاء !

(لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً{١٤٨} إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً{١٤٩} إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٥٢} يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً{١٥٣} وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً{١٥٤} فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً{١٥٥} وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً{١٥٦} وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً{١٥٧} بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{١٥٨} وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً{١٥٩} فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً{١٦٠} وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{١٦١} لَـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً{١٦٢} إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤} رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{١٦٥} لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً{١٦٦} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً{١٦٧} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً{١٦٨} إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً{١٦٩} يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{١٧٠} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{١٧١} لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً{١٧٢} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٧٣} يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً{١٧٤} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{١٧٥} يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ){١٧٦}

يبدأ هذا الجزء بطرف من تطهير النفس وتطهير المجتمع ، وإشاعة الثقة في جو الجماعة المسلمة ، واستبعاد قالة السوء فيها – مع الانتصاف من الظلم – والحض على العفو والسماحة ، وتقرير أن الله لا يحب الجهر بالسوء – إلا من مظلوم ينتصف لظلمه – ومع هذا فإنه سبحانه يحب العفو عن السوء ، وهو(عفو) .... . (

قدير). ثم بيان لطبيعة التصور الإسلامي ، الذي يجعل دين الله واحدا ، ويجعل رسل الله موكبا يحمل هذا الدين الواحد ؛ ويجعل التفرقة بين الرسل ، والتفرقة بين ما جاءوا به كفرا صراحا . . هذا البيان يجيء بصدد التنديد باليهود – من أهل الكتاب – الذى ينكرون النبوة والأنبياء – بعد أنبيائهم – تعصبا وحقدا . ومن هنا تبدأ جولة مع اليهود تكشف عن تعنتهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم:موسى عليه السلام ، وكذلك موقفهم من عيسى عليه السلام وأمه ، فيبدو عندئذ موقفهم من الرسول ﷺ ومن دعوة الحق الأخيرة مفهوما ومكشوفا ! وبمناسبة دعاوى اليهود على المسيح عليه السلام ، وتبجحهم بقتله ! يقرر القرآن حقيقة الأمر ، وطبيعة هذا الزعم . ويذكر كيف عاقب الله اليهود على ظلمهم وصدهم عن سبيل الله ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل . . بحرمانهم من بعض الطيبات التى أحلت لهم فى الدنيا ، وبالعذاب الأليم الذى ينتظرهم فى الآخرة . مستثنيا الراسخين فى العلم والمؤمنين الذى عرفوا الحق وآمنوا به واتبعوه ويرد على تكذيب اليهود برسالة النبى ﷺ بتقرير أنها أمر طبيعي مألوف لا يثير عجبا ولا غرابة ولا استنكارا . إذ هو جاء على سنة الله فى إرسال الرسل للبشر. وهو الأمر الطبيعي أن يرسل الله لعبادة رسلا مبشرين ومنذرين ، وفى مقابل إنكار اليهود يقرر شهادة الله – سبحانه – وشهادة الملائكة . وكفى بالله شهيدا . ويتوعد الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله . . الذين كفروا وظلموا ألا يغفر الله لهم وألا يهديهم سبيلا إلا سبيل جهنم خالدين فيها أبدا . . ويعقب على هذا بنداء للناس كافة ، وإعلانهم أن هذا الرسول قد جاءهم بالحق من ربهم ، ودعوتهم إلى الإيمان ، وإلا فإن لله ما فى السماوات والأرض . وقد شهد بصحة هذه الرسالة ودعاهم إلى الإيمان بها ، فهم إذن وما يختارون لأنفسهم بإزاء دعوة ممن له ما فى السماوات والأرض ، فإذا انتهت هذه الجولة مع اليهود ؛ وأنصف الله عيسى بن مريم وأمه منهم ؛ وكذب دعاوى السوء اليهودية عن عيسى وعن مريم . . بدأت الجولة الثانية مع النصارى – أتباع عيسى عليه السلام – لتصحيح غلوهم فى أمر المسيح – عبدالله ونبيه – وكفهم عن هذا الغلو , وتقرير الحق فى شأنه:فهو عبدالله لا يستنكف أن يكون عبدا لله . وكذلك الملائكة - تصحيحا لمزاعمهم عن روح القدس – ونفى التثليث ونفى الأبوة عن الله سبحانه وتعالى . .

وفى ثنايا هذا التصحيح يتقرر التصور الإسلامى الصحيح ، ويتمحض الأمر كله فى أن يكون:ألوهية وعبودية . . ألوهية الله وحده ؛ وعبودية كل من عداه . . وهى القاعدة الكبرى فى العقيدة الإسلامية ، والسمة البارزة ، والمقوم الأساسي ، ومن ثم يجيء التبشير للمؤمنين ، والإنذار للكافرين المستنكفين عن العبودية لله ؛ ويجيء إعلان عام للناس كالذى ختمت به الجولة الأولى مع اليهود ، بأنه قد جاء للناس برهان من ربهم ونور مبين ، فلا حجة ولا شبهة ولا معذرة للمتخلفين . وتختم السورة بتقرير بقية فى أحكام المواريث فى حالة الكلالة ..

إن الجهر بالسوء يبدأ فى أول الأمر اتهامات فردية – سبا وقذفا – وينتهى انحلالا اجتماعيا ; وفوضى أخلاقية ؛ تضل فيها تقديرات الناس بعضهم لبعض أفرادا وجماعات ؛ وتنعدم فيها الثقة بين بعض الناس وبعض ؛ وقد شاعت الاتهامات ؛ ولاكتها الألسنة بلا تحرج . لذلك كله كره الله للجماعة المسلمة أن تشيع فيها قالة السوء . وأن يقتصر حق الجهر بها على من وقع عليه ظلم ؛ يدفعه بكلمة السوء يصف بها الظالم ؛ فى حدود ما وقع عليه منه من الظلم ! (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول – إلا من ظلم) إن الإسلام يحمى سمعة الناس – ما لم يظلموا – فإذا ظلموا لم يستحقوا هذه الحماية ، وأذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء فى ظالمه ؛ وكان هذا هو الاستثناء الوحيد من كف الألسنة عن كلمة السوء . ويعقب السياق القرآني على ذلك البيان هذا التعقيب الموحى (وكان الله سميعا عليمًا) ليربط الأمر فى النهاية بالله ، بعد ما ربطه فى البداية بحب الله وكرهه (لا يحب الله الجهر بالسوء . .). ثم لا يقف السياق القرآنى عند الحد السلبى فى النهى عن الجهر بالسوء ؛ إنما يوجه إلى الخير الإيجابى عامة ؛ ويوجه إلى العفو عن السوء ؛ ويلوح بصفة الله سبحانه فى العفو وهو قادر على الأخذ (إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً) بعد ذلك يأخذ السياق فى جولة مع (الذين أوتوا الكتاب) بصفة عامة ! ثم يَنتقل منها إلى اليهود فى شوط ، وإلى النصارى فى الشوط الآخر . . واليهود يجهرون بالسوء – إفكا وبهتانا - على مريم وعلى عيسى – عليهما السلام ـ ويأتى ذكر هذا الجهر فى ثنايا الجولة ؛ فترتبط هذه الجولة بذلك البيان الذى تتضمنة الآيتان السابقتان فى السياق (إن الذين يكفرون بالله ورسله ؛ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ؛ ويقولون:نؤمن ببعض ونكفر ببعض ؛ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم , أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ؛ وكان الله غفورا رحيمًا) لقد كان اليهود يدعون الإيمان بأنبيائهم ؛ وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد ؛ كما كان النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى – فضلا عن تأليهه –

وينكرون رسالة محمد كذلك ، وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء ؛ ويقرر التصور الإسلامى الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسوله ؛ بدون تفريق بين الله ورسله ؛ وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعا . وبهذا الشمول كان الإسلام هو "الدين" الذى لا يقبل الله من الناس غيره ، لأنه هو الذى يتفق مع وحدانية الله ؛ ومقتضيات هذه الوحدانية . إن الإيمان وحدة لا تتجزأ . . الإيمان بالله إيمان بوحدانيته - سبحانه - ووحدانيته تقتضى وحدة الدين الذى ارتضاه للناس لتقوم حياتهم كلها - كوحدة - على أساسه . ويقتضى وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده - لا من عند أنفسهم ولا فى معزل عن إرادته ووحيه - ووحدة الموقف تجاههم جميعا . . ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة . إلا بالكفر المطلق ؛ وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ! وكان جزاؤهم عند الله أن أعد لهم العذاب المهين . . أجمعين (أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) أما "المسلمون" فهم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادى على الإيمان بالله ورسله جميعا ; بلا تفرقة . فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام ؛ وكل الديانات السماوية عندهم حق - ما لم يقع فيها التحريف فلا تكون عندئذ من دين الله ، وإن بقى فيها جانب لم يحرف , إذ أن الدين وحدة - وهم يتصورون الأمر - كما هو فى حقيقته -:إلها واحدا ، ارتضى للناس دينا واحدا ؛ ووضع لحياتهم منهجا واحدا ، وأرسل رسله إلى الناس بهذا الدين الواحد وهذا المنهج الواحد . وموكب الإيمان - فى حسهم - موصول ، يقوده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم جميعا - ونسبهم هم إلى هذا الموكب الموصول عريق ؛ وهم حملة هذه الأمانة الكبرى ، وهم ورثة هذا الخير الموصول على طول الطريق المبارك . . لا تفرقة ولا عزلة ولا انفصام . وإليهم وحدهم انتهى ميراث الدين الحق . وليس وراء ما عندهم إلا الباطل والضلال . وهذا هو "الإسلام" الذى لا يقبل الله غيره من أحد . وهؤلاء هم "المسلمون" الذين يستحقون الأجر من الله على ما عملوا ، ويستحقون منه المغفرة والرحمة فيما قصروا فيه (أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفورا رحيمًا) وفى ظل هذا البيان يبدو الذين يفرقون بين الله ورسله ، ويفرقون بين بعض الرسل وبعض , منقطعين عن موكب الإيمان ، مفرقين للوحدة التى جمعها الله ، منكرين للوحدانية التى يقوم عليها الإيمان بالله (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء) فلا عليك من هذا التعنت ؛ ولا غرابة فيه ولا عجب منه (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا:أرنا الله جهرة) ولم تبلغ الآيات البينات التى أظهرها الله لهم على يد موسى نبيهم أن تلمس حسهم ؛وتوقظ وجدانهم وتقود قلوبهم إلى الطمأنينة والاستسلام ؛ فإذا هم يطلبون رؤية الله - سبحانه - عيانا ! وهو مطلب طابعة التبجح الذى لا يصدر عن طبع خالطته بشاشة الإيمان ; أو فيه استعداد للإيمان (فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) ولكن الله - سبحانه - عفا عنهم ؛ وتقبل فيهم دعاء موسى عليه السلام وضراعته إلى ربه ... (ثم اتخذوا العجل - من بعد ما جاءتهم البينات -). عجل الذهب ، الذى صاغه لهم السامرى ، مما كانوا قد أخذوه - حيلة - من نساء المصريين وهم خارجون من مصر - فإذا هم يعكفون عليه ؛ ويتخذونه إلها فى غيبة موسى عنهم فى مناجاة ربه ، فى الموعد الذى حدده له ، لينزل عليه الألواح فيها هدى ونور (فعفونا عن ذلك) ولكن اليهود هم اليهود . لا يفلح معهم إلا القهر والخوف (وآتينا موسى سلطانا مبينا . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم . وقلنا لهم:ادخلوا الباب سجدا . وقلنا لهم:لا تعدوا فى السبت . وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) والسلطان الذى آتاه الله موسى هو - فى الغالب - الشريعة التى تضمنتها الألواح ، فشريعة الله سلطان من الله ؛ وكل شريعة غير شريعة الله ما أنزل الله بها من سلطان ولكن اليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الإيمان أبوا الاستسلام لما فى الألواح . . وهنا جاءهم القهر المادى الذى يناسب طبيعتهم الغليظة . إذ نظروا فرأوا الصخرة معلقة فوق رؤوسهم ؛ تهددهم بالوقوع عليهم ؛ إذا هم لم يستسلموا ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد ؛ وما كتب عليهم من التكاليف فى الألواح . . عندئذ فقط استسلموا ; وأخذوا العهد ؛ وأعطوا الميثاق . . ميثاقا غليظا . . مؤكدا وثيقا . . يذكره - بهذه الصفة - ليتناسق المشهد مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم ، وغلظ القلب الذى فى صدورهم ، ثم يعطى - إلى جانب التناسق معنى الجسامة والوثاقة والمتانة على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير ، وبالتخييل الحسى والتجسيم . وكان فى هذا الميثاق:أن يدخلوا بيت المقدس سجدا . وأن يعظموا السبت الذى طلبوا أن يكون لهم عيدا . ولكن ماذا كان ؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم ؛ وغياب القهر لهم , تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياءه بغير حق . وتبجحوا فقالوا:إن قلوبنا لا تقبل موعظة ، ولا يصل إليها قول ، لأنها مغلفة دون كل قول ! وفعلوا كل الأفاعيل الأخرى التى يقصها الله سبحانه على رسوله وعلى المسلمين (فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف) وعند قولهم (قلوبنا غلف). . وهى القولة التى كانوا يجيبون بها على دعوة الرسول ﷺ إما تيئيسا له من إيمانهم واستجابتهم ، وإما استهزاء بتوجيه الدعوة إليهم ، وتبجحا بالتكذيب وعدم الإصغاء ، وإما هذا وذلك معا ، عند قولهم هذا ينقطع السياق للرد عليهم (بل طبع الله عليها - بكفرهم - فلا يؤمنون إلا قليلا) فهى ليست مغلفة بطبعها

. إنما هم كفرهم جر عليهم أن يطبع الله على قلوبهم ، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة ، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته ، فلا يقع منه الإيمان , وبعد هذا الاستدراك والتعقيب ، يعود السياق إلى تعداد الأسباب التى استحقوا عليها ما استحقوا من تحريم بعض الطيبات عليهم فى الدنيا ، ومن إعداد النار وتهيئتها لهم , لتكون فى انتظارهم فى الآخرة ! (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله)ويكرر صفة الكفر كلما ذكر إحدى منكراتهم . فقد ذكرها عند قتلهم الأنبياء بغير حق - وما يقتل نبى بحق أبدا فهى حال لتقرير الواقع - وذكرها هنا بمناسبة قولهم على مريم بهتانا عظيما . وقد قالوا على مريم الطاهرة ذلك المنكر الذى لا يقوله إلا اليهود ! فرموها بالزنا مع يوسف النجار - لعنة الله عليهم ! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه ، وهم يتهكمون بدعواه الرسالة فيقولون:قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ! وحين يصل السياق إلى هذه الدعوى منهم يقف كذلك للرد عليها ، وتقرير الحق فيها.. (وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ؛ ما لهم به من علم إلا اتباع الظن . وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزا حكيمًا) إن قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه ، قضية يخبط فيها اليهود - كما يخبط فيها النصارى بالظنون - فاليهود يقولون:إنهم قتلوه ويسخرون من قوله:إنه رسول الله ، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية ! والنصارى يقولون:إنه صلب ودفن ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام . و"التاريخ" يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن له فى حساب ! أما القرآن فيقرر قراره الفصل (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيمًا . . ولا يدلى القرآن بتفصيل فى هذا الرفع أكان بالجسد والروح فى حالة الحياة ؟ أم كان بالروح بعد الوفاة ؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين . وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع القتل والصلب على من شبه لهم سواه (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ؛ ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا)وقد اختلف السلف فى مدلول هذه الآية ، باختلافهم فى عائد الضمير فى "موته" فقال جماعة:وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى - عليه السلام - قبل موته - أى عيسى - وذلك على القول بنزوله قبيل الساعة ، وقال جماعة وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى قبل موته أى موت الكتابى - وذلك على القول بأن الميت - وهو فى سكرات الموت - يتبين له الحق , حيث لا ينفعه أن يعلم ! ونحن أميل إلى هذا القول الثانى ؛ الذى ترشح له قراءة أبى:"إلا ليؤمنن به قبل موتهم . . "فهذه القراءة تشير إلى عائد الضمير ؛ وأنه أهل الكتاب . . وعلى هذا الوجه يكون المعنى:أن اليهود الذين كفروا بعيسى - عليه السلام - وما زالوا على كفرهم به ، وقالوا:إنهم قتلوه وصلبوه ، ما من أحد منهم يدركه الموت ، حتى تكشف له الحقيقة عند حشرجة الروح ، فيرى أن عيسى حق ، ورسالته حق ، فيؤمن به ، ولكن حين لا ينفعه إيمان . . ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدا . بذلك يحسم القرآن الكريم قصة الصلب . ثم يعود بعدها إلى تعداد مناكر اليهود ؛ وما نالهم عليها من الجزاء الأليم فى الدنيا والآخرة (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . وبصدهم عن سبيل الله كثيرا . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه . وأكلهم أموال الناس بالباطل . وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليمًا) فيضيف إلى ما سبق من مناكرهم هذه المنكرات الجديدة:الظلم . والصد الكثير عن سبيل الله . فهم ممعنون فيه ودائبون عليه . وأخذهم الربا - لا عن جهل ولا عن قلة تنبيه - فقد نهوا عنه فأصروا عليه ! وأكلهم أموال الناس بالباطل . بالربا وبغيره من الوسائل . بسبب من هذه المنكرات و غيرها ، حرمت عليهم طيبات كانت حلالا لهم . وأعد الله للكافرين منهم عذابا أليمًا . ولا يترك السياق الموقف مع اليهود ، حتى ينصف القليل المؤمن منهم ؛ ويقرر حسن جزائهم , وهو يضمهم إلى موكب الإيمان العريق ، ويشهد لهم بالعلم والإيمان ، ويقرر أن الذى هداهم إلى التصديق بالدين كله:ما أنزل إلى الرسول ﷺ وما أنزل من قبله ، هو الرسوخ فى العلم وهو الإيمان (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك . والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، أولئك سنؤتيهم أجرا عظيمًا) فالعلم الراسخ ، والإيمان المنير ، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله . كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذى جاء من عند الله الواحد . وذكر العلم الراسخ بوصفه طريقا إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذى يفتح القلب للنور , لفتة من اللفتات القرآنية التى تصور واقع الحال التى كانت يومذاك ؛ كما تصور واقع النفس البشرية فى كل حين . فالعلم السطحى كالكفر الجاحد ، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة . . ونحن نشهد هذا فى كل زمان . فالذين يتعمقون فى العلم ، ويأخذون منه بنصيب حقيقى ، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية ; أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة ، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلها واحدا مسيطرا مدبرا متصرفا ، وذا إرادة واحدة ، وقد ورد فى التفسير المأثور أن هذه الإشارة القرآنية تعنى - أول من تعنى - أولئك النفر من اليهود ، الذين استجابوا للرسول ﷺ ، ولكن النص عام ينطبق على كل من يهتدى منهم لهذا الدين ، يقوده العلم الراسخ أو الإيمان البصير ، ويضم السياق القرآنى هؤلاء وهؤلاء إلى موكب المؤمنين ، الذين تعينهم

صفاتهم (والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر) وجزاء الجميع ما يقرره الله لهم (أولئك سنؤتيهم أجرا عظيمًا) ويستطرد السياق فى الحديث عن أهل الكتاب – واليهود منهم فى هذا الموضع خاصة – وموقفهم من رسالة محمد ﷺ وزعمهم أن الله لم يرسله ، وتفريقهم بين الرسل ، وتعنتهم وهم يطلبون أمارة على رسالته:كتابا ينزله عليهم من السماء . . فيقرر أن الوحى للرسول ليس بدعا ,وليس غريبا ، فهو سنة الله فى إرسال الرسل جميعا ، من عهد نوح إلى عهد محمد . وكلهم رسل أرسلوا للتبشير والإنذار ، فالتفرقة بينهم تعنت لا يستند إلى دليل . وإذا أنكروا هم وتعنتوا فإن الله يشهد – وكفى به شاهدا – والملائكة يشهدون . (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما . . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكان الله عزيزا حكيمًا) فهو إذن موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشرى الموصول ، ورسالة واحدة بهدى واحد للإنذار والتبشير . . موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من بين البشر:نوح . وإبراهيم . وإسماعيل . وإسحاق . ويعقوب . والأسباط . وعيسى . وأيوب . ويونس . وهارون . وسليمان . وداود . وموسى . . . وغيرهم ممن قصهم الله على نبيه [ص] فى القرآن , وممن لم يقصصهم عليه ، أولئك الرسل – من قص الله على رسوله منهم ومن لم يقصص – اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى عبادة يبشرونهم بما أعده الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان ؛ وينذرونهم ما أعده الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب . . كل ذلك (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ولله الحجة البالغة فى الأنفس والآفاق (وكان الله عزيزا حكيمًا) عزيزا:قادرا على أخذ العباد بما كسبوا . حكيما:يدبر الأمر كله بالحكمة ويضع كل أمر فى نصابه ونقف من هذه اللفتة (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) أمام حشد من الإيحاءات اللطيفة العميقة ونختار منه ثلاثا على سبيل الاختصار الذى لا يخرج بنا من الظلال .

نقف منها:أولا:أمام قيمة العقل البشرى ووظيفته ودوره فى أخطر قضايا "الإنسان" قضية الإيمان بالله ؛ التى تقوم عليها حياته فى الأرض من جذورها ؛ بكل مقوماتها واتجاهاتها وواقعياتها وتصرفاتها ؛ كما يقوم عليها مآله فى الآخرة وهى أكبر وأبقى . لو كان الله – سبحانه – وهو أعلم بالإنسان وطاقاته كلها ، يعلم أن العقل البشرى , الذى وهبه للإنسان ، هو حسب هذا الإنسان فى بلوغ الهدى لنفسه والمصلحة لحياته ، فى دنياه وآخرته ، لوكله إلى هذا العقل وحده ؛ يبحث عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان فى الأنفس والآفاق ، ويرسم لنفسه كذلك المنهج الذى تقوم عليه حياته ، فتستقيم على الحق والصواب ؛ ولما أرسل إليه الرسل على مدى التاريخ ؛ ولما جعل حجته على عباده هى رسالة الرسل إليهم ؛ وتبليغهم عن ربهم ؛ ولما جعل حجة الناس عنده – سبحانه – هى عدم مجىء الرسل إليهم: (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل). . ولكن لما علم الله - سبحانه – أن العقل الذى آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى – بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط – وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة ؛ وينجى صاحبه من سوء المآل فى الدنيا والآخرة . . لما علم الله – سبحانه – هذا شاءت حكمته وشاءت رحمته أن يبعث للناس بالرسل ، وألا يؤاخذ الناس إلا بعد الرسالة والتبليغ: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا). . وهذه تكاد تكون إحدى البديهيات التى تبرز من هذا النص القرآنى . . فإن لم تكن بديهية فهى إحدى المقتضيات الحتمية .

إذن . . ما هى وظيفة هذا العقل البشرى ؛ وما هو دوره فى قضية الإيمان والهدى ؛ وفى قضية منهج الحياة ونظامها ؟ إن دور هذا العقل أن يتلقى عن الرسالة ؛ ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول . ومهمة الرسول أن يبلغ ، ويبين ، ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام . وينبه العقل الإنسانى إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان فى الأنفس والآفاق ؛ وأن يرسم له منهج التلقى الصحيح ، ومنهج النظر الصحيح ؛ وأن يقيم له القاعدة التى ينهض عليها منهج الحياة العملية ، المؤدى إلى خير الدنيا والآخرة . وليس دور العقل أن يكون حاكما على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان ، والقبول أو الرفض – بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله ؛ وبعد أن يفهم المقصود بها:أى المدلولات اللغوية والاصطلاحية للنص – ولو كان له أن يقبلها أو يرفضها – بعد إدراك مدلولها ، لأنه هو لا يوافق على هذا المدلول ! أو لا يريد أن يستجيب له – ما استحق العقاب من الله على الكفر بعد البيان . . فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح ، ومتى فهم عقله ما المقصود بها وما المراد منها . . إن هذه الرسالة تخاطب العقل . . بمعنى أنها توقظه ، وتوجهه ، وتقيم له منهج النظر الصحيح . . لا بمعنى أنه هو الذى

يحكم بصحتها أو بطلانها ، وبقبولها أو رفضها . ومتى ثبت النص كان هو الحكم ؛ وكان على العقل البشرى أن يقبله ويطيعه وينفذه ؛ سواء كان مدلوله مألوفا له أو غريبا عليه . .

وعند هذه النقطة الدقيقة يقع خلط كثير . . سواء ممن يريدون تأليه العقل البشرى فيجعلونه هو الحكم فى صحة أو بطلان المقررات الدينية الصحيحة . . أو ممن يريدون إلغاء العقل ، ونفى دوره فى الإيمان والهدى . . والطريق الوسط الصحيح هو الذى بيناه هنا . . من أن الرسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها ؛ وترسم له المنهج الصحيح للنظر فى هذه المقررات ، وفى شؤون الحياة كلها . والمنهج الصحيح فى التلقى عن الله ، هو ألا يواجه العقل مقررات الدين الصحيحة - بعد أن يدرك المقصود بها - بمقررات له سابقة عليها ؛ كونها لنفسه من مقولاته " المنطقية " ! أو من ملاحظاته المحدودة ؛ أو من تجاربه الناقصة . . إنما المنهج الصحيح أن يتلقى النصوص الصحيحة ، ويكون منها مقرراته هو ! فهى أصح من مقرراته الذاتية ; ومنهجها أقوم من منهجه الذاتى - قبل أن يضبط بموازين النظر الدينية الصحيحة - ومن ثم لا يحاكم العقل مقررات الدين - متى صح عنده أنها من الله - إلى أية مقررات أخرى من صنعه الخاص إن العقل ليس إلها ، ليحاكم بمقرراته الخاصة مقررات الله . .

إن له أن يعارض مفهوما عقليا بشريا للنص بمفهوم عقلى بشرى آخر له . . هذا مجاله , ولا حرج عليه فى هذا ولا حجر ما دام هنالك من الأصول الصحيحة مجال للتأول والأفهام المتعددة . وحرية النظر - على أصوله الصحيحة وبالضوابط التى يقررها الدين نفسه - مكفولة للعقول البشرية فى هذا المجال الواسع . وليس هنالك من هيئة ، ولا سلطة , ولا شخص ، يملك الحجر على العقول ، فى إدراك المقصود بالنص الصحيح وأوجه تطبيقه - متى كان قابلا لأوجه الرأى المتعددة ، ومتى كان النظر فى حدود الضوابط الصحيحة والمنهج الصحيح ، المأخوذ من مقررات الدين - وهذا كذلك معنى أن هذه الرسالة تخاطب العقل . . إن الإسلام دين العقل . . نعم . . بمعنى أنه يخاطب العقل بقضاياه ومقرراته ؛ ولا يقهره بخارقة مادية لا مجال له فيها إلا الإذعان . ويخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج النظر ويدعوه إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان فى الأنفس والآفاق ؛ ليرفع عن الفطرة ركام الإلف والعادة والبلادة ؛ وركام الشهوات المضلة للعقل والفطرة . ويخاطب العقل بمعنى أنه يكل إليه فهم مدلولات النصوص التى تحمل مقرراته ، ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلولة ولا يدركه . . فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلا التسليم بها فهو مؤمن ، أو عدم التسليم بها فهو كافر . . وليس هو حكما فى صحتها أو بطلانها . وليس هو مأذونا فى قبولها أو رفضها ، كما يقول من يبتغون أن يجعلوا من هذا العقل إلها ، يقبل من المقررات الدينية الصحيحة ما يقبل ، ويرفض منها ما يرفض ، ويختار منها ما يشاء ، ويترك منها ما يشاء . .

وليس فى شىء من هذا الذى نقرره انتقاص من قيمة العقل ودوره فى الحياة البشرية . . فإن المدى أمامه واسع فى تطبيق النصوص على الحالات المتجددة - بعد أن ينضبط هو بمنهج النظر وموازينه المستقاة من دين الله وتعليمه الصحيح - والمدى أمامه أوسع فى المعرفة بطبيعة هذا الكون وطاقاته وقواه ومدخراته ؛ وطبيعة الكائنات فيه والأحياء ؛ والانتفاع بما سخر الله له من هذا الكون ومن هذه الكائنات والأحياء ؛ وتنمية الحياة وتطويرها وترقيتها - فى حدود منهج الله - لا كما تبتغى الشهوات والأهواء التى تضل العقل وتغطى الفطرة بالركام !

ونقف من هذه اللفتة: (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) مرة أخرى:

نقف منها أمام التبعة العظيمة الملقاة على الرسل - صلوات الله عليهم - ومن بعدهم على المؤمنين برسالاتهم - تجاه البشرية كلها . . وهى تبعة ثقيلة بمقدار ما هى عظيمة . . إن مصائر البشرية كلها فى الدنيا وفى الآخرة سواء ، منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم . فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر ، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم ، ويترتب ثوابهم أو عقابهم . . فى الدنيا والآخرة . إنه أمر هائل عظيم . . ولكنه كذلك . . ومن ثم كان الرسل - صلوات الله عليهم - يحسون بجسامه ما يكلفون . وكان الله - سبحانه - يبصرهم بحقيقة العبء الذى ينوطه بهم ، إنه الأمر الهائل العظيم . . أمر رقاب الناس . . أمر حياتهم ومماتهم . . أمر سعادتهم وشقائهم . . أمر ثوابهم وعقابهم . . أمر هذه البشرية ، التى إما أن تبلغ إليها الرسالة فتقبلها وتتبعها فتسعد فى الدنيا والآخرة . وإما أن تبلغ إليها فترفضها وتنبذها فتشقى فى الدنيا والآخرة . وإما ألا تبلغ إليها فتكون لها حجة على ربها , وتكون تبعة شقائها فى الدنيا وضلالها

معلقة بعنق من كلف التبليغ فلم يبلغ ! فأما رسل الله – عليهم الصلاة والسلام – فقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة ، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل . . وهم لم يبلغوها دعوة باللسان ، ولكن بلغوها – مع هذا – قدوة ممثلة فى العمل ، وجهادا مضنيا بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق ، وبقى الواجب الثقيل على من بعده . . على المؤمنين برسالته . . فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجىء بعده ﷺ وتبليغ هذه الأجيال منوط – بعده – بأتباعه . ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة – تبعة إقامة حجة الله على الناس ؛ وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا – وتبدأ شهادته للإسلام ، من أن يكون هو بذاته . ثم ببيته وعائلته . ثم بأسرته وعشيرته , صورة واقعية من الإسلام الذى يدعو إليه . . وتخطو شهادته الخطوة الثانية بقيامه بدعوة الأمة – بعد دعوة البيت والأسرة والعشيرة – إلى تحقيق الإسلام فى حياتها كلها . . الشخصية والإجتماعية والاقتصادية والسياسية . . وتنتهى شهادته بالجهاد لإزالة العوائق التى تضل الناس وتفتنهم من أى لون كانت هذه العوائق . . فإذ استشهد فى هذا فهو إذن "شهيد" أدى شهادته لدينه ، ومضى إلى ربه . . وهذا وحده هو" الشهيد" . وفى نهاية المطاف نقف وقفة خاشعة أمام جلال الله وعظمته ؛ ممثلة فى علمه ، وعدله , ورعايته ، وفضله ، ورحمته وبره . . بهذا الكائن الإنسانى الذى يجحد ويطغى . . نقف أمام عظمة العلم بهذا الكائن ؛ وما أودعه من القوى والطاقات ؛ وما ركب فى كينونته من استعدادات الهدى والضلال . وما رتبه على هذا العلم حين لم يكله إلى عقله وحده . . على عظمة هذه الأداة التى وهبها له ؛ وعلى كثرة ما فى الأنفس والآفاق من دلائل الهدى وموجبات الإيمان . . فلقد علم الله أن هذه الأداة العظيمة تنوشها الشهوات والنزوات ؛ وأن الدلائل المبثوثة فى تضاعيف الكون وأطواء النفس قد يحجبها الغرض والهوى ، ويحجبها الجهل والقصور . . ومن ثم لم يكل إلى العقل البشرى تبعة الهدى والضلال – إلا بعد الرسالة والبيان ، ونقف أمام عظمة العدل الذى يرتب للناس حجة على الله – سبحانه – لو لم يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين . هذا مع احتشاد كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون بالآيات الشواهد على الخالق , ووحدانيته ، وتدبيره وتقديره ، وقدرته وعلمه . . ومع امتلاء الفطرة بالأشواق والهواتف إلى الاتصال ببارئها والإذعان له ، والتناسق والتجاوب والتجاذب بينها وبين دلائل وجود الخالق فى الكون والنفس . . ومع هبة العقل الذى يملك أن يحصى الشواهد ويستنبط النتائج . ونقف أمام عظمة الرعاية والفضل والرحمة والبر بهذا المخلوق الذى يكرمه الله ويختاره , على ما يعلم به من ضعف ونقص ؛ فيكل إليه هذا الملك العريض . . خلافة الأرض . . وهو بالقياس إليه ملك عريض ! وإن كان فى ملك الله ذرة تمسكها يد الله فلا تضيع فى ملكه الكبير ! ثم تشاء رعايته وفضله ورحمته وبره ، ألا تدعه لما أودع فى كينونته من فطرة هادية ولكنها تطمس ؛ ومن عقل هاد ولكنه يضل ؛ بل يتفضل عليه ربه فيرسل إليه الرسل تترى . . وهو يكذب ويعاند ؛ ويشرد وينأى ؛ فلا يأخذه ربه بأخطائه وخطاياه ؛ ولا يحبس عنه بره وعطاياه ، ولا يحرمه هداه على أيدى رسله الهداة . . ثم لا يأخذه بالعقاب فى الدنيا أو فى الآخرة حتى تبلغه الرسل ؛ فيعرض ويكفر ، ويموت وهو كافر لا يتوب ولا ينيب . .ومن عجب أن يأتى على هذا الإنسان زمان يزعم لنفسه أنه استغنى عن ربه . . استغنى عن رعايته وفضله ورحمته وبره . . استغنى عن هدايته ودينه ورسله . . استغنى بالأداة التى علم ربه أنها لا تغنيه – ما لم تقوم بمنهج الله – فلم يكتب عليه عقابا إلا بعد الرسالة والبيان . وخطأ وضلال – إن لم يكن هو الخداع والتضليل – كل زعم يقول:إن العقول الكبيرة كانت حرية أن تبلغ بدون الرسالة ما بلغته بالرسالة . . فالعقل ينضبط – مع الرسالة – بمنهج النظر الصحيح ؛ فإذا أخطأ بعد ذلك فى التطبيق كان خطؤه كخطأ الساعة التى تضبط , ثم تغلبها عوامل الجو والمؤثرات ، وطبيعة معدنها الذى يتأثر بهذه المؤثرات ، لا كخطأ الساعة التى لم تضبط أصلا ، وتركت للفوضى والمصادفة ! وشتان شتان ! وأية أن ما يتم بالرسالة – عن طريق العقل نفسه – لا يمكن أن يتم بغيرها ؛ فلا يغنى العقل البشرى عنها . . أن تاريخ البشرية لم يسجل أن عقلا واحدا من العقول الكبيرة النادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية المتوسطة بالرسالة ، لا فى تصور اعتقادى ؛ ولا فى خلق نفسى ، ولا فى نظام حياة ، ولا فى تشريع واحد لهذا النظام . إن عقول أفلاطون وأرسطو من العقول الكبيرة قطعا . . بل إنهم ليقولون:إن عقل أرسطو هو أكبر عقل عرفته البشرية – بعيدا عن رسالة الله وهداه – فإذا نحن راجعنا تصوره لإلهه – كما وصفه – رأينا المسافة الهائلة التى تفصله عن تصور المسلم العادى لإلهه مهتديا بهدى الرسالة . وقد وصل أخناتون – فى مصر القديمة – إلى عقيدة التوحيد – وحتى مع استبعاد تأثره فى هذا بإشعاع عقيدة التوحيد فى رسالة إبراهيم ورسالة يوسف – فإن الفجوات والأساطير التى فى عقيدة أخناتون تجعل المسافة بينها وبين توحيد المسلم العادى لإلهه بعيدة بعيدة . إنه ليس المستوى الحضارى المادى هو الذى يكون عليه الحكم . فالحضارة المادية تنمو بنمو وسائلها التى ينشئها "العلم" الصاعد . . ولكن ميزان الحياة فى فترة من الفترات هو التناسق والتوازن بين جميع أجزائها وأجهزتها وأوضاعها . . هو التوازن الذى ينشىء السعادة والطمأنينة ، والذى يطلق الطاقات الإنسانية كلها لتعمل دون كبت ودون مغالاة فى جانب من جوانبها الكثيرة . . والفترة التى

عاشت بالإسلام كاملا لم تبلغها البشرية – بعيدا عن الرسالة – فى أى عصر . . والخلخلة وعدم الاتزان هو الطابع الدائم للحياة فى غير ظل الإسلام ؛ مهما التمعت بعض الجوانب ؛ ومهما تضخمت بعض الجوانب . فإنما تلتمع لتنطفىء جوانب أخرى . وإنما تتضخم على حساب الجوانب الأخرى . . والبشرية معها تتأرجح وتحتار وتشقى .

ويمضى السياق : فإذا أنكر أهل الكتاب هذه الرسالة الأخيرة – وهى جارية على سنة الله فى إرسال الرسل لعباده (مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وأهل الكتاب يعترفون بالرسل قبل محمد ﷺ اليهود يعترفون بمن قبل عيسى – عليه السلام – والنصارى يعترفون بهم ، وبعيسى الذى ألهوه كما سيجىء . . فإذا أنكروا رسالتك – يا محمد - فلا عليك منهم . فلينكروا (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه . والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيدًا) وفى هذا الشهادة من الله . . ثم من ملائكته ومنهم من حملها إلى رسوله . . إسقاط لكل ما يقوله أهل الكتاب . فمن هم والله يشهد ؟ والملائكة تشهد ؟ وشهادة الله وحدها فيها الكفاية ؟! وفى هذه الشهادة تسرية عن الرسول ﷺ وما يلقاه من كيد اليهود وعنتهم . وفيها كذلك تصديق وتثبيت وتطمين للمسلمين – فى أول عهدهم بالإسلام بالمدينة – أمام حملة يهود التى يدل على ضخامتها هذه الحملة القرآنية المنوعة الأساليب والإيحاءات فى ردها والقضاء عليها ، وعندئذ يجىء التهديد الرعيب للمنكرين فى موضعه ، بعد شهادة الله – سبحانه – وشهادة الملائكة بكذبهم وتعنتهم والتوائهم . (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا . وكان ذلك على الله يسيرا) إن هذه الأوصاف وهذه التقريرات – مع كونها عامة – تنطبق أول ما تنطبق ، على حال اليهود , وتصور موقفهم من هذا الدين وأهله ؛ بل من الدين الحق كله ؛ سواء منهم من عاصروا فجر الدعوة فى المدينة ، أو من سبقوهم منذ أيام موسى عليه السلام أو من جاءوا بعدهم إلى يومنا هذا – إلا القلة النادرة المستثناة من الذين فتحوا قلوبهم للهدى فهداهم الله . وهؤلاء - وكل من ينطبق عليهم وصف الكفر والصد – قد ضلوا ضلالا بعيدا . ضلوا عن هدى الله ؛ وضلوا طريقهم القويم فى الحياة . ضلوا فكرا وتصورا واعتقادا ؛ وضلوا سلوكا ومجتمعا وأوضاعا . ضلوا فى الدنيا وضلوا فى الآخرة . ضلوا ضلالا لا يرتجى معه هدى (ضلوا ضلالا بعيدًا) ويعيد السياق وصفهم بالكفر ، ليضم إليه الظلم (إن الذين كفروا وظلموا) والكفر فى ذاته ظلم... ظلم للحق ، وظلم للنفس ، وظلم للناس . . والقرآن يعبر عن الكفر أحيانا بأنه الظلم كقوله تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم) وقوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) بعدما قرر أنهم الكافرون فى الآية السابقة عليها] . . كما سيجىء فى موضعه فى هذا الجزء فى سورة المائدة] . . وهؤلاء لم يرتكبوا ظلم الشرك وحده ، ولكن ارتكبوا معه ظلم الصد عن سبيل الله ايضا ، فأمعنوا فى الكفر . . أو امعنوا فى الظلم . . ومن ثم يقرر الله بعدله جزاءهم الأخير (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا – إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدًا)

فليس من شأن الله – سبحانه – أن يغفر لأمثال هؤلاء ، بعدما ضلوا ضلالا بعيدا ، وقطعوا على أنفسهم كل طريق للمغفرة . . وليس من شأن الله – سبحانه – أن يهديهم طريقا إلا طريق جهنم . وقد قطعوا على أنفسهم كذلك كل طريق للهدى ، ، بحيث لا يرجى لهم من هذا الإبعاد مآب ! (وكان ذلك على الله يسيرا) فهو القاهر فوق عباده . وليس بينه وبين أحد من العباد صهر ولا نسب ، يجعل أخذهم بهذا الجزاء العادل المستحق عليهم عسيرا . وليس لأحد من عباده قوة ولا حيلة تجعل أخذه عسيرا على الله أيضا . ومن ثم دعوة شاملة إلى الناس كافة – بعد هذه البيانات كلها – أن هذا الرسول إنما جاءهم بالحق من ربهم فمن آمن به فهو الخير . ومن كفر فإن الله غنى عنهم جميعا ، وقادر عليهم جميعا (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

وما تزال فكرة "التثليث" تصدم عقول المثقفين من النصارى ، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق ، ومن بينها الإحالة إلى مجهولات لا ينكشف سرها للبشر إلا يوم ينكشف الحجاب عن كل ما فى السماوات وما فى الأرض يقول القس بوطرس صاحب رسالة:"الأصول والفروع" أحد شراح العقيدة النصرانية ، فى هذه القضية ــ قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا . ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاء فى المستقبل , حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السماوات والأرض (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه . فآمنوا بالله ورسله , ولا تقولوا ثلاثة . انتهوا خيرا لكم . إنما الله إله واحد . سبحانه أن يكون

له ولد . له ما فى السماوات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلاً) فهو الغلو إذن وتجاوز الحد والحق ، هو ما يدعو أهل الكتاب هؤلاء إلى أن يقولوا على الله غير الحق ؛ فيزعموا له ولدا – سبحانه – كما يزعمون أن الله الواحد ثلاثة . . وقد تطورت عندهم فكرة البنوة ، وفكرة التثليث ، حسب رقي التفكير وانحطاطه . ولكنهم قد اضطروا أمام الاشمئزاز الفطرى من نسبة الولد لله ، والذى تزيده الثقافة العقلية , أن يفسروا البنوة بأنها ليست عن ولادة كولادة البشر . ولكن عن "المحبة " بين الآب والابن . وأن يفسروا الإله الواحد فى ثلاثة . . بأنها "صفات" لله سبحانه فى" حالات" مختلفة . . وإن كانوا ما يزالون غير قادرين على إدخال هذه التصورات المتناقضة إلى الإدراك البشرى . فهم يحيلونها إلى معميات غيبية لا تنكشف إلا بانكشاف حجاب السماوات والأرض . والله - سبحانه – تعالى عن الشركة ؛ وتعالى عن المشابهة . ومقتضى كونه خالقا يستتبع بذاته أن يكون غير الخلق (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً) وإذا كان مولد عيسى – عليه السلام – من غير أب عجيبا فى عرف البشر ، خارقا لما ألفوه , فهذا العجب إنما تنششه مخالفة المألوف . والمألوف للبشر ليس هو كل الموجود .والقوانين الكونية التى يعرفونها ليست هى كل سنة الله . والله يخلق السنة ويجريها , ويصرفها حسب مشيئته . ولا حد لمشيئته . والله - سبحانه – يقول – وقوله الحق – فى المسيح (إنما المسيح عيسى ابن مريم ، رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه فهو على وجه القصد والتحديد (رسول الله) شأنه فى هذا شأن بقية الرسل . شأن نوح وإبراهيم وموسى ومحمد ، وبقية الرهط الكريم من عباد الله المختارين للرسالة على مدار الزمان (وكلمته ألقاها إلى مريم) وأقرب تفسير لهذه العبارة ، أنه سبحانه ، خلق عيسى بالأمر الكونى المباشر ، الذى يقول عنه فى مواضع شتى من القرآن:إنه (كن . . فيكون) فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم فخلق عيسى فى بطنها من غير نطفة أب – كما هو المألوف فى حياة البشر غير آدم – والكلمة التى تخلق كل شيء من العدم ، لا عجب فى أن تخلق عيسى – عليه السلام – فى بطن مريم من النفخة التى يعبر عنها بقوله (وروح منه) وقد نفخ الله فى طينة آدم من قبل من روحه . فكان "إنسانا" . . كما يقول الله تعالى(إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) وكذلك قال فى قصة عيسى: (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا) فالأمر له سابقة . . والروح هنا هو الروح هناك . . ولم يقل أحد من أهل الكتاب - وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله – إن آدم إله ، ولا أقنوم من أقانيم الإله . كما قالوا عن عيسى ؛ مع تشابه الحال – من حيث قضية الروح والنفخة ومن حيث الخلقة كذلك . بل إن آدم خلق من غير أب وأم ، وعيسى خلق مع وجود أم ، وكذلك قال الله (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون) ويعجب الإنسان – وهو يرى وضوح القضية وبساطتها – من فعل الهوى ورواسب الوثنية التى عقدت قضية عيسى عليه السلام هذا التعقيد كله ، فى أذهان أجيال وأجيال وهى – كما يصورها القرآن – بسيطة بسيطة ، وواضحة مكشوفة . إن الذى وهب لآدم ، من غير أبوين ، حياة إنسانية متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من روحه ، لهو الذى وهب عيسى . . من غير أب ، هذه الحياة الإنسانية كذلك ، وهذاالكلام البسيط الواضح أولى من تلك الأساطير التى لا تنتهى عن ألوهية المسيح , لمجرد أنه جاء من غير أب . وعن ألوهية الأقانيم الثلاثة كذلك ! . . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (فآمنوا بالله ورسله . ولا تقولوا:ثلاثة . انتهوا خيرا لكم)وهذه الدعوة للإيمان بالله ورسله – ومن بينهم عيسى بوصفه رسولا ، ومحمد بوصفه خاتم النبيين – والانتهاء عن تلك الدعاوى والأساطير ، تجيء فى وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف والتقرير المريح . . (إنما الله إله واحد) تشهد بهذا وحده الناموس ووحدة الخلق ، ووحدة الطريقة:كن . . فيكون . . ويشهد بذلك العقل البشرى ذاته . فالقضية فى حدود إدراكه . فالعقل لا يتصور خالقا يشبه مخلوقاته ، ولا ثلاثة فى واحد . ولا واحدا فى ثلاثة (سبحانه أن يكون له ولد) والولادة امتداد للفانى ومحاولة للبقاء فى صورة النسل . . والله الباقى غنى عن الامتداد فى صورة الفانين ؛ وكل ما فى السماوات وما فى الأرض ملك له سبحانه (له ما فى السماوات وما فى الأرض) ويكفى البشر أن يرتبطوا كلهم بالله ارتباط العبودية للمعبود ؛ وهو يرعاهم أجمعين , ولا حاجة لافتراض قرابة بينهم وبينه عن طريق ابن له منهم ! فالصلة قائمة بالرعاية والكلاءة (وكفى بالله وكيلا) وهكذا لا يكتفى القرآن ببيان الحقية وتقريرها فى شأن العقيدة . إنما يضيف إليها أراحة شعور الناس من ناحية رعاية الله لهم ؛ وقيامه – سبحانه – عليهم وعلى حوائجهم ومصالحهم ليكلوا إليه أمرهم كله فى طمأنينة . . ويمضى السياق فى البيان ؛ لتقرير أكبر قضايا التصور الاعتقادى الصحيح ، وهى الحقيقة الاعتقادية التى تنشأ فى النفس من تقرير حقيقة الوحدانية . . حقيقة أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق . . وأن هناك فقط:ألوهية وعبودية . . ألوهية واحدة , وعبودية تشمل كل شيء ، وكل أحد ، فى هذا الوجود . ويصحح القرآن هنا عقيدة

النصارى كما يصحح كل عقيدة تجعل للملائكة بنوة كبنوة عيسى , أو شركا فى الألوهية كشركته فى الألوهية (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله – ولا الملائكة المقربون – ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ؛ وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) لقد عنى الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه ؛ وحدانية لا تتبلس بشبهة شرك أو مشابهة فى صورة من الصور ؛ وعنى بتقرير أن الله – سبحانه – ليس كمثله شىء . فلا يشترك معه شىء فى ماهية ولا صفة ولا خاصية . كما عنى بتقرير حقيقة الصلة بين الله – سبحانه – وكل شىء [بما فى ذلك كل حى] وهى أنها صلة ألوهية وعبودية . ألوهية الله ، وعبودية كل شىء لله . . والمتتبع للقرآن كله يجد العناية فيه بالغة بتقرير هذه الحقائق – أو هذه الحقيقة الواحدة بجوانبها هذه – بحيث لا تدع فى النفس ظلا من شك أو شبهة أو غموض . ولقد عنى الإسلام كذلك بأن يقرر أن هذه هى الحقيقة التى جاء بها الرسل أجمعون . فقررها فى سيرة كل رسول ، وفى دعوة كل رسول ؛ وجعلها محور الرسالة من عهد نوح عليه السلام , إلى عهد محمد خاتم النبيين – عليه الصلاة والسلام – تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول (يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية – وهى حاسمة وصارمة فى تقرير هذه الحقيقة - يكون منهم من يحرف هذه الحقيقة وينسب لله – سبحانه – البنين والبنات أو ينسب لله – سبحانه – الامتزاج مع أحد من خلقه فى صورة الأقانيم ؛ اقتباسا من الوثنيات القديمة أجل لا تستقيم تصورات الناس ، ولا تستقر مشاعرهم ، إلا حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم . . وهنا يقول القرآن كلمة الفصل فى ألوهية المسيح وبنوته ؛ وألوهية روح القدس [أحد الأقانيم] وفى كل أسطورة عن بنوة أحد لله ، أو ألوهية أحد مع الله ، فى أى شكل من الأشكال . . يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى بن مريم عبد لله ؛ وأنه لن يستنكف أن يكون عبدالله . وأن الملائكة المقربين عبيد لله ؛ وأنهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لله . وأن جميع خلائقه ستحشر إليه . وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم . وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله – ولا الملائكة المقربون) إنالمسيح عيسى بن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبدا لله . لأنه – عليه السلام – وهو نبى الله ورسوله – خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ؛ وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان . وهو خير من يعرف أنه من خلق الله ؛ فلا يكون خلق الله كالله ؛ أو بعضا من الله ! وهو خير من يعرف أن العبودية لله – فضلا على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة – وكذلك الملائكة المقربون – وفيهم روح القدس جبريل – شأنهم شأن عيسى عليه السلام وسائر الأنبياء – فما بال جماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ويعرفه حق المعرفة ؟! (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا) فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر الله لهم بسلطانه ، فأما الذين عرفوا الحق ، فأقروا بعبوديتهم لله وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار ، فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله (وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) وما يريد الله – سبحانه – من عباده أن يقروا له بالعبودية ، وأن يعبدوه وحده ، لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم ، ولا لأنها تزيد فى ملكه تعالى أو تنقص من شىء . ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، لتصح تصوراتهم ومشاعرهم , كما تصح حياتهم وأوضاعهم . فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر ، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع ، على أساس سليم قويم ، إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار ، وما يتبع الإقرار من آثار ، وفى هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان بالله فى الصورة الناصعة التى جاء بها الإسلام ؛ وقرر أنها قاعدة الرسالة كلها ودعوة الرسل جميعا ؛ قبل أن يحرفها الأتباع ، وتشوهها الأجيال يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلادا جديدا للإنسان ؛ تتوافر له معه الكرامة والحرية ، والعدل والصلاح ، والخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده فى الشعائر وفى نظام الحياة سواء . إنها القضية الكبرى فى العقيدة السماوية تعرضها هذه الآية فى هذا السياق فى مواجهة انحراف أهل الكتاب من النصارى فى ذلك الزمان . وفى مواجهة الانحرافات كلها إلى آخر الزمان . . ومن ثم دعوة إلى الناس كافة – أن الرسالة الأخيرة تحمل برهانها من الله . وهى نور كاشف للظلمات والشبهات . فمن اهتدى بها واعتصم بالله فسيجد رحمة الله تؤويه ؛ وسيجد فضل الله يشمله ؛ وسيجد فى ذلك النور والهدى إلى صراط الله المستقيم ، وهذا القرآن يحمل برهانه للناس من رب الناس (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) إن طابع الصنعة الربانية ظاهر فيه ؛ يفرقه عن كلام البشر وعن صنع البشر فى مبناه وفى فحواه سواء . وهى قضية واضحة يدركها أحيانا من لا يفهمون من العربية حرفا واحدا , بصورة تدعو إلى العجب . كنا على ظهر الباخرة فى عرض الأطلنطى فى طريقنا إلى نيويورك ، حينما أقمنا صلاة الجمعة على ظهر المركب . . ستة من الركاب المسلمين من بلاد عربية مختلفة وكثير من عمال المركب أهل النوبة . وألقيت خطبة الجمعة متضمنة آيات من القرآن فى ثناياها . وسائر ركاب السفينة من جنسيات

شتى متحلقون يشاهدون ! وبعد انتهاء الصلاة جاءت إلينا – من بين من جاء يعبر لنا عن تأثره العميق بالصلاة الإسلامية – سيدة يوغسلافية فارة من الشيوعية إلى الولايات المتحدة ! جاءتنا وفى عينيها دموع لا تكاد تمسك بها وفى صوتها رعشة . وقالت لنا فى انجليزية ضعيفة:أنا لا أملك نفسى من الإعجاب البالغ بالخشوع البادى فى صلاتكم . . ولكن ليس هذا ما جئت من أجله ، إننى لا أفهم من لغتكم حرفا واحدا . غير أننى أحس أن فيها إيقاعا موسيقيا لم أعهدة فى أية لغة ، ثم إن هناك فقرات مميزة فى خطبة الخطيب . هى أشد إيقاعا . ولها سلطان خاص على نفسى !!! وعرفت طبعا أنها الآيات القرآنية ، المميزة الإيقاع ذات السلطان الخاص ! لا أقول:إن هذه قاعدة عند كل من يسمع ممن لا يعرفون العربية . . ولكنها ولا شك ظاهرة ذات دلالة ! فأما الذين لهم ذوق خاص فى هذه اللغة ، وحس خاص بأساليبها ، فقد كان من أمرهم ما كان ; يوم واجههم محمد ﷺ بهذا القرآن . . وقصة الأخنس بن شريق ، وأبى سفيان بن حرب ,وأبى جهل وعمرو بن هشام ، فى الاستماع سرا للقرآن ، وهم به مأخوذون ، قصة مشهورة . وهى إحدى القصص الكثيرة . . والذين لهم ذوق فى أى جيل يعرفون ما فى القرآن من خصوصية وسلطان وبرهان من هذا الجانب ، وفى هذا القرآن نور (وأنزلنا إليكم نورا مبينا) نور تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة ، ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محددا مرسوما . . فى داخل النفس وفى واقع الحياة سواء ومهما قلت فى هذا التعبير:"وأنزلنا إليكم نورا مبينا . . فإننى لن أصور بألفاظى حقيقته , لمن لم يذق طعمه ولم يجده فى نفسه ! ولا بد من المكابدة فى مثل هذه المعانى ! ولا بد من التذوق الذاتى ! ولا بد من التجربة المباشرة ! (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطا مستقيمًا) والاعتصام بالله ثمرة ملازمة للإيمان به . . متى صح الإيمان ، ومتى عرفت النفس حقيقة الله وعرفت حقيقة عبودية الكل له . فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده . وهو صاحب السلطان والقدرة وحده . . وهؤلاء يدخلهم الله فى رحمة منه وفضل . رحمة فى هذه الحياة الدنيا – قبل الحياة الأخرى – وفضل فى هذه العاجلة – قبل الفضل فى الآجلة - فالإيمان هو الواحة الندية التى تجد فيها الروح الظلال من هاجرة الضلال فى تيه الحيرة والقلق والشرود . كما أنه هو القاعدة التى تقوم عليها حياة المجتمع ونظامه ; فى كرامة وحرية ونظافة واستقامة ، فالذين آمنوا فى رحمة من الله وفضل ، فى حياتهم الحاضرة ، وفى حياتهم الآجلة سواء (ويهديهم إليه صراطا مستقيمًا) وكلمة (إليه). . تخلع على التعبير حركة مصورة . إذ ترسم المؤمنين وقدرة الله تنقل خطاهم فى الطريق إلى الله على استقامة ؛ وتقربهم إليه خطوة خطوة ، وتختم السورة التى بدأت بعلاقات الأسرة ، وتكافلها الاجتماعى ؛ وتضمنت الكثير من التنظيمات الاجتماعية فى ثناياها . . تختم بتكملة أحكام الكلالة – وهى على قول أبى بكر رضى الله عنه وهو قول الجماعة:ما ليس فيها ولد ولا والد ، وقد ورد شطر هذه الأحكام فى أول السورة . وهو الشطر المتعلق بوراثة الكلالة من جهة الرحم حين لا توجد عصبة . فالآن يستكمل الشطر الآخر فى وراثة الكلالة . . فإن كانت للمتوفى ، الذى لا ولد له ولا والد ، أخت شقيقة أو لأب ، فلها نصف ما ترك أخوها . وهو يرث تركتها – بعد أصحاب الفروض – إن لم يكن لها ولد ولا والد كذلك . فإن كانتا أختين شقيقتين أو لأب فلهما الثلثان مما ترك . وإن تعدد الإخوة والأخوات فللذكر مثل حظ الأنثيين – حسب القاعدة العامة فى الميراث - والإخوة والأخوات الأشقاء يحجبون الإخوة والأخوات لأب حين يجتمعون (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ) وتختم آية الميراث ، وتختم معها السورة ، بذلك التعقيب القرآنى الذى يرد الأمور كلها لله ، ويربط تنظيم الحقوق والواجبات ، والأموال وغير الأموال بشريعة الله (يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم) صيغة جامعة شاملة (بكل شىء)من الميراث وغير الميراث . من علاقات الأسر وعلاقات الجماعات . من الأحكام والتشريعات . . فإما اتباع بيان الله فى كل شىء ، وإما الضلال . . طريقان اثنان لحياة الناس لا ثالث لهما:طريق بيان الله فهو الهدى . وطريق من عداه فهو الضلال .

سورة المائدة

و آياتها (120)

نزل هذا القرآن الكريم على قلب رسول الله ﷺ لينشىء به أمة ، وليقيم به دولة ، ولينظم به مجتمعا ، وليربي به ضمائر وأخلاقا وعقولا ؛ وليحدد به روابط ذلك المجتمع ; فيما بينه ؛ وروابط تلك الدولة مع سائر الدول ؛ وعلاقات تلك الأمة بشتى الأمم ، ومن ثم نجد فى هذه السورة موضوعات شتى ; الرابط بينها جميعا هو هذا الهدف الأصيل الذى جاء القرآن كله لتحقيقه و هو إنشاء أمة , وإقامة دولة ، وتنظيم مجتمع ؛ على أساس من عقيدة خاصة ، وتصور معين ، وبناء جديد . . الأصل فيه إفراد الله – سبحانه – بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان ، وتلقى منهج الحياة وشريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك . .

وكذلك نجد بناء التصور الاعتقادى وتوضيحه وتخليصه من أساطير الوثنية ، وانحرافات أهل الكتاب وتحريفاتهم . . إلى جانب تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة ذاتها وحقيقة دورها , وطبيعة طريقها وما فى هذا الطريق من مزالق وأشواك ، وشباك يرصدها لها أعداؤها وأعداء هذا الدين . . إلى جانب أحكام الشعائر التعبدية التى تطهر روح الفرد المسلم وروح الجماعة المسلمة ؛ وتربطها بربها . إلى جانب التشريعات الاجتماعية التى تنظم روابط مجتمعها ؛ والتشريعات الدولية التى تنظم علاقاتها بغيرها . . إلى جانب التشريعات التى تحلل وتحرم ألوانا من المآكل والمشارب والمناكح ؛ أو ألوانا من الأعمال والمسالك . . كل ذلك حزمة واحدة فى السورة الواحدة يمثل معنى "الدين" كما أراده الله وكما فهمه المسلمون . أيام أن كانوا مسلمين .

وهذا الأصل الكبير هو الذى يبرز فى هذه السورة بروزا واضحا مقررا منصوصا عليه نصا . إلى جانب تصحيح التصور الاعتقادى الذى يقوم عليه هذا الأصل الكبير ، ومن ثم تتوارد النصوص هكذا فى ثنايا السورة ؛ فى تقرير الألوهية الواحدة ؛ ونفى كل شرك أو تثليث أو خلط بين ذات الله – سبحانه – وبين غيره . أو بين خصائص الألوهية , وخصائص العبودية على الإطلاق(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . ويهديهم إلى صراط مستقيم) ولأن الله هو وحده الإله ، وهو وحده الخالق ، وهو وحده المالك . . فهو وحده الذى يشرع , هو وحده الذى يحلل ويحرم ، وهو وحده الذى يطاع فيما يشرع وفيما يحرم أو يحلل . كما أنه هو وحده الذى يعبد ، وهو وحده الذى يتوجه إليه العباد بالشعائر . وقد أخذ الميثاق على عباده بهذا كله ؛ فهو يطالب الذين آمنوا أن يفوا بميثاقهم وتعاقدهم معه ; ويحذرهم عواقب نقض الميثاق وخلف العقود ؛ كما وقع من بنى إسرائيل قبلهم (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . . .) ويتضمن سياق السورة أحكاما شرعية منوعة منها ما يتعلق بالحلال والحرام من الذبائح ومن الصيد . ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام فى فترة الإحرام وفى المسجد الحرام . ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام من النكاح . ومنها ما يتعلق بالطهارة والصلاة . ومنها ما يتعلق بالقضاء وإقامة العدل فيه . ومنها ما يتعلق بالحدود فى السرقة وفى الخروج على الجماعة المسلمة . ومنها ما يتعلق بالخمر والميسر والأنصاب والأزلام . ومنها ما يتعلق بالكفارات فى قتل الصيد مع الإحرام وفى اليمين . ومنها ما يتعلق بالوصية عند الموت . ومنها ما يتعلق بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى من الأنعام ، ومنها ما يتعلق بشريعة القصاص فى التوراة مما جعله الله كذلك شريعة للمسلمين . . وهكذا تلتقى الشرائع بالشعائر فى سياق السورة بلا حاجز ولا فاصل ! وإلى جوار هذه الأحكام الشرعية المنوعة يجىء الأمر بالطاعة والتقيد بما شرعه الله وما أمر به ؛ والنهى عن التحريم والتحليل إلا بإذنه ؛ ويجىء النص على أن هذا هو الدين الذى ارتضاه الله للأمة المؤمنة بعد أن أكمله وأتم به نعمته (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ، ولا القلائد , ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا .) (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) ولا يدع السياق أمر الطاعة والاتباع فى التحليل والتحريم مجملا . إنما هو ينص نصا على وجوب الحكم بما أنزل الله – دون سواه – وإلا فهو الكفر والظلم والفسق . . وتتوارد النصوص القرآنية فى هذا الأمر حاسمة جازمة على هذا النسق (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، من الذين قالوا:آمنا

بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا ، سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذرو)

-وهكذا تتبين القضية . . إله واحد . وخالق واحد . ومالك واحد . . وإذن فحاكم واحد . ومشرع واحد . ومتصرف واحد . . وإذن فشريعة واحدة ، ومنهج واحد ، وقانون واحد . . وإذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل الله ، فهو إيمان وإسلام . أو معصية وخروج وحكم بغير ما أنزل الله ، فهو كفر وظلم وفسوق . . وهذا هو الدين كما أخذ الله ميثاق العباد جميعا عليه ، وكما جاء به كل الرسل من عنده . . أمة محمد والأمم قبلها على السواء . ولا يكفي إذن أن يتخذ البشر لأنفسهم شرائع تشابه شريعة الله . أو حتى شريعة الله نفسها بنصها ، إذا هم نسبوها إلى أنفسهم ، ووضعوا عليها شاراتهم ؛ ولم يردوها لله ؛ ولم يطبقوها باسم الله ، إذعانا لسلطانه ، واعترافا بألوهيته ؛ وبتفرده بهذه الألوهية . التفرد الذى يجرد العباد من حق السلطان والحاكمية ، إلا تطبيق الشريعة الله ، وتقريرا لسلطانه في الأرض . ومن هذه الحتمية ينشأ الحكم الذى تقرره الآيات فى سياق السورة (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون). . (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمو) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون). . ذلك أن الذين لا يحكمون بما أنزل الله يعلنون رفضهم لألوهية الله – سبحانه – ورفضهم لإفراد الله – سبحانه – بهذه الألوهية . يعلنون هذا الرفض بعملهم وواقعهم ؛ ولو لم يعلنوه بأفواههم وألسنتهم . ولغة العمل والواقع أقوى وأكبر من لغة الفم واللسان . ومن ثم يصمهم القرآن بالكفر والظلم والفسق ، أخذا من رفضهم لألوهية الله – حين يرفضون حاكميته المطلقة ; وحين يجعلون لأنفسهم خاصة الألوهية الأولى فيشرعون للناس من عند أنفسهم ما لم يأذن به الله . وعلى هذا المعنى يتكى ء سياق السورة ونصوصها الواضحة الصريحة كذلك . شأن آخر يتناوله سياق السورة ؛ وهو الاعتقاد الصحيح والطاعة والتلقى من الله وحده في التحريم والتحليل ، والحكم بما أنزل الله وحده دون تعديل أو تحريف أو تبديل . إن كتاب هذه الأمة هو كتاب الله الأخير للبشر ؛ وهو يصدق ما بين يديه من الكتاب فى أصل الاعتقاد والتصور ؛ ولكنه – بما أنه هو الكتاب الأخير – يهيمن على كل ما سبقه وإليه تنتهى شريعة الله التى ارتضاها لعباده إلى يوم الدين ؛ فما أقره من شرائع أهل الكتاب قبله فهو من شرع الله ؛ وما نسخه فقد فقد صفته هذه وإن كان واردا فى كتاب من الكتب المنزلة (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا) ومن ثم فإن دور هذه الأمة هو أن تكون الوصية على البشرية ؛ تقيم العدل فى الأرض , غير متأثرة بمودة أو شنآن ، وغير ناظرة فى إقامة العدل إلى ما أصابها أو يصيبها من الناس (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ؛ وتعاونوا على البر والتقوى , ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب) (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم:أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرا منهم فاسقون) (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا:إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) وهذه الحملة الكاشفة على أعداء الجماعة المسلمة ؛ والتركيز فيها على اليهود والمشركين بصفة خاصة مع إشارات إلى المنافقين والنصارى أحيانا ، تؤدى بنا إلى شأن آخر مما تعالجه هذه السورة ، إنها تعالج موقفا حاضرا فى حياة الجماعة المسلمة فى المدينة يومذاك . . كما تعالج موقف الأمة المسلمة ، فى تاريخها كله تجاه المعسكرات المعادية لها . . وإنها لهى هى . . على مدار الزمان ! ففى أية فترة تاريخية من حياة الجماعة المسلمة فى المدينة تنزلت هذه السورة ؟ المراجعة الموضوعية للسورة مع أحداث السيرة تكاد تنفى هذه الرواية التى تقول:إن السورة نزلت بكاملها بعد "الفتح" ؛ فضلا على أن هناك حادثة من حوادث السيرة فى غزوة بدر ، تقطع بأن الآيات الخاصة بموقف بنى إسرئيل مع موسى – عليه السلام - من دخول الأرض المقدسة ، كانت معروفة للمسلمين قبل غزوة بدر فى السنة الثانية الهجرية . وقد وردت إشارة إليها على لسان سعد بن معاذ الأنصارى – رضى الله عنه - فى رواية ، وعلى لسان المقداد بن عمرو فى رواية ، وهو يقول لرسول الله ﷺ إذن والله لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون . . الخ" أما المراجعة الموضوعية فتصور الموقف بأنه كانت لليهود – فى ذلك الوقت الذى نزلت فيه الآيات الخاصة بهم – قوة ونفوذ وعمل فى المدينة ، وفى الصف المسلم ؛ مما اقتضى هذه الحملة لكشف موقفهم وإبطال كيدهم . وهذه القوة وهذا النفوذ كانا قد تضاءلا بعد وقعة بنى قريظة ، عقب غزوة الخندق ، وقد تطهرت الأرض من القبائل الثلاث اليهودية القوية:بنى قينقاع ، وبنى النضير وبنى قريظة . فلم يكن لهم بعد الحديبية ما يدعو إلى العناية بشأنهم إلى هذا الحد ومن هذه

الملاحظات يترجح لدينا أن مطالع السورة وبعض مقاطعها هى التى نزلت بعد سورة الفتح ؛ بينما نزلت مقاطع منها قبل ذلك ، كما أن الآية التى فيها قول الله تعالى) :اليوم أكملت لكم دينكم)لا بد أن تكون قد نزلت بعد ذلك . فقد كانت آخر ما نزل من القرآن على أرجح الأقوال . وأن السورة لم تنزل كلها مرة واحدة كما جاء فى إحدى الروايات . والطابع البارز لهذه السورة هو طابع التقرير والحسم فى التعبير . . سواء فى ذلك الأحكام الشرعية التى تقتضى بطبيعتها التقرير والحسم فى القرآن كله ؛ أو المبادىء والتوجيهات , التى قد تتخذ فى غير هذه السورة صورا أخرى ؛ ولكنها فى هذه السورة تقرر فى حسم وصرامة ؛ فى أسلوب التقرير الدقيق ، وهو الطابع العام المميز لشخصية السورة . . من بدئها إلى منتهاها .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ{١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{٢} حُرِمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٣} يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ{٤} الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ{٥} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{٦} وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{٧} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{٨} وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ{٩} وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ{١٠} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ){١١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{١١} وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ{١٢}

إنه لا بد من ضوابط للحياة . . حياة المرء مع نفسه التى بين جنبيه ؛ وحياته مع غيره من الناس ومن الأحياء والأشياء عامة . . الناس من الأقربين والأبعدين ، من الأوفى أولها عقد الإيمان بالله ؛ ومعرفة حقيقة ألوهيته سبحانه ، ومقتضى العبودية لألوهيته . . هذا العقد الذى تنبثق منه ، وتقوم عليه سائر العقود ؛ وسائر الضوابط فى الحياة . وعقد الإيمان بالله ؛ والاعتراف بألوهيته وربوبيته وقوامته ؛ ومقتضيات هذا الاعتراف من العبودية الكاملة ، والالتزام الشامل والطاعة المطلقة والاستسلام العميق . . هذا العقد أخذه الله ابتداء على آدم – عليه السلام – وهو يسلمه مقاليد الخلافة فى الأرض ، بشرط وعقد هذا نصه القرآنى (قلنا:اهبطوا منها جميعا . فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فهى خلافة مشروطة باتباع هدى الله الذى ينزله فى كتبه على رسله ؛ وإلا فهى المخالفة لعقد الخلافة والتمليك . المخالفة التى تجعل كل عمل مخالف لما أنزل الله ، باطلا بطلانا أصليا ، غير قابل للتصحيح المستأنف ! وتحتم على كل مؤمن بالله ، يريد الوفاء بعقد الله ، أن يرد هذا الباطل ، ولا يعترف به ؛ ولا يقبل التعامل على أساسه . وإلا فما أوفى بعقد الله . ولقد تكرر هذا العقد – أو هذا العهد – مع ذرية آدم . وهم بعد فى ظهور آبائهم . كما ورد فى السورة الأخرى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم:ألست بربكم ؟

قالوا:بلى شهدنا ! أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا:إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟) فهذا عقد آخر مع كل فرد ؛ عقد يقرر الله – سبحانه – أنه أخذه على بنى آدم كلهم وهم فى ظهور آبائهم . . وليس لنا أن نسأل:كيف ؟ لأن الله أعلم بخلقة ؛ وأعلم كيف يخاطبهم فى كل طور من أطوار حياتهم . بما يلزمهم الحجة . وهو يقول:إنه أخذ عليهم هذا العهد ، على ربوبيته لهم . . فلا بد أن ذلك كان ، كما قال الله سبحانه . . فإذا لم يفوا بتعاقدهم هذا مع ربهم لم يكونوا أوفياء ! والذين آمنوا بمحمد ﷺ قد تعاقدوا مع الله – على يديه – تعاقدا عاما على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألا تنازع الأمر أهله" . وبعضهم وقعت له بعد ذلك عقود خاصة قائمة على ذلك التعاقد العام . . ففى بيعة العقبة الثانية التى ترتبت عليها هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، كان هناك عقد مع نقباء الأنصار . . وفى الحديبية كان هناك عقد الشجرة وهو "بيعة الرضوان" . وعلى عقد الإيمان بالله ، والعبودية لله ، تقوم سائر العقود . . سواء ما يختص منها بكل أمر وكل نهى فى شريعة الله ، وما يتعلق بكل المعاملات مع الناس والأحياء والأشياء فى هذا الكون فى حدود ما شرع الله – فكلها عقود ينادى الله الذين آمنوا ، بصفتهم هذه ، أن يوفوا بها . إذ أن صفة الإيمان ملزمة لهم بهذا الوفاء ، مستحثة لهم كذلك على الوفاء . . ومن ثم كان هذا النداء (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) ثم يأخذ فى تفصيل بعض هذه العقود (أحلت لكم بهيمة الأنعام – إلا ما يتلى عليكم) إن هذا التحريم والتحليل فى الذبائح ، وفى الأنواع ، وفى الأماكن ، وفى الأوقات ، إن هذا كله من "العقود" . . وهى عقود قائمة على عقد الإيمان ابتداء . فالذين آمنوا يقتضيهم عقد الإيمان أن يتلقوا التحريم والتحليل من الله وحده ؛ ولا يتلقوا فى هذا شيئا من غيره . . ومن ثم نودوا هذا النداء ، فى مطلع هذا البيان . وبمقتضى هذا الإحلال من الله ؛ صار حلالا لكم ومباحا أن تأكلوا من كل ما يدخل تحت مدلول (بهيمة الأنعام) من الذبائح والصيد – إلا ما يتلى عليكم تحريمه منها – وهو الذى سيرد ذكره محرما . . إما حرمة وقتية أو مكانية ؛ وإما حرمة مطلقة فى أى مكان وفى أى زمان . وبهيمة الأنعام تشمل الإبل والبقر والغنم ؛ ويضاف إليها الوحشى منها ، كالبقر الوحشى , والحمر الوحشية والظباء . ثم يأخذ فى الاستثناء من هذا العموم . . . وأول المستثنيات الصيد فى حال الإحرام (غير محلى الصيد وأنتم حرم) والتحريم هنا ينطبق ابتداء على عملية الصيد ذاتها . فالإحرام للحج أو للعمرة ، تجرد عن أسباب الحياة العادية وأساليبها المألوفة وتوجه إلى الله فى بيته الحرام ، الذى جعله الله مثابة الأمان . . ومن ثم ينبغى عنده الكف عن بسط الأكف إلى أى حى من الأحياء . . وهى فترة نفسية ضرورية للنفس البشرية ؛ تستشعر فيها صلة الحياة بين جميع الأحياء فى واهب الحياة ؛ وتأمن فيها وتؤمن كذلك من كل اعتداء ؛ وتتخفف من ضرورات المعاش التى أحل من أجلها صيد الطير والحيوان واكله ؛ لترتفع فى هذه الفترة على مألوف الحياة وأساليبها ، وتتطلع إلى هذا الأفق الرفاف الوضيء . وقبل أن يمضى السياق فى بيان المستثنيات من حكم الحل العام ، يربط هذا العقد بالعقد الأكبر ، ويذكر الذين آمنوا بمصدر ذلك الميثاق (إن الله يحكم ما يريد) طليقة مشيئته ، حاكمة إرادته ، متفردا – سبحانه – بالحكم وفق ما يريد . ليس هنالك من يريد معه ؛ وليس هنالك من يحكم بعده ؛ ولا راد لما يحكم به ، ثم يستأنف نداء الذين آمنوا لينهاهم عن استحلال حرمات الله .. (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله . ولا الشهر الحرام . ولا الهدى . ولا القلائد . ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . وإذا حللتم فاصطادوا) وأقرب ما يتجه إليه الذهن فى معنى (شعائر الله) فى هذا المقام أنها شعائر الحج والعمرة وما تتضمنه من محرمات على المحرم للحج او العمرة حتى ينتهى حجه بنحر الهدى الذى ساقه إلى البيت الحرام ؛ فلا يستحلها المحرم فى فترة إحرامه ؛ لأن استحلالها فيه استهانة بحرمة الله الذى شرع هذه الشعائر (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) وَالشهر الحرام يعنى الأشهر الحرم ؛ وهى رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم . وقد حرم الله فيها القتال – وكانت العرب قبل الإسلام تحرمها – ولكنها تتلاعب فيها وفق الأهواء ؛ فينسئونها – أى يؤجلونها – بفتوى بعض الكهان ، أو بعض زعماء القبائل القوية ! من عام إلى عام . فلما جاء الإسلام شرع الله حرمتها ، وأقام هذه الحرمة على أمر الله ، وقرر أن النسىء زيادة فى الكفر . واستقام الأمر فيها على أمر الله . . ما لم يقع الاعتداء فيها على المسلمين ، فإن لهم حينئذ ان يردوا الاعتداء وألا يدعوا المعتدين يحتمون بالأشهر الحرم – وهم لا يرعون حرمتها – ويتترسون خلفها للنيل من المسلمين ، ثم يذهبون ناجين ! وبين الله حكم القتال فى الأشهر الحرم ... والهدى وهو الذبيحة التى يسوقها الحاج أو المعتمر ؛ وينحرها فى آخر أيام الحج أو العمرة , فينهى بها شعائر حجه أو عمرته . وهى نافة أو بقرة أو شاة وعدم حلها معناه ألا ينحرها لأى غرض آخر غير ما سيقت له ؛ ولا ينحرها إلا يوم النحر فى الحج وعند انتهاء العمرة فى العمرة . ولا ينتفع من لحومها وجلودها وأشعارها

وأوبارها بشيء ; بل يجعلها كلها للفقراء والقلائد . وهي الأنعام المقلدة التي يقلدها أصحابها – أي يضعون في رقبتها قلادة - علامة على نذرها لله ؛ ويطلقونها ترعى حتى تنحر في موعد النذر ومكانه – ومنها الهدى الذي يشعر:أي يعلم بعلامة الهدى ويطلق إلى موعد النحر – فهذه القلائد يحرم احلالها بعد تقليدها ؛ فلا تنحر إلا لما جعلت له؛ وقد جاء ذكرها بعد ذكر الهدى المقلد للنحر للحج أو العمرة ، للمناسبة بين هذا وذاك . كذلك حرم الله آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . وهم الذين يقصدون البيت الحرام للتجارة الحلال وطلب الرضوان من الله . . حجاجا أو غير حجاج . . وأعطاهم الأمان في حرمة بيته الحرام . ثم أحل الصيد متى انتهت فترة الإحرام ، في غير البيت الحرام ، فلا صيد في البيت الحرام (وإذا حللتم فاصطادوا) إنها منطقة الأمان يقيمها الله في بيته الحرام ؛ كما يقيم فترة الأمان في الأشهر الحرم . .منطقة يأمن فيها الناس والحيوان والطير والشجر أن ينالها الأذى . وأن يروعها العدوان . . إنه السلام المطلق يرفرف على هذا البيت ؛ استجابة لدعوة إبراهيم - أبي هذه الأمة الكريم – ويرفرف على الأرض كلها أربعة أشهر كاملة في العام – في ظل الإسلام - وهو سلام يتذوق القلب البشري حلاوته وطمأنينته وأمنه ؛ ليحرص عليه – بشروطه - وليحفظ عقد الله وميثاقه ، وليحاول أن يطبقه في الحياة كلها على مدار العام , وفي كل مكان . وفي جو الحرمات وفي منطقة الأمان ، يدعو الله الذين آمنوا به ، وتعاقدوا معه ، أن يفوا بعقدهم ؛ وأن يرتفعوا إلى مستوى الدور الذي ناطه بهم . . دور القوامة على البشرية ; بلا تأثر بالمشاعر الشخصية ، والعواطف الذاتية , والملابسات العارضة في الحياة . . يدعوهم ألا يعتدوا حتى على الذين صدوهم عن المسجد الحرام في عام الحديبية ؛ وقبله كذلك ؛ وتركوا في نفوس المسلمين جروحا وندوبا من هذا الصد ؛ وخلفوا في قلوبهم الكره والبغض ، فهذا كله شيء ؛ وواجب الأمة المسلمة شيء آخر . شيء يناسب دورها العظيم (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب) إنها قمة في ضبط النفس ؛ وفي سماحة القلب . . ولكنها هي القمة التي لا بد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربها أن تقوم على البشرية لتهديها وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضيء . ثم جاء الإسلام . . جاء المنهج الرباني للتربية . . جاء ليقول للذين آمنوا (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى , ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب) جاء ليربط القلوب بالله ؛ وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله . جاء ليخرج العرب - ويخرج البشرية كلها – من حمية الجاهلية ، ونعرة العصبية ، وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء .. ثم يأخذ السياق في تفصيل ما استثناه في الآية الأولى من السورة من حل بهيمة الأنعام (حرمت عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة , والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع – إلا ما ذكيتم – وما ذبح على النصب , وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر في مخمصة – غير متجانف لإثم – فإن الله غفور رحيم) الميتة والدم ولحم الخنزير ، فقد قرر العلم الإلهي أن هذه المطاعم ليست طيبة ؛ وهذا وحده يكفي . فالله لا يحرم إلا الخبائث . وإلا ما يؤذي الحياة البشرية في جانب من جوانبها . سواء علم الناس بهذا الأذى أو جهلوه . . وهل علم الناس كل ما يؤذي وكل ما يفيد ؟! وأما ما أهل لغير الله به ، فهو محرم لمناقضته ابتداء للإيمان . فالإيمان يوحد الله , ويفرده – سبحانه – بالألوهية وأن يهل باسمه – وحده – في كل عمل وكل حركة ؛ وكذلك ما لا يذكر اسم الله عليه ولا اسم أحد] حرام ; لأنه ينقض الإيمان من أساسه ؛ ولا يصدر ابتداء عن إيمان . . فهو خبيث من هذه الناحية ; يلحق بالخبائث الحسية من الميتة والدم ولحم الخنزير . وأما المنخنقة [وهي التي تموت خنقا] والموقوذة [وهي التي تضرب بعصا أو خشبة أو حجر فتموت] والمتردية [وهي التي تتردى من سطح أو جبل أو تتردى في بئر فتموت] والنطيحة] وهي التي تنطحها بهيمة فتموت] وما أكل السبع [وهي الفريسة لأي من الوحش . . [فهي كلها أنواع من الميتة إذا لم تدرك بالذبح وفيها الروح:[إلا ما ذكيتم [فحكمها هو حكم الميتة . . إنما فصل هنا لنفي الشبهة في أن يكون لها حكم مستقل . . على أن هناك تفصيلا في الأقوال الفقهية واختلافا في حكم "التذكية" ، ومتى تعتبر البهيمة مذكاة ؛ فبعض الأقوال يخرج من المذكاة ، البهيمة التي يكون ما حل بها من شأنه أن يقتلها سريعا – أو يقتلها حتما – فهذه حتى لو أدركت بالذبح لا تكون مذكاة . بينما بعض الأقوال يعتبرها مذكاة متى أدركت وفيها الروح ، أيا كان نوع الإصابة . . والتفصيل يطلب في كتب الفقة المختصة . . واما ما ذبح على النصب – وهي أصنام كانت في الكعبة وكان المشركون يذبحون عندها وينضحونها بدماء الذبيحة في الجاهلية ، ومثلها غيرها في أي مكان – فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام – حتى لو ذكر اسم الله عليه ، لما فيه من معنى الشرك بالله (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى

النُّصُبُ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ويبقى الاستقسام بالأزلام . والأزلام هي قداح كانوا يستشيرونها في الإقدام على العمل أو تركه . وهي ثلاثة في قول ، وسبعة في قول . وكانت كذلك تستخدم في الميسر المعروف عند العرب ؛ فتقسم بواسطتها الجزور – أي الناقة التي يتقامرون عليها – إذ يكون لكل من المتقامرين قدح ، ثم تدار ، فإذا خرج قدح أحدهم كان له من الجزور بقدر ما خصص لهذا القدح ، فحرم الله الاستقسام بالأزلام – لأنه نوع من الميسر المحرم – وحرم اللحوم التي تقسم عن هذا الطريق (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم)

فالمضطر من الجوع – وهو المخمصة – الذي يخشى على حياته التلف ، له أن يأكل من هذه المحرمات ؛ ما دام أنه لا يتعمد الإثم ، ولا يقصد مقارفة الحرام . وتختلف آراء الفقهاء في حد هذا الأكل:هل هو مجرد ما يحفظ الحياة . أو هو ما يحقق الكفاية والشبع . أو هو ما يدخر كذلك لأكلات أخرى إذا خيف انقطاع الطعام . . فلا ندخل نحن في هذه التفصيلات . . وحسبنا أن ندرك ما في هذا الدين من يسر ، وهو يعطي للضرورات أحكامها بلا عنت ولا حرج . مع تعليق الأمر كله بالنية المستكنة ؛ والتقوى الموكولة إلى الله فمن أقدم مضطرا ، لا نية له في مقارفة الحرام ولا قصد ، فلا إثم عليه إذن ولا عقاب (فإن الله غفور رحيم) وننتهي من بيان المحرم من المطاعم لنقف وقفة خاصة أمام ما تخلل آية التحريم من قوله تعالى (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا) وهي آخر ما نزل من القرآن الكريم ، ليعلن كمال الرسالة ، وتمام النعمة ، فيحس عمر - رضي الله عنه – ببصيرته النافذة وبقلبه الواصل – أن أيام الرسول ﷺ على الأرض معدودة . فقد أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ؛ ولم يعد إلا لقاء الله . فيبكي – رضوان الله عليه – وقد أحس قلبه دنو يوم الفراق . هذه الكلمات الهائلة ترد ضمن آية موضوعها التحريم والتحليل لبعض الذبائح ؛ وفي سياق السورة التي تضم تلك الأغراض التي أسلفنا بيانها . . ما دلالة هذا ؟ إن بعض دلالته أن شريعة الله كل لا يتجزأ . كل متكامل . سواء فيه ما يختص بالتصور والاعتقاد ; وما يختص بالشعائر والعبادات ؛ وما يختص بالحلال والحرام ؛ وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية . وأن هذا في مجموعة هو "الدين" الذي يقول الله عنه في هذه الآية:إنه أكمله . وهو "النعمة" التي يقول الله للذين آمنوا:إنه أتمها عليهم . وأنه لا فرق في هذا الدين بين ما يختص بالتصور والاعتقاد ؛ وما يختص بالشعائر والعبادات ؛ وما يختص بالحلال والحرام ؛ وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية . . فكلها في مجموعها تكون المنهج الرباني الذي ارتضاه الله للذين آمنوا ؛ والخروج عن هذا المنهج في جزئية منه ، كالخروج عليه كله ، خروج على هذا "الدين" وخروج من هذا الدين بالتبعية . (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) يئسوا أن يبطلوه ، أو ينقصوه ، أو يحرفوه . وقد كتب الله له الكمال ؛ وسجل له البقاء ، ولقد يغلبون على المسلمين في موقعة ، أو في فترة ، ولكنهم لا يغلبون على هذا الدين . فهو وحده الدين الذي بقي محفوظا لا يناله الدثور ، ولا يناله التحريف أيضا ، على كثرة ما أراد أعداؤه أن يحرفوه ؛ وعلى شدة ما كادوا له ، وعلى عمق جهالة أهله به في بعض العصور غير أن الله لا يخلي الأرض من عصبة مؤمنة ; تعرف هذا الدين ؛ وتناضل عنه ، ويبقى فيها كاملا مفهوما محفوظا ؛ حتى تسلمه الى من يليها . وصدق وعد الله في يأس الذين كفروا من هذا الدين ! (فلا تخشوهم واخشون) فما كان للذين كفروا أن ينالوا من هذا الدين في ذاته أبدا . وما كان لهم أن ينالوا من أهله إلا أن ينحرف أهله عنه ؛ فلا يكونوا هم الترجمة الحية له ؛ ولا ينهضوا بتكاليفه ومقتضياته ؛ ولا يحققوا في حياتهم نصوصه وأهدافه . . (اليوم أكملت لكم دينكم . وأتممت عليكم نعمتي . ورضيت لكم الإسلام دينا) اليوم . . الذي نزلت فيه هذه الآية في حجة الوداع . . أكمل الله هذا الدين . فما عادت فيه زيادة لمستزيد . وأتم نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل . ورضي لهم "الإسلام" دينا ؛ فمن لا يرتضيه منهجا لحياته – إذن – فإنما يرفض ما ارتضاه الله للمؤمنين . فأعلن لهم إكمال العقيدة ، وإكمال الشريعة معا . . فهذا هو الدين . . ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين – بمعناه هذا – نقصا يستدعي الإكمال . ولا قصورا يستدعي الإضافة . ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير . . وإلا فما هو بمؤمن ; وما هو بمقر بصدق الله ؛ وما هو بمرتض ما ارتضاه الله للمؤمنين ! إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن ، هي شريعة كل زمان ، لأنها – بشهادة الله - شريعة الدين الذي جاء "للإنسان" في كل زمان وفي كل مكان ؛ لا لجماعة من بني الإنسان , في جيل من الأجيال ، في مكان من الأمكنة ، كما كانت تجيء الرسل والرسالات الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي . والمبادىء الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان ؛ دون أن تخرج عليه ، إلا أن تخرج من إطار الإيمان ! والله الذي خلق "الإنسان" ويعلم من خلق ؛ هو الذي رضي له هذا

الدين ؛ المحتوى على هذه الشريعة . فلا يقول:إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم ، إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الإنسان ؛ وبأطوار الإنسان ! ويقف المؤمن ثانيا:أمام إتمام نعمة الله على المؤمنين ، بإكمال هذا الدين ؛ وهى النعمة التامة الضخمة الهائلة . النعمة التى تمثل مولد "الإنسان" فى الحقيقة ، كما تمثل نشأته واكتماله . "فالإنسان" لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له . وقبل أن يعرف الوجود الذى يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين . وقبل أن يعرف نفسه ودوره فى هذا الوجود وكرامته على ربه ، كما يعرف ذلك كله من دينه الذى رضيه له ربه . و"الإنسان" لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة الله وحده ؛ وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع الله وبسلطانه لا من صنع أحد ولا بسلطانه .

إن معرفة "الإنسان" بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين هى بدء مولد" الإنسان" . . إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوى ؛ يمكن أن يكون "حيوانا أو أن يكون" مشروع إنسان" فى طريقه إلى التكوين ! ولكنه لا يكون "الإنسان" فى أكمل صورة للإنسان , إلا بمعرفة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن . . والمسافة بعيدة بعيدة بين هذه الصورة ، وسائر الصور التى اصطنعها البشر فى كل زمان ! وإن تحقيق هذه الصورة فى الحياة الإنسانية ، لهو الذى يحقق "للإنسان" "إنسانيته" كاملة . . يحققها له وهو يخرجه بالتصور الاعتقادى ، فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، من دائرة الحس الحيوانى الذى لا يدرك إلا المحسوسات ، إلى دائرة" التصور" الإنسانى ، الذى يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات . ولا يدرك حقيقة نعمة الله فى هذا الدين ، ولا يقدرها قدرها ، من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذق ويلاتها – والجاهلية فى كل زمان وفى كل مكان هى منهج الحياة الذى لم يشرعه الله – فهذا الذى عرف الجاهلية وذاق ويلاتها . . ويلاتها فى التصور والاعتقاد , وويلاتها فى واقع الحياة . . هو الذى يحس ويشعر ، ويرى ويعلم ، ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة الله فى هذا الدين . . الذى يعرف ويعانى ويلات الضلال والعمى ، وويلات الحيرة والتمزق ، وويلات الضياع والخواء , فى معتقدات الجاهلية وتصوراتها فى كل زمان وفى كل مكان . . هو الذى يعرف ويتذوق نعمة الإيمان ؛ والذى يعرف ويعانى ويلات الطغيان والهوى ، وويلات التخبط والاضطراب ، وويلات التفريط والإفراط فى كل أنظمة الحياة الجاهلية ، هو الذى يعرف ويتذوق نعمة الحياة فى ظل الإيمان بمنهج الإسلام ولقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة ، يعرفون ويدركون ويتذوقون هذه الكلمات . لأن مدلولاتها كانت متمثلة فى حياتهم ، فى ذات الجيل الذى خوطب بهذا القرآن ، كانوا قد ذاقوا الجاهلية . . ذاقوا تصوراتها الاعتقادية . وذاقوا أوضاعها الاجتماعية . وذاقوا أخلاقها الفردية والجماعية . وبلوا من هذا كله ما يدركون معه حقيقة نعمة الله عليهم بهذا الدين ؛ وحقيقة فضل الله عليهم ومنته بالإسلام . كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية فى التصورات الاعتقادية حول ربوبية الأصنام , والملائكة ، والجن ، والكواكب ، والأسلاف ؛ وسائر هذه الأساطير الساذجة والخرافات السخيفة ؛ لينقلهم إلى أفق التوحيد . إلى أفق الإيمان بإله واحد ، قادر قاهر , رحيم ودود ، سميع بصير ، عليم خبير . عادل كامل . قريب مجيب . لا واسطة بينه وبين أحد ؛ والكل له عباد ، والكل له عبيد . . ومن ثم حررهم من سلطان الكهانة ، ومن سلطان الرياسة ، يوم حررهم من سلطان الوهم والخرافة . . وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية فى الأوضاع الاجتماعية . من الفوارق الطبقية ; ومن العادات الزرية ؛ ومن الاستبداد الذى كان يزاوله كل من تهيأ له قدر من السلطان [لا كما هو سائد خطأ من أن الحياة العربية كانت تمثل الديمقراطية !] . فقد كانت القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجاه فى عرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها فى الجنوب إلى أقصاها فى الشمال . وما كان الشاعر النجاشى إلا قادحا مبالغا فى القدح حين استضعف مهجوه ، لأن قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل" وما كان حجر بن الحارث إلا ملكا عربيا حين سام بنى أسد أن يستعبدهم بالعصا ، وتوسل إليه شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول: أنت المملك فيهم وهم العبيد إلى القيامه ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامه

"وكان عمر بن هند ملكا عربيا حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار ؛ وحين استكثر على سادة القبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته فى داره" . وكان النعمان بن المنذر ملكا عربيا حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوما للرضى يغدق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء ؛ ويوما للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء" .

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية فى التقاليد والعادات والأخلاق والصلات الاجتماعية . . كان قد التقطهم من سفح البنت الموءودة ، والمرأة المنكودة ، والخمر والقمار والعلاقات الجنسية الفوضوية ،

والتبرج والاختلاط مع احتقار المرأة ومهانتها , والثارات والغارات والنهب والسلب ، مع تفرق الكلمة وضعف الحيلة أمام أى هجوم خارجي جدى ، كالذى حدث فى عام الفيل من هجوم الأحباش على الكعبة ، وتخاذل وخذلان القبائل كلها ، هذه القبائل التى كان بأسها بينها شديدا ! وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة ؛ تطل من القمة السامقة على البشرية كلها فى السفح , فى كل جانب من جوانب الحياة . فى جيل واحد . عرف السفح وعرف القمة . عرف الجاهلية وعرف الإسلام . ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معنى قول الله لهم (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا)

ويقف المؤمن ثالثا:أمام ارتضاء الله الإسلام دينا للذين آمنوا . . يقف أمام رعاية الله – سبحانه – وعنايته بهذه الأمة ، حتى ليختار لها دينها ويرتضيه . . وهو تعبير يشى بحب الله لهذه الأمة ورضاه عنها ، حتى ليختار لها منهج حياتها . (يسألونك:ماذا أحل لهم ؟ قل:أحل لكم الطيبات ، وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه . واتقوا الله , إن الله سريع الحساب . اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم , وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم - إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان – ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين) إن هذا السؤال من الذين آمنوا عما أحل لهم ؛ يصور حالة نفسية لتلك الجماعة المختارة , التى سعدت بخطاب الله تعالى لها أول مرة ؛ ويشى بما خالج تلك النفوس من التحرج والتوقى من كل ما كان فى الجاهلية ؛ خشية أن يكون الإسلام قد حرمه ؛ وبالحاجة إلى السؤال عن كل شىء للتثبت من أن المنهج الجديد يرتضيه ويقره . والناظر فى تاريخ هذه الفترة يلمس ذلك التغيير العميق الذى أحدثه الإسلام فى النفس العربية . . لقد هزا عنيفا نفض عنها كل رواسب الجاهلية لذلك راحوا يسألون الرسول ﷺ بعد ما سمعوا آيات التحريم (ماذا أحل لهم ؟) ليكونوا على يقين من حلة قبل أن يقربوه وجاءهم الجواب (قل:أحل لكم الطيبات . . .) وهو جواب يستحق التأمل إنه يلقى فى حسهم هذه الحقيقة إنهم لم يحرموا طيبا ، ولم يمنعوا عن طيب ، وإن كل الطيبات لهم حلال ، فلم يحرم عليهم إلا الخبائث ، والواقع أن كل ما حرمه الله هو ما تستقذره الفطرة السليمة من الناحية الحسية . كالميتة والدم ولحم الخنزير . أو ينفر منه القلب المؤمن كالذى أهل لغير الله به أو ما ذبح على النصب ، أو كان الاستقسام فيه بالأزلام . وهو نوع من الميسر . ويضيف إلى الطيبات – وهى عامة – نوعا منها يدل على طيبته ، وهو ما تمسكه الجوارح المعلمه المدربة على الصيد كالصقر والبازى ، ومثلها كلاب الصيد ، أو الفهود والأسود . مما علمه أصحابه كيف ويصطاد (وما علمتم من الجوارح مكلبين ، تعلمونهن مما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم , واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ، إن الله سريع الحساب) وشرط الحل فيما تمسكه هذه الجوارح المكبلة المعلمة المدربة ، أن تمسك على صاحبها:أى أن تحتفظ بما تمسكه من الصيد ؛ فلا تأكل منه عند صيده ؛ إلا إذا غاب عنها صاحبها , فجاعت . فإنها إن أكلت من الفريسة عند إمساكها لها ، لا تكون معلمة ؛ وتكون قد اصطادت لنفسها لا لصاحبها فلا يحل له صيدها . ولو تبقى منها معظم الصيد لم تأكله ; ولو جاءت به حيا ولكنها كانت أكلت منه ؛ فلا يذكى ؛ ولو ذبح ما كان حلالا . ثم يردهم فى نهاية الآية إلى تقوى الله ؛ ويخوفهم حسابه السريع ، فيربط أمر الحل والحرمة كله بهذا الشعور الذى هو المحور لكل نية وكل عمل فى حياة المؤمن ؛ والذى يحول الحياة كلها صلة بالله ، وشعورا بجلاله ، ومراقبة له فى السر والعلانية (واتقوا الله إن الله سريع الحساب) ويستطرد فى بيان ما أحل لهم من الطعام ويلحق به ما أحل لهم من النكاح (اليوم أحل لكم الطيبات . وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم . وطعامكم حل لهم . والمحصنات من المؤمنات . والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) وهكذا يبدأ ألوان المتاع الحلال مرة أخرى بقوله (اليوم أحل لكم الطيبات) فيؤكد المعنى الذى أشرنا إليه ؛ ويربط بينه وبين الألوان الجديدة من المتاع . فهى من الطيبات ،، وهنا نطلع على صفحة من صفحات السماحة الإسلامية ؛ فى التعامل مع غير المسلمين ، ممن يعيشون فى المجتمع الإسلامى "فى دار الإسلام" ، أو تربطهم به روابط الذمة والعهد , من أهل الكتاب ، إن الإسلام لا يكتفى بأن يترك لهم حريتهم الدينية ؛ ثم يعتزلهم ، فيصبحوا فى المجتمع الإسلامى مجفوين معزولين – أو منبوذين – إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية , والمودة ، والمجاملة والخلطة . فيجعل طعامهم حلا للمسلمين وطعام المسلمين حلا لهم كذلك . ليتم التزاور والتضايف والمؤاكلة والمشاربة ، وليظل المجتمع كله فى ظل المودة والسماحة . . وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم – وهن المحصنات بمعنى العفيفات الحرائر – طيبات للمسلمين ، ويقرن ذكرهن بذكر الحرائر العفيفات من المسلمات . وهى سماحة لم يشعر بها إلا أتباع الإسلام من بين سائر أتباع الديانات والنحل . فإن الكاثوليكى المسيحى ليتحرج من نكاح الأرثوذكسية ، أو البروتستانتية , أو المارونية المسيحية . ولا يقدم

على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة ! وهكذا يبدو أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذى يسمح بقيام مجتمع عالمى ، لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية ؛ ولا حواجز بين أصحاب العقائد المختلف التى تظلها راية المجتمع الإسلامى . فيما يختص بالعشرة والسلوك [أما الولاء والنصرة فلها حكم آخر سيجىء فى سياق السورة] وشرط حل المحصنات الكتابيات ، هو شرط حل المحصنات المؤمنات (إذا آتيتموهن أجورهن محصنين ، غير مسافحين ، ولا متخذى أخدان) ذلك أن تؤدى المهور ، بقصد النكاح الشرعى ، الذى يحصن به الرجل امرأته ويصونها ، لا أن يكون هذا المال طريقا إلى السفاح أو المخادنة . ويعقب على هذه الأحكام تعقيبا فيه تشديد ، وفيه تهديد (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين) إن هذه التشريعات كلها منوطة بالإيمان ؛ وتنفيذها كما هى هو الإيمان ؛ أو هو دليل الإيمان . فالذى يعدل عنها إنما يكفر بالإيمان ويستره ويغطيه ويجحده . والذى يكفر بالإيمان يبطل عمله ويصبح ردا عليه لا يقبل منه ، ولا يقر عليه .. وفى الآخرة تكون الخسارة فوق حبوط العمل وبطلانه فى الدنيا . .

(يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق , وامسحوا برؤوسكم ، وأرجلكم إلى الكعبين . وإن كنتم جنبا فاطهروا . وإن كنتم مرضى ، أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء , فتيمموا صعيدا طيبا ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه . ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) إن الحديث عن الصلاة والطهارة إلى جانب الحديث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء . وإن ذكر حكم الطهارة إلى جانب أحكام الصيد والإحرام والتعامل مع الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام . . إن هذا لا يجىء اتفاقا ومصادفة لمجرد السرد ، ولا يجىء كذلك بعيدا عن جو السياق وأهدافه . . إنما هو يجىء فى موضعه من السياق ، ولحكمته فى نظم القرآن . .

إنها - أولا - لفتة إلى لون آخر من الطيبات . . طيبات الروح الخالصة . . إلى جانب طيبات الطعام والنساء . . لون يجد فيه قلب المؤمن ما لا يجده فى سائر المتاع أنه متاع اللقاء مع الله ، فى جو من الطهر والخشوع والنقاء . . فلما فرغ من الحديث عن متاع الطعام والزواج ارتقى إلى متاع الطهارة والصلاة ؛ استكمالا لألوان المتاع الطيبة فى حياة الإنسان . . والتى بها يتكامل وجود "الإنسان" .

ثم اللفتة الثانية . . إن إحكام الطهارة والصلاة ؛ كأحكام الطعام والنكاح ؛ كأحكام الصيد فى الحل والحرمة ؛ كأحكام التعامل مع الناس فى السلم والحرب . . . كبقية الأحكام التالية فى السورة . . . كلها عبادة لله . وكلها دين الله . فلا انفصام فى هذا الدين بين ما اصطلح أخيرا - فى الفقة - على تسميته "بأحكام العبادات" , وما اصطلح على تسميته "بأحكام المعاملات" . .

هذه التفرقة - التى اصطنعها "الفقة " حسب مقتضيات "التصنيف" و "التبويب" - لا وجود لها فى أصل المنهج الربانى ، ولا فى أصل الشريعة الإسلامية . . إن هذا المنهج يتألف من هذه وتلك على السواء . وحكم هذه كحكم تلك فى أنها تؤلف دين الله وشريعته ومنهجه ; وليست هذه بأولى من تلك فى الطاعة والاتباع . لا ، بل إن أحد الشطرين لا يقوم بغير الآخر . والدين لا يستقيم إلا بتحققهما فى حياة الجماعة المسلمة على السواء . كلها" عقود" من التى أمر الله المؤمنين فى شأنها بالوفاء . وكلها "عبادات" يؤديها المسلم بنية القربى إلى الله . وكلها "إسلام" وإقرار من المسلم بعبوديته لله . ليس هنالك "عبادات" وحدها و"معاملات" وحدها . . إلا فى "التصنيف الفقهى" . . وكلتا العبادات والمعاملات بمعناها هذا الاصطلاحى . . كلها "عبادات" و"فرائض" و"عقود" مع الله . والإخلال بشىء منها إخلال بعقد الإيمان مع الله !

وهذه هى اللفتة التى يشير إليها النسق القرآنى ؛ وهو يوالى عرض هذه الأحكام المتنوعة فى السياق . (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة . . .) إن الصلاة لقاء مع الله ، ووقوف بين يديه - سبحانه - ودعاء مرفوع إليه ، ونجوى وإسرار . فلا بد لهذا الموقف من استعداد . لا بد من تطهر جسدى يصاحبه تهيؤ روحى . ومن هنا كان الوضوء - فيما نحسب والعلم لله - وهذه هى فرائضه المنصوص عليها فى هذه الآية غسل الوجه . غسل الأيدى إلى المرافق . ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين . . وحول هذه الفرائض خلافات فقهية يسيره . . أهمها هل هذه الفرائض على الترتيب الذى ذكرت به ؟ أم هى تجزىء على غير ترتيب ؟ قولان هذا فى الحدث الأصغر . . أما الجنابة - سواء بالمباشرة أو الاحتلام - فتوجب الاغتسال ،

ولما فرغ من بيان فرائض الوضوء ، والغسل ، أخذ فى بيان حكم التيمم . وذلك فى الحالات الآتية:حالة عدم وجود الماء للمحدث على الإطلاق ، وحالة المريض المحدث حدثا أصغر يقتضى الوضوء ، أو حدثا أكبر يقتضى الغسل والماء يؤذيه . . وحالة المسافر المحدث حدثا أصغر أو أكبر ، وقد عبر عن الحدث الأصغر بقوله (أو جاء أحد منكم من الغائط) والغائط مكان منخفض كانوا يقضون حاجتهم فيه ، والمجىء من الغائط كناية عن قضاء الحاجة تبولا أو تبرزا ، وعبر عن الحدث الأكبر بقوله (أو لامستم النساء) لأن هذا التعبير الرقيق يكفى فى الكناية عن المباشرة ، ففى هذه الحالات لا يقرب المحدث – حدثا أصغر أو أكبر – الصلاة ، حتى يتيمم . وهناك خلافات فقهية حول المقصود بقوله تعالى (أو لامستم النساء) أهو مجرد الملامسة ؟ أم هى المباشرة ؟ وهل كل ملامسة بشهوة ولذة أم بغير شهوة ولذة ؟ خلاف ، كذلك هل المرض بإطلاقه يجيز التيمم ؟ أم المرض الذى يؤذيه الماء ؟ خلاف . . ثم . . هل برودة الماء من غير مرض ؛ وخوف المرض والأذى يجيز التيمم . . الأرجح نعم . . وفى ختام الآية يجىء هذا التعقيب (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج . ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم ، لعلكم تشكرون) لا يريد أن يعنت الناس ، ويحملهم على الحرج والمشقة بالتكاليف . إنما يريد أن يطهرهم , وأن ينعم عليهم بهذه الطهارة ؛ وأن يقودهم إلى الشكر على النعمة ، ليضاعفها لهم ويزيدهم منها . . ويعقب على أحكام الطهارة ، وعلى ما سبقها من الأحكام بتذكير الذين آمنوا بنعمة الله عليهم بالإيمان ، وبميثاق الله معهم على السمع والطاعة ، وهو الميثاق الذى دخلوا به فى الإسلام – كما تقدم – كما يذكرهم تقوى الله ، وعلمه بما تنطوى عليه الصدور(واذكروا نعمة الله عليكم ، وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم:سمعنا وأطعنا ، واتقوا الله ، إن الله عليم بذات الصدور) ومن ثم يكلهم الله فى هذا إلى التقوى . إلى إحساس القلب بالله ، ومراقبته فى خطراته الخافية (واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور) والتعبير (بذات الصدور) تعبير مصور معبر موح ، نمر به كثيرا فى القرآن الكريم . فيحسن أن ننبه إلى مافيه من دقة وجمال وإيحاء . وذات الصدور:أى صاحبة الصدور ، الملازمة لها ، الملاصقة بها . وهى كناية عن المشاعر الخافية ، والخواطر الكامنة ، والأسرار الدفينة . التى لها صفة الملازمة للصدور والمصاحبة . وهى على خفائها وكتمانها مكشوفة لعلم الله ، المطلع على ذات الصدور ، ومن الميثاق الذى واثق الله به الأمة المسلمة ، القوامة على البشرية بالعدل المطلق الذى لا يميل ميزانه مع المودة والشنآن ؛ ولا يتأثر بالقرابة أو المصلحة أو الهوى فى حال من الأحوال . العدل المنبثق من القيام لله وحده بمنجاة من سائر المؤثرات ، والشعور برقابة الله وعلمه بخفايا الصدور ، ومن ثم فهذا النداء(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون) لقد نهى الله الذين آمنوا من قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام ، على الاعتداء . وكانت هذه قمة فى ضبط النفس والسماحة يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوى الربانى القويم . فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل . . وهى قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق . فهى مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده ؛ تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض ! إن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلبى ينتهى عند الكف عن الاعتداء . فأما التكليف الثانى فأشق لأنه إجراء إيجابى يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنوئين ! والمنهج التربوى الحكيم يقدر ما فى هذا المرتقى من صعوبة . فيقدم له بما يعين عليه (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله . . .) ويعقب عليه بما يعين عليه أيضا (واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون) إن النفس البشرية لا ترتقى هذا المرتقى قط ، إلا حين تتعامل فى هذا الأمر مباشرة مع الله . حين تقوم لله ، متجردة عن كل ما عداه . وحين تستشعر تقواه ، وتحس أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور . ولا بد من جزاء للمؤمنين من الله ، الذى يتعاملون معه وحده ؛ يشجع ويقوى على النهوض بتكاليف القوامة ؛وعلى الوفاء بالميثاق . ولا بد أن يختلف مصير الذين كفروا وكذبوا عن مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لهم مغفرة وأجر عظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) إنه الجزاء الذى يعوض الخيرين عما يفوتهم من عرض الحياة الدنيا – وهم ينهضون بالتكاليف العليا – والذى تصغر معه تكاليف القوامة على أهواء البشرية وعنادها ولجاجها فى هذه الأرض . . ثم هو العدل الإلهى الذى لا يسوى بين جزاء الخيرين وجزاء الأشرار ! ولا بد من تعليق قلوب المؤمنين وأنظارهم بهذا العدل وبذلك الجزاء . لتتعامل مع الله متجردة من كل النوازع المعوقة من ملابسات الحياة . . وبعض القلوب يكفيها أن تشعر برضاء الله ؛ وتتذوق حلاوة هذا الرضى ؛ كما تتذوق حلاوة الوفاء بالميثاق ، ويمضى السياق يقوى فى الجماعة المسلمة روح العدل والقسط والسماحة ؛ ويكفكف فيها شعور العدوان والميل والانتقام . . فيذكر المسلمين نعمة الله عليهم فى كف المشركين عنهم , حين هموا فى عام الحديبية – أو فى غيره – أن يبسطوا إليهم أيديهم بالعدوان (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم . إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم , فكف أيديهم عنكم . واتقوا الله . وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وتختلف

الروايات فى من تعنيهم هذه الآية . ولكن الأرجح أنها إشارة إلى حادثة المجمعة التى همت يوم الحديبية أن تغدر برسول الله ﷺ وبالمسلمين ، فتأخذهم على غرة . فأوقعهم الله أسارى فى أيدى المسلمين ، وأيا ما كان الحادث ، فإن عبرته فى هذا المقام هى المنشودة فى المنهج التربوى الفريد , وهى إماته الغيظ والشنآن لهؤلاء القوم فى صدور المسلمين . كى يفيئوا إلى الهدوء والطمأنينة وهم يرون أن الله هو راعيهم وكالئهم . وفى ظل الهدوء والطمأنينة يصبح ضبط النفس ، وسماحة القلب ، وإقامة العدل ميسورة . ويستحى المسلمون أن لا يفوا بميثاقهم مع الله ؛ وهو يرعاهم ويكلؤهم ، ويكف الأيدى المبسوطة إليهم .

فى نهاية الدرس الماضى ، ذكر الله المسلمين بميثاقهم الذى واثقهم به ، وذكرهم نعمته التى أنعم بها عليهم فى هذا الميثاق . ذلك كى يؤدوا من جانبهم ما استحفظوا عليه ، لقد كان ميثاق الله مع بنى إسرائيل ميثاقا بين طرفين ؛ متضمنا شرطا وجزاء . والنص القرآنى يثبت نص الميثاق وشرطه وجزاءه ، بعد ذكر عقد الميثاق وملابسات عقده . . لقد كان عقدا مع نقباء بنى إسرائيل الاثنى عشر ، الذين يمثلون فروع بيت يعقوب – وهو إسرائيل – وهم ذرية الأسباط – أحفاد يعقوب – وعدتهم إثنا عشر سبطا (وقال الله: إنى معكم . لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلى ، وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا . . لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم ، فقد ضل سواء السبيل) (إنى معكم). . وهو وعد عظيم . فمن كان الله معه ، فلا شىء إذن ضده . ومهما يكن ضده من شىء فهو هباء لا وجود – فى الحقيقة – له ولا أثر شرطه:إقامة الصلاة . . لا مجرد أداء الصلاة . . إقامتها على أصولها التى تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب ؛ وعنصرا تهذيبيا وتربويا وفق المنهج الربانى القويم ; وناهيا عن الفحشاء والمنكر حياء من الوقوف بين يدى الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر !

وإيتاء الزكاة . . اعترافا بنعمة الله فى الرزق ؛ وملكيته ابتداء للمال ؛ وطاعة له فى التصرف فى هذا المال وفق شرطه – وهو المالك والناس فى المال وكلاء – وتحقيقا للتكافل الاجتماعى الذى على أساسه تقوم حياة المجتمع المؤمن ؛ وإقامة لأسس الحياة الاقتصادية على المنهج الذى يكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، وألا يكون تكدس المال فى أيد قليلة سببا فى الكساد العام بعجز الكثرة عن الشراء والاستهلاك مما ينتهى إلى وقف دولاب الإنتاج أو تبطئته ، والإيمان برسل الله . . كلهم دون تفرقة بينهم . فكلهم جاء من عند الله ؛ وكلهم جاء بدين الله . وعدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعا ، وكفر بالله الذى بعث بهم جميعا . . وليس هو مجرد الإيمان السلبى ، إنما هو العمل الإيجابى فى نصرة هؤلاء الرسل ، وشد أزرهم فيما ندبهم الله له ، وفيما وقفوا حياتهم كلها لأدائه . ذلك كان الشرط . فأما الجزاء فكان تكفير السيئات ... والإنسان الذى لا ينى يخطىء ، ولا ينى يندفع إلى السيئة مهما جاء بالحسنة . . تكفير السيئات بالنسبة إليه جزاء ضخم ورحمة من الله واسعة ، وتدارك لضعفة وعجزه وتقصيره . . وجنة تجرى من تحتها الأنهار . . وهى فضل خالص من الله ، لا يبلغه الإنسان بعمله , إنما يبلغه بفضل من الله ، حين يبذل الجهد ، فيما يملك وفيما يطيق وكان هنالك شرطا جزائى فى الميثاق (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل). . فلا هدى له بعد ذلك ، ولا أوبة له من الضلال . بعد إذ تبين له الهدى ، وتحدد معه العقد ، ذلك كان ميثاق الله مع نقباء بنى إسرائيل . . عمن وراءهم . وقد ارتضوه جميعا ؛ فصار ميثاقا مع كل فرد فيهم ، وميثاقا مع الأمة المؤلفة منهم . . فماذا كان من بنى إسرائيل ! لقد نقضوا ميثاقهم مع الله . . قتلوا أنبياءهم بغير حق ، وبيتوا القتل والصلب لعيسى عليه السلام – وهو آخر أنبيائهم – وحرفوا كتابهم – التوراة – ونسوا شرائعها فلم ينفذوها ، ووقفوا من خاتم الأنبياء – عليه الصلاة والسلام – موقفا لئيما ماكرا عنيدا , وخانوا مواثيقهم معه . فباءوا بالطرد من هدى الله ،

(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{١٣} وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ{١٤} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{١٥} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{١٦} لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إَنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{١٧} وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّن خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ{١٨} يَا أَهْلَ

الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {١٩} وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ {٢٠} يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ {٢١} قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ {٢٢} قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {٢٣} قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ {٢٤} قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ {٢٥} قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ {٢٦}

لعنة تبدو على سيماهم ، إذ تنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهداية . وقسوة تبدو في ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة , وفى تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية ، ومهما حاولوا – مكرا – إبداء اللين فى القول عند الخوف وعند المصلحة ، والنعومة فى الملمس عند الكيد والوقيعة ، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشى بجفاف القلوب والأفئدة . . وطابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه . تحريف كتابهم أولا عن صورته التى أنزلها الله على موسى – عليه السلام – إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية ويبررها بنصوص من الكتاب مزورة على الله ! وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث ! ونسيان وإهمال لأوامر دينهم وشريعتهم ، وعدم تنفيذها فى حياتهم ومجتمعهم , لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على منهج الله الطاهر النظيف القويم . (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظَّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ و فيه خطاب للرسول ﷺ يصور حالَ يهود فى المجتمع المسلم في المدينة . فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله ﷺ وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة . بل كانت هذه هى حالهم طوال إقامتهم معه فى المدينة – ثم فى الجزيرة كلها – وما تزال هذه حالهم فى المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ . على الرغم من أن المجتمع الإسلامى هو المجتمع الوحيد الذى آواهم ، ورفع عنهم الاضطهاد ، وعاملهم بالحسنى ، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه . ولكنهم كانوا دائما – كما كانوا على عهد الرسول ﷺ – عقارب وحيات وثعالب وذئابا تضمر المكر والخيانة ، ولا تنى تمكر وتغدر . إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك وأقاموا لهم المصائد ، وتآمروا مع كل عدو لهم ، حتى تحين الفرصة ، فينقضوا عليهم ، قساة جفاة لا يرحمونهم ، ولا يرعون فيهم إلا ولا ذمة . أكثرهم كذلك ، والتعبير القرآنى الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ﷺ فى المدينة ، تعبير طريف (ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم) الفعلة الخائنة ، والنية الخائنة ، والكلمة الخائنة ، والنظرة الخائنة . . يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة . .(خائنة) . . لتبقى الخيانة وحدها مجردة ، تملأ الجو ، وتلقى ظلالها وحدها على القوم . . فهذا هو جوهر جبلتهم ، وهذا هو جوهر موقفهم , مع الرسول ﷺ ومع الجماعة المسلمة ، ولقد كان توجيه الله لنبيه فى ذلك الحين الذى نزلت فيه هذه الآية: (فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين) والعفو عن قبائحهم إحسان , والصفح عن خيانتهم إحسان . . ولكن جاء الوقت الذى لم يعد فيه للعفو والصفح مكان . فأمر الله نبيه ﷺ أن يجليهم عن المدينة . ثم أن يأمر بإجلائهم عن الجزيرة كلها . وقد كان . . كذلك يقص الله – سبحانه – على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة ، أنه أخذ ميثاق الذين قالوا:إنا نصارى ، من أهل الكتاب . ولكنهم نقضوا ميثاقهم كذلك . فنالهم جزاء هذا النقض للميثاق (ومن الذين قالوا:إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ؛ فنسوا حظا مما ذكروا به ؛ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلي يوم القيامة . وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) ونجد هنا تعبيرا خاصا ذا دلالة خاصة (ومن الذين قالوا:إنا نصارى) ودلالة هذا التعبير أنهم قالوها دعوى ، ولم يحققوها في حياتهم واقعا . . ولقد كان أساس هذا الميثاق هو توحيد الله . وهنا كانت نقطة الانحراف الأصيلة فى خط النصرانية التاريخى . وهذا هو الحظ الذى نسوه مما ذكروا به ؛ ونسيانه هو الذى قاد بعد ذلك إلي كل انحراف . كما أن نسيانه هو الذى نشأ من عنده الخلاف بين الطوائف والمذاهب والفرق , التى لا تكاد تعد . فى القديم وفى الحديث ، وبينها ما بينها من العداوة والبغضاء ما يخبرنا الله سبحانه أنه باق فيهم إلى يوم القيامة . . جزاء وفاقا على نقض ميثاقهم معه ، ونسيانهم حظا مما ذكروا به ، ويبقى جزاء الآخرة عندما ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ؛ وعندما يجزيهم وفق ما ينبئهم به مما كانوا يصنعون ! ولقد وقع بين الذين قالوا إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء فى التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه الله – سبحانه – فى كتابه الصادق الكريم ؛ وسال من دمائهم على أيدى بعضهم البعض ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم فى التاريخ كله . سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية

حول العقيدة ؛ أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية ; أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وفى خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات . . وهى ماضية إلى يوم القيامة كما قال أصدق القائلين ، جزاء على نقضهم ميثاقهم ، ونسيانهم حظا مما ذكروا به من عهد الله ، وأول بند فيه هو بند التوحيد ، الذى انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح عليه السلام . لأسباب لا مجال هنا لعرضها بالتفصيل ، وحين يبلغ السياق هذا الموضع من استعراض موقف اليهود والنصارى من ميثاقهم مع الله . . وجهوا الخطاب لأهل الكتاب جميعا . . هؤلاء وهؤلاء . . لإعلانهم برسالة خاتم النبيين ؛ وإنها جاءت إليهم – ككثير مما أخفوه أو حرفوه ؛ مما لم يرد به شرعه . فقد نسخ الله من أحكام الكتب والشرائع السابقة ما لم يعد له عمل فى المجتمع الإنسانى ، مما كانت له وظيفة وقتية فى المجتمعات الصغيرة الخاصة ، التى بعث إليها الرسل من قبل ولفترة محدودة – فى علم الله – من الزمان ، قبل أن تجىء الرسالة الشاملة الدائمة ، وتستقر (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب . . القرآن . . وعلى طبيعة هذا المنهج . . الإسلام . . من أنه(نو ر). . إنها حقيقة يجدها المؤمن فى قلبه وفى كيانه وفى حياته وفى رؤيته وتقديره للأشياء والأحداث والأشخاص . . يجدها بمجرد أن يحد حقيقة الإيمان فى قلبه . .(نور)نور تشرق به كينونته فتشف وترف . ويشرق به كل شىء أمامه فيتضح ويتكشف ويستقيم (نور . وكتاب مبين) . . وصفان للشىء الواحد لهذا الذى جاء به الرسول الكريم ﷺ لقد رضى الله الإسلام دينا . . وهو يهدى من يتبع رضوانه هذا ويرتضيه لنفسه كما رضيه الله له . . يهديه . . (سبل السلام). . وما أدق هذا التعبير وأصدقه ؛ إنه "السلام" هو ما يسكبه هذا الدين فى الحياة كلها . . سلام الفرد . وسلام الجماعة . وسلام العالم . . سلام الضمير ، وسلام العقل ، وسلام الجوارح . . سلام البيت والأسرة ، وسلام المجتمع والأمة ، وسلام البشر والإنسانية . . السلام مع الحياة . والسلام مع الكون . والسلام مع الله رب الكون والحياة . . السلام الذى لا تجده البشرية – ولم تجده يوما – إلا فى هذا الدين ؛ وإلا فى منهجه ونظامه وشريعته ، ومجتمعه الذى يقوم على عقيدته وشريعته . حقا إن الله يهدى بهذا الدين الذى رضيه ، من يتبع رضوان الله ، (سبل السلام). . سبل السلام كلها فى هذه الجوانب جميعها . . ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق سبل الحرب فى الجاهليات القديمة أو الحديثة . . ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق حرب القلق الناشىء من عقائد الجاهلية فى أعماق الضمير . وحرب القلق الناشىء من شرائع الجاهلية وأنظمتها وتخبطها فى أوضاع الحياة . وقد كان المخاطبون بهذه الكلمات أول مرة يعرفون من تجربتهم فى الجاهلية معنى هذا السلام . إذ كانوا يذوقونه مذاقا شخصيا ؛ ويلتذون هذا المذاق المريح (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ) والجاهلية كلها ظلمات . . ظلمة الشبهات والخرافات والأساطير والتصورات . وظلمة الشهوات والنزعات والاندفاعات فى التيه . وظلمة الحيرة والقلق والانقطاع عن الهدى والوحشة من الجناب الآمن المأنوس . وظلمة اضطراب القيم وتخلخل الأحكام والقيم والموازين . والنور هو النور . . هو ذلك النور الذى تحدثنا عنه آنفا فى الضمير وفى العقل وفى الكيان وفى الحياة وفى الأمور (ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه) إن الله الذى خلق الإنسان وفطرته ؛ وخلق الكون ونواميسه ؛ هو الذى وضع للإنسان هذا المنهج ؛ وهو الذى رضى للمؤمنين هذا الدين . فطبيعى وبديهى أن يهديهم هذا المنهج إلى الصراط المستقيم ، حيث لا يهديهم منهج غيره من صنع البشر العاجزين الجهال الفانين ! مستقيم مع فطرة النفس ونواميسها التى تحكمها . مستقيم مع فطرة الكون ونواميسه التى تصرفه . مستقيم إلى الله لا يلتوى ولا تلتبس فيه الحقائق والاتجاهات والغايات (يهديهم إلى صراط مستقيم) ذلك هو الصراط المستقيم . فأما القول بأن الله هو المسيح بن مريم فهو الكفر ؛ وأما القول بأن اليهود والنصارى هم أبناء الله وأحباؤه ، فهو الافتراء الذى لا يستند إلى دليل . . وهذا وذلك من مقولات أهل الكتاب ، التى تخفى نصاعة التوحيد ؛ والتى جاءهم الرسول الأخير ليكشف عن الحقيقة فيها ، ويرد الشاردين المنحرفين عن هذه الحقيقة إليها (لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم . قل: فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ؟ ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير) إن الذى جاء به عيسى – عليه السلام – من عند ربه هو التوحيد الذى جاء به كل رسول . والإقرار بالعبودية الخالصة لله شأن كل رسول . . ولكن هذه العقيدة الناصعة أدخلت عليها التحريفات ؛ بسبب دخول الوثنيين فى النصرانية ؛ وحرصهم على رواسب الوثنية التى جاءوا بها ومزجها بعقيدة التوحيد ، حتى لم يعد هناك إمكان لفصلها وفرزها وتنقية جوهر العقيدة منها . ولم تجىء هذه الانحرافات كلها دفعة واحدة ؛ ولكنها دخلت على فترات ؛ وأضافتها المجامع واحدة بعد

الأخرى ؛ حتى انتهت إلى هذا الخليط العجيب من التصورات والأساطير , الذى تحار فيه العقول . حتى عقول الشارحين للعقيدة المحرفة من أهلها المؤمنين بها !

وقد عاشت عقيدة التوحيد بعد المسيح – عليه السلام – فى تلامذته وفى أتباعهم . وأحد الأناجيل الكثيرة التى كتبت – وهو إنجيل برنابا – يتحدث عن عيسى – عليه السلام - بوصفه رسولا من عند الله . ثم وقعت بينهم الاختلافات . فمن قائل:إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل . ومن قائل:إنه رسول نعم ولكن له بالله صلة خاصة . ومن قائل:إنه ابن الله لأنه خلق من غير أب ، ولكنه على هذا مخلوق لله . ومن قائل:إنه ابن الله وليس مخلوقا بل له صفة القدم كالأب . . ثم سار خلاف جديد حول "روح القدس" فقال بعضهم:هو إله ، وقال آخرون:ليس بإله ! فاجتمع" مجمع القسطنطينية الأول" سنة ٣٨١ ليحسم الخلاف فى هذا الأمر . ولتصفية هذه الخلافات اجتمع فى عام ٣٢٥ ميلادية "مجمع نيقية " الذى اجتمع فيه ثمانية وأربعون ألفا من البطارقة والأساقفة . "وكانوا مختلفين فى الآراء والأديان . فمنهم من كان يقول:إن المسيح وأمه إلهان من دون الله . وهم "البربرانية " . . ويسمون:"الريمتيين" . ومنهم من كان يقول:إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها . وهى مقالة "سابليوس" وشيعته . ومنهم من كان يقول:لم تحبل به مريم تسعة أشهر ، وإنما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب ، لأن الكلمة دخلت فى أذنها , وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها . وهى مقالة "إليان" وأشياعه . ومنهم من كان يقول:إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره ، وإن ابتداء الابن من مريم , وإنه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الإنسى ، صحبته النعمة الإلهية ، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى "ابن الله" ويقولون:إن الله جوهر قديم واحد ، وأقنوم واحد , ويسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ، ولا بروح القدس . وهى مقالة" بولس الشمشاطى" بطريرك أنطاكية وأشياعه وهم "البوليقانيون" . ومنهم من كان يقول:إنهم ثلاثة آلهة لم تزل:صالح ، وطالح ، وعدل بينهما . وهى مقالة "مرقيون" اللعين وأصحابه ! وزعموا أن "مرقيون" هو رئيس الحواريين وأنكروا "بطرس" . ومنهم من كانوا يقولون بألوهية المسيح . وهى مقالة "بولس الرسول" ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا . . وقد اختار الإمبراطور الرومانى "قسطنطين" الذى كان قد دخل فى النصرانية من الوثنية ولم يكن يدرى شيئا من النصرانية ! هذا الرأى الأخير وسلط أصحابه على مخالفيهم , وشرد أصحاب سائر المذاهب ؛ وبخاصة القائلين بألوهية الأب وحده ، وناسوتية المسيح . وكذلك تقررت ألوهية روح القدس فى هذا المجمع ، كما تقررت ألوهية المسيح فى مجمع نيقية . وتم "الثالوث" من الآب . والابن . وروح القدس . . ثم ثار خلاف آخر حول اجتماع طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية . . أو اللاهوت والناسوت كما يقولون . . فقد رأى "نسطور" بطريرك القسطنطينية أن هناك أقنوما وطبيعة . فأقنوم الألوهية من الآب وتنسب إليه ؛ وطبيعة الإنسان وقد ولدت من مريم , فمريم أم الإنسان – فى المسيح – وليست أم الإله ! ويقول فى المسيح الذى ظهر بين الناس وخاطبهم – كما نقله عنه ابن البطريق: إن هذا الإنسان الذى يقول:إنه المسيح . . بالمحبة متحد مع الابن . . ويقال:إنه الله وابن الله ، ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة " . . ثم يقول:"إن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلها فى حد ذاته بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة ، أو هو ملهم من الله ، فلم يرتكب خطيئة ، وما أتى أمرا إذًا وخالفه فى هذا الرأى أسقف رومه ، وبطريرك الإسكندرية ، وأساقفة أنطاكية ، فاتفقوا على عقد مجمع رابع . وانعقد "مجمع أفسس" سنة ٤٣١ ميلادية . وقرر هذا المجمع - كما يقول ابن البطريق -: أن مريم العذراء والدة الله . وأن المسيح إله حق وإنسان ، معروف بطبيعتين ، متوحد فى الأقنوم" . . ولعنوا نسطور ! ثم خرجت كنيسة الإسكندرية برأى جديد ، انعقد له "مجمع افسس الثانى" وقرر: أن المسيح طبيعة واحدة ، اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت" . ولكن هذا الرأى لم يسلم ؛ واستمرت الخلافات الحادة ؛ فاجتمع مجمع "خلقيدونية " سنة ٤٥١ وقرر أن المسيح له طبيعتان لا طبيعة واحدة . وأن اللاهوت طبيعة وحدها ، والناسوت طبيعه وحدها ، التقتا فى المسيح" . . ولعنوا مجمع أفسس الثانى ! ولم يعترف المصريون بقرار هذا المجمع . ووقعت بين المذهب المصرى "المنوفيسية " والمذهب" الملوكانى" وتجىء الرسالة الأخيرة لتقرر وجه الحق فى هذا القضية ؛ ولتقول كلمة الفصل ؛ ويجىء الرسول الأخير ليبين لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصحيحة (لقد كفر الذين قالوا:إن الله هو المسيح ابن مريم . . (لقد كفر الذين قالوا:إن الله ثالث ثلاثة) ويثير فيهم منطق العقل والفطرة والواقع (فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ، وأمه ، ومن فى الأرض جميعا ؟) فيفرق تفرقة مطلقة بين ذات الله سبحانه وطبيعته ومشيئته وسلطانه ، وبين ذات عيسى - عليه السلام – وذات أمه ، وكل ذات أخرى ، فى نصاعة قاطعة حاسمة . فذات الله – سبحانه - واحدة . ومشيئته طليقة ، وسلطانه متفرد ، ولا يملك أحد شيئا فى رد مشيئته أو دفع سلطانه إن أراد أن يهلك المسيح أبن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا .وهو - سبحانه – مالك كل

شيء ، وخالق كل شيء ، والخالق غير المخلوق . وكل شيء مخلوق (ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شيء قدير) واليهود والنصارى يقولون:إنهم أبناء الله وأحباؤه (وقالت اليهود والنصارى:نحن أبناء الله وأحباؤه)

فزعموا لله – سبحانه – أبوة ، على تصور من التصورات ، إلا تكن أبوة الجسد فهي أبوة الروح . وهي أيا كانت تلقى ظلا على عقيدة التوحيد ؛ وعلى الفصل الحاسم بين الألوهية والعبودية . هذا الفصل الذى لا يستقيم التصور ، ولا تستقيم الحياة ، إلا بتقريره . كي تتوحد الجهة التي يتوجه إليها العباد كلهم بالعبودية ؛ وتتوحد الجهة التي تشرع للناس ؛ وتضع لهم القيم والموازين والشرائع ؛ والقوانين ، والنظم والأوضاع , دون أن تتداخل الاختصاصات ، بتداخل الصفات والخصائص ، وتداخل الألوهية والعبودية . . فالمسألة ليست مسألة انحراف عقيدي فحسب ، إنما هي كذلك فساد الحياة كلها بناء على هذا الانحراف ! واليهود والنصارى بادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، كانوا يقولون – تبعا لهذا - إن الله لن يعذبهم بذنوبهم ! وإنهم لن يدخلوا النار – إذا دخلوا – إلا أياما معدودات . ومعنى هذا أن عدل الله لا يجرى مجراه ! وأنه سبحانه -يحابى فريقا من عباده ، فيدعهم يفسدون فى الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين ! فأى فساد في الحياة يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور ؟ وأي اضطراب في الحياة يمكن أن ينشئه مثل هذا الانحراف ؟ (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)وهنا يضرب الإسلام ضربته الحاسمة على هذا الفساد في التصور ، وكل ما يمكن أن ينشئه من الفساد في الحياة ، ويقرر عدل الله الذى لا يحابي ؛ كما يقرر بطلان ذلك الادعاء :(قل:فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء). بذلك يقرر الحقيقة الحاسمة فى عقيدة الإيمان . يقرر بطلان ادعاء البنوة ؛ فهم بشر ممن خلق . ثم يكرر أن الله هو المالك لكل شيء ، وأن مصير كل شيء إليه (ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير). والمالك غير المملوك . تتفرد ذاته – سبحانه – وتتفرد مشيئته ، ويصير إليه الجميع . .وينهى هذا البيان ، بتكرار النداء الموجه إلى أهل الكتاب ، يقطع به حجتهم ومعذرتهم ويقفهم أمام المصير وجها لوجه . بلا غبش ولا عذر ، ولا غموض (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل . . أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير . . فقد جاءكم بشير ونذير . والله على كل شيء قدير) وبهذه المواجهة الحاسمة ، لا تعود لأهل الكتاب جميعا حجة من الحجج . . لا تعود لهم حجة فى أن هذا الرسول الأمي لم يرسل إليهم . فالله – سبحانه – يقول (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا) ولا تعود لهم حجة فى أنهم لم ينبهوا ولم يبشروا ولم ينذروا فى مدى طويل ؛ يقع فيه النسيان ويقع فيه الانحراف . . فقد جاءهم – الآن – بشير ونذير ثم يذكرهم أن الله لا يعجزه شيء . لا يعجزه أن يرسل رسولا من الأميين . ولا يعجزه كذلك أن يأخذ أهل الكتاب بما يكسبون (والله على كل شيء قدير) وفى نهاية الدرس يصل السياق إلى الموقف الأخير لبنى إسرائيل مع رسولهم ومنقذهم – موسى عليه السلام (إنها حلقة من قصة بنى إسرائيل التى فصلها القرآن أوسع تفصيل . . ذلك لحكمة متشعبة الجوانب . .

من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب فى المدينة وفى الجزيرة العربية كلها . فقد كانوا حربا على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول . هم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين فى المدينة ؛ وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معا . وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة . وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد فى الصف المسلم ؛ كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة

ومن جوانب هذه الحكمة أن بنى إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير . وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ طويلة ؛ ووقعت الانحرافات فى عقيدتهم ; ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم ؛ ووقع فى حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف , كما وقع فى أخلاقهم وتقاليدهم . . فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة – وهى وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها – بتاريخ القوم ، وتقلبات هذا التاريخ ؛ وتعرف مزالق الطريق ، وعواقبها ممثلة فى حياة بنى إسرائيل وأخلاقهم.

ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بنى إسرائيل ذات صحائف شتى فى المدى الطويل . وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها ؛ وتنحرف أجيال منها ؛ وأن الأمة المسلمة التى سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة ، ستصادفها فترات تمثل فيها فترات من حياة بنى إسرائيل ؛ فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددى الدعوة فى أجيالها الكثيرة , نماذج من العقابيل التى تلم بالأمم ؛ يعرفون منها كيف يعالجون الدابعد معرفة طبيعته . وجوانب شتى لحكمة الله فى تفصيل قصة بنى إسرائيل ، وعرضها مفصلة

على الأمة المسلمة وارثة العقيدة والدين ؛ القوامة على البشر أجمعين . . جوانب شتى لا نملك هنا المضى معها أكثر من هذه الإشارات السريعة . . لنعود إلى هذه الحلقة ، فى هذا الدرس , فى هذه السورة (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) وإننا لنلمح فى كلمات موسى – عليه السلام – إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب . فلقد جربهم من قبل فى "مواطن كثيرة " فى خط سير الرحلة الطويل . . لقد جربهم فى مواطن كثيرة طوال الطريق الطويل . . ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة . أرض الميعاد التى من أجلها خرجوا . الأرض التى وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكا ، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا فى رعاية الله وقيادته . . لقد جربهم فحق له أن يشفق ، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة ، فيحشد فيها ألمع الذكريات وأكبر البشريات ، وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات (يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) نعمة الله . ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكا . وإيتاءه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحدا من العالمين حتى ذلك التاريخ . والأرض المقدسة التى هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله . فهى إذن يقين . . وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده . وهذا وعده الذى هم عليه قادمون . . والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين ، ولكن إسرائيل . ، هى إسرائيل !!! الجبن . والتمحل . والنكوص على الأعقاب . ونقض الميثاق) قالوا:يا موسى إن فيها قوما جبارين ؛ وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون). إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها ، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل . ذلك أنهم أمام الخطر ؛ فلا بقية إذن من تجمل ؛ ولا محاولة إذن للتشجع ، ولا مجال كذلك للتمحل . إن الخطر ماثل قريب ؛ ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض ، وأن الله قد كتبها لهم – فهم يريدونه نصرا رخيصا ، لا ثمن له ، ولا جهد فيه . نصرا مريحا يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى ! (إن فيها قوما جبارين . . وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . . فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود ! وهى فارغة القلوب من الإيمان ! (قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما:ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) هنا تبرز قيمة الإيمان بالله ، والخوف منه . . فهذان رجلان من الذين يخافون الله , ينشىء لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين ! ويرزقهما شجاعة فى وجه الخطر الموهوم ! وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان فى ساعة الشدة ؛ وقيمة الخوف من الله فى مواطن الخوف من الناس . فالله سبحانه لا يجمع فى قلب واحد بين مخافتين:مخافته – جل جلاله – ومخافة الناس . . والذى يخاف الله لا يخاف أحدا بعده ؛ ولا يخاف شيئا سواه (ادخلوا عليهم الباب . فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) قاعدة فى علم القلوب وفى علم الحروب . . أقدموا واقتحموا . فمتى دخلتم على القوم فى عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم ؛ وشعروا بالهزيمة فى أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) فعلى الله – وحده – يتوكل المؤمن . وهذه هى خاصية الإيمان وعلامته ؛ وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه . . ولكن لمن يقولان هذا الكلام ؟ لبنى إسرائيل ؟! (قالوا:يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا هاهنا قاعدون) هكذا فى وقاحة العاجز ، الذى لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان ! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان ! (فاذهب أنت وربك) ! فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال ! (انا هاهنا قاعدون)لا نريد ملكا ، ولا نريد عزا ، ولا نريد أرض الميعاد . . ودونها لقاء الجبارين ! نعم ها هى ذى نهاية المطاف . . نكوصا عن الأرض المقدسة ، وهو معهم على أبوابها . ونكولا عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق فماذا يصنع ؟ وبمن يستجير ؟ (قال:رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى . فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) دعوة فيها الألم . وفيها الالتجاء . وفيها الاستسلام و المفاصلة والحسم والتصميم ! وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه . . ولكن موسى فى ضعف الإنسان المخذول . وفى إيمان النبى الكليم . وفى عزم المؤمن المستقيم ، لا يجد متوجها إلا الله . يشكو له بثه ونجواه ، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين . فما يربطه بهم شىء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق . . ما يربطه بهم نسب . وما يربطه بهم تاريخ . وما يربطه بهم جهد سابق . إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله ، وهذا الميثاق مع الله ، واستجاب الله لنبيه . وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين (قال:فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض . فلا تأس على القوم الفاسقين) وهكذا أسلمهم الله – وهم على أبواب الأرض المقدسة – للتيه ؛ وحرم عليهم الأرض التى كتبها لهم . . والأرجح أنه حرمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة ؛ وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل . جيل يعتبر بالدرس ، وينشأ فى خشونة الصحراء وحريتها صلب العود . . جيل غير هذا الجيل الذى أفسدة الذل والاستعباد والطغيان فى مصر ، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل !

والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب . ويتركهم السياق هنا – فى التيه – لا يزيد على ذلك . . وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفنى ، على طريقة القرآن فى التعبير .

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ{٢٧} لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ{٢٨} إِنِّى أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ{٢٩} فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ{٣٠} فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ{٣١} مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِى الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ{٣٢} إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ{٣٣} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٣٤} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{٣٥} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٣٦} يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ{٣٧} وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{٣٨} فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٣٩} أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ){٤٠}

تتناول هذه الآيات الكريمة أحكام حماية النفس والحياة فى المجتمع المسلم والمال والملكية الفردية فى هذا المجتمع ، الذى يقوم نظامه الاجتماعى كله على شريعة الله . وتستغرق هذه الأحكام المتعلقة بهذه الأمور الجوهرية فى حياة المجتمع هذا الدرس ؛ مع تقدمة لهذه الأحكام بقصة "ابنى آدم" التى تكشف عن طبيعة الجريمة وبواعثها فى النفس البشرية ؛ كما تكشف عن بشاعة الجريمة وفجورها ؛ وضرورة الوقوف فى وجهها والعقاب لفاعلها ؛ ومقاومة البواعث التى تحرك النفس للإقدام عليها

وتبدو القصة وإيحاءاتها ملتحمة التحاما قويا مع الأحكام التالية لها فى السياق القرآنى . ويحس القارىء المتأمل للسياق بوظيفة هذه القصة فى موضعها ؛ وبعمق الإيحاء الإقناعى الذى تسكبه فى النفس وترسبه ؛ والاستعداد الذى تنشئه فى القلب والعقل لتلقى الأحكام المشددة التى يواجه بها الإسلام جرائم الاعتداء على النفس والحياة ؛ والاعتداء على النظام العام ؛ والاعتداء على المال والملكية الفردية ؛

والمجتمع المسلم يقيم حياته كلها على منهج الله وشريعته ؛ وينظم شؤونه وارتباطاته وعلاقاته على أسس ذلك المنهج وعلى أحكام هذه الشريعة . . ومن ثم يكفل لكل فرد – كما يكفل للجماعة – كل عناصر العدالة والكفاية والاستقرار والطمأنينة ، ويكف عنه كل عوامل الاستفزاز والإثارة ، وكل عوامل الكبت والقمع ، وكل عوامل الظلم والاعتداء , وكل عوامل الحاجة والضرورة

وكذلك يصبح الاعتداء في مثل هذا المجتمع الفاضل العادل المتوازن المتكافل – على النفس والحياة ، أو على النظام العام ، أو على الملكية الفردية ؛ جريمة بشعة منكرة ، مجردة عن البواعث المبررة – أو المخففة – بصفة عامة . . وهذا يفسر التشدد ضد الجريمة والمجرمين بعد تهيئة الظروف المساعدة على الاستقامة عند الأسوياء من الناس ؛ وتنحية البواعث على الجريمة من حياة الفرد وحياة الجماعة . . وإلى جانب هذا كله ، ومع هذا كله ؛ يكفل النظام الإسلامي للمجرم المعتدى كل الضمانات لسلامة التحقيق والحكم ؛ ويدرأ عنه الحدود بالشبهات ؛ ويفتح له كذلك باب التوبة التى تسقط الجريمة فى حساب الدنيا فى بعض الحالات ، وتسقطها فى حساب الآخرة فى كل الحالات (واتل عليهم نبأ ابنى ادم بالحق:إذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال:لأقتلنك . قال:إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العالمين:إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله , فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ، ليريه كيف يوارى سوأة أخيه . قال:يا ويلتى ! أعجزت أن أكون مثل

هذا الغراب ، فأوارى سوأة أخى ؟ فأصبح من النادمين) هذه القصة تقدم نموذجا لطبيعة الشر والعدوان ؛ ونموذجا كذلك من العدوان الصارخ الذى لا مبرر له . كما تقدم نموذجا لطبيعة الخير والسماحة ؛ ونموذجا كذلك من الطيبة والوداعة . وتقفهما وجها لوجه ، كل منهما يتصرف وفق طبيعته . . وترسم الجريمة المنكرة التى يرتكبها الشر ، والعدوان الصارخ الذى يثير الضمير ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل ، تكف النموذج الشرير المعتدى عن الاعتداء ، وتخوفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام على الجريمة ؛ فإذا ارتكبها – على الرغم من ذلك – وجد الجزاء العادل ، المكافىء للفعلة المنكرة . كما تصون النموذج الطيب الخير وتحفظ حرمة دمه . فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش . وأن تصان ، وأن تأمن ؛ فى ظل شريعة عادلة رادعة . ولا يحدد السياق القرآنى لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة . . وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن:"قابيل وهابيل" وأنهما هما ابنا آدم فى هذه القصة ؛ وورود تفصيلات عن القضية بينهما ، والنزاع على أختين لهما . . فإننا نؤثر أن نستبقى القصة - كما وردت – مجملة بدون تحديد . لأن هذه الروايات كلها موضع شك فى أنها مأخوذة عن أهل الكتاب – والقصة واردة فى العهد القديم محددة فيها الأسماء والزمان والمكان على النحو الذى تذكره هذه الروايات – والحديث الوحيد الصحيح الوارد عن هذا النبأ لم يرد فيه تفصيل . وهو من رواية ابن مسعود قال:قال رسول الله ﷺ:" لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل ". وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن الحادث وقع فى فترة طفولة الإنسان ، وأنه كان أول حادث قتل عدوانى متعمد ، وأن الفاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث . . وبقاء القصة مجملة – كما وردت فى سياقها القرآنى – يؤدى الغرض من عرضها ؛ ويؤدى الإيحاءات كاملة ؛ ولا تضيف التفصيلات شيئا إلى هذه الأهداف الأساسية . . لذلك نقف نحن عند النص العام لا نخصصه ولا نفصله . (واتل عليهم نبأ ابنى آدم – بالحق – إذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . قال:لأقتلنك . قال:إنما يتقبل الله من المتقين) واتل عليهم نبأ هذين النموذجين من نماذج البشرية – بعدما تلوت من قصة بنى إسرائيل مع موسى – اتله عليهم بالحق . فهو حق وصدق فى روايته ، وهو ينبىء عن حق فى الفطرة البشرية ؛ وهو يحمل الحق فى ضرورة الشريعة العادلة الرادعة . إن ابنى آدم هذين فى موقف لا يثور فيه خاطر الاعتداء فى نفس طيبة . فهما فى موقف طاعة بين يدى الله . موقف تقديم قربان ، يتقربان به إلى الله (إذ قربا قربانا) (فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر) والفعل مبنى للمجهول ؛ ليشير بناؤه هكذا إلى أن أمر القبول أو عدمه موكول إلى قوة غيبية ؛ وإلى كيفية غيبية . . وهذه الصياغة تفيدنا أمرين:الأول ألا نبحث نحن عن كيفية هذا التقبل ولا نخوض فيه كما خاضت كتب التفسير فى روايات نرجح إنها مأخوذة عن أساطير" العهد القديم" . . والثانى الإيحاء بأن الذى قبل قربانه لا جريره له توجب الحفيظة عليه وتبييت قتله ، فالأمر لم يكن له يد فيه ؛ وإنما تولته قوة غيبية بكيفية غيبية ؛ تعلو على إدراك كليهما وعلى مشيئته . . فما كان هناك مبرر ليحنق الأخ على أخيه ، وليجيش خاطر القتل فى نفسه ! فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة فى هذا المجال . . مجال العبادة والتقرب ، ومجال القدرة الغيبية الخفية التى لا دخل لإرادة أخيه فى مجالها (قال:لأقتلنك) وهكذا يبدو هذا القول – بهذا التأكيد المنبىء عن الإصرار – نابيا مثيرا للاستنكار لأنه ينبعث من غير موجب ؛ اللهم إلا ذلك الشعور الخبيث المنكر . شعور الحسد الأعمى ؛ الذى لا يعمر نفسا طيبة و السياق يمضى يزيد هذا الاعتداء نكارة وبشاعة ؛ بتصوير استجابة النموذج الآخر ; ووداعته وطيبة قلبه (قال:إنما يتقبل الله من المتقين) هكذا فى براءة ترد الأمر إلى وضعه وأصله ؛ وفى إيمان يدرك أسباب القبول ؛ وفى توجيه رفيق للمعتدى أن يتقى الله ؛ وهداية له إلى الطريق الذى يؤدى إلى القبول ؛ وتعريض لطيف به لا يصرح بما يخدشه أو يستثيره ، ثم يمضى الأخ المؤمن التقى الوديع المسالم يكسر من شرة الشر الهائج فى نفس أخيه الشرير (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العالمين) ولقد كان فى هذا القول اللين ما يفثأ الحقد ؛ ويهدىء الحسد ، ويسكن الشر ، ويمسح على الأعصاب المهتاجة ؛ ويرد صاحبها إلى حنان الأخوة ، وبشاشة الإيمان ، وحساسية التقوى . ولكن الأخ الصالح يضيف إليه النذير والتحذير (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين) إذا أنت مددت يدك إلى لتقتلنى ، فليس من شأنى ولا من طبعى أن أفعل هذه الفعلة بالنسبة لك . فهذا الخاطر – خاطر القتل – لا يدور بنفسى أصلا ، ولا يتجه اليه فكرى إطلاقا . . خوفا من الله رب العالمين . . لا عجزا عن إتيانه . . وأنا تاركك تحمل إثم قتلى وتضيفه إلى إثمك الذى جعل الله لا يتقبل منك قربانك ؛ فيكون إثمك مضاعفا ، وعذابك مضاعفا (وذلك جزاء الظالمين) وبذلك صور له إشفاقه هو من جريمة القتل ، ليثنيه عما تراوده به نفسه ، وليخجله من هذا الذى تحدثه به نفسه تجاه أخ مسالم وديع تقى . ولكن النموذج الشرير لا تكمل صورته ، حتى نعلم كيف كانت استجابته (فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله ، فأصبح من الخاسرين) بعد التذكير والعظة والمسالمة والتحذير . اندفعت النفس الشريرة ، فوقعت الجريمة . وقعت

وقد ذللت له نفسه كل عقبة ، وطوعت له كل مانع .طوعت له نفسه القتل وقتل من ؟ قتل أخيه . . وحق عليه النذير (فأصبح من الخاسرين) خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك . وخسر أخاه ففقد الناصر والرفيق . وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة . وخسر آخرته فباء بأثمه الأول وإثمه الأخير ، ومثلت له سوأة الجريمة في صورتها الحسية . صورة الجثة التي فارقتها الحياة وباتت لحما يسري فيه العفن ، فهو سوأة لا تطيقها النفوس . وشاءت حكمة الله أن تقفه أمام عجزه – وهو الباطش القاتل الفاتك – عن أن يوارى سوأة أخيه . عجزه عن أن يكون كالغراب في أمة الطير (فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه . قال:يا ويلتى ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ؟ فأصبح من النادمين) وتقول بعض الروايات إن الغراب قتل غرابا آخر ، أو وجد جثة غراب أو جاء ومعه جثة غراب , فجعل يحفر في الأرض ، ثم واراه وأهال عليه التراب . . فقال القاتل قولته . وفعل مثلما رأى الغراب يفعل . وظاهر أن القاتل لم يكن قد رأى من قبل ميتا يدفن – وإلا لفعل – وقد يكون ذلك لأن هذا كان أول ميت في الأرض من أبناء آدم . أو لأن هذا القاتل كان حدثا ولم ير من يدفن ميتا . . والاحتمالان قائمان . وظاهركذلك أن ندمه لم يكن ندم التوبة – وإلا لقبل الله توبته – وإنما كان الندم الناشي ء من عدم جدوى فعلته ، وما أعقبته له من تعب وعناء وقلق . كما أن دفن الغراب لأخيه الغراب ، قد يكون من عادات الغربان كما يقول بعض الناس . وقد يكون حدثا خارقا أجراه الله . . وهذه كتلك سواء . . فالذى يودع الأحياء غرائزهم هو الذى يجرى أى حدث على يد أى حي . . هذا من قدرته ، وهذا من قدرته على السواء . . وهنا يلتقط السياق الآثار العميقة التى تتركها في النفس رواية النبأ بهذا التسلسل , ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذى فرض لتلافي الجريمة في نفس المجرم ; أو للقصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص التي تنتظره (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل:أنه من قتل نفسا – بغير نفس أو فساد في الأرض - فكأنما قتل الناس جميعا ؛ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ؛ ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون). من أجل ذلك . . من أجل وجود هذه النماذج في البشرية . . من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين ، الذين لا يريدون شرا ولا عدوانا . . ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر ؛ وأن المسالمة والموادعة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس . . من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة تعدل جريمة قتل الناس جميعا ؛ وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملا عظيما يعدل إنقاذ الناس جميعا . . وكتبنا ذلك على بنى إسرائيل فيما شرعنا لهم من الشريعة إن قتل نفس واحدة – في غير قصاص لقتل ، وفي غير دفع فساد في الأرض – يعدل قتل الناس جميعا . لأن كل نفس ككل نفس ؛ وحق الحياة واحد ثابت لكل نفس . فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته ؛ الحق الذى تشترك فيه كل النفوس . كذلك دفع القتل عن نفس ، واستحياؤها بهذا الدفع – سواء كان بالدفاع عنها في حالة حياتها أو بالقصاص لها في حالة الاعتداء عليها لمنع وقوع القتل (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً) ولقد كتب الله ذلك المبدأ على بنى إسرائيل ؛ لأنهم كانوا – في ذلك الحين – هم أهل الكتاب ؛ الذين يمثلون "دار الإسلام" ما أقاموا بينهم شريعة التوراة بلا تحريف ولا التواء . . ولكن بني إسرائيل تجاوزوا حدود شريعتهم – بعد ما جاءتهم الرسل بالبينات الواضحة – وكانوا على عهد رسول الله ﷺ وما يزالون يكثر فيهم المسرفون المتجاوزون لحدود شريعتهم . والقرآن يسجل عليهم هذا الإسراف والتجاوز والاعتداء ؛ بغير عذر ؛ ويسجل عليهم كذلك انقطاع حجتهم على الله وسقوطها بمجيء الرسل إليهم ، وببيان شريعتهم لهم (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ؛ ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون)

والآن يقرر عقوبة هذا العنصر الخبيث ، وهو المعروف في الشريعة الإسلامية بحد الحرابة (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فسادا ، أن يقتلوا أو يصلبوا , أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى في الدنيا , ولهم في الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) وحدود هذه الجريمة التي ورد فيها هذا النص ، هي الخروج على الإمام المسلم الذى يحكم بشريعة الله ، والتجمع في شكل عصابة ، خارجة على سلطان هذا الإمام ، تروع أهل دار الإسلام ؛ وتعتدى على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم . ويشترط بعض الفقهاء أن يكون ذلك خارج المصر بعيدا عن مدى سلطان الإمام . ويرى بعضهم أن مجرد تجمع مثل هذه العصابة , وأخذها في الاعتداء على أهل دار الإسلام بالقوة ، يجعل النص منطبقا عليها . سواء خارج المصر أو داخلة . وهذا هو الأقرب للواقع العملى ومجابهته بما يستحقه .

وهؤلاء الخارجون على حاكم يحكم بشريعة الله ؛ المعتدون على أهل دار الإسلام المقيمين للشريعة [سواء كانوا مسلمين أو ذميين أو مستأمنين بعهد] لا يحاربون الحاكم وحده ، ولا يحاربون الناس وحدهم . إنما هم يحاربون الله ورسوله . حينما يحاربون شريعته ، ويعتدون على الأمة القائمة على هذه الشريعة ، ويهددون دار الإسلام المحكومة بهذه الشريعة . كما أنهم بحربهم لله ورسوله ، وحربهم لشريعته وللأمة القائمة عليها وللدار التي تطبقها ، يسعون في الأرض فسادا ، فليس هناك فساد أشنع من محاولة تعطيل شريعة الله ، وترويع الدار التي تقام فيها هذه الشريعة ، كما أن للنص – في صورته هذه – مفهوما آخر متعينا كهذا المفهوم – هو أن السلطان الذي يحق له – بأمر الله – أن يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبات المقررة لهذه الجريمة , هو السلطان الذي يقوم على شريعة الله ورسوله ، في دار الإسلام المحكومة بشريعة الله ورسوله ، وليس أي سلطان آخر لا تتوافر له هذه الصفة ، في أية دار أخرى لا يتوافر لها هذا الوصف ، نقرر هذا بوضوح ، لأن بعض أذناب السلطة في كل زمان ، كانوا يفتون لحكام لا يستمدون سلطانهم من شريعة الله ولا يقومون على تنفيذ هذه الشريعة ، ولا يحققون وجود دار إسلام في بلادهم ، ولو زعموا أنهم مسلمون . .كانوا يفتون لهم بأن يأخذوا الخارجين عليهم بهذه العقوبات – باسم شريعة الله – بينما كان هؤلاء الخارجون لا يحاربون الله ورسوله ؛ بل يحاربون سلطة خارجة على الله ورسوله .إنه ليس لسلطة لا تقوم على شريعة الله في دار الإسلام ، أن تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله ، وما لمثل هذه السلطة وشريعة الله ؟ إنها تغتصب حق الألوهية وتدعيه ; فما لها تتحكك بقانون الله وتدعيه ؟! إنما جزاء أفراد هذه العصابات المسلحة ، التي تخرج على سلطان الإمام المسلم المقيم لشريعة الله ؛ وتروع عباد الله في دار الإسلام ، وتعتدي على أموالهم وأرواحهم وحرماتهم ، أن يقتلوا تقتيلا عاديا . أو أن يصلبوا حتى يموتوا [وبعض الفقهاء يفسر النص بأنه الصلب بعد القتل للترويع والإرهاب] أو أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى . من خلاف ، ويختلف الفقهاء اختلافا واسعا حول هذا النص إن كان للإمام الخيار في هذه العقوبات , أم أن هناك عقوبة معينة لكل جريمة تقع من الخارجين . ويرى الفقهاء في مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد أن العقوبات مرتبة على حسب الجناية التي وقعت . فمن قتل ولم يأخذ مالا قتل ، ومن أخذ المال ولم يقتل قطع ، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب ، ومن أخاف السبيل ولكنه لم يقتل ولم يأخذ مالا نفي: وعند مالك أن المحارب إذا قتل فلا بد من قتله وليس للإمام تخيير في قطعه ولا في نفيه ,وإنما التخيير في قتله أو صلبه ، وأما إن أخذ المال ولم يقتل فلا تخيير في نفيه , وإنما التخيير في قتله أو صلبه أو قطعه من خلاف . وأما إذا أخاف السبيل فقط , فالإمام مخير في قتله أو صلبه أو قطعة أو نفيه . . ومعنى التخيير عندمالك أن الأمر راجع في ذلك إلى اجتهاد الإمام . فإن كان المحارب ممن له الرأي والتدبير فوجه الاجتهاد قتله أو صلبه ، لأن القطع لا يدفع ضرره . وإن كان لا رأي له وإنما هو ذو قوة وبأس قطعة من خلاف . وإن كان ليس له شيء من هاتين الصفتين أخذ بأيسر ذلك وهو النفي والتعزير . ونحن نختار رأي الإمام مالك في الفقرة الأخيرة منه ، وهي أن العقوبة قد توقع على مجرد الخروج وإخافة السبيل . لأن هذا إجراء وقائي المقصود منه أولا منع وقوع الجريمة , والتغليظ على المفسدين في الأرض الذين يروعون دار الإسلام ؛ ويفزعون الجماعة المسلمة القائمة على شريعة الله في هذه الدار . وهي أجدر جماعة وأجدر دار بالأمن والطمأنينة والسلام . كذلك يختلفون في معنى النفي من الأرض . . هل هو النفي من الأرض التي ارتكب فيها جريمته ؟ أم هو النفي من الأرض التي يملك فيها حريته وذلك بحبسه . أم هو النفي من الأرض كلها ولا يكون ذلك إلا بالموت ؟ ونحن نختار النفي من أرض الجريمة ، إلى مكان ناء يحس فيه بالغربة والتشريد والضعف ; جزاء ما شرد الناس وخوفهم وطغى بقوته فيهم . حيث يصبح في منفاه عاجزا عن مزاولة جريمته بضعف عصبيته ، أو بعزله عن عصابته ! (ذلك لهم خزي في الدنيا . . ولهم في الآخرة عذاب عظيم) فالجزاء الذي يلقونه إذن في الدنيا لا يسقط عنهم العذاب في الآخرة ، ولا يطهرهم من دنس الجريمة كبعض الحدود الأخرى . وهذا كذلك تغليظ للعقوبة ، وتبشيع للجريمة . . ذلك أن الجماعة المسلمة في دار الإسلام يجب أن تعيش آمنة . وذلك أن السلطة المسلمة القائمة على شريعة الله يجب أن تكون مطاعة . فهذا هو الوسط الخير الرفيع الذي يجب توفير الضمانات كلها لازدهاره . . وهذا هو النظام العادل الكامل الذي يجب أن يصان من المساس به . . فإذا ارتدع هؤلاء الخارجون المفسدون عن غيهم وفسادهم ، نتيجة استشعارهم نكارة الجريمة , وتوبة منهم إلى الله ورجوعا إلى طريقه المستقيم – وهم ما يزالون في قوتهم , لم تنلهم يد السلطان – سقطت جريمتهم وعقوبتها معا ، ولم يعد للسلطان عليهم من سبيل , وكان الله غفورا لهم رحيما بهم في الحساب الأخير (إلا الذين تابوا – من قبل أن تقدروا عليهم – فاعلموا أن الله غفور رحيم)

والحكمة واضحة في إسقاط الجريمة والعقوبة في هذه الحالة عنهم من ناحيتين:

الأولى:تقدير توبتهم – وهم يملكون العدوان – واعتبارها دليل صلاح واهتداء . .

والثانية:تشجيعهم على التوبة ، وتوفير مؤنة الجهد فى قتالهم من أيسر سبيل .

والمنهج الإسلامى يتعامل مع الطبيعة البشرية بكل مشاعرها ومساربها واحتمالاتها ؛ والله الذى رضى للمسلمين هذا المنهج هو بارى ء هذه الطبيعة ، الخبير بمسالكها ودروبها , العليم بما يصلحها وما يصلح لها . . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ . .

الدرس الثالث ٣٥:ترغيب بالتقوى وبيان عاقبة الكفر والمنهج الربانى لا يأخذ الناس بالقانون وحده . إنما يرفع سيف القانون ويصلته ليرتدع من لا يردعه إلا السيف . فأما اعتماده الأول فعلى تربية القلب ، وتقويم الطبع . وهداية الروح – ذلك إلى جانب إقامة المجتمع ال

ثم ترغيب بالتقوى وبيان عاقبة الكفر ، والمنهج الربانى لا يأخذ الناس بالقانون وحده . إنما يرفع سيف القانون ويصلته ليرتدع من لا يردعه إلا السيف ، فأما اعتماده الأول فعلى تربية القلب ، وتقويم الطبع . وهداية الروح – ذلك إلى جانب إقامة المجتمع الإسلامى ، إن أقصى ما يتصوره الخيال على أساس الافتراض:هو أن يكون للدين كفروا كل ما فى الأرض جميعا . ولكن السياق يفترض لهم ما هو فوق الخيال فى عالم الافتراض . فيفرض أن لهم ما فى الأرض جميعا ، ومثله معه ؛ ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا وذلك ، لينجوا به من عذاب يوم القيامة . ويرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النار . ثم عجزهم عن بلوغ الهدف ،وبقاءهم فى العذاب الأليم المقيم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) إنه مشهد مجسم ذو مناظر وحركات متواليات ، منظرهم ومعهَم ما فى الأرضَ ومثله معه ، ومنظرهم وهم يعرضونه ليفتدوا به . ومنظرهم وهم مخيبو الطلب غير مقبولى الرجاء ، ومنظرهم وهم يدخلون النار ، ومنظرهم وهم يحاولون الخروج منها ، ومنظرهم وهم يرغمون على البقاء . ويسدل الستار ، ويتركهم مقيمين هناك ! وفى نهاية هذا الدرس يرد حكم السرقة (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا – نكالا من الله – والله عزيز حكيم . فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم . ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، والله على كل شىء قدير) إن المجتمع المسلم يوفر لأهل دار الإسلام – على اختلاف عقائدهم – ما يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية . . إنه يوفر لهم ضمانات العيش والكفاية . وضمانات التربية والتقويم . وضمانات العدالة فى التوزيع . وفى الوقت ذاته يجعل كل ملكية فردية فيه تنبت من حلال ؛ ويجعل الملكية الفردية وظيفة اجتماعية تنفع المجتمع ولا تؤذيه ، ومن أجل هذا كله يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية ، فمن حقه إذن أن يشدد فى عقوبة السرقة , والاعتداء على الملكية الفردية ، والاعتداء على أمن الجماعة ، ومع تشديده فهو يدرأ الحد بالشبهة ؛ ويوفر الضمانات كاملة للمتهم حتى لا يؤخذ بغير الدليل الثابت . . إن الإسلام يبدأ بتقرير حق كل فرد ، فى المجتمع المسلم فى دار الإسلام ، فى الحياة . وحقه فى كل الوسائل الضرورية لحفظ الحياة . . من حق كل فرد أن يأكل وأن يشرب وأن يلبس وأن يكون له بيت يؤويه ، ويجد فيه السكن والراحة . . من حق كل فرد على الجماعة – وعلى الدولة النائبة عن الجماعة – أن يحصل على هذه الضروريات . . أولا عن طريق العمل – ما دام قادرا على العمل – وعلى الجماعة – والدولة النائبة عن الجماعة – أن تعلمه كيف يعمل ، وأن تيسر له العمل ، وأداة العمل . . فإذا تعطل لعدم وجود العمل ، أو أداته ، أو لعدم قدرته على العمل ، جزئيا أو كليا ، وقتيا أو دائما . أو إذا كان كسبه من عمله لا يكفى لضرورياته . فله الحق فى استكمال هذه الضروريات من عدة وجوه:أولا:من النفقة التى تفرض له شرعا على القادرين فى أسرته . وثانيا على القادرين من أهل محلته . وثالثا:من بيت مال المسلمين من حقه المفروض له فى الزكاة . فإذا لم تكف الزكاة فرضت الدولة المسلمة المنفذة لشريعة الإسلام كلها فى دار الإسلام ، ما يحقق الكفاية للمحرومين فى مال الواجدين ؛ بحيث لا تتجاوز هذه الحدود ، ولا تتوسع فى غير ضرورة . ولا تجور على الملكية الفردية الناشئة من حلال . .

والإسلام كذلك يتشدد فى تحديد وسائل جمع المال ؛ فلا تقوم الملكية الفردية فيه إلا من حلال . . ومن ثم لا تثير الملكية الفردية فى المجتمع المسلم أحقاد الذين لا يملكون ; ولا تثير أطماعهم فى سلب ما فى

أيدى الآخرين . وبخاصة أن النظام يكفل لهم الكفاية ولا يدعهم محرومين . والإسلام يربى ضمائر الناس وأخلاقهم ؛ فيجعل تفكيرهم يتجه إلى العمل والكسب الحلال ، لا إلى السرقة والكسب عن طريقها . . فإذا لم يوجد العمل ، أو لم يكف لتوفير ضرورياتهم ، أعطاهم حقهم بالوسائل النظيفة الكريمة . .

وإذن فلماذا يسرق السارق فى ظل هذا النظام ؟ إنه لا يسرق لسد حاجة . إنما يسرق للطمع فى الثراء من غير طريق العمل . والثراء لا يطلب من هذا الوجه الذى يروع الجماعة المسلمة فى دار الإسلام . ويحرمها الطمأنينة التى من حقها أن تستمتع بها . ويحرم أصحاب المال الحلال أن يطمئنوا على مالهم الحلال .

وبعد بيان هذه الحقيقة العامة نستطيع أن نأخذ فى الحديث عن حد السرقة ، السرقة هى أخذ مال الغير والمحرز ، خفية . . فلا بد أن يكون المأخوذ مالا مقوما ، والحد المتفق عليه تقريبا بين فقهاء المسلمين للمال الذى يعد أخذه من حرزه خفية سرقة هو ما يعادل ربع دينار ، أى حوالى خمسة وعشرين قرشا بنقدنا الحاضر ،

والقطع يكون لليد اليمنى إلى الرسغ . فإذا عاد كان القطع فى الرجل اليسرى إلى الكعب وهذا هو القدر المتفق عليه فى القطع . . ثم تختلف بعد ذلك آراء الفقهاء عند الثالثة والرابعة . والشبهة تدرأ الحد . . فشبهة الجوع والحاجة تدرأ الحد . وشبهة الشركة فى المال تدرأ الحد . ورجوع المعترف فى اعترافه – إذا لم يكن هناك شهود – شبهة تدرأ الحد . ونكول الشهود شبهة ، وهكذا فالشريعة الإسلامية بتقريرها عقوبة القطع دفعت العوامل النفسية التى تدعو لارتكاب الجريمة بعوامل نفسية مضادة تصرف عن جريمة السرقة . فإذا تغلبت العوامل النفسية الداعية ، وارتكب الإنسان الجريمة مرة كان فى العقوبة والمرارة التى تصيبه منها ما يغلب العوامل النفسية الصارفة ، فلا يعود للجريمة مرة ثانية . ذلك هو الأساس الذى قامت عليه عقوبة السرقة فى الشريعة الإسلامية . وإنه لعمرى خير أساس والله - سبحانه – وهو أرحم الراحمين يقول وهو يشدد عقوبة السرقة (فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله) فهى تنكيل من الله رادع . والردع عن ارتكاب الجريمة رحمة بمن تحدثه نفسه بها ، لأنه يكفه عنها ، ورحمة بالجماعة كلها لأنه يوفر لها الطمأنينة . . ولن يدعى أحد أنه أرحم بالناس من خالق الناس ، إلا وفى قلبه عمى ، وفى روحه أنطماس ! والواقع يشهد أن عقوبة القطع لم تطبق فى خلال نحو قرن من الزمان فى صدر الإسلام إلا فى آحاد ؛ لأن المجتمع بنظامه ، والعقوبة بشدتها ، والضمانات بكفايتها لم تنتج إلا هذه الآحاد . ثم يفتح الله باب التوبة لمن يريد أن يتوب ، على أن يندم ويرجع ويكف ؛ ثم لا يقف عند هذه الحدود السلبية ، بل يعمل عملا صالحا ، ويأخذ فى خير إيجابى (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم) فالظلم عمل إيجابى شرير مفسد ؛ ولا يكفى أن يكف الظالم عن ظلمه ويقعد ، بل لا بد أن يعوضه بعمل إيجابى خير مصلح ، على أن الأمر فى المنهج الربانى أعمق من هذا ، فالنفس الإنسانية لا بد أن تتحرك ، فإذا هى كفت عن الشر والفساد ولم تتحرك للخير والصلاح بقى فيها فراغ وخواء قد يرتدان بها إلى الشر والفساد . فأما حين تتحرك إلى الخير والصلاح فإنها تأمن الارتداد إلى الشر والفساد ، بهذه الإيجابية وبهذا الامتلاء . . إن الذى يربى بهذا المنهج هو الله الذى خلق والذى يعلم من خلق ، وعلى ذكر الجريمة والعقوبة ، وذكر التوبة والمغفرة ، يعقب السياق القرآنى بالمبدأ الكلى الذى تقوم عليه شريعة الجزاء فى الدنيا والآخرة . فخالق هذا الكون ومالكه هو صاحب المشيئة العليا فيه ، وصاحب السلطان الكلى فى مصائره . هو الذى يقرر مصائره ومصائر من فيه ، كما أنه هو الذى يشرع للناس فى حياتهم ، ثم يجزيهم على عملهم فى دنياهم وآخرتهم (ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير) فهى سلطة واحدة سلطة الملك يصدر عنها التشريع فى الدنيا ويصدر عنها الجزاء فى الآخرة ، ولا تعدد ولا انقسام ولا انفصام ، ولا يصلح أمر الناس إلا حين تتوحد سلطة التشريع وسلطة الجزاء ، فى الدنيا والآخرة سواء و (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله)

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ{٤١} سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{٤٢} وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ

يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{٤٣} إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُـدًى وَنُـورٌ يَحْكُـمُ بِهَـا النَّبِيُّـونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَـلاَ تَخْشَـوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّـهُ فَأُوْلَـئِكَ هُـمُ الْكَـافِرُونَ{٤٤} وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّـنَّ بِالسِّـنِّ وَالْجُـرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{٤٥} وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَـيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ{٤٦} وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّـمْ يَحْكُـم بِمَـا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{٤٧} وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِـالْحَقِّ مُصَـدِّقاً لِّمَـا بَـيْنَ يَدَيْـهِ مِـنَ الْكِتَـابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَـقِّ لِكُـلٍّ جَعَلْنَـا مِـنكُمْ شِـرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ إِلَـى اللّهِ مَـرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{٤٨} وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِـعْ أَهْـوَاءهُمْ وَاحْـذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ{٤٩} أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ{٥٠}

تتناول هذا الآيات أخطر قضية من قضايا العقيدة الإسلامية ، والمنهج الإسلامى . ونظام الحكم والحياة فى الإسلام . . وهى القضية التى عولجت فى سورتى آل عمران والنساء من قبل . . ولكنها هنا فى هذه السورة تتخذ شكلا محددانها قضية الحكم والشريعه والتقاضى - ومن ورائها قضية الألوهيه والتوحيد والايمان - والقضيه فى جوهرها تتلخص فى الاجابه على هذا السؤال: أيكون الحكم والشريعه والتقاضى حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التى استحفظ عليها اصحاب الديانات السماويه واحده بعد الأخرى ؛ وكتبها على الرسل ، وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم ؟ أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبه ، والمصالح التى لا ترجع الى أصل ثابت من شرع الله ، والعرف الذى يصطلح عليه جيل أو أجيال ? وبتعبير آخر:أتكون الألوهيه والربوبيه والقوامة لله فى الأرض وفى حياة الناس ? أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله ؟

الله - سبحانه - يقول:إنه هو الله لا آله إلا هو . وإن شرائعه التى سنها للناس بمقتضى ألوهيته لهم وعبوديتهم له ، وعاهدهم عليها وعلى القيام بها ؛ هى التى يجب أن تحكم هذه الأرض ، وهى التى يجب أن يتحاكم إليها الناس ، وهى التى يجب أن يقضى بها الأنبياء ومن بعدهم من الحكام . .

والله - سبحانه - يقول:إنه لا هوادة فى هذا الأمر ، ولا ترخص فى شىء منه ، ولا انحراف عن جانب ولو صغير . وإنه لا عبرة بما تواضع عليه جيل ، أو لما اصطلح عليه قبيل , مما لم يأذن به الله فى قليل ولا كثيرا !

والله - سبحانه - يقول:إن المسألة - فى هذا كله - مسألة إيمان أو كفر ؛ أو إسلام أو جاهلية ؛ وشرع أو هوى . وإنه لا وسط فى هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح ! فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله - لا يخرمون منه حرفا ولا يبدلون منه شيئا - والكافرون الظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله .

وأنه إما أن يكون الحكام قائمين على شريعة الله كاملة فهم فى نطاق الإيمان . وإما أن يكونوا قائمين على شريعة أخرى مما لم يأذن به الله ، فهم الكافرون الظالمون الفاسقون . وأن الناس إما أن يقبلوا من الحكام والقضاة حكم الله وقضاءه فى أمورهم فهم مؤمنون . . وإلا فما هم بالمؤمنين . . ولا وسط بين هذا الطريق وذاك ؛ ولا حجة ولا معذرة ، ولا احتجاج بمصلحة . فالله رب الناس يعلم ما يصلح للناس ؛ ويضع شرائعة لتحقيق مصالح الناس الحقيقية . وليس أحسن من حكمه وشريعته حكم أو شريعة . وليس لأحد من عباده أن يقول:إننى أرفض شريعة الله ، أو إننى أبصر بمصلحة الخلق من الله ، فإن قالها - بلسانه أو بفعله - فقد خرج من نطاق الإيمان . .

هذه هى القضية الخطيرة الكبيرة التى يعالجها هذا الدرس فى نصوص تقريرية صريحة . . ذلك إلى جانب ما يصوره من حال اليهود فى المدينة ، ومناوراتهم ومؤامراتهم مع المنافقين):من الذين قالوا:آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم). وما يوجه به رسول ﷺ لمواجهة هذا الكيد الذى لم تكف عنه يهود ، منذ أن قامت للإسلام دولة فى المدينة . .

والسياق القرآنى فى هذا الدرس يقرر أولا:توافى الديانات التى جاءت من عندالله كلها على تحتيم الحكم بما أنزله الله ؛ وإقامة الحياة كلها على شريعة الله ؛ وجعل هذا الأمر مفرق الطريق بين الإيمان والكفر ؛ وبين الإسلام والجاهلية ؛ وبين الشرع والهوى ، فالتوراة أنزلها الله فيها هدى ونور (يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) (وعندهم التوارة فيها حكم الله) (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس . . الخ) والإنجيل آتاه الله عيسى بن مريم (مصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) والقرآن أنزله الله على رسوله (بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)وقال له (فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . ( ) أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟). وكذلك تتوافى الديانات كلها على هذا الأمر ، ويتعين حد الإيمان وشرط الإسلام ، سواء للمحكومين أو للحكام . . والمناط هو الحكم بما أنزل الله من الحكام ، وقبول هذا الحكم من المحكومين ، وعدم ابتغاء غيره من الشرائع والأحكام . . والمسألة فى هذا الوضع خطيرة ؛ والتشدد فيها على هذا النحو يستند إلى إسباب لا بد خطيرة كذلك . فما هى يا ترى هذه الأسباب ؟ إننا نحاول أن نتلمسها سواء فى هذه النصوص أو فى السياق القرآنى كله ، فنجدها واضحة بارزة . .

إن الاعتبار الأول فى هذه القضية هو أنها قضية الإقرار بألوهية الله وربوبيته وقوامته على البشر – بلا شريك – أو رفض هذا الإقرار . . ومن هنا هى قضية كفر أو إيمان , وجاهلية أو إسلام . .

. . .والقرآن كله معرض بيان هذه الحقيقة . .

إن الله هو الخالق . . خلق هذا الكون ، وخلق هذا الإنسان . وسخر ما فى السماوات والأرض لهذا الإنسان . . وهو – سبحانه – متفرد بالخلق ، لا شريك له فى كثير منه أو قليل .

وإن الله هو المالك . . بما أنه هو الخالق . . ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما . . فهو – سبحانه – متفرد بالملك . لا شريك له فى كثير منه أو قليل .

وإن الله هو الرازق . . فلا يملك أحد أن يرزق نفسه أو غيره شيئا . لا من الكثير ولا من القليل . .

وإن الله هو صاحب السلطان المتصرف فى الكون والناس . . بما أنه هو الخالق المالك الرازق . . وبما أنه هو صاحب القدرة التى لا يكون بدونها خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر . وهو – سبحانه – المتفرد بالسلطان فى هذا الوجود .

والإيمان هو الإقرار لله – سبحانه – بهذه الخصائص . الألوهية ، والملك ، والسلطان . . . متفردا بها لا يشاركه فيها أحد . والإسلام هو الاستسلام والطاعة لمقتضيات هذه الخصائص . . هو إفراد الله – سبحانه – بالألوهية والربوبية والقوامة على الوجود كله – وحياة الناس ضمنا – والاعتراف بسلطانه الممثل فى قدره ؛ والممثل كذلك فى شريعته . فمعنى الاستسلام لشريعة الله هو – قبل كل شيء – الاعتراف بألوهيته وربوبيته وقوامته وسلطانه . ومعنى عدم الاستسلام لهذه الشريعة ، واتخاذ شريعة غيرها فى أية جزئية من جزئيات الحياة ، هو – قبل كل شيء – رفض الاعتراف بألوهية الله وربوبيته وقوامته وسلطانه . . ويستوى أن يكون الاستسلام أو الرفض باللسان أو بالفعل دون القول . . وهى من ثم قضية كفر أو إيمان ؛ وجاهلية أو إسلام . ومن هنا يجيء هذا النص (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون). .(الظالمون). .(الفاسقون).

والاعتبار الثانى هو اعتبار الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس . هذه الأفضلية التى تشير إليها الآية الأخيرة فى هذا الدرس (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟)

والاعتراف المطلق بهذه الأفضلية لشريعة الله ، فى كل طور من أطوار الجماعة ، وفى كل حالة من حالاتها . . هو كذلك داخل فى قضية الكفر والإيمان . . فما يملك إنسان أن يدعى أن شريعة أحد من البشر ،

تفضل أو تماثل شريعة الله ، فى أية حالة أو فى أى طور من أطوار الجماعة الإنسانية . . ثم يدعى – بعد ذلك – أنه مؤمن بالله ، وأنه من المسلمين . . إنه يدعى أنه أعلم من الله بحال الناس ؛ وأحكم من الله فى تدبير أمرهم . أو يدعى أن أحوالا وحاجات جرت فى حياة الناس ، وكان الله – سبحانه – غير عالم بها وهو يشرع شريعته ؛ أو كان عالما بها ولكنه لم يشرع لها ! ولا تستقيم مع هذا الادعاء دعوى الإيمان والإسلام مهما قالها باللسان !.

فأما مظاهر هذه الأفضلية فيصعب إدراكها كلها . فإن حكمة شرائع الله لا تنكشف كلها للناس فى جيل من الأجيال . والبعض الذى ينكشف يصعب التوسع فى عرضه هنا . . فى الظلال . . فنكتفى منه ببعض اللمسات:

إن شريعة الله تمثل منهجا شاملا متكاملا للحياة البشرية ؛ يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية ؛ فى جميع حالاتها ، وفى كل صورها وأشكالها . .

وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنسانى ، والحاجات الإنسانية ، وبحقيقة الكون الذى يعيش فيه الإنسان ؛ وبطبيعة النواميس التى تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية . . ومن ثم لا يفرط فى شىء من أمور هذه الحياة ؛ ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه أى تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنسانى ؛ ولا أى تصادم مدمر بين هذا النشاط والنواميس الكونية ؛ إنما يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق . . الأمر الذى لا يتوافر أبدا لمنهج من صنع الإنسان الذى لا يعلم إلا ظاهرا من الأمر ؛ وإلا الجانب المكشوف فى فترة زمنية معينة ؛ ولا يسلم منهج يبتدعه من آثار الجهل الإنسانى ; ولا يخلو من التصادم المدمر بين بعض ألوان النشاط وبعض . والهزات العنيفة الناشئة عن هذا التصادم .

وهو منهج قائم على العدل المطلق . . أولا . . لأن الله يعلم حق العلم بم يتحقق العدل المطلق وكيف يتحقق . . وثانيا . . لأنه – سبحانه – رب الجميع ؛ فهو الذى يملك أن يعدل بين الجميع ؛ وأن يجىء منهجه وشرعه مبرأ من الهوى والميل والضعف – كما أنه مبرأ من الجهل والقصور والغلو والتفريط – الأمر الذى لا يمكن أن يتوافر فى أى منهج أو فى أى شرع من صنع الإنسان ، ذى الشهوات والميول ، والضعف والهوى – فوق ما به من الجهل والقصور – سواء كان المشرع فردا ، أو طبقة ، أو أمة ، أو جيلا من أجيال البشر . . فلكل حالة من هذه الحالات أهواؤها وشهواتها وميولها ورغباتها ؛ فوق أن لها جهلها وقصورها وعجزها عن الرؤية الكاملة لجوانب الأمر كله حتى فى الحالة الواحدة فى الجيل الواحد . .

وهو منهج متناسق مع ناموس الكون كله . لأن صاحبه هو صاحب هذا الكون كله . صانع الكون وصانع الإنسان . فإذا شرع للإنسان شرع له كعنصر كونى ، له سيطرة على عناصر كونية مسخرة له بأمر خالقه ؛ بشرط السير على هداه ، وبشرط معرفة هذه العناصر والقوانين التى تحكمها . . ومن هنا يقع التناسق بين حركة الإنسان وحركة الكون الذى يعيش فيه ؛ وتأخذ الشريعة التى تنظم حياته طابعا كونيا ، ويتعامل بها لا مع نفسه فحسب , ولا مع بنى جنسه فحسب ! ولكن كذلك مع الأحياء والأشياء فى هذا الكون العريض ,الذى يعيش فيه ، ولا يملك أن ينفذ منه ، ولا بد له من التعامل معه وفق منهاج سليم قويم .

ثم . . إنه المنهج الوحيد الذى يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان . . ففى كل منهج – غير المنهج الإسلامى – يتعبد الناس الناس . ويعبد الناس الناس . وفى المنهج الإسلامى – وحده – يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك . .

إن أخص خصائص الألوهية – كما أسلفنا – هى الحاكمية . . والذى يشرع لمجموعة من الناس يأخذ فيهم مكان الألوهية ويستخدم خصائصها . فهم عبيده لا عبيد الله ، وهم فى دينه لا فى دين الله .

والإسلام حين يجعل الشريعه لله وحده ، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويعلن تحرير الإنسان . بل يعلن "ميلاد الإنسان . . "فالإنسان لا يولد ، ولا يوجد ، إلا حيث تتحرر رقبة من حكم إنسان مثله وإلا حين يتساوى فى هذا الشأن مع الناس جميعاً أمام رب الناس . .

إن هذه القضيه التي تعالجها نصوص هذا الدرس هي أخطر وأكبر قضايا العقيده . . إنها قضية الألوهيه والعبوديه . قضية العدل والصلاح . قضية الحريه والمساوا . قضية تحرر الإنسان – بل ميلاد الإنسان – وهى من أجل هذا كله كانت قضية الكفر أو الإيمان , وقضية الجاهلية أو الإسلام . .

والجاهليه ليست فتره تاريخيه ؛ إنما هي حاله توجد كلما وجدت مقوماتها فى وضع أو نظام . . وهي فى صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر ، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة . ويستوى أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد ، أو أهواء طبقه ، أو أهواء أمه , أو أهواء جيل كامل من الناس . . فكلها . . ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله . . أهواء . .

يشرع فرد لجماعه فإذا هي جاهليه . لأن هواه هو القانون . . أو رأيه هو القانون . . لا فرق إلا فى العبارات ! وتشرع طبقه لسائر الطبقات فإذا هي جاهليه . لأن مصالح تلك الطبقه هى القانون – أو رأى الأغلبيه البرلمانيه هو القانون – فلا فرق إلا فى العبارات !

ويشرع ممثلوا جميع الطبقات وجميع القطاعات فى الأمه لأنفسهم فإذا هي جاهليه . . لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبداً من الأهواء ، ولأن جهل الناس الذين لا يتجردون أبداً من الجهل ، هو القانون – أو لأن رأى الشعب هو القانون – فلا فرق إلا فى العبارات!

وتشرع مجموعه من الأمم للبشريه فإذا هي جاهليه . لأن أهدافها القوميه هى القانون - أو رأى المجامع الدوليه هو القانون – فلا فرق إلا فى العبارات!

ويشرع خالق الأفراد ، وخالق الجماعات ، وخالق الأمم والأجيال ، للجميع ، فإذا هي شريعة الله التى لا محاباه فيها لأحد على حساب أحد . لا لفرد ولا لجماعه ولا لدوله , ولا لجيل من الأجيال . لأن الله رب الجميع والكل لديه سواء . ولأن الله يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع ، فلا يفوته – سبحانه – أن يرعى مصالحهم وحاجاتهم بدون تفريط ولا إفراط . ويشرع غير الله للناس . . فإذا هم عبيد من يشرع لهم . كائناً من كان . فرداً أو طبقه أو أمه أو مجموعه من الأمم . . ويشرع الله للناس . . فإذا هم كلهم أحرار متساوون ، لا يحنون جباههم إلا لله ، ولا يعبدون إلا الله . ومن هنا خطورة هذه القضيه فى حياة بنى الإنسان ، وفى نظام الكون كله: (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن). . فالحكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج فى النهايه عن نطاق الإيمان . . بنص القران . .

وهذه الآيات تشى بأنها مما نزل فى السنوات الأولى للهجرة ؛ حيث كان اليهود ما يزالون بالمدينه – أى قبل غزوة الأحزاب على الأقل وقبل التنكيل ببنى قريظه إن لم يكن قبل ذلك ، أيام أن كان هناك بنو النضير وبنو قينقاع ، وأولاهما أجليت بعد أحد والثانيه أجليت قبلها – ففى هذه الفترة كان اليهود يقومون بمناوراتهم هذه ؛ وكان المنافقون يأرزون إليهم كما تأرز الحيه إلى الجحر! وكان هؤلاء وهؤلاء يسارعون فى الكفر ; ولو قال المنافقون بأفواههم آمنا . . وكان فعلهم هذا يحزن الرسول ﷺ ويؤذيه والله - سبحانه – يعزى رسوله ﷺ ويواسيه ؛ ويهون عليه فعال القوم ، ويكشف للجماعه المسلمه حقيقة المسارعين فى الكفر من هؤلاء وهؤلاء ؛ ويوجه الرسول ﷺ إلى المنهج الذى يسلكه معهم حين يأتون إليه متحاكمين ؛ بعد ما يكشف له عما تآمروا عليه قبل أن يأتوا إليه وما بيتوه (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر , من الذين قالوا:آمنا ، بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا . . سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك . يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون:إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا . . .) روى أن هذه الآيات نزلت فى قوم من اليهود ارتكبوا جرائم – تختلف الروايات فى تحديدها - منها الزنا ومنها السرقه . . وهى من جرائم الحدود فى التوراة ؛ ولكن القوم كانوا قد اصطلحوا على غيرها ؛ لأنهم لم يريدوا أن يطبقوها على الشرفاء فيهم فى مبدأ الأمر . ثم تهاونوا فيها بالقياس إلى الجميع ، وأحلوا محلها عقوبات أخرى من عقوبات التعازير [كما صنع الذين يزعمون أنهم مسلمون فى هذا الزمان!] . . فلما وقعت منهم هذه الجرائم فى عهد الرسول ﷺ تآمروا على أن يستفتوه فيها ، فإذا أفتى لهم بالعقوبات التعزيريه المخففه عملوا بها ، وكانت هذه حجه لهم عند الله ، فقد أفتاهم بها رسول ! ، وإن حكم فيها بمثل ما عندهم فى التوراة لم يأخذوا بحكمه فدسوا بعضهم يستفتيه ، ومن هنا حكاية قولهم (إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا) وهكذا بلغ منهم العبث ، وبلغ منهم الاستهتار ، وبلغ منهم الالتواء أيضاً فى التعامل مع الله والتعامل مع رسول الله ﷺ هذا المبلغ . . وهى صورة تمثل أهل كل كتاب

حين يطول عليهم الأمد ، فتقسو قلوبهم ؛ وتبرد فيها حرارة العقيده ، وتنطفى ء شعلتها ; ويصبح التفصى من هذه العقيده وشرائعها وتكاليفها هو الهدف الذى يبحث له عن الوسائل ; ويبحث له عن "الفتاوى" لعلها تجد مخرجاً وحيله ؛ أليس الشأن كذلك اليوم بين الذين يقولون:إنهم مسلمون: (من الذين قالوا:آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم)! أليسوا يتلمسون الفتوى للاحتيال على الدين لا لتنفيذ الدين أليسوا يتمسحون بالدين احياناً لكى يقر لهم أهواءهم ويوقع بالموافقه عليها! فأما إن قال الدين كلمة الحق وحكم الحق فلا حاجة بهم إليه . . (يقولون:إن أوتيتم هذا فخذوه ؛ وإن لم تؤتوه فاحذروا !(إنه الحال نفسه . ولعله لهذا كان الله – سبحانه _يقص قصة بنى إسرائيل بهذا الإسهاب وهذا التفصيل ، لتحذر منها أجيال "المسلمين" وينتبه الواعون منها لمزالق الطريق . والله سبحانه – يقول لرسوله فى شأن هؤلاء المسارعين بالكفر ، وفى شأن هؤلاء المتآمرين المبيتين لهذه الألاعيب:لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر . فهم يسلكون سبيل الفتنه ، وهم واقعون فيها ، وليس لك من الأمر شيء ، وما أنت بمستطيع أن تدفع عنهم الفتنه وقد سلكوا طريقها ولجوا فيها (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً) وهؤلاء دنست قلوبهم ، فلم يرد الله أن يطهرها ، وأصحابها يلجون فى الدنس: (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) وسيجزيهم بالخزى فى الدنيا والعذاب العظيم فى الآخره (لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) فلا عليك منهم ، ولا يحزنك كفرهم ، ولا تحفل بأمرهم . فهو أمر مقضى فيه . . ثم يمضى فى بيان حال القوم ، وما انتهوا إليه من فساد فى الخلق والسلوك ، قبل أن يبين لرسول الله ﷺ كيف يتعامل معهم إذا جاءوا إليه متحاكمين (سماعون للكذب ، أكالون للسحت . فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم . وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً . وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين) كرر أنهم سماعون للكذب . مما يشى بأن هذه أصبحت خصله لهم . . تهش نفوسهم لسماع الكذب والباطل ، وتنقبض لسماع الحق والصدق . . وهذه طبيعة القلوب حين تفسد ، وعادة الأرواح حين تنطمس . . ما أحب كلمة الباطل والزور فى المجتمعات المنحرفه ، وما أثقل كلمة الحق والصدق فى هذه المجتمعات . . وما أروج الباطل فى هذه الأونه وما أشد بوار الحق فى هذه الفترات الملعونه ! وهؤلاء:سماعون للكذب . أكالون للسحت . . والسحت كل مال حرام . . والربا والرشوه وثمن الكلمه والفتوى ! فى مقدمة ما كانوا يأكلون ، وفى مقدمة ما تأكله المجتمعات التى تنحرف عن منهج الله فى كل زمان! وسمى الحرام سحتاً لأنه يقطع البركه ويمحقها . وما اشد أنقطاع البركه وزوالها من المجتمعات المنحرفه . كما نرى ذلك بأعيننا فى كل مجتمع شارد عن منهج الله وشريعة الله . ويجعل الله الأمر للرسول بالخيار فى أمرهم إذا جاءوه يطلبون حكمه – فإن شاء أعرض عنهم - ولن يضروه شيئاً – وإن شاء حكم بينهم . فإذا اختار أن يحكم حكم بينهم بالقسط , غير متأثر بأهوائهم ، وغير متأثر كذلك بمسارعتهم فى الكفر ومؤامراتهم ومناوراتهم (إن الله يحب المقسطين) والرسول ﷺ والحاكم المسلم ، والقاضى المسلم ، إنما يتعامل مع الله فى هذا الشأن ; وإنما يقوم بالقسط لله . لأن الله يحب المقسطين . فإذا ظلم الناس وإذا خانوا , وإذا انحرفوا ، فالعدل فوق التأثر بكل ما يصدر منهم . لإنه ليس عدلاً لهم ؛ وإنما هو لله . . وهذا هو الضمان الأكيد فى شرع الإسلام وقضاء الإسلام ، فى كل مكان وفى كل زمان . وهذا التخيير فى أمر هؤلاء اليهود يدل على نزول هذا الحكم فى وقت مبكر . إذ أنه بعد ذلك أصبح الحكم والتقاضى لشريعة الإسلام حتميا . فدار الإسلام لا تطبق فيها إلا شريعة الله . وأهلها جميعاً ملزمون بالتحاكم إلى هذه الشريعه . مع اعتبار المبدأ الإسلامى الخاص بأهل الكتاب فى المجتمع المسلم فى دار الإسلام ؛ وهو ألا يجبروا إلا على ما هو وارد فى شريعتهم من الأحكام ; وعلى ما يختص بالنظام العام . فيباح لهم ما هو مباح فى شرائعهم ، كامتلاك الخنزير وأكله ، وتملك الخمر وشربه دون بيعه للمسلم . ويحرم عليهم التعامل الربوى لأنه محرم عندهم . وتوقع عليهم حدود الزنا والسرقه لأنها وارده فى كتابهم وهكذا . كما توقع عليهم عقوبات الخروج على النظام العام والإفساد فى الأرض كالمسلمين سواء ، لأن هذا ضرورى لأمن دار الإسلام وأهلها جميعاً:مسلمين وغير مسلمين . فلا يتسامح فيها مع أحد من أهل دار الإسلام . . .

وفى تلك الفتره التى كان الحكم فيها على التخيير ، كانوا يأتون ببعض قضاياهم إلى رسول الله ﷺ مثال ذلك ما رواه مالك ، عن نافع ، عن عبدالله بن عمر – رضى الله عنهما":- إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ ما تجدون فى التوراه فى شأن الرجم ؟ فقالوا:نفضحهم ويجلدون . قال عبدالله بن سلام:كذبتم . إن فيها الرجم . فأتوا بالتوراة فنشروها . فوضع أحدهم يده على آيه الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال عبدالله بن سلام:ارفع يدك . فرفع يده فإذا آية الرجم! . فقالوا:صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما . فرأيت الرجل يحنى على المرأه يقيها الحجاره" . . وقد عقب السياق بسؤال استنكارى على موقف يهود – سواء كان فى هذه القضية أو تلك فهو موقف عام منهم وتصرف مطرد – فقال (وكيف يحكمونك – وعندهم التوراة فيها حكم الله

– ثم يتولون من بعد ذلك ؟) فهى كبيرة مستنكرة أن يحكموا رسول الله ﷺ فيحكم بشريعة الله وحكم الله ، وعندهم - إلى جانب هذا – التوراة فيها شريعة الله وحكمه ؛ فيتطابق حكم رسول الله ﷺ (وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ) وما عندهم فى التوراة ؛ مما جاء القرآن مصدقا له ومهيمنا عليه . . ثم من بعد ذلك يتولون ويعرضون . سواء كان التولى بعدم التزام الحكم ؛ أو بعدم الرضى به ، ولا يكتفى السياق بالاستنكار . ولكنه يقرر الحكم الإسلامى فى مثل هذا الموقف (وما أولئك بالمؤمنين) فما يمكن أن يجتمع الإيمان ، وعدم تحكيم شريعة الله ، أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة . والذين يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أنهم "مؤمنون" ثم هم لا يحكمون شريعة الله فى حياتهم ، أو لا يرضون حكمها إذا طبق عليهم . . إنما يزعمون دعوى كاذبة ؛ وإنما يصطدمون بهذا النص القاطع (وما أولئك بالمؤمنين) فليس الأمر فى هذا هو أمر عدم تحكيم شريعة الله من الحكام فحسب ؛ بل إنه كذلك عدم الرضى بحكم الله من المحكومين , يخرجهم من دائرة الإيمان ، مهما ادعوه باللسان .

والآن يجيء حكمه – تعالى – على الحاكمين ، الذين لا يحكمون بما أنزل الله . الحكم الذى تتوافى جميع الديانات التى جاءت من عند الله عليه ويبدأ بالتوراة (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور . يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا , والربانيون والأحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ؛ فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف , والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) لقد جاء كل دين من عندالله ليكون منهج حياة . منهج حياة واقعية . جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وصيانتها . ولم يجيء دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة فى الضمير ؛ ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدى فى الهيكل والمحراب . فهذه وتلك – على ضرورتهما للحياة البشرية وأهميتهما فى تربية الضمير البشرى – لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها ؛ ما لم يقم على أساسهما منهج ونظام وشريعة تطبق عمليا فى حياة الناس ؛ ويؤخذ الناس بها بحكم القانون والسلطان ؛ ويؤاخذ الناس على مخالفتها ، ويؤخذون بالعقوبات . والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد ; يملك السلطان على الضمائر والسرائر ، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك . ويجزى الناس وفق شرائعة فى الحياة الدنيا ، كما يجزيهم وفق حسابة فى الحياة الآخرة . فأما حين تتوزع السلطة ، وتتعدد مصادر التلقى . . حين تكون السلطة لله فى الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره فى الأنظمة والشرائع . . وحين تكون السلطة لله فى جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره فى عقوبات الدنيا . . حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين ، وبين اتجاهين مختلفين ، وبين منهجين مختلفين . . وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذى تشير إليه آيات القرآن فى مناسبات شتى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن) (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) من أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة . وسواء جاء هذا الدين لقرية من القرى ، أو لأمة من الأمم ، أو للبشرية كافة فى جميع أجيالها ، فقد جاء ومعه شريعة معينة لحكم واقع الحياة ، إلى جانب العقيدة التى تنشىء التصور الصحيح للحياة , إلى جانب الشعائر التعبدية التى تربط القلوب بالله . . وكانت هذه الجوانب الثلاثة هى قوام دين الله . حيثما جاء دين من عند الله . لأن الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله هو منهج الحياة . وهنا يعرض هذا التكامل فى الديانات الثلاث الكبرى ، اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام . . ويبدأ بالتوراة فى هذه الآيات التى نحن بصددها فى هذه الفقرة (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) فالتوراة - كما أنزلها الله – كتاب الله الذى جاء لهداية بنى إسرائيل ، وإنارة طريقهم إلى الله . وطريقهم فى الحياة . . وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد . وتحمل شعائر تعبدية شتى . وتحمل كذلك شريعة (يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) أنزل الله التوراة لا لتكون هدى ونورا للضمائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبادات فحسب . ولكن كذلك لتكون هدى ونورا بما فيها من شريعة تحكم الحياة الواقعية وفق منهج الله ، وتحفظ هذه الحياة فى إطار هذا المنهج . ويحكم بها النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله ؛ فليس لهم فى أنفسهم شىء ؛ إنما هى كلها لله ؛ وليست لهم مشيئة ولا سلطة ولا دعوى فى خصيصة من خصائص الألوهية – وهذا هو الإسلام فى معناه الأصيل – يحكمون بها للذين هادوا – فهى شريعتهم الخاصة نزلت لهم فى حدودهم هذه وبصفتهم هذه – كما يحكم بها لهم الربانيون والأحبار ؛ وهم قضاتهم وعلماؤهم . وذلك بما أنهم قد كلفوا المحافظة على كتاب الله ، وكلفوا أن يكونوا عليه شهداء ، فيؤدوا له الشهادة فى أنفسهم ، بصياغة حياتهم الخاصة وفق توجيهاته ، كما يؤدوا له الشهادة فى قومهم بإقامة شريعته بينهم . وقبل أن ينتهى السياق من

الحديث عن التوراة ، يلتفت إلى الجماعة المسلمة ، ليوجهها فى شأن الحكم بكتاب الله عامة ، وما قد يعترض هذا الحكم من شهوات الناس وعنادهم وحربهم وكفاحهم ، وواجب كل من استحفظ على كتاب الله فى مثل هذا الموقف , وجزاء نكوله أو مخالفته (فلا تخشوا الناس واخشون ؛ ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ولقد علم الله – سبحانه – أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه – فى كل زمان وفى كل أمة - معارضة من بعض الناس ؛ ولن تتقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام ، ستواجهه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث . ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذى يدعونه ويرد الألوهية لله خالصة ، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله . . وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت . ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقى على مصالحهم الظالمة . . وستواجهه معارضة ذوى الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال . ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها . . وستواجهه معارضة جهات شتى غير هذه وتلك ؛ ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح فى الأرض . علم الله – سبحانه – أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات ؛ وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة ؛ وأن يصمدوا لها ، وإن يحتملوا تكاليفها فى النفس والمال . . فهو بناديهم (فلا تخشوا الناس واخشون) فلا تقف خشيتهم للناس دون تنفيذهم لشريعة الله . سواء من الناس أولئك الطغاة الذين يأبون الاستسلام لشريعة الله ، ويرفضون الإقرار – من ثم – يتفرد الله – سبحانه - بالألوهية . أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة الله بينهم وبين الاستغلال وقد مردوا عليه . أو تلك الجموع المضللة او المنحرفة أو المنحلة التى تستثقل أحكام شريعة الله وتشغب عليها . . لا تقف خشيتهم لهؤلاء جميعا ولغيرهم من الناس دون المضى فى تحكيم شريعة الله فى الحياة . فالله – وحده – هو الذى يستحق أن يخشوه . والخشية لا تكون إلا لله ، كذلك علم الله – سبحانه – أنبعض المستحفظين على كتاب الله المستشهدين ؛ قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا ؛ وهم يجدون أصحاب السلطان ، وأصحاب المال ، وأصحاب الشهوات , لا يريدون حكم الله فيملقون شهوات هؤلاء جميعا ، طمعا فى عرض الحياة الدنيا - كما يقع من رجال الدين المحترفين فى كل زمان وفى كل قبيل ؛ وكما كان ذلك واقعا فى علماء بنى إسرائيل فناداهم الله (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) وذلك لقاء السكوت ، أو لقاء التحريف ، أو لقاء الفتاوى المدخولة ! وكل ثمن هو فى حقيقته قليل . ولو كان ملك الحياة الدنيا . . فكيف وهو لا يزيد على أن يكون رواتب ووظائف وألقابا ومصالح صغيرة ، يباع بها الدين وتشترى بها جهنم عن يقين ؟!

إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن ؛ وليس أبشع من تفريط المستحفظ ؛ وليس أخس من تدليس المستشهد . والذين يحملون عنوان: "رجال الدين" يخونون ويفرطون ويدلسون ، فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل الله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، لموافاة أهواء ذوى السلطان على حساب كتاب الله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) بهذ الحسم الصارم الجازم . وبهذا التعميم الذى تحمله(من) الشرطية وجملة الجواب . بحيث يخرج من حدود الملابسة والزمان والمكان ، وينطلق حكما عاما ، على كل من لم يحكم بما أنزل الله ، فى أى جيل ، ومن أى قبيل والعلة هى التى أسلفنا . . هى أن الذى لا يحكم بما أنزل الله ، إنما يرفض ألوهية الله . فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية . ومن يحكم بغير ما أنزل الله ، يرفض ألوهية الله وخصائصها فى جانب ، ويدعى لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها فى جانب آخر . . وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك ؟ وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان ، والعمل ينطق بالكفر أفصح من اللسان ؟! وبعد بيان هذا الأصل القاعدى فى دين الله كله ، يعود السياق ، لعرض نماذج من شريعة التوراة التى أنزلها الله ليحكم بها النبيون والربانيون والأحبار للذين هادوا - بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء (وكتبنا عليهم فيها:أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن , والسن بالسن ، والجروح قصاص) وقد استبقيت هذه الأحكام التى نزلت بها التوراة فى شريعة الإسلام ، وأصبحت جزءا من شريعة المسلمين ، التى جاءت لتكون شريعة البشرية كلها إلى آخر الزمان . وقد أضيف إليها فى الإسلام حكم آخر فى قوله تعالى (فمن تصدق به فهو كفارة له) ولم يكن ذلك فى شريعة التوارة . إذ كان القصاص حتما ؛ لا تنازل فيه ، ولا تصدق به , ومن ثم فلا كفارة .

ما تقرره شريعة الله فى القصاص ، هو مبدأ المساواة . . المساواة فى الدماء والمساواة فى العقوبة . . ولم تكن شريعة أخرى – غير شريعة الله – تعترف بالمساواة بين النفوس ، فتقتص للنفس بالنفس ، وتقتص للجوارح بمثلها ، على اختلاف المقامات والطبقات والأنساب والدماء والأجناس . النفس بالنفس . والعين

بالعين . والأنف بالأنف . والأذن بالأذن . والسن بالسن . والجروح قصاص . . لا تمييز . ولا عنصرية . ولا طبقية . ولا حاكم . ولا محكوم . . كلهم سواء أمام شريعة الله . فكلهم من نفس واحدة فى خلقة الله . إن هذا المبدأ العظيم الذى جاءت به شريعة الله هو الإعلان الحقيقى الكامل لميلاد" الإنسان" الإنسان الذى يستمتع كل فرد فيه بحق المساواة . . أولا فى التحاكم إلى شريعة واحدة وقضاء واحد . وثانيا فى المقاصة على أساس واحد وقيمة واحدة . وهو أول إعلان . . وقد تخلفت شرائع البشر الوضعية عشرات من القرون حتى ارتقت إلى بعض مستواه من ناحية النظريات القانونية ، وإن ظلت دون هذا المستوى من ناحية التطبيق العملى .

ولقد انجرف اليهود الذين ورد هذا المبدأ العظيم فى كتابهم – التوراة – عنه ؛ لا فيما بينهم وبين الناس فحسب ، حيث كانوا يقولون:"ليس علينا فى الأميين سبيل بل فيما بينهم هم أنفسهم

والقصاص على هذا الأساس العظيم – فوق ما يحمله من إعلان ميلاد الإنسان – هو العقاب الرادع الذى يجعل من يتجه إلى الاعتداء على النفس بالقتل ، أو الاعتداء عليها بالجرح والكسر ، يفكر مرتين ومرات قبل أن يقدم على ما حدثته به نفسه ، وما زينه له اندفاعه ؛ وهو يعلم أنه مأخوذ بالقتل إن قتل – دون نظر إلى نسبه أو مركزه ، أو طبقته ، أو جنسه – وأنه مأخوذ بمثل ما أحدث من الإصابة . إذا قطع يدا أو رجلا قطعت يده أو رجله ؛ وإذا أتلف عينا أو أذنا أو سنا ، أتلف من جسمه ما يقابل العضو الذى أتلفه . . وليس الأمر كذلك حين يعلم أن جزاءه هو السجن – طالت مدة السجن أو قصرت – فالألم فى البدن ، والنقص فى الكيان ، والتشويه فى الخلقة شىء آخر غير الآم السجن . . والقصاص على هذا الأساس العظيم هو القضاء الذى تستريح إليه الفطرة ؛ والذى يذهب بحزازات النفوس ، وجراحات القلوب ، والذى يسكن فورات الثأر الجامحة ، التى يقودها الغضب الأعمى وحمية الجاهلية . وقد يقبل بعضهم الدية فى القتل والتعويض فى الجراحات . ولكن بعض النفوس لا يشفيها إلا القصاص . وشرع الله فى الإسلام يلحظ الفطرة – كما لحظها شرع الله فى التوراة – حتى إذا ضمن لها القصاص المريح . . راح يناشد فيها وجدان السماحة والعفو – عفو القادر على القصاص(فمن تصدق به فهو كفارة له) من تصدق بالقصاص متطوعا . . سواء كان هو ولى الدم فى حالة القتل [والصدقة تكون بأخذ الدية مكان القصاص ، أو بالتنازل عن الدم والدية معا وهذا من حق الولى ، إذ العقوبة والعفو متروكان له ويبقى للإمام تغزيز القاتل بما يراه] أو كان هو صاحب الحق فى حالة الجروح كلها ، فتنازل عن القصاص . . من تصدق فصدقته هذه كفارة لذنوبه ; يحط بها الله عنه . وكثيرا ما تستجيش هذه الدعوة إلى السماحة والعفو ، وتعليق القلب بعفو الله ومغفرته . نفوسا لا يغنيها العوض المالى ؛ ولا يسليها القصاص ذاته عمن فقدت أو عما فقدت . . فماذا يعود على ولى المقتول من قتل القاتل ؟ أو ماذا يعوضه من مال عمن فقد ؟ إنه غاية ما يستطاع فى الأرض لإقامة العدل ، وتأمين الجماعة . . ولكن تبقى فى النفس بقية لا يمسح عليها إلا تعليق القلوب بالعوض الذى يجىء من عند الله .وبعد عرض هذا الطرف من شريعة التوراة ، التى صارت طرفا من شريعة القرآن ، يعقب بالحكم العام (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئک هم الظالمون) والتعبير عام ، ليس هناک ما يخصصه ؛ ولكن الوصف الجديد هنا هو(الظالمون) وهذا الوصف الجديد لا يعنى أنها حالة أخرى غير التى سبق الوصف فيها بالكفر . وإنما يعنى إضافة صفة أخرى لمن لم يحكم بما أنزل الله . فهو كافر باعتباره رافضا لألوهية الله – سبحانه – واختصاصه بالتشريع لعباده ، وبادعائه هو حق الألوهية بادعائه حق التشريع للناس . وهو ظالم بحمل الناس على شريعة غير شريعة ربهم ، الصالحة المصلحة لأحوالهم . فوق ظلمه لنفسه بإيرادها موارد التهلكة ، وتعرضها لعقاب الكفر . وبتعريض حياة الناس – وهو معهم – للفساد . وهذا ما يقتضيه اتحاد المسند إليه وفعل الشرط (ومن لم يحكم بما أنزل الله) فجواب الشرط الثانى يضاف إلى جواب الشرط الأول ؛ ويعود كلاهما على المسند إليه فى فعل الشرط وهو(من) المطلق العام . ثم يمضى السياق فى بيان اطراد هذا الحكم العام فيما بعد التوراة (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة . وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئک هم الفاسقون) فقد آتى الله عيسى بن مريم الإنجيل ، ليكون منهج حياة ، وشريعة حكم . . ولم يتضمن الإنجيل فى ذاته تشريعا إلا تعديلات طفيفة فى شريعة التوراة . وقد جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة ، ، وجعل الله فيه هدى ونورا ، وهدى وموعظة . . ولكن لمن ؟ . .(للمتقين) فالمتقون هم الذين يجدون فى كتب الله الهدى والنور والموعظة ، هم الذين تتفتح قلوبهم لما فى هذه الكتب من الهدى والنور ؛ وهم الذين تتفتح لهم هذه الكتب عما فيها من الهدى والنور ، أما القلوب الجاسية الغليظة الصلده ، فلا تبلغ إليها الموعظة ؛ ولا تجد فى الكلمات معانيها ؛ ولا تجد فى التوجيهات روحها ؛ ولا تجد فى العقيدة مذاقها ، إن النورموجود ولكن

لا تدركه إلا البصيرة المفتوحة ، وإن الهدى موجود ، ولكن لا تدركه إلا الروح المستشرفة , وإن الموعظة موجودة ، ولكن لا يلتقطها الا القلب الواعى . وقد جعل الله فى الإنجيل هدى ونورا وموعظة للمتقين ، وجعله منهج حياة وشريعة حكم لأهل الإنجيل أى إنه خاص بهم ، فليس رسالة عامة للبشر – شأنه فى هذا شأن التوراة وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول , قبل هذا الدين الأخير – ولكن ما طابق من شريعته – التى هى شريعة التوراة - حكم القرآن فهو من شريعة القرآن . كما مر بنا فى شريعة القصاص .وأهل الإنجيل كانوا إذن مطالبين أن يتحاكموا إلى الشريعة التى أقرها وصدقها الإنجيل من شريعة التوراة: (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) فالقاعدة هى الحكم بما أنزل الله دون سواه . وهم واليهود كذلك لن يكونوا على شىء حتى يقيموا التوراة والإنجيل – قبل الإسلام – وما أنزل إليهم من ربهم – بعد الإسلام - فكله شريعة واحدة ، هم ملزمون بها ، وشريعة الله الأخيرة هى الشريعة المعتمدة (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) والنص هنا كذلك على عمومه وإطلاقه . . وصفة الفسق تضاف إلى صفتى الكفر والظلم من قبل . وليست تعنى قوما جددا ولا حالة جديدة منفصلة عن الحالة الأولى . إنما هى صفة زائدة على الصفتين قبلها ، لاصقة بمن لم يحكم بما أنزل الله من أى جيل ، ومن أى قبيل . الكفر برفض ألوهية الله ممثلا هذا فى رفض شريعته . والظلم بحمل الناس على غير شريعة الله وإشاعة الفساد فى حياتهم . والفسق بالخروج عن منهج الله واتباع غير طريقه . . فهى صفات يتضمنها الفعل الأول ، وتنطبق جميعها على الفاعل . ويبوء بها جميعا دون تفريق . وأخيرا يصل السياق إلى الرسالة الأخيرة ؛ وإلى الشريعة الأخيرة . . إنها الرسالة التى جاءت تعرض "الإسلام" فى صورته النهائية الأخيرة ؛ ليكون دين البشرية كلها ؛ ولتكون شريعته هى شريعة الناس جميعا ؛ ولتهيمن على كل ماكان قبلها وتكون هى المرجع النهائى ; ولتقيم منهج الله لحياة البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم . واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون) ويقف الإنسان أمام هذه النصاعة فى التعبير ، وهذا الحسم فى التقرير ، وهذا الاحتياط البالغ لكل ما قد يهجس فى الخاطر من مبررات لترك شىء – ولو قليل – من هذه الشريعة فى بعض الملابسات والظروف . . يقف الإنسان أمام هذا كله ، فيعجب كيف ساغ لمسلم – يدعى الإسلام – أن يترك شريعة الله كلها ، بدعوى الملابسات والظروف ! وكيف ساغ له أن يظل يدعى الإسلام بعد هذا الترك الكلى لشريعة الله ! وكيف لا يزال الناس يسمون أنفسهم "مسلمين" ؟! وقد خلعوا ربقة الإسلام من رقابهم ، وهم يخلعون شريعة الله كلها ؛ ويرفضون الإقرار له بالإلوهيه ، فى صورة رفضهم الإقرار بشريعته ، وبصلاحية هذه الشريعه فى جميع الملابسات والظروف ، وبضرورة تطبيقها كلها فى جميع الملابسات والظروف ! (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق) يتمثل الحق فى صدوره من جهة الألوهيه ، وهى الجهه التى تملك حق تنزيل الشرائع ، وفرض القوانين ، ويتمثل الحق فى محتوياته ، وفى كل ما يعرض له من شئون العقيده والشريعه , وفى كل ما يقصه من خبر ، وما يحمله من توجيه (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) فهو الصوره الأخيره لدين الله ، وهو المرجع الأخير فى هذا الشأن ، والمرجع الأخير فى منهج الحياة وشرائع الناس ، ونظام حياتهم ، بلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل . ولا قيمه لآراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند إليه من هذا المرجع الأخير . وتترتب على هذه الحقيقه مقتضياتها المباشره (فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) والأمر موجه ابتداء إلى رسول الله ﷺ فيما كان فيه من أمر أهل الكتاب الذين يبحثون إليه متحاكمين . ولكنه ليس خاصاً بهذا السبب ، بل هو عام وإلى آخر الزمان طالما أنه ليس هناك رسول جديد ، ولا رساله جديده ، لتعديل شىء ما فى هذا المرجع الأخير ! لقد كمل هذا الدين ، وتمت به نعمة الله على المسلمين . ورضيه الله لهم منهج حياه للناس أجمعين . ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شىء فيه أو تبديله ، ولا لترك شىء من حكمه إلى حكم آخر ، ولا شىء من شريعته إلى شريعة أخرى. وأى تعديل فى هذا المنهج - ودعك من العدول عنه – هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضروره . يخرج صاحبه من هذا الدين . ولو قال باللسان ألف مره:إنه من المسلمين ! وقد علم الله أن معاذير كثيره يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شىء مما أنزل الله واتباع أهواء المحكومين المتحاكمين . . وأن هواجس قد تتسرب فى ضرورة الحكم بما أنزل الله كله بلا عدول عن شىء فيه ، فى بعض الملابسات والظروف . فحذر الله نبيه ﷺ فى هذه الآيات مرتين من اتباع أهواء المتحاكمين ، ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه . . وأولى هذه الهواجس:الرغبة البشرية الخفية فى تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة , والاتجاهات والعقائد المتجمعة فى بلد واحد . ومسايرة بعض

رغباتهم عند ما تصطدم ببعض أحكام الشريعة ، والميل إلى التساهل في الأمور الطفيفة ، أو التى يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة ! وقد روى أن اليهود عرضوا على رسول الله ﷺ أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح فى أحكام بعينها منها حكم الرجم . وأن هذا التحذير قد نزل بخصوص هذا العرض . . ولكن الأمر – كما هو ظاهر – أعم من حالة بعينها وعرض بعينه . وأنه إذن لا يجوز أن يفكر فى التساهل فى شيء من الشريعة لتجميع المختلفين فى المشارب والمناهج . . فهم لا يتجمعون (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن ليبلوكم فيما آتاكم . فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) بذلك أغلق الله – سبحانه – مداخل الشيطان كلها ؛ وبخاصة ما يبدو منها خيرا وتأليفا للقلوب وتجميعا للصفوف ؛ بالتساهل فى شيء من شريعة الله ؛ فى مقابل إرضاء الجميع ! أو فى مقابل ما يسمونه وحدة الصفوف ! إن شريعة الله أبقى وأغلى من أن يضحى بجزء منها فى مقابل شيء قدر الله ألا يكون ! فالناس قد خلقوا ولكل منهم استعداد ، ولكل منهم مشرب ، ولكل منهم منهج ، ولكل منهم طريق . ولحكمة من حكم الله خلقوا هكذا مختلفين . وقد عرض الله عليهم الهدى ؛ وتركهم يستبقون . وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه ، وهم إليه راجعون ، ويعود السياق فيؤكد هذه الحقيقة ، ويزيدها وضوحا . فالنص الأول: (فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) قد يعنى النهى عن ترك شريعة الله كلها إلى أهوائهم ! فالآن يحذره من فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) فالتحذير هنا أشد وأدق ؛ وهو تصوير للأمر على حقيقته ، فهى فتنة يجب أن تحذر والأمر فى هذا المجال لا يعدو أن يكون حكما بما أنزل الله كاملا ؛ أو أن يكون اتباعا للهوى وفتنة يحذر الله منها . ثم يستمر السياق فى تتبع الهواجس والخواطر ؛ فيهون على رسول الله ﷺ أمرهم إذا لم يعجبهم هذا الاستمساك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة فى هذه الشريعة ، وإذا هم تولوا فلم يختاروا الإسلام دينا ؛ أو تولوا عن الاحتكام إلى شريعة الله [فى ذلك الأوان حيث كان هناك تخيير قبل أن يصبح هذا حتما فى دار الإسلام] (فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وإن كثيرا من الناس لفاسقون)

فإن تولوا فلا عليك منهم ؛ ولا يفتنك هذا عن الاستمساك الكامل بحكم الله وشريعته . ولا تجعل إعراضهم يفت فى عضدك أو يحولك عن موقفك . . فإنهم إنما يتولون ويعرضون لأن الله يريد أن يجزيهم على بعض ذنوبهم . فهم الذين سيصيبهم السوء بهذا الإعراض:لا أنت ولا شريعة الله ودينه ؛ ولا الصف المسلم المستمسك بدينه . . ثم إنها طبيعة البشر (وإن كثيرا من الناس لفاسقون) فهم يخرجون وينحرفون . لأنهم هكذا ؛ ولا حيلة لك فى هذا الأمر ، ولا ذنب للشريعة ! ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق ! وبذلك يغلق كل منافذ الشيطان ومداخله إلى النفس المؤمنة ؛ ويأخذ الطريق على كل حجة وكل ذريعة لترك شيء من أحكام هذه الشريعة ؛ لغرض من الأغراض ؛ فى ظرف من الظروف ، ثم يقفهم على مفرق الطريق . . فإنه إما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية . ولا وسط بين الطرفين ولا بديل . . حكم الله يقوم في الأرض ، وشريعة الله تنفذ في حياة الناس ، ومنهج الله يقود حياة البشر . . أو أنه حكم الجاهلية ، وشريعة الهوى ، ومنهج العبودية . . فأيهما يريدون ؟ (أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟) إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص . فالجاهلية – كما يصفها الله ويحددها قرآنه – هى حكم البشر للبشر ، لأنها هى عبودية البشر للبشر ، والخروج من عبودية الله ، ورفض ألوهية الله ، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله ، إن الجاهلية – فى ضوء هذا النص – ليست فترة من الزمان ؛ ولكنها وضع من الأوضاع . هذا الوضع يوجد بالأمس ، ويوجد اليوم ، ويوجد غدا ، فيأخذ صفة الجاهلية ، المقابلة للإسلام ، والمناقضة للإسلام . والناس – فى أى زمان وفى أى مكان – إما أنهم يحكمون بشريعة الله – دون فتنة عن بعض منها – ويقبلونها ويسلمون بها تسليما ، فهم إذن فى دين الله . وإما إنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر – فى أى صورة من الصور – ويقبلونها فهم إذن فى جاهلية ؛ وهم فى دين من يحكمون بشريعته ، وليسوا بحال فى دين الله . والذى لا يبتغى حكم الله يبتغى حكم الجاهلية ؛ والذى يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية ، ويعيش فى الجاهلية . ثم يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية ؛ وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟) وأجل ! فمن أحسن من الله حكما ؟ ومن ذا الذى يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ، ويحكم فيهم ، خيرا مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم ؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدى هذا الادعاء العريض ؟ أيستطيع أن يقول:إنه أعلم بالناس من خالق الناس ؟ أيستطيع أن يقول:إنه أرحم بالناس من رب الناس ؟ أيستطيع أن يقول:إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس ؟ أيستطيع أن يقول:إن الله – سبحانه – وهو يشرع شريعته الأخيرة ، ويرسل رسوله الأخير ; ويجعل رسوله خاتم النبيين ، ويجعل رسالته خاتمة

الرسالات ، ويجعل شريعته شريعة الأبد . . كان - سبحانه - يجهل أن أحوالًا ستطرأ ، وأن حاجات ستستجد ، وأن ملابسات ستقع ; فلم يحسب حسابها فى شريعته لأنها كانت خافية عليه ، حتى انكشفت للناس فى آخر الزمان !? ما الذى يستطيع أن يقوله من ينحى شريعة الله عن حكم الحياة ، ويستبدل بها شريعة الجاهلية , وحكم الجاهلية ؛ ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب ، أو هوى جيب من أجيال البشر ، فوق حكم الله ، وفوق شريعة الله ? ما الذى يستطيع أن يقوله . . وبخاصة إذا كان يدعى أنه من المسلمين ?! الظروف ؟ الملابسات ؟ عدم رغبة الناس ؟ الخوف من الأعداء ؟ . . ألم يكن هذا كله فى علم الله ؛ وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته ، وأن يسيروا على منهجه ، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله ؟ قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة ، والأوضاع المتجددة ، والاحوال المتغلبة ؟ ألم يكن ذلك فى علم الله ؛ وهو يشدد هذا التشديد ، ويحذر هذا التحذير ؟ يستطيع غير المسلم أن يقول مايشاء . . ولكن المسلم . . أو من يدعون الإسلام . . ما الذى يقولونه من هذا كله ، ثم يبقون على شىء من الإسلام ؟ أو يبقى لهم شىء من الإسلام ? إنه مفرق الطريق ، الذى لا معدى عنده من الاختيار ؛ ولا فائدة فى المماحكة عنده ولا الجدال .إما إسلام وإما جاهلية . إما إيمان وإما كفر . إما حكم الله وإما حكم الجاهلية ، والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون . والذين لا يقبلون حكم الله من المحكومين ما هم بمؤمنين . . إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة فى ضمير المسلم ؛ وألا يتردد فى تطبيقها على واقع الناس فى زمانه ؛ والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء ! وما لم يحسم ضمير المسلم فى هذه القضية ، فلن يستقيم له ميزان ، ولن يتضح له منهج , ولن يفرق فى ضميره بين الحق والباطل ؛ ولن يخطو خطوة واحدة فى الطريق الصحيح ، وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة فى نفوس الجماهير من الناس ؛ فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة فى نفوس من يريدون أن يكونوا "المسلمين" وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم . .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{٥١} فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ{٥٢} وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ{٥٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{٥٤} إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ{٥٥} وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ{٥٦} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٥٧} وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ{٥٨} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ{٥٩} قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ{٦٠} وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ{٦١} وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{٦٢} لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ{٦٣} وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{٦٤} وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ{٦٥} وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ){٦٦}

نصوص هذا الدرس كله نؤيد ما ذهبنا إليه فى تقديم السورة ، من أن هذه السورة لم تنزل كلها بعد سورة الفتح التى نزلت فى الحديبية فى العام السادس الهجرى ، وأن مقاطع كثيرة فيها يرجح أن تكون قد نزلت قبل ذلك ، وقبل إجلاء بنى قريظة . وأن موالاة غير الجماعة المسلمة معناه الارتداد عن دين الله ، والنكول عن هذا الاختيار العظيم والتخلى عن هذا التفضل الجميل ، وهذا التوجه واضح فى النصوص الكثيرة فى هذا الدرس (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . بعضهم أولياء بعض . . ومن يتولهم منكم فإنه منهم . . إن الله لا يهدى القوم الظالمين) (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى

الله بقوم يحبهم ويحبونه . أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله واسع عليم) (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) ثم يربى القران وعى المسلم بحقيقة أعدائه ، وحقيقة المعركة التى يخوضها معهم ويخوضونها معه . إنها معركة العقيدة . فالعقيدة هى القضية القائمة بين المسلم وكل أعدائه ، وهم يعادونه لعقيدته ودينه ، قبل أى شىء آخر ، وهم يعادونه هذا العداء الذى لا يهدأ لأنهم هم فاسقون عن دين الله ، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله (قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل من قبل . وأن أكثركم فاسقون) فهذه هى العقدة ، وهذه هى الدوافع الأصيلة ! والنصوص فى هذا الدرس لا تقف عند كشف بواعث المعركة فى نفوس أعداء الجماعة المسلمة . بل تكشف كذلك طبيعة هؤلاء الأعداء ومدى فسقهم وانحرافهم ، ليتبين المسلم حقيقة من يحاربه ، وليطمئن ضميره إلى المعركة التى يخوضها ، وليقتنع وجدانه بضرورة هذه المعركة ، وأنه لا مفر منها (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . بعضهم أولياء بعض) (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا – من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار – أولياء . واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) كذلك تقرر النصوص نهاية المعركة ونتيجتها ، وقيمة الإيمان فى مصائر الجماعات فى هذه الحياة الدنيا قبلالجزاء فى الحياة الآخرة (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون). . (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) كما تقرر صفة المسلم الذى يختاره الله لدينه ، ويمنحه هذا الفضل العظيم فى اختياره لهذا الدور الكبير (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) وكل هذه التقريرات خطوات فى المنهج ، وفى صياغة الفرد المسلم ، والجماعة المسلمة على الأساس المتين (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم . إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون:نخشى أن تصيبنا دائرة . فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين:ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟ حبطت أعمالهم ، فأصبحوا خاسرين) ويحسن أن نبين أولا معنى الولاية التى ينهى الله الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود والنصارى . . إنها تعنى التناصر والتحالف معهم . ولا تتعلق بمعنى اتباعهم فى دينهم . فبعيد جدا أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى فى الدين . إنما هو ولاء التحالف والتناصر ، الذى كان يلتبس على المسلمين أمره ، فيحسبون أنه جائز لهم ,بحكم ما كان واقعا من تشابك المصالح والأواصر ، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام ، وفى أوائل العهد بقيام الإسلام فى المدينة ، حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله . بعد ما تبين عدم إمكان قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود فى المدينة . . وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقى بحقيقة العقيدة ، كما ينقصهم الوعى الذكى لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها ؛ ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها ، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة فى معاملة أهل الكتاب والبر بهم فى المجتمع المسلم الذى يعيشون فيه مكفولى الحقوق ، وبين الولاء الذى لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة . ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب . . بعضهم أولياء بعض فى حرب الجماعة المسلمة . . وأن هذا شأن ثابت لهم ، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه ، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم . وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة . وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر . . إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة . وسذاجة أية سذاجة وغفلة أية غفلة ، أن نظن أن لنا وإياهم طريقا واحدا نسلكه للتمكين للدين ! أمام الكفار والملحدين ! فهم مع الكفار والملحدين ، إذا كانت المعركة مع المسلمين !!! وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا فى هذا الزمان وفى كل زمان ؛ حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا فى أيدى أهل الكتاب فى الأرض للوقوف فى وجه المادية والإلحاد – بوصفنا جميعا أهل دين ! – ناسين تعليم القران كله ؛ وناسين تعليم التاريخ كله . فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين (هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة فى المدينة ، وكانوا لهم درعا وردءا . وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتى عام ، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس ، وهم الذى شردوا العرب المسلمين فى فلسطين ، وأحلوا اليهود محلهم ، متعاونين فى هذا مع الإلحاد والمادية ! وأهل الكتاب هؤلاء

هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان . . في الحبشة والصومال واريتريا والجزائر ، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية ، في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند ، وفي كل مكان ! ثم يظهر بيننا من يظن – في بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة – أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر . ندفع به المادية الإلحادية عن الدين ! (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .) هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة في المدينة – ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة . . موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة: الذين آمنوا .. ونزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته ، لتحقيق منهجه الجديد في الحياة . ولينشيء في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة. (بعضهم أولياء بعض) بعضهم أولياء بعض ، إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن ، لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء ، إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ ، وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذه القولة الصادقة . . لقد ولي بعضهم بعضا في حرب محمد ﷺ والجماعة المسلمة في المدينة وولي بعضهم بعضا في كل فجاج الأرض ، على مدار التاريخ . . ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة ؛ ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم ، في صيغة الوصف الدائم ، لا الحادث المفرد واختيار الجملة الاسمية على هذا النحو بعضهم أولياء بعض ، ليست مجرد تعبير ! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل ! ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها . . فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم . والفرد الذي يتولاهم من الصف المسلم , يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف "الإسلام" وينضم إلى الصف الآخر . لأن هذه هي النتيجة الطبيعية الواقعية: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) وكان ظالما لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة . . وبسبب من ظلمه هذا يدخله الله في زمرة اليهود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه . ولا يهديه إلى الحق ولا يرده إلى الصف المسلم (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) لقد كان هذا تحذيرا عنيفا للجماعة المسلمة في المدينة . ولكنه تحذير ليس مبالغا فيه . فهو عنيف . نعم ؛ ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة . فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى – وبعضهم أولياء بعض – ثم يبقى له إسلامه وإيمانه ، وتبقى له عضويته في الصف المسلم ، الذين يتولى الله ورسوله والذين آمنوا . . فهذا مفرق الطريق . . إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة ، باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية ، يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح . فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله . والتسامح يكون في المعاملات الشخصية ، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي . . إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل دينا إلا الإسلام ، وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلا ؛ ولا يقبل فيه تعديلا – ولو طفيفا ، ويصور السياق القرآني تلك الحالة التي كانت واقعة ؛ والتي ينزل القرآن من أجلها بهذا التحذير: (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة روى ابن جرير ، قال:حدثنا أبو كريب ، حدثنا إدريس ، قال:سمعت أبي ، عن عطية بن سعد . قال:جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله . إن لي موالي من يهود كثير عددهم ؛ وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله . فقال عبد الله بن أبي [رأس النفاق]:إني رجل أخاف الدوائر . لا أبرأ من ولاية موالي . فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي: "يا أبا الحباب . ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة ابن الصامت فهو لك دونه " ! قال:قد قبلت ! فأنزل الله عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود و النصارى أولياء ...) على أن الله – سبحانه – وهو يضع للجماعة المسلمة هذه القاعدة العامة الحازمة الصارمة , كان علمه يتناول الزمان كله ، لا تلك الفترة الخاصة من حياة رسول الله ﷺ وملابساتها الموقوتة . . وقد أظهر التاريخ الواقع فيما بعد أن عداء النصارى لهذا الدين وللجماعة المسلمة في معظم بقاع الأرض لم يكن أقل من عداء اليهود . . وإذا نحن استثنينا موقف نصارى العرب ونصارى مصر في حسن استقبال الإسلام ، فإننا نجد الرقعة النصرانية في الغرب ، قد حملت للإسلام في تاريخها كله منذ أن احتكت به من العداوة والضغن ، وشنت عليه من الحرب والكيد ، ما لا يفترق عن حرب اليهود وكيدهم في أي زمان ! حتى الحبشة التي أحسن عاهلها استقبال المهاجرين المسلمين واستقبال الإسلام , عادت فإذا هي أشد حربا على الإسلام والمسلمين من كل أحد ؛ لا يجاريها في هذا إلا اليهود ، وما يزال الإسلام والذين يتصفون به – ولو أنهم ليسوا من الإسلام في شيء – يلقون من عنت الحرب المشبوبة عليهم وعلى عقيدتهم من اليهود والنصارى في كل مكان على سطح الأرض , ما يصدق قول الله تعالى (بعضهم أولياء بعض) وما يحتم أن يتدرع المسلمون الواعون بنصيحة ربهم لهم . بل بأمره الجازم ونهيه القاطع وقضائه الحاسم في المفاصلة الكاملة بين أولياء الله ورسوله , وكل معسكر آخر لا يرفع راية الله ورسوله . .

إن الإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب ؛ كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء .

ودعاهم إلى الإسلام جميعاً ، لأن هذا هو "الدين" الذى لا يقبل الله غيره من الناس جميعاً . ولما فهم اليهود أنهم غير مدعوين إلى الإسلام ، وكبر عليهم أن يدعوا إليه , جابههم القرآن الكريم بأن الله يدعوهم إلى الإسلام ، فإن تولوا عنه فهم كافرون ! والمسلم مكلف أن يدعوا أهل الكتاب إلى الإسلام ، كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء . وهو غير مأذون فى أن يكره أحداً من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام . لأن العقائد لا تنشأ فى الضمائر بالإكراه . فالإكراه فى الدين فوق أنه منهى عنه ، هو كذلك لا ثمره له . ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأن ما عليه أهل الكتاب – بعد بعثة محمد ﷺ هو دين يقبله الله . . ثم يدعوهم مع ذلك إلى الإسلام ! . . إنه لا يكون مكلفاً بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد ؛ هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين . وأنه يدعوهم إلى الدين . وإذا تقررت هذه البديهيه ، فإنه لا يكون منطقياً مع عقيدته إذا دخل فى ولاء أو تناصر للتمكين للدين فى الأرض ، مع من لا يدين بالإسلام . (وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِين ، فترى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ...) إنهما نهجان مختلفان ، ناشئان عن تصورين مختلفين ، وعن شعورين متباينين ، ومثل هذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الإيمان !

ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم ، المتألبين عليهم ، المنافقين الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم . يهددهم برجاء الفتح أو أمر الله الذى يفصل فى الموقف ؛ أو يكشف المستور (فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِين) وعندئذ - عند الفتح – سواء كان هو فتح مكة أو كان الفتح بمعنى الفصل أو عند مجىء أمر الله – يندم أولئك الذين فى قلوبهم مرض ، على المسارعة والاجتهاد فى ولاء اليهود والنصارى وعلى النفاق الذى انكشف أمره ، وعندئذ يعجب الذين آمنوا من حال المنافقين , ويستنكرون ما كانوا فيه من النفاق وما صاروا إليه من الخسران (ويقول الذين آمنوا:أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟ حبطت أعمالهم , فأصبحوا خاسرين !) ولقد جاء الله بالفتح يوما ، وتكشفت نوايا ، وحبطت أعمال ، وخسرت فئات . ونحن على وعد من الله قائم بأن يجىء الفتح ، كلما استمسكنا بعروة الله وحده ؛ وكلما أخلصنا الولاء لله وحده . وكلما وعينا منهج الله ، وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا . وكلما تحركنا فى المعركة على هدى الله وتوجيهه . فلم نتخذ لنا وليا إلا الله ورسوله والذين آمنوا . . وإذ ينتهى السياق من النداء الأول للذين آمنوا ، أن ينتهوا عن موالاة اليهود والنصارى , وأن يحذروا أن يصيروا منهم بالولاء لهم ، وأن يرتدوا بذلك عن الإسلام – وهم لا يشعرون أو لا يقصدون – يرسل بالنداء الثانى ، يهدد من يرتد منهم عن دينه – بهذا الولاء أو بسواه من الأسباب – بأنه ليس عند الله بشىء ، وليس بمعجز الله ولا ضار بدينه ، وأن لدين الله أولياء وناصرين مدخرين فى علم الله ، إن ينصرف هؤلاء يجىء بهؤلاء . ويصور ملامح هذه العصبة المختارة المدخرة فى علم الله لدينه ، وهى ملامح محببة جميلة وضيئة . ويبين جهة الولاء الوحيدة التى يتجه إليها المسلم بولائه . ويختم هذا النداء بتقرير النهاية المحتومة للمعركة التى يخوضها حزب الله مع الأحزاب ! والتى يتمتع بها من يخلصون ولاءهم لله ولرسوله وللمؤمنين (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) إن تهديد من يرتد عن دينه من الذين آمنوا – على هذه الصورة . وفى هذا المقام – ينصرف - ابتداء – إلى الربط بين موالاة اليهود والنصارى وبين الارتداد عن الإسلام . وبخاصة بعد ما سبق من اعتبار من يتولاهم واحداً منهم ، منسلخا من الجماعة المسلمة منضما إليهم (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) وعلى هذا الاعتبار يكون هذا النداء الثانى فى السياق توكيدا وتقريرا للنداء الأول . . يدل على هذا كذلك النداء الثالث الذى يلى هذا النداء والسياق ، وهو منصب على النهى عن موالاة أهل الكتاب والكفار ، يجمع بينهم على هذا النحو ، الذى يفيد أن موالاتهم كموالاة الكفار سواء ، وأن تفرقة الإسلام فى المعاملة بين أهل الكتاب والكفار ، لا تتعلق بقضية الولاء ، إنما هى فى شئون أخرى لا يدخل فيها الولاء ، والصورة التى يرسمها للعصبة المختارة هنا ، صورة واضحة السمات قوية الملامح ، وضيئة جذابة حبيبة للقلوب (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم . . الحب . . هذا الروح السارى اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش . . هو الذى يربط القوم بربهم الودود . وحب الله لعبد من عبيده ، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله – سبحانه - بصفاته كما وصف نفسه ، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات فى حسه ونفسه وشعوره وكينونته

كلها . لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذى يعرف حقيقة المعطى . . الذى يعرف من هو الله . . صانع هذا الكون الهائل ، وصانع الإنسان . من هو ومن هذا العبد الذى يتفضل الله عليه منه بالحب . . والعبد من صنع يديه – سبحانه – وهو الجليل العظيم ، الحى الدائم ، الأزلى الأبدى ، الأول والآخر والظاهر والباطن . وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها ، وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرا هائلا عظيما ، وفضلا غامرا جزيلا ، وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرا فوق التعبير أن يصفه ، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره ، لا فى فلتات قليلة من كلام المحبين . . وهذا هو الباب الذى تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين – وهم قليل من بين ذلك الحشد الذى يلبس مسوح التصوف ويعرف فى سجلهم الطويل – ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسى مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد ، وهى تقول:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

ثم يمضى السياق يعرض بقية السمات (أذلة على المؤمنين) وهى صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين . . فالمؤمن ذلول للمؤمن ، غير عصى عليه ولا صعب . هين لين ، ميسر مستجيب ، سمح ودود ، وهذه هى الذلة للمؤمنين ، وما فى الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة . إنما هى الأخوة ، ترفع الحواجز ، وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس ، فلا يبقى فيها ما يستعصى وما يحتجز دون الآخرين (أعزة على الكافرين) فيهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء . . ولهذه الخصائص هنا موضع . . إنها ليست العزة للذات ، ولا الاستعلاء للنفس . إنما هى العزة للعقيدة ، والاستعلاء للراية التى يقفون تحتها فى مواجهة الكافرين . إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير ، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذى معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين ! ثم هى الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى ، وبغلبة قوة الله على تلك القوى ؛ وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية . . فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون فى بعض المعارك ، فى أثناء الطريق الطويل (يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم)

فالجهاد فى سبيل الله ، لإقرار منهج الله فى الأرض ، وإعلان سلطانه على البشر ، وتحكيم شريعته فى الحياة ، هى صفة العصبة المؤمنة التى يختارها الله ليصنع بها فى الأرض ما يريد . وهم يجاهدون فى سبيل الله ؛ لا فى سبيل أنفسهم ؛ ولا فى سبيل قومهم ؛ . فى سبيل الله . لتحقيق منهج الله ، وتقرير سلطانه , وتنفيذ شريعته . وليس لهم فى هذا الأمر شىء ، وليس لأنفسهم من هذا حظ ، إنما هو لله وفى سبيل الله بلا شريك . وهم يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . . وفيم الخوف من لوم الناس ، وهم قد ضمنوا حب رب الناس ؟ وفيم الوقوف عند مألوف الناس ، وعرف الجيل ، إننا نحسب حسابا لما يقول الناس ؛ ولما يفعل الناس ؛ ولما يملك الناس ؛ ولما يصطلح عليه الناس ؛ ولما يتخذه الناس فى واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين . . لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذى يجب أن نرجع إليه فى الوزن والقياس والتقويم . . إنه منهج الله وشريعته وحكمه . . فهو وحده الحق وكل ما خالفه فهو باطل ؛ ولو كان عرف ملايين الملايين ، ولو أقرته الأجيال فى عشرات القرون ! إنه ليست قيمة أى وضع ، أو أى عرف ، أو أى تقليد ، أو أية قيمة . . أنه موجود ؛ وأنه واقع ؛ وأن ملايين البشر يعتنقونه ، ويعيشون به ، ويتخذونه قاعدة حياتهم . . فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامى . إنما قيمة أى وضع ، وأى عرف ، وأى تقليد, وأية قيمة ، أن يكون لها أصل فى منهج الله ، الذى منه – وحده – تستمد القيم والموازين ، ومن هنا تجاهد العصبة المؤمنة فى سبيل الله ولا تخاف لومة لائم ، فهذه سمة المؤمنين المختارين (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله واسع عليم) يعطى عن سعة ، ويعطى عن علم . . وما أوسع هذا العطاء ؛ الذى يختار الله له من يشاء عن علم وعن تقدير . ويحدد الله للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التى تتفق مع صفة الإيمان ؛ ويبين لهم من يتولون (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ..) هكذا على وجه القصر الذى لا يدع مجالا للتمحل أو التأول ؛ ولا يترك فرصة لتمييع الحركة الإسلامية أو تمييع التصور . ولكن حتى لا يكون الإسلام مجرد عنوان ، أو مجرد راية وشعار ، أو مجرد كلمة تقال باللسان , أو مجرد نسب ينتقل بالوراثة ، أو مجرد وصف يلحق القاطنين فى مكان ! فإن السياق يذكر بعض السمات الرئيسية للذين آمنوا

(الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم راكعون) فمن صفتهم إقامة الصلاة – لا مجرد أداء الصلاة – وإقامة الصلاة تعنى أداءها أداء كاملا , تنشأ عنه آثارها التى يقررها قوله تعالى: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . . والذى لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يقم الصلاة ، فلو أقامها لنهته كما يقول الله ! ومن صفتهم إيتاء الزكاة . . أى أداء حق المال طاعة لله وقربى عن رضى نفس ورغبة . فليست الزكاة مجرد ضريبة مالية ، إنما هى كذلك عبادة . أو هى عبادة مالية . وهذه هى ميزة المنهج الإسلامى . الذى يحقق أهدافا شتى بالفريضة الواحدة . وليس كذلك الأنظمة الأرضية التى تحقق هدفا وتفرط فى أهداف . وأداء الزكاة سمة من سمات الذين آمنوا تقرر أنهم يتبعون شريعة الله فى شئون الحياة ; فهى إقرار منهم بسلطان الله فى أمرهم كله ، وهذا هو الإسلام (وهم راكعون) ذلك شأنهم ، كأنه الحالة الأصلية لهم . . ومن ثم لم يقف عند قوله (يقيمون الصلاة) فهذه السمة الجديدة أعم وأشمل . إذ أنها ترسمهم للخاطر كأن هذا هو شأنهم الدائم . فأبرز سمة لهم هى هذه السمة ، وبها يعرفون (والله يعد الذين آمنوا – فى مقابل الثقة به ، والالتجاء إليه ، والولاء له وحده - ولرسوله وللمؤمنين بالتبعية . يعدهم النصر والغلبة (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) وقد جاء هذا الوعد بالغلب بعد بيان قاعدة الإيمان فى ذاتها . . وأنها هى الولاء لله ورسوله وللمؤمنين ؛ وبعد التحذير من الولاء لليهود والنصارى واعتباره خروجا من الصف المسلم إلى صف اليهود والنصارى ، وارتدادا عن الدين ، وهنا لفتة قرآنية مطردة . . فالله – سبحانه – يريد من المسلم أن يسلم لمجرد أن الإسلام خير ! لا لأنه سيغلب ، أو سيمكن له فى الأرض ؛ فهذه ثمرات تأتى فى حينها ؛ وتأتى لتحقيق قدر الله فى التمكين لهذا الدين ؛ لا لتكون هى بذاتها الإغراء على الدخول فى هذا الدين . . والغلب للمسلمين لا شىء منه لهم . لا شىء لذواتهم وأشخاصهم . وإنما هو قدر الله يجريه على أيديهم ، ويرزقهم إياه لحساب عقيدتهم لا لحسابهم ! فيكون لهم ثواب الجهد فيه ؛ وثواب النتائج التى تترتب عليه من التمكين لدين الله فى الأرض , وصلاح الأرض بهذا التمكين . . كذلك قد يعد الله المسلمين الغلب لتثبيت قلوبهم ؛ وإطلاقها من عوائق الواقع الحاضر أمامهم – وهى عوائق ساحقة فى أحيان كثيرة – فإذا استيقنوا العاقبة قويت قلوبهم على اجتياز المحنة ؛ وتخطى العقبة ، والطمع ، فالآن نجده فى النداء الثالث فى هذا الدرس للذين آمنوا يثير فى نفوسهم الحمية لدينهم ولعبادتهم ولصلاتهم التى يتخذها أعداؤهم هزوا ولعبا . ونجده يسوى فى النهى عن الموالاة بين أهل الكتاب والكفار ، وينوط هذا النهى بتقوى الله ؛ ويعلق على الاستماع إليه صفة الإيمان ؛ ويقبح فعلة الكفار وأهل الكتاب ويصفهم بأنهم لا يعقلون (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا – من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار – أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا . ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) وهى ملابسة مثيرة لكل من له حمية المؤمن ؛ الذى لا يرى لنفسه كرامة إذا أهين دينه , وأهينت عبادته ، وأهينت صلاته ، واتخذ موقفه بين يدى ربه مادة للهزء واللعب . . فكيف يقوم ولاء بين الذين آمنوا وبين أحد من هؤلاء الذين يرتكبون هذه الفعلة ، ويرتكبونها لنقص فى عقولهم . فما يستهزى ء بدين الله وعباده المؤمنين به ، إنسان سوى العقل ، ولقد كان هذا الاستهزاء واللعب يقع من الكفار ، كما كان يقع من اليهود خاصة من أهل الكتاب ، فى الفترة التى كان هذا القرآن يتنزل فيها على قلب رسول الله ﷺ للجماعة المسلمة فى ذلك الحين . رأينا ونرى أن أعداء هذا الدين وأعداء الجماعة المسلمة على مدار التاريخ أمس واليوم من الذين قالوا:إنهم نصارى كانوا أكثر عددا من اليهود ومن الكفار مجتمعين ! فهؤلاء - كهؤلاء – قد ناصبوا الإسلام العداء ، وترصدوه القرون تلو القرون ، وحاربوه حربا لا هوادة فيها منذ أن اصطدم الإسلام بالدولة الرومانية على عهد أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – حتى كانت الحروب الصليبية ؛ ثم كانت "المسألة الشرقية" التى تكتلت فيها الدول الصليبية فى أرجاء الأرض للإجهاز على الخلافة ؛ ثم كان الاستعمار الذى يخفى الصليبية بين أضلاعه فتبدو فى فلتات لسانه ؛ ثم كان التبشير الذى مهد للاستعمار وسانده ؛ ثم كانت وما تزال تلك الحرب المشبوبة على كل طلائع البعث الإسلامى فى أى مكان فى الأرض . . وكلها حملات يشترك فيها اليهود والنصارى والكفار والوثنيون . .

وحين تتم النداءات الثلاثة للذين آمنوا ، يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ ليواجه أهل الكتاب ، فيسألهم:ماذا ينقمون من الجماعة المسلمة ؟ وهل ينقمون منها إلا الإيمان بالله ، وما أنزل إلى أهل الكتاب ؛ وما أنزله الله للمسلمين بعد أهل الكتاب ؟ هل ينقمون إلا أن المسلمين يؤمنون ، وأنهم هم – أهل الكتاب – أكثرهم فاسقون ؟ وهى مواجهة مخجلة . ولكنها كذلك كاشفة وحاسمة ومحددة لأصل العداوة ومفرق الطريق (قل:يا أهل الكتاب ، هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل من قبل ، وأن أكثركم فاسقون ؟ قل:هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله ، وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت . . أولئك شر مكانا , وأضل عن سواء السبيل) إن هذا السؤال الذى وجه

الله رسوله إلى توجيهه لأهل الكتاب ، هو من ناحية سؤال تقريرى لإثبات ما هو واقع بالفعل منهم ؛ وكشف حقيقة البواعث التى تدفع بهم إلى موقفهم من الجماعة المسلمة ودينها وصلاتها . وهو من ناحية سؤال استنكارى ، لاستنكار هذا الواقع منهم ، واستنكار البواعث الدافعة عليه . . وهو فى الوقت ذاته توعية للمسلمين ، وتنفير لهم من موالاة القوم ، وتقرير لما سبق فى النداءات الثلاثة من نهى عن هذه الموالاة وتحذير . إن أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين فى عهد الرسول ﷺ وهم لا ينقمون اليوم على طلائع البعث الإسلامى – إلا أن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالله ؛ وما أنزله الله إليهم من قرآن ؛ وما صدق عليه قرآنهم مما أنزله الله من قبل من كتب أهل الكتاب ، إنهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون ! لأنهم ليسوا يهودا ولا نصارى . ولأن أهل الكتاب فاسقون منحرفون عما أنزله الله إليهم ؛ وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة وهى مصدقة لما بين أيديهم – لا ما ابتدعوه وحرفوه – ولا يؤمنون بالرسول الأخير ، وهو مصدق لما بين يديه ؛ معظم لرسل الله أجمعين .

إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء ؛ التى لم تضع أوزارها قط ، ولم يخب أوارها طوال ألف وأربعمائة عام ؛ منذ أن قام للمسلمين كيان فى المدينة ؛ وتميزت لهم شخصية ; وأصبح لهم وجود مستقل ؛ ناشىء من دينهم المستقل ، وتصورهم المستقل ، ونظامهم المستقل ، فى ظل منهج الله الفريد .

إنهم يشنون على المسلمين هذه الحرب المشبوبة لأنهم – قبل كل شىء – مسلمون ولا يمكن أن يطفئوا هذه الحرب المشبوبة إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم ؛ فيصبحوا غير مسلمين . . ذلك أن أهل الكتاب أكثرهم فاسقون ؛ ومن ثم لا يحبون المستقيمين الملتزمين من المسلمين !

(قل:يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ؛ وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ؟) . .

وهذه الحقيقة التى يقررها الله سبحانه فى مواضع كثيرة من كلامه الصادق المبين ، هى التى يريد تمييعها وتلبيسها وتغطيتها وإنكارها اليوم كثيرون من أهل الكتاب ، وكثيرون ممن يسمون أنفسهم "مسلمين" . . باسم تعاون "المتدينين" فى وجه المادية والإلحاد كما يقولون ! أهل الكتاب يريدون اليوم تمييع هذه الحقيقة بل طمسها وتغطيتها ، لأنهم يريدون خداع سكان الوطن الإسلامى – أو الذى كان إسلاميا بتعبير أصح – وتخدير الوعى الذى كان قد بثه فيهم الإسلام بمنهجه الربانى القويم . ذلك أنه حين كان هذا الوعى سليما لم يستطع الاستعمار الصليبى أن يقف للمد الإسلامى ، فضلا على أن يستعمر الوطن الإسلامى . ولم يكن بد لهؤلاء – بعد فشلهم فى الحروب الصليبية السافرة ، وفى حرب التبشير السافرة كذلك – أن يسلكوا طريق الخداع والتخدير ، فيتظاهروا ويشيعوا بين ورثة المسلمين ، أن قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت ! وأنها كانت مجرد فترة تاريخية مظلمة عاشتها الأمم جميعا ! ثم تنور العالم و"تقدم" فلم يعد من الجائز ولا اللائق ولا المستساغ أن يقوم الصراع على أساس العقيدة . . وأنما الصراع اليوم على المادة ! على الموارد والأسواق والاستغلالات فحسب ! وإذن فما يجوز للمسلمين – أو ورثة المسلمين – أن يفكروا فى الدين ولا فى صراع الدين !

وحين يطمئن أهل الكتاب – وهم الذين يستعمرون أوطان المسلمين – إلى استتامة هؤلاء لهذا التخدير ؛وحين تتميع القضية فى ضمائرهم ؛ فإن المستعمرين يأمنون غضبة المسلمين لله ؛ وللعقيدة . . الغضبة التى لم يقفوا لها يوما . . ويصبح الأمر سهلا بعد التنويم والتخدير . . ولا يكسبون معركة العقيدة وحدها . بل يكسبون معها ما وراءها من الأسلاب والمغانم والاستثمارات والخامات ؛ ويغلبون فى معركة" المادة " بعدما يغلبون فى معركة "العقيدة " فهما قريب من قريب . .

وعملاء أهل الكتاب فى الوطن الإسلامى ، ممن يقيمهم الاستعمار هنا وهناك علانية أو فى خفية , يقولون القول نفسه . . لأنهم عملاء يؤدون الدور من داخل الحدود ، وهؤلاء يقولون عن "الحروب الصليبية " ذاتها:إنها لم تكن "صليبية " !!! ويقولون عن" المسلمين" الذين خاضوها تحت راية العقيدة:إنهم لم يكونوا "مسلمين" وإنما هم كانوا" قوميين" !

وفريق ثالث مستغفل مخدوع ؛ يناديه أحفاد "الصليبين" فى الغرب المستعمر:أن تعالوا إلينا . تعالوا نجتمع فى ولاء ؛ لندفع عن "الدين" غائلة "الملحدين" ! فيستجيب هذا الفريق المستغفل المخدوع ؛ ناسيا أن

أحفاد الصليبين هؤلاء وقفوا فى كل مرة مع الملحدين ; صفا واحدا ، حينما كانت المواجهة للمسلمين ! على مدار القرون ! وما يزالون ! وأنهم لا يعنيهم حرب المادية الالحادية قدر ما تعنيهم حرب الإسلام ، ذلك أنهم يعرفون جيدا أن الإلحادية المادية عرض طارى ء وعدو موقوت ؛ وأن الإسلام أصل ثابت وعدو مقيم ! وإنما هذه الدعوة المموهة لتمييع اليقظة البادئة عند طلائع البعث الإسلامى ; وللانتفاع بجهد المستغفلين المخدوعين – فى الوقت ذاته – ليكونوا وقود المعركة مع الملحدين لأنهم أعداء الاستعمار السياسيون ! وهؤلاء كهؤلاء حرب على الإسلام والمسلمين . . حرب لا عدة فيها للمسلم إلا ذلك الوعى الذى يربيه عليه المنهج الربانى القويم . .

إن هؤلاء الذين تخدعهم اللعبة أو يتظاهرون بالتصديق ، فيحسبون أهل الكتاب جادين إذ يدعونهم للتضامن والولاء فى دفع الإلحاد عن "الدين" إنما ينسون واقع التاريخ فى أربعة عشر قرنا – لا استثناء فيها – كما ينسون تعليم ربهم لهم فى هذا الأمر بالذات , وهو تعليم لا مواربة فيه ، ولا مجال للحيدة عنه ، وفى النفس ثقة بالله ويقين بجدية ما يقول !

إن هؤلاء يجتزئون فيما يقولون ويكتبون بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، التى تأمر المسلمين أن يحسنوا معاملة أهل الكتاب ؛ وأن يتسامحوا معهم فى المعيشة والسلوك . ويغفلون التحذيرات الحاسمة عن موالاتهم ؛ والتقريرات الواعية عن بواعثهم , والتعليمات الصريحة عن خطة الحركة الإسلامية ، وخطة التنظيم ، التى تحرم التناصر والموالاة , لأن التناصر والموالاة لا يكونان عند المسلم إلا فى شأن الدين وإقامة منهجه ونظامه فى الحياة الواقعية ، وليست هناك قاعدة مشتركة يلتقى عليها المسلم مع أهل الكتاب فى شأن دينه – مهما يكن هناك من تلاق فى أصول هذه الأديان مع دينه قبل تحريفها - إذ هم لا ينقمون منه إلا هذا الدين ، ولا يرضون عنه إلا بترك هذا الدين . . كما يقول رب العالمين . .

إن هؤلاء ممن يجعلون القرآن عضين ؛ يجزئونه ويمزقونه ، فيأخذون منه ما يشاءون – مما يوافق دعوتهم الغافلة الساذجة على فرض براءتها – ويدعون منه ما لا يتفق مع اتجاههم الغافل أو المريب !

ونحن نؤثر أن نسمع كلام الله ، فى هذه القضية ، على أن نسمع كلام المخدوعين أو الخادعين ! وكلام الله – سبحانه – فى هذه القضية حاسم واضح صريح مبين . .

ثم نمضى مع السياق القرآنى فى توجيه الله – سبحانه – لرسوله ﷺ لمواجهة أهل الكتاب , بعد تقرير بواعثهم واستنكار هذه البواعث فى النقمة على المسلمين . . فإذا هو يجبههم بتاريخ لهم قديم ، وشأن لهم مع ربهم ، وعقاب أليم (قل:هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت . أولئك شر مكانا ، وأضل عن سواء السبيل !) وهنا تطالعنا سحنة يهود ، وتاريخ يهود ! إنهم هم الذين لعنهم الله وغضب عليهم ، وجعل منهم القردة والخنازير . إنهم هم الذين عبدوا الطاغوت . . وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة فى مواضع شتى من القرآن الكريم ؛ وكذلك قصة جعله منهم القردة والخنازير . . فأما قضية عبادتهم للطاغوت , فتحتاج إلى بيان هنا ، لأنها لفتة ذات دلالة خاصة فى سياق هذه السورة . . إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله ، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله , وكل عدوان يتجاوز الحق . . والعدوان على سلطان الله وألوهيته وحاكميته هو أشنع العدوان وأشده طغيانا ، وأدخله فى معنى الطاغوت لفظا ومعنى ، وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان ؛ ولكن اتبعوا شرعهم وتركوا شريعة الله . فسماهم الله عبادا لهم ؛ وسماهم مشركين ، فهم عبدوا الطاغوت ، أى السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها . . وهم لم يعبدوها بمعنى السجود لها والركوع ، ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة . وهى عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله . والله - سبحانه – يوجه رسوله ﷺ لمجابهة أهل الكتاب بهذا التاريخ ، وبذلك الجزاء الذى استحقوه من الله على هذا التاريخ ، كأنما هم جيل واحد بما أنهم جبلة واحدة يوجهه ليقول لهم إن هذا شر عاقبة ، (قل: هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) نقمة الله وعذابه ، وحكمه على أهل الكتاب بالشر والضلال عن سواء السبيل (أولئك شر مكانا ، وأضل عن سواء السبيل) ويمضى السياق فى التنفير من موالاتهم بعرض صفاتهم وسماتهم – بعد عرض تاريخهم وجزائهم - ويجىء التحذير والتوعية منهم بكشف ما يبيتون . . ويبرز اليهود كذلك فى الصورة , لأن الحديث عن وقائع جارية ، ومعظم الشر كان يجىء من قبلهم (وإذا جاؤوكم قالوا:آمنا . وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به . والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان . وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يعملون ! لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن

قولهم الإثم وأكلهم السحت . لبئس ما كانوا يصنعون ! وقالت اليهود:يد الله مغلولة . . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ; بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء – وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله . ويسعون في الأرض فسادا . والله لا يحب المفسدين) إنها عبارات تنشىء صورا متحركة مشاهد حية – على طريقة التعبير القرآنية الفريدة - ومن وراء القرون يملك قارىء هذه الآيات أن يشهد – بعين التصور – هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم القرآن من يهود – على الأرجح – فالسياق يتحدث عنهم ، وإن كان من الجائز أنه يعني كذلك بعض المنافقين في المدينة . . يشهدهم يجيئون للمسلمين فيقولون:آمنا . . ويشهد في جعبتهم "الكفر" وهم يدخلون به ويخرجون ؛ بينما ألسنتهم تقول غير ما في الجعبة من كفر يحملونه داخلين خارجين ! ولعلهم من يهود أولئك الذين كانوا يبيتون البلبلة وهم يقولون بعضهم لبعض:آمنوا بهذا القرآن وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . . أي لعل المسلمين يرجعون عن دينهم بسبب هذه البلبلة والتشكيك الخبيث اللئيم (والله أعلم بما كانوا يكتمون) يقولها الله – سبحانه – لأنها الحقيقة ؛ ثم لكي يطمئن المؤمنون إلى كلاءة ربهم لهم , وحفظهم من كيد عدوهم ؛ وإحاطته علما بهذا الكيد المكتوم ، ثم ليهدد أصحاب هذا الكيد لعلهم ينتهون (وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان ، وأكلهم السحت . لبئس ما كانوا يعملون)

والمسارعة مفاعلة تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقا في الإثم والعدوان ، وأكل الحرام . وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع ، ولكنها تصور حالة من حالات النفوس والجماعات حين يستشرى فيها الفساد ؛ وتسقط القيم ؛ ويسيطر الشر ، وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال ، فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر . . إلى الإثم والعدوان ، قويهم وضعيفهم سواء . . فالإثم والعدوان - في المجتمعات الهابطة الفاسدة – لا يقتصران على الأقوياء ؛ بل يرتكبهما كذلك الضعفاء . . فحتى هؤلاء ينساقون في تيار الإثم . وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء ؛ إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعا . ولكن يعتدي بعضهم على بعض . ويعتدون على حرمات الله . لأنها هي التي تكون في المجتمعات الفاسدة الحمى المستباح الذي لا حارس له من حاكم ولا محكوم ؛ فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد ؛ والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات ! وكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام . . وكذلك أكلهم للحرام . . فأكل الحرام كذلك سمة يهود في كل آن ! (لبئس ما كانوا يعملون)! ويشير السياق إلى سمة أخرى من سمات المجتمعات الفاسدة ؛ وهو يستنكر سكوت الربانيين القائمين على الشريعة ، والأحبار القائمين على أمر العلم الديني . . سكوتهم على مسارعة القوم في الإثم والعدوان وأكل السحت ؛ وعدم نهيهم عن هذا الشر الذي يتسابقون فيه (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ! لبئس ما كانوا يصنعون) إن سمة المجتمع الخير الفاضل الحي القوي المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . أن يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؛ وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وأن يكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهي ، ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر . وهكذا وصف الله الأمة المسلمة فقال (كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ووصف بني إسرائيل فقال (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) فكان ذلك فيصلا بين المجتمعين وبين الجماعتين . أما هنا فينحي باللائمة على الربانيين والأحبار ، الساكتين على المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت ؛ الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله . وكنموذج من قولهم الإثم في أبشع صوره يحكي القرآن الكريم قول اليهود الغبي اللئيم (وقالت اليهود يد الله مغلولة – غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) وذلك من سوء تصور يهود لله سبحانه . فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذاك . وقد قالوا:إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سئلوا النفقة ! وقالوا:يد الله مغلولة , يعللون بذلك بخلهم ؛ فالله – بزعمهم – لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل فكيف ينفقون ؟! ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم ، ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم ؛ ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم . وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) وعطاياه التي لا تكف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان ، شاهدة باليد المبسوطة , والفضل الغامر ، والعطاء الجزيل .. ولكن يهود لا تراها ؛ لأنها مشغولة عنها باللم والضم ، وبالكنود وبالجحود ، وبالبذاءة حتى في حق الله ! ويحدث الله رسوله ﷺ عما سيبدو من القوم ، وعما سيحل بهم ، بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة ؛ وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم في القديم والحديث (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) فبسبب من الحقد والحسد ، وبسبب من افتضاح أمرهم

فيما أنزل الله إلى رسوله ، سيزيد الكثيرون منهم طغيانا وكفرا . لأنهم وقد أبوا الإيمان ، لا بد أن يشتطوا فى الجانب المقابل ؛ ولا بد أن يزيدوا تبجحا ونكرا ، وطغيانا وكفرا . فيكون الرسول ﷺ رحمة للمؤمنين ، ووبالا عن المنكرين . ثم يحدثه عما قدر الله لهم من التعادى والتباغض فيما بينهم ؛ ومن إبطال كيدهم وهو فى أشد سعيره تلهبا ؛ ومن عودتهم بالخيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة :(وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) وما تزال طوائف اليهود متعادية . وإن بدا فى هذه الفترة أن اليهودية العالمية تتساند ; وتوقد نار الحرب على البلاد الإسلامية وتفلح ! ولكن ينبغى ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة . ففى خلال ألف وثلاثمائة عام . . بل من قبل الإسلام . . واليهود فى شحناء وفى ذل كذلك وتشرد . ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه . مهما تقم حولهم الأسناد . ولكن مفتاح الموقف كله فى وجود العصبة المؤمنة ، التى يتحقق لها وعد الله . . فأين هى العصبة المؤمنة اليوم ، التى تتلقى وعد الله ، وتقف ستارا لقدر الله ، ويحقق الله بها فى الأرض ما يشاء ؟ ويوم تفىء الأمة المسلمة إلى الإسلام:تؤمن به على حقيقته ؛ وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته . . يومئذ يحق وعد الله على شر خلق الله . . واليهود يعرفون هذا , ومن ثم يسلطون كل ما فى جعبتهم من شر وكيد ؛ ويصبون كل ما فى أيديهم من بطش وفتك , على طلائع البعث الإسلامى فى كل شبر من الأرض ، ويضربون – لا بأيديهم – ولكن بأيدى عملائهم – ضربات وحشية منكرة ؛ لا ترعى فى العصبة المؤمنة إلا ولا ذمة . . ولكن الله غالب على أمره . ووعد الله لا بد أن يتحقق (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) إن هذا الشر والفساد الذى تمثله يهود ، لا بد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه ، فالله لا يحب الفساد فى الأرض ، وما لا يحبه الله لا بد أن يبعث عليه من عباده من يزيله ويعفى عليه (ويسعون فى الأرض فسادا ، والله لا يحب المفسدين) وفى نهاية الدرس تجىء القاعدة الإيمانية الكبرى – قاعدة أن إقامة دين الله فى الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح فى حياة المؤمنين فى هذه الدنيا وفى الآخرة على السواء . لا افتراق بين دين ودنيا ، ولا افتراق بين دنيا وآخرة . فهو منهج واحد للدنيا وللآخرة ؛ للدنيا وللدين (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ؛ ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) إن الله – سبحانه – يقول لأهل الكتاب – ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب – إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم – وهذا جزاء الآخرة . وإنهم لو كانوا حققوا فى حياتهم الدنيا منهج الله الممثل فى التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم – كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل - لصلحت حياتهم الدنيا ، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق ، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق ، ووفرة النتاج وحسن التوزيع ، وصلاح أمر الحياة . . ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله – إلا قلة منهم فى تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها (وكثير منهم ساء ما يعملون). وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله فى واقع الحياة البشرية فى هذه الحياة الدنيا ، لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده – وإن كان هو المقدم وهو الأدوم – ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا , ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة . . وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية . . يرسمها فى صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض فى قوله: (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء فى الآخرة ؛ وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة فى الدنيا . إنما هو طريق واحد ، تصلح به الدنيا والآخرة ، فإذا تنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة . . هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهى فى الحياة الدنيا ، وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبى وتقوى فحسب ، ولكنه كذلك – وتبعا لذلك - منهج حياة أنسانية واقعية ، يقام ، وتقام عليه الحياة . . وإقامته – مع الإيمان والتقوى – هى التى تكفل صلاح الحياة الأرضية ، وفيض الرزق ، ووفرة النتاج ، وحسن التوزيع ، حتى يأكل الناس جميعا – فى ظل هذا المنهج – من فوقهم ومن تحت أرجلهم . إن المنهج الإيمانى للحياة لا يجعل الدين بديلا من الدنيا ؛ ولا يجعل سعادة الآخرة بديلا من سعادة الدنيا ، ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا . . وهذه هى الحقيقة الغائمة اليوم فى أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية . لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة فى تفكير الناس وضميرهم وواقعهم ، بحيث أصبح الفرد العادى – وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة – لا يرى أن هنالك سبيلا للالتقاء بين الطريقين . ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه ; وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه ؛ ولا سبيل إلى الجمع بينهما فى تصور ولا واقع . . لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم فى هذه الفترة من الزمان توحى بهذا . .

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {٦٧} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ {٦٨} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {٦٩} لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ {٧٠} وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ {٧١} لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ {٧٢} لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {٧٣} أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٧٤} مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ {٧٥} قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلاَ نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {٧٦} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ {٧٧} لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ {٧٨} كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ {٧٩} تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ {٨٠} وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) {٨١}

يمضي هذا الدرس في بيان حال أهل الكتاب – من اليهود والنصارى – وكشف الانحراف فيما يعتقدون ، وكشف السوء فيما يصنعون ؛ في تاريخهم كله – وبخاصة اليهود – ويأمر الرسول ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه كاملا ، وألا يجعل لأي اعتبار من الاعتبارات حسابا وهو يصدع بكلمة الحق ، وإلا فما بلغ وما أدى وما قام بواجب الرسالة .. والله يتولى حمايته وعصمته من الناس ، ومن كان الله له عاصما فماذا يملك له العباد المهازيل ! (إن الله لا يهدى القوم الكافرين) وإذن فلتكن كلمة الحق حاسمة فاصلة كاملة شاملة .. والهدى والضلال إنما مناطهما استعداد القلوب وتفتحها ، لا المداهنة ولا الملاطفة على حساب كلمة الحق أو في كلمة الحق ! وهذا النداء ، وهذا التكليف ، في هذه السورة (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك – وإن لم تفعل فما بلغت رسالته – والله يعصمك من الناس .. إن الله لا يهدى القوم الكافرين) يبدو من السياق – قبل هذا النداء وبعده – أن المقصود به مباشرة هو مواجهة أهل الكتاب بحقيقة ما هم عليه ، وبحقيقة صفتهم التي يستحقونها بما هم عليه ، ومواجهتهم بأنهم ليسوا على شيء ، ليسوا على شيء من الدين ولا العقيدة ولا الإيمان .. ذلك أنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم . ومن ثم فلا شيء مما يدعونه لأنفسهم من أنهم أهل كتاب وأصحاب عقيدة وأتباع دين (قل:يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) وإقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، مقتضاها الأول الدخول في دين الله الذي جاء به محمد ﷺ فقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يؤمنوا بكل رسول ويعزروه وينصروه . وصفة محمد وقومه عندهم في التوراة وعندهم في الإنجيل – كما أخبر الله وهو أصدق القائلين – فهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم:[سواء كان المقصود بقوله: (وما أنزل إليهم من ربهم) هو القرآن – كما يقول بعض المفسرين – أو هو الكتب الأخرى التي أنزلت لهم كزبور داود] .. نقول إنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم إلا أن يدخلوا في الدين الجديد ، الذي يصدق ما بين يديهم ويهيمن عليه .. فهم ليسوا على شيء – بشهادة الله سبحانه – حتى يدخلوا في الدين الاخير .. والرسول ﷺ قد كلف أن يواجههم بهذا القرار الإلهي في شأنهم ؛ وأن يبلغهم حقيقة صفتهم وموقفهم ؛ وإلا فما بلغ رسالة ربه ، ويا له من تهديد ! (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، فلا تأس على القوم الكافرين) وكان الله – سبحانه – يرسم للداعية بهذه التوجيهات منهج الدعوة ؛ ويطلعه على حكمة الله في هذا المنهج ؛ ويسلي قلبه عما يصيب الذين لا يهتدون ، إذا هاجتهم كلمة الحق فازدادوا طغيانا وكفرا ؛ فهم يستحقون هذا المصير البائس ؛ لأن قلوبهم لا تطيق كلمة الحق ؛ ولا خير في أعماقها ولا صدق . فمن حكمة الله أن تواجه بكلمة الحق ؛ ليظهر ما كمن فيها وما بطن ؛ ولتجهر بالطغيان والكفر ؛ ولتستحق جزاء الطغاة والكافرين ! والذين يقولون:إنهم مسلمون – ولا يقيمون ما أنزل إليهم من ربهم – هم كأهل الكتاب هؤلاء ليسوا على شيء كذلك . فهذه كلمة الله عن أهل أي كتاب لا يقيمونه في نفوسهم وفي حياتهم سواء . والذي يريد أن يكون مسلما يجب عليه – بعد إقامة كتاب الله في نفسه وفي حياته – أن يواجه الذين لا

يقيمونه بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموه . وأن دعواهم أنهم على دين ، يردها عليهم رب الدين . فالمفاصلة فى هذا الأمر واجبة ؛ ودعوتهم إلى "الإسلام" من جديد هى واجب "المسلم" الذى أقام كتاب الله فى نفسه وفى حياته . فدعوى الإسلام باللسان أو بالوراثة دعوى لا تفيد إسلاما ، ولا تحقق إيمانا , ولا تعطى صاحبها صفة التدين بدين الله ، فى أى ملة ، وفى أى زمان !وليس هذا هو الطريق . . إن الجاهلية هى الجاهلية – ولو عمت أهل الأرض جميعا – وواقع الناس كله ليس بشيء ما لم يقم على دين الله الحق ، وواجب صاحب الدعوة هو واجبة لا تغيره كثرة الضلال ؛ ولا ضخامة الباطل . . فالباطل ركام . . وكما بدأت الدعوة الأولى بتبليغ أهل الأرض قاطبة:أنهم ليسوا على شيء . . كذلك ينبغى أن تستأنف . . وقد استدار الزمان كهيئة يوم بعث الله رسوله ﷺ وناداه (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك – وإن لم تفعل فما بلغت رسالته – والله يعصمك من الناس . إن الله لا يهدى القوم الكافرين (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) وينتهى هذا المقطع بالبيان الأخير عن "الدين" الذى يقبله الله من الناس ، أيا كان وصفهم وعنوانهم وما كانوا عليه قبل بعثة النبى الأخير ؛ والذى يلتقى عليه المتفرقون فى الملل والنحل فيما غبر من التاريخ (إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئون ، والنصارى . . من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا . . فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والذين آمنوا هم المسلمون . والذين هادوا هم اليهود . والصابئون هم فى الغالب تلك الفئة التى تركت عبادة الأوثان قبل بعثة الرسول ﷺ وعبدت الله وحده على غير نحلة معينة ، ومنهم من العرب أفراد معدودون . والنصارى هم أتباع المسيح – عليه السلام . وهذا الذى نقرر أنه مفهوم من الآية ضمنا يعتبر من "المعلوم من الدين بالضرورة" . فمن بديهيات هذه العقيدة ، أن محمدا [ص] هو خاتم النبيين ، وأنه أرسل إلى البشر كافة , وأن الناس جميعا – على اختلاف مللهم ونحلهم وأديانهم واعتقاداتهم وأجناسهم وأوطانهم – مدعوون إلى الإيمان بما جاء به ، وفق ما جاء به ؛ فى عمومه وفى تفصيلاته . وأن من لا يؤمن به رسولا ، ولا يؤمن بما جاء به إجمالا وتفصيلا ، فهو ضال لا يقبل الله منه ما كان عليه من دين قبل هذا الدين ، ولا يدخل فى مضمون قوله تعالى: (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون). وهذه هى الحقيقة الأساسية "المعلومة من الدين بالضرورة" التى لا يجوز للمسلم الحق أن يجمجم فيها أو يتمتم ؛ أمام ضخامة الواقع الجاهلى الذى تعيش فيه البشرية . والتى لا يجوز للمسلم أن يغفلها فى إقامة علاقاته بأهل الأرض قاطبة ؛ من أصحاب الملل والنحل . فلا يحمله ضغط الواقع الجاهلى على اعتبار أحد من أصحاب هذه الملل والنحل على "دين" يرضاه الله ؛ ويصلح أن يتناصر معه فيه ويتولاه ! بعد ذلك يأخذ السياق فى عرض طرف من تاريخ بنى إسرائيل – اليهود – يتجلى فيه كيف أنهم ليسوا على شيء ؛ ويتبين معه ضرورة تبليغهم الدعوة ، ومخاطبتهم بالإسلام ، ليأووا منه إلى دين الله . ثم لتتبين حقيقتهم التى لم تتغير ؛ وتنكشف للمسلمين هذه الحقيقة , فتسقط فى أعينهم قيمة يهود ، وتنفر قلوبهم من الولاء لهم والتناصر معهم ، وهم على مثل هذه الحال فى أمر الحق والدين (لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، وأرسلنا إليهم رسلا . كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم:فريقا كذبوا وفريقا يقتلون . وحسبوا ألا تكون فتنة . فعموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا – كثير منهم – والله بصير بما يعملون) إنه تاريخ قديم ! فليس موقفهم من رسول الإسلام ﷺ بالأول ولا بالأخير ! إنهم مردوا على العصيان والإعراض ؛ ومردوا على النكول عن ميثاق الله ؛ ومردوا على اتخاذ هواهم إلههم لا دين الله ، ولا هدى الرسل ؛ ومردوا على الإثم والعدوان على دعاة الحق وحملة دعوة الله (لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا . كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) وسجل بنى إسرائيل مع أنبيائهم حافل بالتكذيب والإعراض ؛ حافل بالقتل والاعتداء ! حافل بتحكيم الشهوات والأهواء . لقد صنع بنو إسرائيل تلك الآثام كلها ؛ وهم يحسبون أن الله لن يفتنهم بالبلاء ، ولن يأخذهم بالعقاب . حسبوا هذا الحسبان غفلة منهم عن سنة الله ؛ وغرورا منهم بأنهم "شعب الله المختار" ! (وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا) طمس الله على أبصارهم فلا يفقهون مما يرون شيئا ؛ وطمس على مسامعهم فلا يفيدون مما يسمعون شيئا (ثم تاب الله عليهم) وأدركهم برحمته . . فلم يرعووا ولم ينتفعوا (ثم عموا وصموا . كثير منهم) (والله بصير بما يعملون)وهو مجازيهم بما يراه ويعلمه من أمرهم . . وما هم بمفلتين . . ذلك شأن اليهود من أهل الكتاب . . فأما شأن النصارى فيبينه السياق القرآنى فى حسم وتوكيد يتمشيان مع طبيعة السورة ؛ وطبيعة الموقف الذى تعالجه (لقد كفر الذين قالوا:إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح:يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار , وما للظالمين من أنصار . . لقد كفر الذينقالوا:إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد . وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ؟ والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات , ثم انظر أنى يؤفكون . قل:أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ? والله هو السميع العليم ?

قل:يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل) "جاء فى كتاب "سوسنة سليمان" لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصرانى:أن عقيدة النصارى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس ، وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى هى الإيمان بإله واحد:أب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماوات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى . وبرب واحد يسوع ، الابن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور من نور الله . إله حق من إله حق . مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شىء , والذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس , ومن مريم العذراء تأنس ، وصلب عنا على عهد بيلاطس ، وتألم وقبر ، وقام من الأموات فى اليوم الثالث على ما فى الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب ، وسيأتى بمجد ليدين الأحياء والأموات ، ولا فناء لملكه . والإيمان بالروح القدس ، الرب المحيى المنبثق من الآب ، الذى هو مع الابن يسجد له ، ويمجده ، الناطق بالأنبياء "وقال الدكتور "بوست" فى تاريخ الكتاب المقدس:طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية:الله الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس . فإلى الآب ينتمى الخلق بواسطة الابن . وإلى الابن الفداء . وإلى الروح القدس التطهير" ونظرا لصعوبة تصور الأقانيم الثلاثة فى واحد ، وصعوبة الجمع بين التوحيد والتثليث , فإن الكتاب النصارى عن اللاهوت حاولوا تأجيل النظر العقلى فى هذه القضية , التى يرفضها العقل ابتداء . ومن ذلك ما كتبه القس "بوطر" فى رسالة "الأصول والفروع "حيث يقول:"قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا . ونرجو ان نفهمه فهما أكثر جلاء فى المستقبل حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السماوات وما فى الأرض . وأما فى الوقت الحاضر ففى القدر الذى فهمناه كفاية " والله - سبحانه - يقول:إن هذه المقولات كلها كفر . وهى تتضمن - كما رأينا - القول بالوهية المسيح عليه السلام ؛ والقول بأن الله ثالث ثلاثة . . وليس بعد قول الله -سبحانه - قول . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل (لقد كفر الذين قالوا:إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح:يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد رحم الله عليه الجنة ، ومأواه النار , وما للظالمين من أنصار) وهكذا حذرهم المسيح عليه السلام فلم يحذروا ، ووقعوا بعد وفاته عنهم فيما حذرهم من الوقوع فيه ، وما أنذرهم عليه الحرمان من الجنة والانتهاء إلى النار . . ونسوا قول المسيح - عليه السلام (يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم) حيث أعلن لهم أنه هو وهم فى العبودية سواء ، لربوبية الله الواحد الذى ليس له من شركاء ، ويستوفى القرآن الحكم على سائر مقولاتهم الكافرة (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) ويقرر الحقيقة التى تقوم عليها كل عقيدة جاء بها رسول من عند الله (وما من إله إلا إله واحد) ويهددهم عاقبة الكفر الذى ينطقون به ويعتقدونه (وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) والكافرون هم الذين لا ينتهون عن هذه المقولات التى حكم عليها الله بالكفر الصراح . ثم أردف التهديد والوعيد بالتحضيض والترغيب (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) ليبقى لهم باب التوبة مفتوحا ; وليطمعهم فى مغفرة الله ورحمته ، قبل فوات الآوان ، ثم واجههم بالمنطق الواقعى القويم ، لعله يرد فطرتهم إلى الإدراك السليم . مع التعجيب من أمرهم فى الانصراف عن هذا المنطق بعد البيان والإيضاح (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات . ثم انظر أنى يؤفكون . .) وأكل الطعام مسألة واقعية فى حياة المسيح - عليه السلام - وأمه الصديقة . وهى خصيصة من خصائص الأحياء الحادثين ، ودليل على بشرية المسيح وأمه - أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتى - فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها . ولا يكون إلها من يحتاج إلى الطعام ليعيش . فالله حى بذاته ، قائم بذاته ، باق بذاته ، لا يحتاج ، ولا يدخل إلى ذاته - سبحانه - أو يخرج منها شىء حادث كالطعام ، ونظرا لوضوح هذا المنطق الواقعى ونصاعته التى لا يجادل فيها إنسان يعقل ، فإنه يعقب عليه باستنكار موقفهم والتعجيب من انصرافهم عن ذلك المنطق البين (انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون)

ولقد كانت هذه الحياة البشرية الواقعية للمسيح عليه السلام ، مصدر تعب لمن أرادوا تأليهه - على الرغم من تعاليمه - فقد احتاجوا إلى كثير من الجدل والخلاف حول لاهوتية المسيح عليه السلام وناسوتيته - كما واستطرادا فى ذلك المنطق القرآنى المبين من زاوية اخرى يجىء هذا الاستنكار (قل:أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ؛ والله هو السميع العليم) ويختار التعبير بكلمة "بما" بدل كلمة "من" فى هذا الموضع قصدا . ليدرج" المخلوقات" التى تعبد كلها - بما فيها من العقلاء - فى سلك واحد . لأنه يشير إلى ماهيتها المخلوقة الحادثة البعيدة عن حقيقية الألوهية . فيدخل عيسى ، ويدخل روح القدس , وتدخل مريم ، كلهم فى (مًا) لأنهم بماهيتهم من خلق الله . ويلقى هذا التعبير ظله كذلك فى هذا المقام ؛ فيبعد أن يكون أحد من خلق الله مستحقا للعبادة ؛ وهو لا يملك لهم ضرا ولا نفعا (والله هو السميع العليم) الذى يسمع ويعلم ؛ ومن ثم يضر وينفع . كما أنه هو الذى يسمع دعاء عبيده وعبادتهم

إياه , ويعلم ما تكنه صدورهم وما يكمن وراء الدعاء والعبادة . . فأما ما سواه فلا يسمع ولا يعلم ولا يستجيب الدعاء . . وينهى هذا كله بدعوة جامعة ، يكلف رسول الله ﷺ أن يوجهها إلى أهل الكتاب (قل:يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرا . وضلوا عن سواء السبيل) فمن الغلو فى تعظيم عيسى – عليه السلام – جاءت كل الانحرافات . ومن أهواء الحكام الرومان الذين دخلوا النصرانية بوثنيتهم ، ومن أهواء المجامع المتناحرة كذلك دخلت كل تلك المقولات على دين الله الذى أرسل به المسيح ، فبلغة بأمانة الرسول ، وهذا النداء الجديد هو دعوة الإنقاذ الأخيرة لأهل الكتاب ؛ ليخرجوا بها من خضم الانحرافات والاختلافات والأهواء والشهوات الذى خاض فيه أولئك الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل . .

ونقف من هذا المقطع الذى انتهى بهذا النداء أمام ثلاث حقائق كبيرة ، يحسن الإلمام بها فى إجمال

:الحقيقة الأولى:هى هذا الجهد الكبير ، الذى يبذله المنهج الإسلامى ، لتصحيح التصور الاعتقادى ، وإقامته على قاعدة التوحيد المطلقة ؛ وتنقيته من شوائب الوثنية والشرك التى أفسدت عقائد أهل الكتاب ، وتعريف الناس بحقيقة الألوهية ؛ وإفراد الله – سبحانه – بخصائصها ، وتجريد البشر وسائر الخلائق من هذه الخصائص . .

والحقيقة الثانية:هى تصريح القرآن الكريم بكفر الذين قالوا:إن الله هو المسيح ابن مريم ؛ أو قالوا:إن الله ثالث ثلاثة:فلم يعد لمسلم – بعد قول الله سبحانه – قول . ولم يعد يحق لمسلم أن يعتبر أن هؤلاء

والحقيقة الثالثة:المترتبة على هاتين الحقيقتين ، أنه لا يمكن قيام ولاء وتناصر بين أحد من أهل الكتاب هؤلاء وبين المسلم الذى يدين بوحدانية الله كما جاء بها الإسلام , ويعتقد بأن الإسلام فى صورته التى جاء بها محمد ﷺ هو وحده "الدين" عند الله . .

ومن ثم يصبح الكلام عن التناصر بين أهل "الأديان" أمام الإلحاد كلاما لا مفهوم له فى اعتبار الإسلام ! فمتى اختلفت المعتقدات على هذا النحو الفاصل ، لم يعد هناك مجال للالتقاء على ما سواها . فكل شىء فى الحياة يقوم أولا على أساس العقيدة . . فى اعتبار الإسلام . .

وفى النهاية يجىء ذلك التقرير الشامل عن موقف أنبياء بنى إسرائيل من كفار بنى إسرائيل , على مدى التاريخ ؛ ممثلا فى موقف داود وموقف عيسى – عليهما السلام – وكلاهما لعن كفار بنى إسرائيل ، واستجاب الله له . بسبب عصيانهم وعدوانهم ، وبسبب انحلالهم الاجتماعى ، وسكوتهم على المنكر يفشو فيهم فلا يتناهون عنه ؛ وبسبب توليهم الكافرين ; فباءوا بالسخط واللعنة ، وكتب عليهم الخلود فى العذاب (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون ! ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم:أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرا منهم فاسقون)

وهكذا يبدو أن تاريخ بنى إسرائيل فى الكفر والمعصية واللعنة عريق . وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم ، هم فى النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية الله ؛ فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بنى إسرائيل . والذين كفروا من بنى إسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المنزلة ؛ وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة الله – كما مر فى المواضع القرآنية المتعددة فى هذه السورة وفى السور غيرها – وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لينصرن كل رسول ويعزرونه ويتبعونه (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فهى المعصية والاعتداء ؛ يتمثلان فى كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء . وقد حفل تاريخ بنى إسرائيل بالمعصية والاعتداء . . كما فصل الله فى كتابه الكريم . ثم يمضى السياق فيصف حالهم على عهد الرسول ﷺ وهى حالهم فى كل زمان وفى كل مكان ، فهم يتولون الذين كفروا ، ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة . وعلة ذلك – مع أنهم أهل كتاب – أنهم لم يؤمنوا بالله والنبى وأنهم لم يدخلوا فى دين الله الأخير . . فهم غير مؤمنين . ولو كانوا مؤمنين ما تولوا الكافرين (ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم:أن سخط الله عليهم , وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرا منهم فاسقون) وهذا التقرير كما ينطبق على حال

اليهود – على عهد رسول الله ﷺ ينطبق على حالهم اليوم وغدا ، وفى كل حين . كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب فى معظم أرجاء الأرض اليوم . . مما يدعو إلى التدبر العميق فى أسرار هذا القرآن ، وفى عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة فى كل آن ، لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين ؛ ويؤلبونهم على المسلمين ، وقد تجلى هذا كله على أتمه فى غزوة الأحزاب ، ومن قبلها ومن بعدها كذلك ؛ إلى اللحظة الحاضرة . . وما قامت إسرائيل فى أرض فلسطين أخيرا إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين ! فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب ، فهو يتعاون مع المادية الإلحادية كلما كان الأمر أمر المسلمين ! وهم يتعاونون مع الوثنية المشركة كذلك ، كلما كانت المعركة مع المسلمين ! حتى و"المسلمون" لا يمثلون الإسلام فى شىء . إلا فى أنهم من ذرارى قوم كانوا مسلمين ! ولكنها الإحنة التى لا تهدأ على هذا الدين ؛ ومن ينتمون إليه ، ولو كانوا فى انتمائهم مدعين ! وصدق الله العظيم: (ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم:أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون). . فهذه هى الحصيلة التى قدمتها لهم أنفسهم . . إنها سخط الله عليهم . وخلودهم فى العذاب . فما أبأسها من حصيلة ! وما أبأسها من تقدمة تقدمها لهم أنفسهم ؛ ويا لها من ثمرة مرة . ثمرة توليهم للكافرين ! فمن منا يسمع قول الله سبحانه عن القوم ؟ فلا يتخذ من عند نفسه مقررات لم يأذن بها الله:فى الولاء والتناصر بين أهل هذا الدين ؛ وأعدائه الذين يتولون الكافرين ! و ما دافع القوم لتولى الذين كفروا ؟ إنه عدم الإيمان بالله والنبى (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرا منهم فاسقون) هذه هى العلة إنهم لم يؤمنوا بالله والنبى ، إن كثرتهم فاسقة ، إنهم يتجانسون - إذن – مع الذين كفروا فى الشعور والوجهة ؛ فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين . .

(تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ{٨٢} وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ{٨٣} وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ{٨٤} فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ{٨٥} وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ{٨٦} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ{٨٧} وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ{٨٨} لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{٨٩} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{٩٠} إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ{٩١} وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ{٩٢} لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{٩٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٩٤}

نجد فى الجزء الأخير من السورة التى أشرنا إليها ، حديث عن المعسكرات المتعددة التى تواجه الأمة المسلمة فى المدينة – ومن عجب أنها هى التى تواجه حركات البعث الإسلامى دائما – والعداء الذى تنطوى عليه صدورها ؛ مع التفاوت فى مواقف بعض هذه المعسكرات ؛ وميل فئات منها للهدى كبعض فئات النصارى التى استجابت لدعوة الرسول ﷺ ولانت قلوبها لما سمعت من الهدى ، وفازت بثواب الله وجنات تجرى من تحتها الأنهار . ونجد بقية من الحديث عن حق التشريع بالحل والحرمة ؛ والنهى عن الاعتداء بالتحريم والتحليل بغير سلطان من الله ؛ وتذكير الذين آمنوا بتقوى الله فى هذا الأمر الذى يتعلق به الإيمان والكفر بعد ما أعلنوا الإيمان . يتلو ذلك بقية من الأحكام التشريعية فى الأيمان ، والخمر والميسر والأنصاب والأزلام , والصيد فى حالة الإحرام ، وحرمة الكعبة والأشهر الحرم والهدى والقلائد . . مع التنبيه المتكرر إلى وجوب الالتزام والطاعة لما يشرعه الله – سبحانه – وما يأمر به نبيه ﷺ والنهى والتحذير من المخالفة ، والتهديد بالعذاب الأليم ، والانتقام من الله ، والتذكير بالله الذى إليه يحشرون . ثم بقية فى تربية الجماعة المسلمة . بتقرير القيم التى تتعامل بها ، فلا تعجبها كثرة الخبيث ولكن يعجبها الطيب الزكى . وفى أدبها الواجب مع ربها ومع رسولها . فلا تسأله عما لم يبده ولا تطلب تفصيل ما أجمله . ثم إبطال ما تبقى من تقاليد الجاهلية وشرائعها المتخلفة من شركها ووثنيتها ، فى بعض أنواع الأنعام

والذبائح:كالبحيرة ، والسائبة ، والوصيلة والحامى . . مع تقرير المصدر الوحيد الصحيح للتشريع فى أمور الحياة كلها ؛ ورد الأمر فى هذا إلى الله وحده , لا إلى عرف البشر واصطلاحهم . ذلك مع تنبيه الأمة المسلمة إلى تميزها بذاتها ، وتضامنها فيما بينها ، وانفصالها عن سواها ؛ وتبعتها الخاصة ، وبراءتها من تبعات أهل الضلال ؛ ورد أمر جزائها وجزاء غيرها إلى الله وحده فى دار الجزاء .

وينتهى الحديث عن قضية التشريع كلها بحكم الإشهاد على الوصية فى حالة السفر والبعد عن الحاضرة ؛ وتنظيم الإسلام لمثل هذه الأقضية فى مجتمع يجاهد فى سبيل الله , ويضرب فى الأرض كذلك للتجارة ابتغاء فضل الله . مع ربط التشريع بمخافة الله فى الدنيا والآخرة .

أما بقية السورة فتتضمن بقية فى تصحيح عقيدة النصارى – من اهل الكتاب – ومن أجل هذا يعاد عرض طرف من قصة مريم وعيسى ؛ والمعجزات التى أجراها الله على يديه ؛ ومسألة المائدة التى طلبها الحواريون . . ثم تعرض قضية ألوهية عيسى وأمه ودعاوى النصارى فيها ؛ حيث يكذب عيسى – عليه السلام – أن يكون هو قد ادعاها ، ويبرىء نفسه من هذه الفرية أمام ربه فى مشهد مرهوب من مشاهد القيامة ؛ ويدع أمر قومه لله ربه وربهم على ملأ من البشرية بأجمعها ، والرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – كلهم شهود . .

وتختم السورة بتقرير ملكية الله للسماوات والأرض وما فيهن ، وقدرته التى لا حدود لها ولا قيود: لله ملك السماوات والأرض وما فيهن ، والله على كل شىء قدير . .

ومن هذا الاستعراض السريع لبقية محتويات السورة ، يتجلى التماسك فى بنائها – حسب منهجها فى تناول هذه المحتويات وهو المنهج الذى أشرنا إليه فى مطالع السورة ونقلنا فقرات منه فى مطلع هذا البيان الوجيز .

فنمضى الآن بالتفصيل مع السورة فى مواجهة النصوص:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)) الوحدة السابعة:٨٢ – ٨٦ ثناء على النصارى الذين دخلوا فى الإسلام

هذه البقية من الحديث عن اليهود والنصارى والمشركين ، ومواقفهم من الرسول ﷺ ومن الأمة المسلمة ؛ هى طرف من الحديث الطويل الذى تضمنته السورة من قبل خلال أكثر من [ربعين] وإن الأمر الذى يلفت النظر فى صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا فى صدد أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا ؛ وأن شدة عداوتهم ظاهرة مكشوفة وأمر مقرر يراه كل من يرى ، ويجده كل من يتأمل ! وحين يستأنس الإنسان فى تفسير هذا التقرير الربانى بالواقع التاريخى المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة ، فإنه لا يتردد فى تقرير أن عداء اليهود للذين آمنوا كان دائما أشد وأقسى وأعمق إصرارا وأطول أمدا من عداء الذين أشركوا ! ولما غلبهم الاسلام بقوة الحق – يوم أن كان الناس مسلمين – استداروا يكيدون له بدس المفتريات فى كتبه – لم يسلم من هذا الدس إلا كتاب الله الذى تكفل بحفظه سبحانه – ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين ، وإثارة الفتن عن طريق استخدام حديثى العهد بالإسلام ومن ليس لهم فيه فقه من مسلمة الأقطار . ويكيدون له بتأليب خصومه عليه فى انحاء الأرض . . حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا فى العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام فى كل شبر على وجه الارض ؛ وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية فى هذه الحرب الشاملة ، وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصنعون الأبطال الذين يتسمون بأسماء المسلمين ، ويشنونها حربا صليبية صهيونية على كل جذر من جذور هذا الدين ! وصدق الله العظيم: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) إن الذى ألب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة فى المدينة ؛ وجمع بين اليهود من بنى قريظة وغيرهم ؛ وبين قريش فى مكة ، وبين القبائل الأخرى فى الجزيرة . . يهودى . . والذى ألب العوام ، وجمع الشراذم ، وأطلق الشائعات ، فى فتنة مقتل عثمان – رضى الله عنه – وما تلاها من النكبات ، يهودى ، والذى قاد حملة الوضع والكذب فى أحاديث رسول الله ﷺ وفى الروايات والسير ، يهودى ، ثم إن الذى

كان وراء إثارة النعرات القومية في دولة الخلافة الأخيرة ؛ ووراء الانقلابات التي ابتدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال "الدستور" بها في عهد السلطان عبدالحميد ، ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدى "البطل" أتاتورك يهودى ، وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامى في كل مكان على وجه الأرض وراءه يهود ! ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية ديهودى (يقصد كارل ماركس) ووراء النزعة الحيوانية الجنسية يهودى (يقصد فرايد صاحب نظرية الكبت الجنسي) ووراء معظم النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط يهود ! ولقد كانت الحرب التى شنها اليهود على الإسلام أطول أمدا ، وأعرض مجالا ، من تلك التي شنها عليه المشركون والوثنيون - على ضراوتها - قديما وحديثا . . إن المعركة مع مشركي العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاما في جملتها . . وكذلك كانت المعركة مع فارس فى العهد الأول . وأما فى العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة ؛ ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية . . [التي تعد الماركسية مجرد فرع لها] وليس هناك ما يماثل معركة اليهود مع الإسلام فى طول الأمد وعرض المجال إلا معركة الصليبية ، التى سنتعرض لها في الفقرة التالية . فإذا سمعنا الله - سبحانه - يقول (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) ويقدم اليهود فى النص على الذين أشركوا . . ثم راجعنا هذا الواقع التاريخى ، فإننا ندرك طرفا من حكمة الله في تقديم اليهود الذين أشركوا ! إنهم هذه الجبلة النكدة الشريرة ، التى ينغل الحقد في صدورها على الإسلام وعلى نبى الإسلام ، فيحذر الله نبيه وأهل دينه منها . . ولم يغلب هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام وأهله يوم أن كانوا أهله ! . . ولن يخلص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا:إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا , وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون:ربنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين . فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) إن هذة الآيات تصور حالة ، وتقرر حكما فى هذه الحالة . . تصور حالة فريق من أتباع عيسى - عليه السلام (الذين قالوا:إنا نصارى) وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا ، ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالا للشك فى أنها تصور حالة معينة ، هى التي ينطبق عليها هذا التقرير المعين ، فإن الكثيرين يخطئون فهم مدلولها ، ويجعلون منها مادة للتميع المؤذى فى تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة ، وموقف هذه المعسكرات منهم . . لذلك نجد من الضرورى - في ظلال القرآن - أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات لهذه الحالة الخاصة التى ينطبق عليها ذلك الحكم الخاص ، إن الحالة التى تصورها هذه الآيات هي حالة فئة من الناس ، قالوا:إنا نصارى . هم أقرب مودة للذين آمنوا (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) فمنهم من يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم ، ولكن السياق القرآنى لا يقف عند هذا الحد ، ولا يدع الأمر مجهلا ومعمما على كل من قالوا:إنا نصارى . . إنما هو يمضى فيصور موقف هذه الفئة التى يعنيها (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) فهذا مشهد حى يرتسم من التصوير القرآنى لهذه الفئة من الناس ، الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا . . إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم , ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرا عن التأثر العميق العنيف بالحق الذى سمعوه . والذى لا يجدون له فى أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير - وهى حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفى بها القول ، فيفيض الدمع ، ليؤدى ما لا يؤديه القول ؛ وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف . ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ؛ ولا يقفون موقفا سلبيا من الحق الذى تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن ؛ والشعور بالحق الذى يحمله والإحساس بما له من سلطان ، إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفا إيجابيا صريحا . . موقف القبول لهذا الحق ، والإيمان به ، فى لهجة قوية عميقة صريحة (يقولون:ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟). . إنهم اولا يعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذى عرفوه . ثم يدعونه - سبحانه - أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق ؛ وأن يسلكهم فى سلك الامة القائمة عليه في الأرض . . الأمه المسلمه ، التى تشهد لهذا الدين بأنه الحق ، وتؤدى هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها لإقرار هذا الحق فى حياة البشر . . فهؤلاء الشاهدون الجدد ينضمون إلى هذه الأمة المسلمة ؛ ويشهدون ربهم على إيمانهم بالحق الذى تتبعة هذة الأمة ; ويدعونه - سبحانه - أن يكتبهم في سجلها . . ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان بالله ؛ أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لايؤمنوا به ، ولا يأملوا - بهذا الإيمان - أن يقبلهم ربهم ، ويرفع مقامهم عنده ، فيدخلهم مع

القوم الصالحين:(وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟) لا يقف السياق القرآنى عند هذا الحد فى بيان أمر هؤلاء الذين يقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا . بل يتابع خطاه لتكملة الصورة ، ورسم المصير الذى انتهوا إليه فعلا (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) لقد علم الله صدق قلوبهم وألسنتهم ؛ وصدق عزيمتهم على المضى فى الطريق ؛ وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذى دخلوا فيه ؛ ولهذا الصف المسلم الذى اختاروه ، واعتبارهم أن أداء هذه الشهادة – بكل تكاليفها فى النفس والمال – منة يمن الله بها على من يشاء من عباده ؛ لقد علم الله منهم هذا كله ؛ فقبل منهم قولهم وكتب لهم الجنة جزاء لهم ؛ وشهد لهم - سبحانه – بأنهم محسنون ، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين (فأثابهم الله – بما قالوا - جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . . وذلك جزاء المحسنين . .). والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام . . والله – جل جلاله – قد شهد لهذا الفريق من الناس أنه من المحسنين . هو فريق لا يستكبر عن الحق حين يسمعه ، بل يستجيب له تلك الاستجابة العميقة الجاهرة الصريحة . وهو فريق لا يتردد فى إعلان استجابته للإسلام ، والانضمام للصف المسلم وهو فريق علم الله منه صدق قوله فقبله فى صفوف المحسنين . ولكن السياق القرآنى لا يقف عند هذا الحد فى تحديد ملامح هذا الفريق المقصود من الناس الذين تجدهم أقرب مودة للذين آمنوا بل إنه ليمضى فيميزه من الفريق الآخر من الذين قالوا:إنا نصارى ممن يسمعون هذا الحق فيكفرون به ويكذبون ، ولايستجيبون له ، ولا ينضمون إلى صفوف الشاهدين (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) والمقصود قطعا بالذين كفروا وكذبوا فى هذا الموضع هم الذين يسمعون – من الذين قالوا إنا نصارى – ثم لا يستجيبون . . والقرآن يسميهم الكافرين كلما كانوا فى مثل هذا الموقف . سواء فى ذلك اليهود والنصارى ؛ ويضمهم إلى موكب الكفار مع المشركين سواء ; ما داموا فى موقف التكذيب لما أنزل الله على رسوله من الحق ؛ وفى موقف الامتناع عن الدخول فى الإسلام الذى لا يقبل الله من الناس دينا سواه . وليس كل من قالوا:إنهم نصارى إذن داخلين فى ذلك الحكم (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا) كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة لم يدع السياق القرآنى أمرها غامضا ، ولا ملامحها مجهلة , ولا موقفها متلبسا بموقف سواها فى كثير ولا قليل . .

(يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) يا أيها الذين آمنوا . . إن مقتضى إيمانكم ألا تزاولوا أنتم – وأنتم بشر عبيد لله - خصائص الألوهية التى يتفرد بها الله . فليس لكم أن تحرموا ما أحل الله من الطيبات ; وليس لكم أن تمتنعوا – على وجه التحريم – عن الأكل مما رزقكم الله حلالا طيبا . . فالله هو الذى رزقكم بهذا الحلال الطيب . والذى يملك أن يقول:هذا حرام وهذا حلال (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا . إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ؛ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) إن قضية التشريع بجملتها مرتبطة بقضية الألوهية . والحق الذى ترتكن إليه الألوهية فى الاختصاص بتنظيم حياة البشر ، هو أن الله هو خالق هؤلاء البشر ورازقهم . فهو وحده صاحب الحق إذن فى أن يحل لهم ما يشاء من رزقه وأن يحرم عليهم ما يشاء . . وهو منطق يعترف به البشر أنفسهم . فصاحب الملك هو صاحب الحق فى التصرف فيه . والخارج على هذا المبدأ البديهى معتد لا شك فى اعتدائه ! والذين آمنوا لا يعتدون بطبيعة الحال على الله الذى هم به مؤمنون . ولا يجتمع الاعتداء على الله والايمان به فى قلب واحد على الإطلاق ! فأما الآية الخاصة بالحلف والأيمان والتى جاءت تالية فى السياق (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) فالظاهر أنها نزلت لمواجهة هذه الحالة – وأمثالها – من الحلف على الامتناع عن المباح الذى آلى أولئك النفر على أنفسهم أن يمتنعوا عنه ، فردهم رسول الله ﷺ عن الامتناع عنه ، وردهم القرآن الكريم عن مزاولة التحريم والتحليل بأنفسهم ، فهذا ليس لهم إنما هو لله الذى آمنوا به . كما أنها تواجه كل حلف على الامتناع عن خير أو الإقدام على شر . فكل يمين يرى صاحبها أن هناك ما هو أبر ، فعليه أن يفعل ما هو أبر , ويكفر عن يمينه بالكفارات المحددة فى هذه الآية قال ابن عباس:سبب نزولها : القوم الذين حرموا طيبات المطاعم والملابس والمناكح على أنفسهم . حلفوا على ذلك . فلما نزلت (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) قالوا:كيف نصنع بأيماننا (فنزلت هذه الآية). وقد تضمن الحكم أن الله – سبحانه – لا يؤاخذ المسلمين بأيمان اللغو ، التى ينطق بها اللسان دون أن يعقد لها القلب بالنية والقصد مع الحض على عدم ابتذال الأيمان بالإكثار من اللغو بها إذ أنه ينبغى أن تكون لليمين بالله حرمتها ووقارها ، فلا تنطق هكذا لغوا ، فأما اليمين المعقودة ، التى وراءها قصد ونية ، فإن الحنث بها يقتضى كفارة تبينها هذه الآية (فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة , فمن لم يجد

فصيام ثلاثة أيام . ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم) وطعام المساكين العشرة من(أوسط)الطعام الذى يقوم به الحالف لأهله و (أوسط) تحتمل أن تكون من "أحسن" أو من "متوسط" فكلاهما من معانى اللفظ . وإن كان الجمع بينهما لا يخرج عن القصد لأن "المتوسط" هو "الأحسن" فالوسط هو الأحسن فى ميزان الإسلام ، أو(كسوتهم) الأقرب أن تكون كذلك من (أوسط) الكسوة ، أو (تحرير رقبة) لا ينص هنا على أنها مؤمنة . . ومن ثم يرد بشأنها خلاف فقهى ليس هذا مكانه، (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) وهى الكفارة التى يعاد إليها فى اليمين المعقودة عند عدم استطاعة الكفارات الأخرى . . وكون هذه الأيام الثلاثة متتابعة أو غير متتابعة فيه كذلك خلاف فقهى بسبب عدم النص هنا على تتابعها . والخلافات الفقهية فى هذه الفرعيات ليست من منهجنا فى هذه الظلال . فمن أرادها فليطلبها فى مواضعها فى كتب الفقه . إذ أنها كلها تتفق على الأصل الذى يعنينا وهو أن الكفارة رد لاعتبار العقد المنقوض ، وحفظ للإيمان من الإستهانة بها ؛ وهى "عقود" وقد أمر الله – سبحانه - بالوفاء بالعقود . فإذا عقد الإنسان يمينه وكان هناك ما هو أبر فعل الأبر وكفر عن اليمين . وإذا عقدها على غير ما هومن حقه كالتحريم والتحليل ، نقضها وعليه التكفير .

ونعود بعد ذلك إلى الموضوع الأصيل الذى نزلت الآيات بسببه . . فأما من ناحية" خصوص السبب" فإن الله يبين أن ما أحله الله فهو الطيب ، وما حرمه فهو الخبيث . وأن ليس للإنسان أن يختار لنفسه غير ما اختاره الله له . من وجهين:الوجه الأول أن التحريم والتحليل من خصائص الله الرازق بما يجرى فيه التحليل والتحريم من الرزق ، وإلا فهو الاعتداء الذى لا يحبه الله ، ولايستقيم معه إيمان . . والوجه الثانى أن الله يحل الطيبات ، فلا يحرم أحد على نفسه تلك الطيبات ، التى بها صلاحه وصلاح الحياة ; فإن بصره بنفسه وبالحياة لن يبلغ بصر الحكيم الخبير الذى أحل هذه الطيبات . ولو كان الله يعلم فيها شرا أو أذى لوقاه عباده . ولو كان يعلم فى الحرمان منها خيرا ما جعلها حلالا ، ونحن نكرر هذا المعنى ونؤكده ؛ لأن طول عزلة الإسلام عن أن يحكم الحياة – كما هو شأنه وحقيقته – قد جعل معانى العبارة تتقلص ظلالها عن مدى الحقيقة التى تعنيها فى القرآن الكريم وفى هذا الدين . ولقد جعلت كلمة "الحلال" وكلمة "الحرام" يتقلص ظلهما فى حس الناس ، حتى عاد لا يتجاوز ذبيحة تذبح ، أو طعاما يؤكل ، أو شرابا يشرب ، أو لباسا يلبس ، أو نكاحا يعقد . . فهذه هى الشئون التى عاد الناس يستفتون فيها الإسلام ليروا:حلال هى أم حرام ! فأما الأمور العامة والشئون الكبيرة فهم يستفتون فى شأنها النظريات ، والدساتير والقوانين التى استبدلت بشريعة الله ! فالنظام الاجتماعى بجملته ، والنظام السياسى بجملته ، والنظام الدولى بجملته ؛ وكافة اختصاصات الله فى الأرض وفى حياة الناس ، لم تعد مما يستفتى فيه الإسلام ! والإسلام منهج للحياة كلها . من اتبعه كله فهو مؤمن وفى دين الله . ومن إتبع غيره ولو فى حكم واحد فقد رفض الإيمان واعتدى على ألوهية الله ، وخرج من دين الله . مهما أعلن أنه يحترم العقيدة وأنه مسلم . فاتباعه شريعة غير شريعة الله ، يكذب زعمه ويدمغه بالخروج من دين الله . وهذه هى القضية الكلية التى تعنيها هذه النصوص القرآنية ، وتجعلها قضية الإيمان بالله , أو الإعتداء على الله . . وهذا هو مدى النصوص القرآنية . وهو المدى اللائق بجدية هذا الدين وجدية هذا القرآن ، وجدية معنى الألوهية ومعنى الإيمان .

وفى سياق قضية التشريع بالتحريم والتحليل ، وفى خط التربية للامة المسلمة فى المدينة , وتخليصها من جو الجاهلية ورواسبها وتقاليدها الشخصية والاجتماعية , يجىء النص القاطع الأخير فى تحريم الخمر والميسر مقرونين إلى تحريم الأنصاب والأزلام . أى إلى الشرك بالله (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين . ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات , ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين)

لقد كانت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الحياة الجاهلية ، ومن التقاليد المتغلغلة فى المجتمع الجاهلى . وكانت كلها حزمة واحدة ذات ارتباط عميق فى مزاولتها , وفى كونها من سمات ذلك المجتمع وتقاليده . . فلقد كانوا يشربون الخمر فى إسراف , ويجعلونها من المفاخر التى يتسابقون فى مجالسها ويتكاثرون ؛ ويديرون عليها فخرهم فى الشعر ومدحهم كذلك ! وكان يصاحب مجالس الشراب نحر الذبائح واتخاذ الشواء منها للشاربين وللسقاة ولأحلاس هذه المجالس ومن يلوذون بها ويلتفون حولها ! وكانت هذه الذبائح تنحر على الأنصاب وهى أصنام لهم كانوا يذبحون عليها ذبائحهم وينضحونها بدمها]

كما كانت تذبح عليها الذبائح التى تقدم للآلهة أى لكهنتها !] . . وفى ذبائح مجالس الخمر وغيرها من المناسبات الاجتماعية التى تشبهها كان يجرى الميسر عن طريق الأزلام . وهى قداح كانوا يستقسمون بها الذبيحة ، فيأخذ كل منهم نصيبه منها بحسب قدحه . فالذى قدحه [المعلى] يأخذ النصيب الأوفر ، وهكذا حتى يكون من لا نصيب لقدحه . وقد يكون هو صاحب الذبيحة فيخسرها كلها ! وهكذا يبدو تشابك العادات والتقاليد الاجتماعية ؛ ويبدو جريانها كذلك وفق حال الجاهلية وتصوراتها الاعتقادية .

ولم يبدأ المنهج الإسلامى فى معالجة هذه التقاليد فى أول الأمر ، لأنها إنما تقوم على جذور اعتقادية فاسدة ؛ فعلاجها من فوق السطح قبل علاج جذورها الغاثرة جهد ضائع . حاشا للمنهج الربانى أن يفعله ! إنما بدأ الإسلام من عقدة النفس البشرية الأولى . عقدة العقيدة . بدأ باجتثاث التصور الجاهلى الاعتقادى جملة من جذورة ؛ وإقامة التصور الإسلامى الصحيح . إقامته من أعماق القاعدة المرتكزة إلى الفطرة . . بين للناس فساد تصوراتهم عن الألوهية وهداهم إلى الإله الحق . وحين عرفوا إلهم الحق بدأت نفوسهم تستمع إلى ما يحبة منهم هذا الإله الحق وما يكرهه . وما كانوا قبل ذلك ليسمعوا ! أو يطيعوا أمرا ولا نهيا ؛ وما كانوا ليقلعوا عن مألوفاتهم الجاهلية مهما تكرر لهم النهى وبذلت لهم النصيحة . . إن عقدة الفطرة البشرية هى عقدة العقيدة ؛ وما لم تنعقد هذه العقيدة أولا فلن يثبت فيها شىء من خلق أو تهذيب أو إصلاح اجتماعى . . إن مفتاح الفطرة البشرية ها هنا . وما لم تفتح بمفتاحها فستظل سراديبها مغلقة ودروبها ملتوية ، وكما كشف منها زقاق انبهمت أزقة ؛ وكلما ضاء منها جانب أظلمت جوانب ، وكلما حلت منها عقدة تعقدت عقد ، وكلما فتح منها درب سدت دروب ومسالك . . إلى ما لا نهاية . .

لذلك لم يبدأ المنهج الإسلامى فى علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها ، من هذه الرذائل والانحرافات . . إنما بدأ من العقيدة . . بدأ من شهادة أن لاإله إلا الله . . وظلت فترة إنشاء لا إله إلا الله هذه فى الزمن حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عاما ، لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية ! تعريف الناس بإلههم الحق وتعبيدهم له وتطويعهم لسلطانه . . حتى إذا خلصت نفوسهم لله ؛ وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما يختاره الله . . عندئذ بدأت التكالف – بما فيها الشعائر التعبدية – وعندئذ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والسلوكية . . بدأت فى الوقت الذى يأمر الله فيطيع العباد بلا جدال . لأنهم لا يعلمون لهم خيرة فيما يأمر الله به أو ينهى عنه أيا كان ! ومع هذا فلم يكن تحريم الخمر وما يتصل بها من الميسر أمرا مفاجئا . . فلقد سبقت هذا التحريم القاطع مراحل وخطوات فى علاج هذه التقاليد الاجتماعية المتغلغلة ، المتلبسة بعادات النفوس ومألوفاتها ، والمتلبسة كذلك ببعض الجوانب الاقتصادية وملابساتها .

لقد كانت هذه هى المرحلة الثالثة أو الرابعة فى علاج مشكلة الخمر فى المنهج الإسلامى :

كانت المرحلة الأولى مرحلة إطلاق سهم فى الاتجاه حين قال الله سبحانه فى سورة النحل المكية: (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا . . .) فكانت أول ما يطرق حس المسلم من وضع السكر [وهو المخمر] فى مقابل الرزق الحسن . . فكأنما هو شىء والرزق الحسن شىء آخر .

ثم كانت الثانية بتحريك الوجدان الدينى عن طريق المنطق التشريعى فى نفوس المسلمين حين نزلت التى فى سورة البقرة: (يسألونك عن الخمر والميسر . قل:فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما). . وفى هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى ما دام الاثم أكبر من النفع . إذ أنه قلما يخلو شىء من نفع ؛ ولكن حله أو حرمته إنما ترتكز على غلبة الضر أو النفع .

ثم كانت الثالثة بكسر عادة الشراب ، وإيقاع التنافر بينها وبين فريضة الصلاة حين نزلت التى فى النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون). . والصلاة فى خمسة أوقات معظمها متقارب ؛ ولا يكفى ما بينها للسكر ثم الإفاقة . وفى هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشراب – وخاصة عادة الصبوح فى الصباح والغبوق بعد العصر أو المغرب كما كانت عادة الجاهليين – وفيه كسر لعادة الإدمان التى تتعلق بمواعيد التعاطى . وفيه – وهو أمر له وزنه فى نفس المسلم – ذلك التناقض بين الوفاء بفريضة الصلاة فى مواعيدها والوفاء بعادة الشراب فى مواعيدها ثم كانت هذة الرابعة الحاسمة والأخيرة ، وقد تهيأت النفوس لها تهيؤا كاملا فلم يكن إلا النهى حتى تتبعه الطاعة الفورية والإذعان ، ولما نزلت آيات التحريم هذه ، فى سنة ثلاث بعد وقعة أحد ، لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد

فى نوادى المدينة:"ألا أيها القوم . إن الخمر قد حرمت" . . فمن كان فى يده كأس حطمها ومن كان فى فمه جرعة مجها ، وشقت زقاق الخمر وكسرت قنانيه . . وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر !

والآن ننظر فى صياغة النص القرآنى ؛ والمنهج الذى يتجلى فيه منهج التربية والتوجيه :(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) إنه يبدأ بالنداء المألوف فى هذا القطاع (يا أيها الذين آمنوا .) لاستجاشة قلوب المؤمنين من جهة ؛ ولتذكيرهم بمقتضى هذا الإيمان من الالتزام والطاعة من جهة أخرى . . يلى هذا النداء الموحى تقرير حاسم على سبيل القصر والحصر (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان . .) فهى دنسة لا ينطبق عليها وصف "الطيبات" التى احلها الله . وهى من عمل الشيطان . والشيطان عدو الإنسان القديم ؛ ويكفى أن يعلم المؤمن أن شيئا ما من عمل الشيطان لينفر منه حسه ، وتشمئز منه نفسه ، ويجفل منه كيانه ، ويبعد عنه من خوف ويتقيه ! وفى هذه اللحظة يصدر النهى مصحوبا كذلك بالإطماع فى الفلاح – وهى لمسة أخرى من لمسات الإيحاء النفسى العميق (فاجتنبوه لعلكم تفلحون) ثم يستمر السياق فى كشف خطة الشيطان من وراء هذا الرجس (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة . . .) بهذا ينكشف لضمير المسلم هدف الشيطان ، وغاية كيدة وثمرة رجسه . . إنها إيقاع العداوة والبغضاء فى الصف المسلم – فى الخمر والميسر – كما أنها هى صد (الذين آمنوا عن ذكر الله وعن الصلاة). . ويالها إذن من مكيدة ! وهذه الأهداف التى يريدها الشيطان أمور واقعة يستطيع المسلمون ان يروها فى عالم الواقع بعد تصديقها من خلال القول الإلهى الصادق بذاته . فما يحتاج الإنسان إلى طول بحث حتى يرى أن الشيطان يوقع العداوة والبغضاء – فى الخمر والميسر – بين الناس . فالخمر بما تفقد من الوعى وبما تثير من عرامة اللحم والدم ، وبما تهيج من نزوات ودفعات . والميسر الذى يصحابها وتصاحبه بما يتركه فى النفوس من خسارات واحقاد ؛ إذا المقمور لابد ان يحقد على قامره الذى يستولى على ماله أمام عينيه ، ويذهب به غانما وصاحبه مقمور مقهور . . إن من طبيعة هذه الأمور أن تثير العداوة والبغضاء ، مهما جمعت بين القرناء فى مجالات من العربدة والانطلاق اللذين يخيل للنظرة السطحية أنهما أنس وسعادة ! وأما الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، فلا يحتاجان إلى نظر . . فالخمر تنسى ، والميسر يلهى ، وغيبوبة الميسر لا تقل عن غيبوبة الخمر عند المقامرين ؛ وعالم القامر كعالم السكير لا يتعدى الموائد والأقداح والقداح ! وهكذا عندما تبلغ هذه الإشارة إلى هدف الشيطان من هذا الرجس غايتها من إيقاظ قلوب (الذين آمنوا) وتحفزها ، يجىء السؤال الذى لا جواب له عندئذ إلا جواب عمر رضى الله عنه وهو يسمع فهل أنتم منتهون ؟ فيجيب لتوه:"انتهينا . انتهينا" ولكن السياق يمضى بعد ذلك يوقع إيقاعه الكبير (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا . فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) إنها القاعدة التى يرجع إليها الأمر كله طاعة الله وطاعة الرسول . . الإسلام . . الذى لا تبقى معه إلا الطاعة المطلقة لله وللرسول والحذر من المخالفة ، والتهديد الملفوف (فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) وقد بلغ وبين ، فتحددت التبعة على المخالفين ، بعد البلاغ المبين . . إنه التهديد القاصم ، فى هذا الأسلوب الملفوف ، الذى ترتعد له فرائص المؤمنين ! . . إنهم حين يعصون ولا يطيعون لا يضرون أحدا إلا أنفسهم . لقد بلغ الرسول ﷺ وأدى و نفض يديه من أمرهم إذن فما هو بمسؤول عنهم ، وما هو بدافع عنهم عذابا – وقد عصوه ولم يطيعوه – ولقد صار أمرهم كله إلى الله سبحانه . وهو القادر على مجازاة العصاة

فدل هذا وذلك على أن الخمر تشمل كل مخمر يحدث السكر . . وأنه ليس مقصورا على نوع بعينه . وأن كل ما أسكر فهو حرام . إن غيبوبه السكر – بأى مسكر – تنافى اليقظة الدائمة التى يفرضها الإسلام على قلب المسلم ليكون موصولا بالله فى كل لحظة ، مراقبا لله فى كل خطرة . ثم ليكون بهذه اليقظة عاملا إيجابيا فى نماء الحياة وتجددها , وفى صيانتها من الضعف والفساد ، وفى حماية نفسه وماله وعرضه ، ثم إن هذه الغيبوبة فى حقيقتها إن هي إلا هروب من واقع الحياة فى فترة من الفترات ; وجنوح إلى التصورات التى تثيرها النشوة أو الخمار . والإسلام ينكر على الإنسان هذا الطريق ويريد من الناس أن يروا الحقائق ، وأن يواجهوها ، ويعيشوا فيها ويصرفوا حياتهم وفقها ، ولا يقيموا هذه الحياة على تصورات وأوهام . . إن مواجهة الحقائق هي محك العزيمة والإرادة ؛ أما الهروب منها إلى تصورات وأوهام فهو طريق التحلل , ووهن العزيمة ، وتذاوب الإرادة . وقد اختلف الفقهاء فى اعتبار ذات الخمر نجسة كبقية النجاسات الحسية . أو فى اعتبار شربها هو المحرم . والأول قول الجمهور والثانى قول ربيعة والليث بن سعد والمزنى صاحب

الشافعي وبعض المتأخرين من البغداديين . . وحسبنا هذا القدر في سياق الظلال . و لما نزلت هذه الآيات ، وذكر فيها تحريم الخمر ، ووصفت بأنها رجس من عمل الشيطان انطلقت فى المجتمع المسلم صيحتان متحدتان فى الصيغة ، مختلفتان في الباعث والهدف . قال بعض المتحرجين من الصحابة كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر . . أو قالوا:فما بال قوم قتلوا فى أحد وهى فى بطونهم [أى قبل تحريمها] . وقال بعض المشككين الذين يهدفون إلى البلبلة والحيرة ، هذا القول أو ما يشبهه يريدون أن ينشروا فى النفوس قلة الثقة فى أسباب التشريع ، أو الشعور بضياع إيمان من ماتوا والخمر لم تحرم ؛ وهى رجس من عمل الشيطان ، ماتوا والرجس فى بطونهم ! عندئذ نزلت هذه الآية (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات . ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين) نزلت لتقرر أولا أن ما لم يحرم لا يحرم ؛ وأن التحريم يبدأ من النص لا قبله ؛ وأنه لا يحرم بأثر رجعى ؛ فلا عقوبة إلا بنص ؛ سواء فى الدنيا أو فى الآخرة ؛ لأن النص هو الذى ينشىء الحكم . . والذين ماتوا والخمر فى بطونهم ، وهى لم تحرم بعد ، ليس عليهم جناح ؛ فإنهم لم يتناولوا محرما ؛ ولم يرتكبوا معصية . . لقد كانوا يخافون الله ويعملون الصالحات ويراقبون الله ويعلمون أنه مطلع على نواياهم وأعمالهم . . ومن كانت هذه حاله لا يتناول محرما ولا يرتكب معصية (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات . ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين) ولم أجد فى أقوال المفسرين ما تستريح إليه النفس فى صياغة العبارة القرآنية على النحو وتكرار التقوى مرة مع الإيمان والعمل الصالح ، ومرة مع الإيمان ، ومرة مع الإحسان . . كذلك لم أجد فى تفسيرى لهذا التكرار فى الطبعة الأولى من هذه الظلال ما يستريح إليه نفسى الآن . . وأحسن ما قرأت – وإن كان لا يبلغ من حسى مبلغ الارتياح – هو قاله ابن جرير الطبرى:"الاتقاء الاول هو الاتقاء بتلقى أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل . والاتقاء الثانى الاتقاء بالثبات على التصديق والثالث الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل" . . وكان الذى ذكرته فى الطبعة الأولى فى هذا الموضع هو:"إنه توكيد عن طريق التفصيل بعد الإجمال . فقد أجمل التقوى والإيمان والعمل الصالح فى الأولى . ثم جعل التقوى مرة مع الإيمان فى الثانية ، ومرة مع الإحسان – وهو العمل الصالح – فى الثالثة . . ذلك التوكيد مقصود هنا للاتكاء على هذا المعنى . ولابراز ذلك القانون الثابت فى تقدير الأعمال بما يصاحبها من شعور باطنى . فالتقوى . . تلك الحساسية المرهفة برقابة الله ، والاتصال به فى كل لحظة . والإيمان بالله والتصديق بأوامره ونواهيه ، والعمل الصالح الذى هو الترجم ة الظاهرة للعقيدة المستكنة . والترابط بين العقيدة الباطنة والعمل المعبر عنها . . هذه هى مناط الحكم ، لا الظواهر والأشكال . . وهذه القاعدة تحتاج إلى التوكيد والتكرار والبيان" . وأنا , اللحظة لا أجد فى هذا القول ما يريح أيضا . ولكنه لم يفتح على بشىء آخر . . والله المستعان . ثم يمضى السياق فى مجال التحريم والتحليل ، يتحدث عن الصيد فى حالة الإحرام ، وكفارة قتله ، وعن حكمة الله فى تحريم البيت والأشهر الحرم والهدى والقلائد ، التى نهى عن المساس بها فى مطالع السورة . . ثم يختم هذه الفقرة بوضع ميزان القيم للنفس المسلمة وللمجتمع المسلم . . الميزان الذى يرجح فيه الطيب وإن قل ، على الكثير والخبيث

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ {٩٥} أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{٩٦} جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلآئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{٩٧} اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٩٨} مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ{٩٩} قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ){١٠٠}

وتبدأ هذه الفقرة كما تبدأ كل فقرات هذا القطاع بالنداء المألوف (يا أيها الذين آمنوا . . ثم يخبرهم أنهم مقدمون على امتحان من الله وابتلاء ؛ فى أمر الصيد الذى نهوا عنه وهم محرمون (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ، ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) إنه صيد سهل ، يسوقه الله إليهم . صيد تناله أيديهم من قريب ، وتناله رماحهم بلا مشقة . ولقد حكى أن الله ساق لهم هذا الصيد حتى لكان يطوف بخيامهم ومنازلهم من قريب . . ! إنه الإغراء الذى يكون فيه الابتلاء . . إنه ذات الإغراء الذى عجزت بنو إسرائيل من قبل عن الصمود له ، هذا الابتلاء بعينه ابتلى به الله الأمة المسلمة ، فنجحت حيث أخفقت يهود ، ولقد كشف الله للذين آمنوا فى هذا

الحادث عن حكمة الابتلاء: (ليعلم الله من يخافه بالغيب) إن مخافة الله بالغيب هي قاعدة هذه العقيدة في ضمير المسلم . القاعدة الصلبة التي يقوم عليها بناء العقيدة ، وبناء السلوك ، وتناط بها أمانة الخلافة في الأرض بمنهج الله القويم . . إن الناس لا يرون الله ؛ ولكنهم يجدونه في نفوسهم حين يؤمنون . . إنه تعالى بالنسبة لهم غيب ، ولكن قلوبهم تعرفه بالغيب وتخافة . إن استقرار هذه الحقيقة الهائلة - حقيقة الإيمان بالله بالغيب ومخافته - والاستغناء عن رؤية الحس والمشاهدة ; والشعور بهذا الغيب شعورا يوازى - بل يرجح - الشهادة ؛ حتى ليؤدى المؤمن شهادة:بأن لا إله إلا الله وهو لم ير الله . . إن استقرار هذه الحقيقة على هذا النحو يعبر عن نقلة ضخمة في ارتقاء الكائن البشرى ، وانطلاق طاقاته الفطرية ، واستخدام أجهزته المركوزة في تكوينه الفطرى على الوجه الأكمل ؛ وابتعاده - بمقدار هذا الارتقاء - عن عالم البهيمة التي لا تعرف الغيب - بالمستوى الذى تهيأ له الإنسان - بينما يعبر انغلاق روحه عن رؤية ما وراء الحس ، وانكماش إحساسه في دائرة المحسوس , عن تعطل أجهزة الالتقاط والاتصال الراقية فيه ، وانتكاسه إلى المستوى الحيواني في الحس "المادى" (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) بعد هذا يجيء تفصيل كفارة المخالفة مبدوءا بالنهي مختوما بالتهديد مرة أخرى (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم . ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين , أو عدل ذلك صياما ، ليذوق وبال أمره . عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه , والله عزيز ذو انتقام). . إن النهي ينصب على قتل المحرم للصيد عمدا . فأما إذا قتله خطأ فلا إثم عليه ولا كفارة . . فإذا كان القتل عمدا فكفارته أن يذبح بهيمة من الأنعام من مستوى الصيد الذى قتله . فالغزالة مثلا تجزى ء فيها نعجة أو عنزة . والأيل تجزى ء فيه بقرة . والنعامة والزرافة وما إليها تجزى ء فيها بدنة ، والأرنب والقط وأمثالها يجزى ء فيه أرنب ، وما لا مقابل له من البهيمة يجزى ء عنه ما يوازى قيمته ، ويتولى الحكم في هذه الكفارة اثنان من المسلمين ذوا عدل . فإذا حكما بذبح بهيمة أطلقت هديا حتى تبلغ الكعبة ، تذبح هناك وتطعم للمساكين . أما إذا لم توجد بهيمة فللحكمين أن يحكما بكفارة طعام مساكين ؛ بما يساوى ثمن البهيمة أو ثمن الصيد [خلاف فقهي . [فإذا لم يجد صاحب الكفارة صام ما يعادل هذه الكفارة . مقدرا ثمن الصيد أو البهيمة , ومجزأ على عدد المساكين الذين يطعمهم هذا الثمن ؛ وصيام يوم مقابل إطعام كل مسكين . . أما كم يبلغ ثمن إطعام مسكين فهو موضع خلاف فقهي . ولكنه يتبع الأمكنة والأزمنة والأحوال . وينص السياق القرآني على حكمة هذه الكفارة: (ليذوق وبال أمره) ففي الكفارة معنى العقوبة ، لأن الذنب هنا مخل بحرمة يشدد فيها الإسلام تشديدا كبيرا:لذلك يعقب عليها بالعفو عما سلف والتهديد بانتقام الله ممن لا يكف (عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام) فإذا اعتز قاتل الصيد بقوته وقدرته على نيل هذا الصيد ، الذى أراد الله له الأمان في مثابة الأمان ، فالله هو العزيز القوى القادر على الانتقام ! ذلك شأن صيد البر . فأما صيد البحر فهو حلال في الحل والإحرام (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة) فحيوان البحر حلال صيده وحلال أكله للمحرم ولغير المحرم سواء . . ولما ذكر حل صيد البحر وطعامة ، عاد فذكر حرمة صيد البر للمحرم (وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرمًا) والذى عليه الإجماع هو حرمة صيد البر للمحرم . ولكن هناك خلاف حول تناول المحرم له إذا صاده غير المحرم . كما أن هناك خلافا حول المعنى بالصيد . وهل هو خاص بالحيوان الذى يصاد عادة . أم النهي شامل لكل حيوان ، ولو لم يكن مما يصاد ومما لا يطلق عليه لفظ الصيد ، ويختم هذا التحليل وهذا التحريم باستجاشة مشاعر التقوى في الضمير ؛ والتذكير بالحشر إلى الله والحساب (واتقوا الله الذى إليه تحشرون) وبعد . ففيم هذه الحرمات ؟ إنها منطقة الأمان يقيمها الله للبشر في زحمة الصراع . . إنها الكعبة الحرام ، والأشهر الحرام ، تقدم في وسط المعركة المستعرة بين المتخاصمين والمتحاربين والمتصارعين والمتزاحمين على الحياة بين الأحياء من جميع الأنواع والأجناس . . بين الرغائب والمطامع والشهوات والضرورات . . فتحل الطمأنينة محل الخوف ، ويحل السلام محل الخصام ، وترف أجنحة من الحب والإخاء والأمن والسلام . وتدرب النفس البشرية في واقعها العملي - لا في عالم المثل والنظريات - على هذه المشاعر وهذه المعاني ؛ فلا تبقى مجرد كلمات مجنحة ورؤى حالمة ، تعز على التحقيق في واقع الحياة (جعل الله الكعبة البيت الحرام ، قياما للناس ، والشهر الحرام ، والهدي والقلائد . ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم . اعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم ، ما على الرسول إلا البلاغ ؛ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) لقد جعل الله هذه الحرمات تشمل الإنسان والطير والحيوان والحشرات بالأمن في البيت الحرام ، وفي فترة الإحرام بالنسبة للمحرم حتى وهو لم يبلغ الحرم . كما جعل الأشهر الحرم الأربعة التي لا يجوز فيها القتل ولا القتال وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثم رجب . . ولقد ألقى الله في قلوب العرب - حتى في جاهليتهم - حرمة هذه الأشهر . فكانوا لا يروعون فيها نفسا ، ولا يطلبون فيها دما ، ولا يتوقعون فيها ثأرا , حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه ، فكانت مجالا آمنا للسياحة

والضرب فى الأرض وابتغاء الرزق . . جعلها الله كذلك لأنه أراد للكعبة – بيت الله الحرام – أن تكون مثابة أمن وسلام . تقيم الناس وتقيهم الخوف والفزع . كذلك جعل الأشهر الحرم لتكون منطقة أمن فى الزمان كالكعبة ومنطقة أمن فى المكان . ثم مد رواق الأمن خارج منطقة الزمان والمكان ، فجعله حقا للهدى – وهو النعم – الذى يطلق ليبلغ الكعبة فى الحج والعمرة ؛ فلا يمسه أحد فى الطريق بسوء . كما جعله لمن يتقلد من شجر الحرم ، معلنا احتماءه بالبيت العتيق . ألا ما أحوج البشرية المفزعة الوجلة ، المتطاحنة المتصارعة . . إلى منطقة الأمان ، التى جعلها الله للناس فى هذا الدين ، وبينها للناس فى هذا القرآن ! (ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ، وأن الله بكل شىء عليم) تعقيب عجيب فى هذا الموضع ؛ ولكنه مفهوم ! إن الله يشرع هذه الشريعة ، ويقيم هذه المثابة ، ليعلم الناس أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم . . ليعلموا أنه يعلم طبائع البشر وحاجاتهم ومكنونات نفوسهم وهتاف أرواحهم . وأنه يقرر شرائعه لتلبية الطبائع والحاجات ، والاستجابة للأشواق والمكنونات . . فإذا أحست قلوب الناس رحمة الله فى شريعته ؛ وتذوقت جمال هذا التطابق بينها وبين فطرتهم العميقة علموا أن الله يعلم ما فى السماوات والأرض وأن الله بكل شىء عليم وينتهى الحديث عن الحلال والحرام فى الحل والإحرام بالتحذير صراحة من العقاب مع الإطماع فى المغفرة والرحمة (اعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم) ومع التحذير إيحاء وإلقاء للتبعة على المخالف الذى لا يثوب (ما على الرسول إلا البلاغ ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) ثم تختم الفقرة بميزان يقيمه الله للقيم ، ليزن به المسلم ويحكم . ميزان يرجح فيه الطيب ويشيل الخبيث . كى لا يخدع الخبيث المسلم بكثرته فى أى وقت وفى أى حال (قل:لا يستوى الخبيث والطيب ؛ ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون)

إن المناسبة الحاضرة لذكر الخبيث والطيب فى هذا السياق ، هى مناسبة تفصيل الحرام والحلال فى الصيد والطعام . والحرام خبيث ، والحلال طيب . . ولا يستوى الخبيث والطيب ولو كانت كثرة الخبيث تغر وتعجب . ففى الطيب متاع بلا معقبات من ندم أو تلف ، وبلا عقابيل من ألم أو مرض . . وما فى الخبيث من لذة إلا وفى الطيب مثلها على اعتدال وأمن من العاقبة فى الدنيا والآخرة . . والعقل حين يتخلص من الهوى بمخالطة التقوى له ورقابة القلب له ، يختار الطيب على الخبيث ؛ فينتهى الأمر إلى الفلاح فى الدنيا والآخرة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ{١٠١} قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ{١٠٢} مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ{١٠٣} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ{١٠٤} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{١٠٥} يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ{١٠٦} فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ{١٠٧} ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاسْمَعُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{١٠٨} يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ{١٠٩} إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ){١١٠}

بعد ذلك يتجه السياق إلى شىء من تربية الجماعة المسلمة وتوجيهها إلى الأدب الواجب مع رسول الله [ص] وعدم سؤاله عما لم يخبرها به ؛ مما لو ظهر لساء السائل وأحرجه أو ترتب عليه تكاليف لا يطيقها ، أو ضيق عليه فى أشياء وسع الله فيها ، أو تركها بلا تحديد رحمة بعباده (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم .عفا الله عنها والله غفور حليم .

لقد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) كان بعضهم يكثر على رسول الله ﷺ من السؤال عن أشياء لم يتنزل فيها أمر أو نهى . أو يلح فى طلب تفصيل أمور أجملها القرآن ، وجعل الله فى إجمالها سعة للناس . أو فى الاستفسار عن أمور لا ضرورة لكشفها فإن كشفها قد يؤذى السائل عنها أو يؤذى غيره من المسلمين . وفى حديث مرسل رواه الترمذى والدارقطنى عن على رضى الله عنه قال:لما نزلت هذه الآية :)ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)قالوا: يا رسول الله أفى كل عام ؟ فسكت . فقالوا:أفى كل عام ؟ قال:" لا . ولو قلت نعم لوجبت " فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) وأخرجه الدارقطنى أيضا عن أبى عياض عن أبى هريرة قال: قال رسول الله [ص]: يا أيها الناس كتب عليكم الحج . فقام رجل فقال: أفى كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه ، ثم عاد فقال: أفى كل عام يا رسول الله ؟ فقال:" ومن القائل ؟ " قالوا: فلان . قال:" والذى نفسى بيده لو قلت: نعم . لوجبت . ولو وجبت ما أطقتموها . ولو لم تطيقوها لكفرتم . " فأنزل الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . .(لذلك نهى الله الذين آمنوا أن يسألوا عن أشياء يسوؤهم الكشف عنها ؛ وأنذرهم بأنهم سيجابون عنها إذا سألوا فى فترة الوحى فى حياة رسول الله [ص] وستترتب عليهم تكاليف عفا الله عنها فتركها ولم يفرضها (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم . . عفا الله عنها . .). أى لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها وترك فرضها أو تفصيلها ليكون فى الإجمال سعة . . كأمره بالحج مثلا . . أو تركه ذكرها أصلا ، ثم ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم – من أهل الكتاب – ممن كانوا يشددون على أنفسهم بالسؤال عن التكاليف والأحكام . فلما كتبها الله عليهم كفروا بها ولم يؤدوها . ولو سكتوا وأخذوا الأمور باليسر الذى شاءه الله لعبادة ما شدد عليهم ، وما احتملوا تبعة التقصير والكفران (قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ) ولكن مجىء الحديث فى السياق عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى بعد آية النهى عَنِ السؤالَ يوحى بأن هناك اتصالا ما . . فنكتفى بهذا لنواجه النص القرآنى عن هذه العادات الجاهلية (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون . وإذا قيل لهم:تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول , قالوا:حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون)

إن القلب البشرى إما أن يستقيم على فطرته التى فطره الله عليها ؛ فيعرف إلهه الواحد , ويتخذه ربا ، ويعترف له وحده بالعبودية ويستسلم لشرعه وحده ؛ ويرفض ربوبية من عداه فيرفض إذن أن يتلقى شريعة من سواه . . إما أن يستقيم القلب البشرى على فطرته هذه فيجد اليسر فى الاتصال بربه ، ويجد البساطة فى عبادته ، ويجد الوضوح فى علاقاته به . . وإما أن يتيه فى دروب الجاهلية والوثنية ومنعرجاتها ، تتلقاه فى كل درب (مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) هذه الصنوف من الأنعام التى كانوا يطلقونها لآلهتهم بشروط خاصة ، منتزعة من الأوهام المتراكمة فى ظلمات العقل والضمير . البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى !!! هذه الصنوف من الأنعام ما هى ؟ ومن الذى شرع لهم هذه الأحكام فيها ؟ لقد تشعبت الروايات فى تعريفها ، فنعرض نحن طرفا من هذه التعريفات ، روى الزهرى عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة من الإبل يمنع درها للطواغيب [أى يحجز لبنها ويخصص للآلهة فلا يطعمها الناس وكهنة الآلهة هم الذين يأخذونه طبعًا !] والسائبة من الإبل كانوا يسيبونها لطواغيتهم . والوصيلة كانت الناقة تبكر بالأنثى ، ثم تثنى بالأنثى فيسمونها الوصيلة ، يقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر ، فكانوا يذبحونها لطواغيتهم . والحامى الفحل من الإبل كان يضرب الضراب المعدود [أى يقوم بتلقيح عدد من النوق] فإذا بلغ ذلك يقال: حمى ظهره ، فيترك ، فيسمونه الحامى . ومن ثم يبدأ النص القرآنى بتقرير أن الله لم يشرع هذه الطقوس . لم يشرع البحيرة ولا السائبة ولا الوصيلة ولا الحامى . . فمن ذا الذى شرعها إذن لهؤلاء الكفار ؟! (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) والذين يتبعون ما شرعه غير الله هم كفار . كفار يفترون على الله الكذب . مرة يشرعون من عند أنفسهم ثم يقولون:شريعة الله . . ومرة يقولون:إننا نشرع لأنفسنا ولا ندخل شريعة الله فى أوضاعنا . . ونحن مع هذا لا نعصى الله . وكله كذب على الله (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) ثم يزيد هذه المفارقة فى قولهم وفعلهم إيضاحا (وإذا قيل لهم:تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا:حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . .) كانوا إذا قيل لهم:تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا:حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ! فاتبعوا ما شرعه العبيد ، وتركوا ما شرعه رب العبيد . ورفضوا نداء التحرر من عبودية العباد للعباد ، واختاروا عبودية العقل والضمير ، للآباء والأجداد . ثم يعقب السياق القرآنى على موقفهم ذاك تعقيب التعجيب والتأنيب (أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ؟). .

وليس معنى هذا الاستنكار لاتباعهم لآبائهم ولو كانوا لا يعلمون شيئا ولا يهتدون , أن لو كان يعلمون شيئا لجاز لهم اتباعهم وترك ما أنزل الله وترك بيان الرسول ! إنما هذا تقرير لواقعهم وواقع آبائهم من قبلهم . فآباؤهم كذلك كانوا يتبعون ما شرعه لهم آباؤهم أو ما شرعوه هم لأنفسهم . ولا يركن أحد إلى شرع نفسه أو شرع أبيه ، وبين يديه شرع الله وسنه رسوله ، إلا وهو لا يعلم شيئا ولا يهتدى ! وليقل عن نفسه أو ليقل عنه غيره ما يشاء:إنه يعلم وإنه يهتدى . فالله – سبحانه – أصدق وواقع الأمر يشهد . . وما يعدل عن شرع الله إلى شرع الناس إلا ضال جهول ! فوق أنه مفتر كفور ! فإذا انتهى من تقرير حال الذين كفروا وقولهم التفت إلى "الذين آمنوا" يقرر لهم انفصالهم وتميزهم ؛ ويبين لهم تكاليفهم وواجبهم ؛ ويحدد لهم موقفهم ممن سواهم ؛ ويكلهم إلى حساب الله وجزائه لا إلى أى مغنم فى هذه الأرض أو مأرب (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم تعملون) إنه التميز والمفاصلة بينهم وبين من عداهم . ثم إنه التضامن والتواصى فيما بينهم بوصفهم أمة واحدة (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) أنتم وحدة منفصلون عمن سواكم ، متضامنون متكافلون فيما بينكم . فعليكم أنفسكم . . عليكم أنفسكم فزكوها وطهروها ؛ وعليكم جماعتكم فالتزموها وراعوها ؛ ولا عليكم أن يضل غيركم إذا أنتم اهتديتم . فأنتم وحدة منفصلة عمن عداكم ؛ وأنتم أمة متضامنة فيما بينها بعضكم أولياء بعض ، ولا ولاء لكم ولا ارتباط بسواكم . إن هذه الآية الواحدة تقرر مبادىء أساسية فى طبيعة الأمة المسلمة ، وفى طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى . إن الأمة المسلمة هى حزب الله . ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان . ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن ، لأنه لا اشتراك فى عقيدة ؛ ومن ثم لا اشتراك فى هدف أو وسيلة ؛ ولا اشتراك فى تبعة أو جزاء . وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها ؛ وأن تتناصح وتتواصى ، وأن تهتدى بهدى الله الذى جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها . . ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئا أن يضل الناس حولها ما دامت هى قائمة على الهدى . ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها فى دعوة الناس كلهم إلى الهدى . والهدى هو دينها هى وشريعتها ونظامها . فإذا هى أقامت نظامها فى الأرض بقى عليها أن تدعو الناس كافة ، وأن تحاول هدايتهم ، وبقى عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم ؛ ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التى منها أخرجتهم . . إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت ، لا يعنى أنها غير محاسبة على التقصير فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما بينها أولا , ثم فى الأرض جميعا . وأول المعروف الإسلام لله وتحكيم شريعته ؛ وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته . وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت ، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه . . والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولا ; وعلى البشرية كلها أخيرا . وليس الغرض من بيان حدود التبعة فى الآية كما فهم بعضهم قديما – وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثا – أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – إذا اهتدى هو بذاته – ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة إقامة شريعة الله فى الأرض – إذا هى اهتدت بذاتها – وضل الناس من حولها . إن هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة فى كفاح الشر ، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان – وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله واغتصاب سلطانه وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته ، وهو المنكر الذى لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدى وهذا المنكر قائم .

ولقد روى أصحاب السنن أن أبا بكر – رضى الله عنه – قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال:أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . . وإنكم تضعونها على غير موضعها وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:" إن الناس إذا رأوا المنكر ، ولا يغيرونه ، يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه . " وهكذا صحح الخليفة الأول – رضوان الله عليه – ما ترامى إلى وهم بعض الناس فى زمانه من هذه الآية الكريمة . ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح ، لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق . فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذى يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه ، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه ! وبعد ذلك – لا قبله – تسقط التبعة عن الذين آمنوا ، وينال الضالون جزاءهم من الله حين يرجع هؤلاء وهؤلاء إليه (إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون) والآن يجىء الحكم الأخير من الأحكام الشرعية التى تتضمنها السورة ، فى بيان بعض أحكام المعاملات فى المجتمع المسلم ، وهو الخاص بتشريع الإشهاد على الوصية فى حالة الضرب فى الأرض ، والبعد عن المجتمع والضمانات التى تقيمها الشريعة ليصل الحق إلى أهله (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت – حين الوصية – اثنان ذوا عدل منكم ، أو آخران من غيركم ، إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ، تحبسونهما من بعد الصلاة ، فيقسمان بالله – إن ارتبتم – لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله ، إنا إذا لمن الآثمين . فإن عثر على أنهما

استحقا إثما فالآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم . الأوليان . . فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ، وما اعتدينا ، إنا إذن لمن الظالمين . ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ، أو يخافوا أن ترد إيمان بعد أيمانهم ؛ واتقوا الله واسمعوا , والله لا يهدى القوم الفاسقين)وبيان هذا الحكم الذى تضمنته الآيات الثلاث:أن على من يحس بدنو أجله ، ويريد أن يوصى لأهله بما يحضره من المال ، أن يستحضر شاهدين عدلين من المسلمين إن كان فى الحضر , ويسلمهما ما يريد أن يسلمه لأهله غير الحاضرين . فأما إذا كان ضاربا فى الأرض , ولم يجد مسلمين يشهدهما ويسلمهما ما معه ، فيجوز أن يكون الشاهدان من غير المسلمين . فإن ارتاب المسلمون – أو ارتاب أهل الميت – فى صدق ما يبلغه الشاهدان وفى أمانتهما فى أداء ما استحفظا عليه ، فإنهم يوقفونهما بعد أدائهما للصلاة – حسب عقيدتهما- ليحلفا بالله ، أنهما لا يتوخيان بالحلف مصلحة لهما ولا لأحد آخر ، ولو كان ذا قربى ، ولا يكتمان شيئا مما استحفظا عليه . . وإلا كانا من الآثمين . . وبذلك تنفذ شهادتهما . فإذا ظهر بعد ذلك أنهما ارتكبا إثم الشهادة الكاذبة واليمين الكاذبة والخيانة للأمانة . قام أولى اثنين من أهل الميت بوراثته ، من الذين وقع عليهم هذا الإثم ، بالحلف بالله أن شهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين . وأنهما لم يعتديا بتقريرهما هذه الحقيقة . وبذلك تبطل شهادة الأولين ، وتنفذ الشهادة الثانية . ثم يقول النص:إن هذه الإجراءات أضمن فى أداء الشهادة بالحق ؛ أو الخوف من رد أيمان الشاهدين الأولين ، مما يحملهما على تحرى الحق (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ، أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) وينتهى إلى دعوة الجميع إلى تقوى الله ، ومراقبته ، وخشيته ، والطاعة لأوامره ، لأن الله لا يهدى من يفسقون عن طريقه ، إلى خير ولا إلى هدى (واتقوا الله واسمعوا . والله لا يهدى القوم الفاسقين)

(يوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ{١٠٩} إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ{١١٠} وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ{١١١} إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{١١٢} قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ{١١٣} قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ{١١٤} قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ{١١٥} وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ{١١٦} مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{١١٧} إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٢١٨} قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١١٩} لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ){١٢٠}

هذا الدرس بطوله بقية فى تصحيح العقيدة ؛ وتقويم ما دخل عليها عند النصارى من انحرافات أخرجتها عن أصلها السماوى عند قاعدتها الأساسية . إذ أخرجتها من التوحيد المطلق الذى جاء به عيسى – عليه السلام – كما جاء به كل رسول الذين كانوا يكذبونهم . ليعلن فى موقف الإعلان ، أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاءوهم من عند الله بدين الله ؛ وها هم أولاء مسؤولون بين يديه – سبحانه - عن رسالاتهم وعن أقوامهم الذين كانوا من قبل يكذبون . أما الرسل فهم يعلنون أن العلم الحق لله وحده ؛ وأن ما لديهم من علم لا ينبغى أن يدلوا به فى حضرة صاحب العلم ، تأدبا وحياء ، ومعرفة بقدرهم فى حضرة الله ،(يوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ) فأما سائر الرسل – غير عيسى عليه السلام – فقد صدق بهم من صدق ، وقد كفر بهم من كفر ; ولقد انتهى أمرهم بهذا الجواب الكامل الشامل ، الذى يدع العلم كله لله ، ويدع الأمر كله بين يديه . سبحانه . . فما يزيد السياق شيئا فى هذا المشهد عنهم . . إنما يلتفت بالخطاب إلى عيسى بن مريم وحده ، لأن عيسى بن مريم هو الذى فتن قومه فيه ، وهو الذى غام الجو حوله بالشبهات ، وهو الذى خاض ناس فى الأوهام والأساطير حول ذاته , وحول صفاته ، وحول نشأته ومنتهاه يلتفت الخطاب إلى عيسى بن مريم – على الملأ ممن ألهوه وعبدوه وصاغوا

حوله وحول أمه - مريم – التهاويل . . يلتفت إليه يذكره نعمة الله عليه وعلى والدته ؛ ويستعرض المعجزات التى آتاها الله إياه ليصدق الناس برسالته ، فكذبه من كذبه منهم أشد التكذيب وأقبحه ؛ وفتن به وبالآيات التى جاءت معه من فتن ؛ وألهوه مع الله من أجل هذه الآيات ، وهى كلها من صنع الله الذى خلقه وأرسله وأيده بالمعجزات (إذ قال الله:يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك . إذ أيدتك بروح القدس , تكلم الناس فى المهد وكهلا . وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى . وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى . وإذ تخرج الموتى بإذنى . وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم:إن هذا إلا سحر مبين . وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا:آمنا واشهد بأننا مسلمون) إنها المواجهة بما كان من نعم الله على عيسى بن مريم وأمه . . من تأييده بروح القدس فى مهده ، وهو يكلم الناس فى غير موعد الكلام ؛ يبرىء أمه من الشبهة التى أثارتها ولادته على غير مثال ؛ ثم وهو يكلمهم فى الكهولة يدعوهم إلى الله . . وروح القدس جبريل – عليه السلام – يؤيده هنا وهناك . . ومن تعليمه الكتاب والحكمة ؛ وقد جاء إلى هذه الأرض لا يعلم شيئا ، فعلمه الكتابة وعلمه كيف يحسن تصريف الأمور ، كما علمه التوراة التى جاء فوجدها فى بنى إسرائيل ، والإنجيل الذى آتاه إياه مصدقا لما بين يديه من التوراة . ثم من إيتائه خارق المعجزات التى لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله . فإذا هو يصور من الطين كهيئة الطير بإذن الله ؛ فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله - لا ندرى كيف لأننا لا ندرى إلى اليوم كيف خلق الله الحياة ، وكيف يبث الحياة فى الأحياء – وإذا هو يبرىء المولود أعمى – بإذن الله – حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر – ولكن الله الذى يهب البصر أصلا قادر على أن يفتح عينيه للنور – ويبرىء الأبرص بإذن الله ، لا بدواء – والدواء وسيلة لتحقيق إذن الله فى الشفاء ، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة ، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة – وإذا هو يحيى الموتى بإذن الله – وواهب الحياة أول مرة قادر على رجعها حين يشاء – ثم يذكره بنعمة الله عليه فى حمايته من بنى إسرائيل إذ جاءهم بهذه البينات كلها فكذبوه . ويستطرد السياق فى معرض النعم على عيسى بن مريم وأمه ، إلى شىء من نعمة الله على قومه, ومن معجزاته التى أيده الله بها وشهدها بها الحواريون (إذ قال الحواريون:يا عيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا: نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا , ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله:إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى ، المستخلصين منهم وهم الحواريون ، فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى . فآمنوا . وأشهدوا عيسى على إسلامهم ، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا ، يطلبون خارقة جديدة . تطمئن بها نفوسهم . ويعلمون منها أنه صدقهم . ويشهدون بها له لمن وراءهم . فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم . . لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان . ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان . ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن . . هذا هو الفارق الكبير بين حوارى عيسى عليه السلام – وحوارى محمد ﷺ ذلك مستوى , وهذا مستوى . . وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون . . وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون . . ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله . .

وقصة المائدة – كما أوردها القرآن الكريم – لم ترد فى كتب النصارى . ولم تذكر فى هذه الأناجيل التى كتبت متأخرة بعد عيسى – عليه السلام – بفترة طويلة ، لا يؤمن معها على الحقيقة التى تنزلت من عند الله .وهذه الأناجيل ليست إلا رواية بعض القديسين عن قصة عيسى – عليه السلام – وليست هى ما أنزله الله عليه وسماه الإنجيل الذى آتاه ، ولكن ورد فى هذه الأناجيل خبر عن المائدة فى صورة أخرى:فورد فى إنجيل متى فى نهاية الإصحاح الخامس عشر:"وأما يسوع فدعا تلاميذه ، وقال:إنى أشفق على الجميع ، لأن لهم الآن ثلاثة أيام يمشون معى , وليس لهم ما يأكلون . ولست أريد أن أصرفهم صائمين لئلا يخوروا فى الطريق . فقال له تلاميذه: من أين لنا فى البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعا هذا عدده ؟ فقال لهم يسوع:كم عندكم من الخبز ؟ فقالوا:سبعة وقليل من صغار السمك . فأمر الجموع أن يتكئوا على الأرض ؛ وأخذ السبع خبزات والسمك ، وشكر وكسر ، وأعطى تلاميذه , والتلاميذ أعطوا الجمع ، فأكل الجمع وشبعوا ، ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة سلال مملوءة , والآكلون كانوا أربعة الآف ، ما عدا النساء والأولاد" . . . وورد مثل هذه الرواية فى سائر الأناجيل (قَالَ اللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِين (١١٥) وبعض التابعين – رضوان الله عليهم – كمجاهد

والحسن – يريان أن المائدة لم تنزل . لأن الحواريين حينما سمعوا قول الله سبحانه: (إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) خافوا وكفوا عن طلب نزولها قال ابن كثير فى التفسير:"روى الليث بن أبى سليم عن مجاهد قال:"هو مثل ضربة الله ولم ينزل شيء " [رواه ابن أبى حاتم وابن جرير] . ثم قال ابن جرير:حدثنا الحارث ، حدثنا القاسم – هو ابن سلام – حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال:مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا ، فأبوا أن تنزل عليهم . . وقال أيضا ؛ حدثنا أبو المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور بن زاذان ، عن الحسن , أنه قال فى المائدة:إنها لم تنزل . . وحدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد , عن قتادة ، قال:كان الحسن يقول:لما قيل لهم: (فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدًا من العالمين)قالوا:لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل" . ولكن أكثر آراء السلف على أنها نزلت . لأن الله تعالى قال (إنى منزلها عليكم). ووعد الله حق . وما أورده القرآن الكريم عن المائدة هو الذى نعتمده فى أمرها دون سواه . . إن الله – سبحانه – يذكر عيسى بن مريم – فى مواجهة قومه يوم الحشر وعلى مشهد من العالمين - بفضله عليه (إذ قال الحواريون :يا عيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟) لقد كان الحواريون – وهم تلاميذ المسيح وأقرب أصحابه إليه وأعرفهم به – يعرفون أنه بشر . . ابن مريم . . وينادونه بما يعرفونه عنه حق المعرفة . وكانوا يعرفون أنه ليس ربا وإنما هو عبد مربوب لله . وأنه ليس ابن الله ، إنما هو ابن مريم ومن عبيد الله ; وكانوا يعرفون كذلك أن ربه هو الذى يصنع تلك المعجزات الخوارق على يديه , وليس هو الذى يصنعها من عند نفسه بقدرته الخاصة . . لذلك حين طلبوا إليه ، أن تنزل عليهم مائدة من السماء ، لم يطلبوها منه ، فهم يعرفون أنه بذاته لا يقدر على هذه الخارقة . وإنما سألوه (يا عيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟). . واختلفت التأويلات فى قولهم: (هل يستطيع ربك) كيف سألوا بهذه الصيغة بعد إيمانهم بالله وإشهاد عيسى – عليه السلام – على إسلامهم له . وقيل:إن معنى يستطيع ليس] يقدر [ولكن المقصود هو لازم الاستطاعة وهو أن ينزلها عليهم . وقيل: إن معناها:هل يستجيب لك إذا طلبت . وقرئت: "هل تستطيع ربك" . بمعنى هل تملك أنت أن تدعو ربك لينزل علينا مائدة من السماء ، وعلى أية حال فقد رد عليهم عيسى – عليه السلام – محذرا إياهم من طلب هذه الخارق ة لأن المؤمنين لا يطلبون الخوارق ، ولا يقترحون على الله (قال:اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) ولكن الحواريين كرروا الطلب ، معلنين عن علته وأسبابه وما يرجون من ورائه (قالوا:نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين) فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الفريد الذى لا نظير له عند أهل الأرض . وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهى تتحقق أمام أعينهم ؛ ويستيقنوا أن عيسى عليه السلام قد صدقهم ، ثم يكونوا شهودا لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة . عندئذ اتجه عيسى – عليه السلام – إلى ربه يدعوه (قال عيسى ابن مريم:اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا , وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين) وفى دعاء عيسى – بن مريم – كما يكرر السياق القرآنى هذه النسبة – أدب العبد المجتبى مع إلهه ومعرفته بربه . فهو يناديه:يا الله . يا ربنا . إننى أدعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء ، تعمنا بالخير والفرحة كالعيد ، فتكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا ; وآن هذا من رزقك فارزقنا وأنت خير الرازقين . . فهو إذن يعرف أنه عبد ؛ وأن الله ربه . وهذا الاعتراف يعرض على مشهد من العالمين ، فى مواجهة قومه ، يوم المشهد العظيم ! واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى بن مريم ؛ ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه . . لقد طلبوا خارقة . واستجاب الله . على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذابا شديدا بالغا فى شدته لا يعذبه أحدا من العالمين (قال الله:إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) فهذا هو الجد اللائق بجلال الله ؛ حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية ولهوا . وحتى لا يمضى الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون جزاء رادع ! وقد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسل بعد المعجزة . . فأما هنا فإن النص يحتمل أن يكون هذا العذاب فى الدنيا ، أو أن يكون فى الآخرة . ويسكت السياق بعد وعد الله وتهديده ، ليمضى إلى القضية الأساسية قضية الألوهية والربوبية . . وهى القضية الواضحة فى الدرس كله . . فلنعد إلى المشهد العظيم فهو ما يزال معروضا على أنظار العالمين . لنعد إليه فنسمع استجوابا مباشرا فى هذه المرة فى مسألة الألوهية المدعاة لعيسى بن مريم وأمه . استجوابا يوجه إلى عيسى - عليه السلام فى مواجهة الذين عبدوه . ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربه فى دهش وفزع من هذه الكبيرة التى افتروها عليه وهو منها برى ء (وإذ قال الله:يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس:اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ? قال:سبحانك:ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به:أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك ، قَالَ اللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ

مِنكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ) إن الله – سبحانه – ليعلم ماذا قال عيسى للناس . ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب فى اليوم العظيم الموهوب ، الاستجواب الذى يقصد به إلى غير المسؤول ؛ ولكن فى صورته هذه وفى الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلهين لهذا العبد الصالح الكريم ، إنها الكبيرة التى لا يطيق بشر عادى أن يقذف بها . . أن يدعى الألوهية وهو يعلم أنه عبد . . فكيف برسول من أولى العزم ؟ كيف بعيسى بن مريم ؛ وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعد ما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه ؟ كيف به يواجه استجوابا عن ادعاء الألوهية ، وهو العبد الصالح المستقيم ؟ من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب . . يبدأ بالتسبيح والتنزيه (قال:سبحانك !) ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلا (ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته ؛ مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه (إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك . إنك أنت علام الغيوب) وعندئذ فقط ، وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله ، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم إلى عبادته (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به:أن اعبدوا الله ربى وربكم). ثم يخلى يده منهم بعد وفاته . . وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله – سبحانه – قد توفى عيسى بن مريم ثم رفعه إليه . وبعض الآثار تفيد أنه حى عند الله . وليس هنالك - فيما أرى – أى تعارض يثير أى استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض , وأن يكون حيا عنده . فالشهداء كذلك يموتون فى الأرض وهم أحياء عند الله . أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندرى لها كيفا . وكذلك صورة حياة عيسى – عليه السلام - وهو هنا يقول لربه:إننى لا أدرى ماذا كان منهم بعد وفاتى (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) وينتهى إلى التفويض المطلق فى أمرهم ؛ مع تقرير عبوديتهم لله وحده . وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم ؛ وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب (إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فياالله للعبد الصالح فى موقفه الرهيب ! وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة ؛ التى يتبرأ منها العبد الطاهر البرىء ذلك التبرؤ الواجف ، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب ؟ أين هم فى هذا الموقف ، فى هذا المشهد ؟ . . إن السياق لا يلقى إليهم التفاتة واحدة . فلعلهم يتداوبون خزيا وندما . فلندعهم حيث تركهم السياق ! لنشهد ختام المشهد العجيب (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم . . إنه التعقيب المناسب على كذب الكاذبين ؛ الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبى الكريم . فى أعظم القضايا كافة . . قضية الألوهية والعبودية ، التى يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومن فيه ، هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم . . إنها كلمة رب العالمين ، فى ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين . . وهى الكلمة الأخيرة فى المشهد . وهى الكلمة الحاسمة فى القضية . ومعها ذلك الجزاء الذى يليق بالصدق والصادقين (لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار). . (خالدين فيها أبدًا). . (رضى الله عنهم). . (ورضوا عنه) درجات بعد درجات . . الجنات والخلود ورضا الله ورضاهم بما لقوا من ربهم من التكريم) :ذلك الفوز العظيم)ولقد شهدنا المشهد – من خلال العرض القرآنى له بطريقة القرآن الفريدة – وسمعنا الكلمة الأخيرة . . شهدنا وسمعنا لأن طريقة التصوير القرآنية لم تدعه وعدا يوعد ، ولا مستقبلا ينتظر ؛ ولم تدعه عبارات تسمعها الآذان أو تقرؤها العيون . إنما حركت به المشاعر ، وجسمته واقعا اللحظة تسمعه الآذان وتراه العيون . .

. وفى نهاية هذا الدرس ؛ وفى مواجهة الفرية الكبرى التى لم يفتر أضخم منها قط أتباع رسول ! فى مواجهة الفرية الكبرى التى أطلقها أتباع المسيح عيسى بن مريم – عليه السلام – فرية ألوهيته ؛ الفرية التى تبرأ منها هذا التبرؤ ، وفوض ربه فى أمر قومه بشأنها هذا التفويض ، فى مواجهة هذه الفرية ، وفى نهاية الدرس الذى عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها ، فى ذلك المشهد العظيم . . يجىء الإيقاع الأخير فى السورة ؛ يعلن تفرد الله – سبحانه - بملك السماوات والأرض وما فيهن ؛ وقدرته – سبحانه – على كل شىء بلا حدود (لله ملك السماوات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شىء قدير) ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التى أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة ، ومع ذلك المشهد العظيم الذى يتفرد الله فيه بالعلم ، ويتفرد بالألوهية ، ويتفرد بالقدرة ، وينيب إليه الرسل ؛ ويفوضون إليه الأمر كله ؛ ويفوض فيه عيسى بن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم . الذى له ملك السماوات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شىء قدير . .

وختام يتناسق مع السورة التى تتحدث عن "الدين" وتعرضه ممثلا فى اتباع شريعة الله وحـده , والتلقـى منه وحده ، السورة التى تتحدث الحكم بما أنزل الله . إنه المالك الذى له ملك السماوات والأرض وما فيهن ، والمالك هوالذى يحكم : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئک هم الكافرون). .

إنها قضية واحدة . . قضية الألوهية . . قضية التوحيد . . وقضية الحكم بمـا أنـزل الله . . لتتوحـد الألوهيـة ويتحقق التوحيد . .

الأنعام
مكية و آياتها (165)

هذه السورة مكية . . من القرآن المكي . . القرآن الذى ظل يتنزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاما كاملة ، يحدثه فيها عن قضية واحدة . قضية واحدة ولم يتجاوز القرآن المكى هذه القضية الأساسية إلى شىء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة ، إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان ، وأنها استقرت استقرارا مكينا ثابتا فى قلوب العصبة المختارة من بنى الإنسان , التى قدر الله لها أن يقوم هذا الدين عليها ؛ وأن تتولى هى إنشاء النظام الواقعى الذى يتمثل فيه هذا الدين .

-حكمة البدء بالعقيدة وليس بالقومية أو الإجتماعية أو الأخلاقية

وأصحاب الدعوة إلى دين الله ، وإقامة النظام الذى يتمثل فيه هذا الدين فى واقع الحياة ; خليقون أن يقفوا طويلا أمام هذه الظاهرة الكبيرة ، ظاهرة تصدى القرآن المكى خلال ثلاثة عشر عاما . . لتقرير هذه العقيدة ؛ ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شىء من تفصيلات النظام الذى يقوم عليها ، والتشريعات التى تحكم المجتمع المسلم الذى يعتنقها ، لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هى القضية التى تتصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة . وأن يبدأ رسول الله ﷺ أولى خطواته فى الدعوة ، بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ؛ وأن يمضى فى دعوته يعرف الناس بربهم الحق ، ويعبدهم له دون سواه .

ولم تكن هذه – فى ظاهر الأمر وفى نظرة العقل البشرى المحجوب – هى أيسر السبل إلى قلوب العرب ! فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى:"إله" ومعنى:"لا إله إلا الله" ، كانوا يعرفون أن الألوهية تعنى الحاكمية العليا ، وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله – سبحانه – بها ، معناه نزع السلطان الذى يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ، ورده كله إلى الله . . السلطان على الضمائر ، والسلطان على الشعائر ، والسلطان على واقعيات الحياة . . السلطان فى المال ، والسلطان فى القضاء ، والسلطان فى الأرواح والأبدان . . كانوا يعلمون أن:"لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضى ، الذى يغتصب أولى خصائص الألوهية ، وثورة على الأوضاع التى تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ؛ وخروج على السلطات التى تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله ، ولم يكن يغيب عن العرب – وهم يعرفون لغتهم جيدا ، ويعرفون المدلول الحقيقى لدعوة:"لا إله إلا الله" – ماذا تعنيه هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم ، ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة – أو هذه الثورة – ذلك الاستقبال العنيف ، وحاربوها تلك الحرب التى يعرفها الخاص والعام . . فلم كانت هذه نقطة البدء فى هذه الدعوة ؟ ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء ؟ لقد بعث رسول الله ﷺ بهذا الدين ، وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست فى أيدى العرب ، إنما هى فى يد غيرهم من الأجناس ! بلاد الشام كلها فى الشمال خاضعة للروم ، يحكمها أمراء من العرب من قبل الرومان . وبلاد اليمن كلها فى الجنوب خاضعة للفرس يحكمها أمراء من العرب من قبل الفرس ، وليس فى أيدى العرب إلا الحجاز ونجد وما إليهما من الصحارى القاحلة ، التى تتناثر فيها الواحات الخصبة هنا وهناك ! وكان فى استطاعة محمد ﷺ وهو الصادق الأمين ؛ الذى حكمه أشراف قريش قبل ذلك فى وضع الحجر الأسود ، وارتضوا حكمه ، منذ خمسة عشر عاما ؛ والذى هو فى الذؤابة من بنى هاشم أعلى قريش نسبا . . كان فى استطاعته أن يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب ، التى أكلتها الثارات ، ومزقتها النزاعات ، وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها المغتصبة من الإمبراطوريات المستعمرة ؛ الرومان فى الشمال والفرس فى الجنوب وإعلاء راية العربية والعروبة ؛ وإنشاء وحدة قوية فى كل أرجاء الجزيرة ، ولو دعا يومها رسول الله ﷺ هذه الدعوة لاستجابت له العرب قاطبة – على الأرجح - بدلا من أن يعانى ثلاثة عشر عاما فى اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان فى الجزيرة ! وربما قيل إن محمدا ﷺ كان خليقا بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة ؛ وبعد أن يولوه فيهم القيادة والسيادة ؛ وبعد استجماع السلطان فى يديه والمجد فوق مفرقه ، أن يستخدم هذا كله فى إقرار عقيدة التوحيد التى بعثه بها ربه ، وفى تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه ! ولكن الله – سبحانه – وهو العليم الحكيم ، لم يوجه رسوله ﷺ هذا التوجيه ! إنما وجهه إلى أن يصدع بلا إله إلا الله وأن يحتمل هو والقلة التى تستجيب له كل هذا العناء !

لماذا ؟ لأن الله – سبحانه – لا يريد أن يعنت رسوله والمؤمنين معه . . إنما هو – سبحانه - يعلم أن ليس هذا هو الطريق . . ليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت رومانى أو طاغوت فارسى ، إلى يد طاغوت عربى ، فالطاغوت كله طاعوت ! . . إن الأرض لله ، ويجب أن تخلص لله . ولا تخلص لله إلا أن ترتفع عليها راية:"لا إله إلا الله إن الناس عبيد لله وحده ، ولا يكونون عبيدا لله وحده إلا أن ترتفع راية:"لا إله إلا الله" . . "لا اله الا الله" كما كان يدركها العربى العارف بمدلولات لغته لا حاكمية إلا لله ، ولا شريعة إلا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله . . ولأن الجنسية التى يريدها الإسلام للناس هى جنسية العقيدة ، التى يتساوى فيها العربى والرومانى والفارسى وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله .

وهذا هو الطريق . .

وبعث رسول الله ﷺ بهذا الدين ، والمجتمع العربى كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعا للثروة والعدالة . . قلة قليلة تملك المال والتجارة ؛ وتتعامل بالربا فتضاعف تجارتها ومالها . وكثرة كثيرة لا تملك إلا الشظف والجوع . . والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف والمكانة ؛ وجماهير كثيفة ضائعة من المال والمجد جميعا !

وكان فى استطاعة محمد ﷺ أن يرفعها راية اجتماعية ؛ وأن يثيرها حربا على طبقة الأشراف وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع ورد أموال الأغنياء على الفقراء ! ولو دعا يومها رسول الله ﷺ هذه الدعوة ، لانقسم المجتمع العربى صفين:الكثرة الغالبة فيه مع الدعوة الجديدة ، فى وجه طغيان المال والشرف . بدلا من أن يقف المجتمع كله صفا فى وجه:"لا إله إلا الله" التى لم يرتفع إلى أفقها فى ذلك الحين إلا الأفذاذ من الناس . وربما قيل:إن محمدا ﷺ كان خليقا بعد أن تستجيب له الكثرة ؛ وتوليه قيادها ؛ فيغلب بها القلة ويسلس له مقادها . . أن يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه فى إقرار عقيدة التوحيد التى بعثه بها ربه ، وفى تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه ! ولكن الله – سبحانه – وهو العليم الحكيم ، لم يوجهه هذا التوجيه . . لقد كان الله – سبحانه – يعلم أن هذا ليس هو الطريق . . كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق فى المجتمع من تصور اعتقادى شامل ؛ يرد الأمر كله لله ؛ ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضى به الله من عدالة فى التوزيع ، ومن تكافل بين الجميع ; ويستقر معه فى قلب الآخذ والمأخوذ منه أنه ينفذ نظاما يرضاه الله ; ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى فى الدنيا والآخرة سواء . فلا تمتلىء قلوب بالطمع ، ولا تمتلىء قلوب بالحقد ; ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا ؛ وبالتخويف والإرهاب ! ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الأرواح ؛ كما يقع فى الأوضاع التى نراها قد قامت على غير:"لا إله إلا الله" . . وبعث رسول الله ﷺ والمستوى الأخلاقى فى الجزيرة العربية فى الدرك الأسفل فى جوانب منه شتى – إلى جانب ما كان فى المجتمع من فضائل الخامة البدوية . كان التظالم فاشيا فى المجتمع ، تعبر عنه حكمة الشاعر:زهير بن أبى سلمى:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

ويعبر عنه القول المتعارف:"انصر أخاك ظالما أو مظلومًا" . وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ومن مفاخرة كذلك ! يعبر عن هذه الخصلة الشعر الجاهلى بجملته . . كالذى يقوله طرفة بن العبد:

فلولا ثلاث هن من زينة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى

فمنهن سبقى العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد !

وكانت الدعارة – فى صور شتى – من معالم هذا التجمع . . كالذى روته عائشة رضى الله عنها:

"إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء:فنكاح منها نكاح الناس اليوم:يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ثم ينكحها . . والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته – إذا طهرت من طمثها – أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه . ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ! فكان هذا النكاح

نكاح الاستبضاع . . ونكاح آخر:يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرآة ، كلهم يصيبها . فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال ، بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم:قد عرفتم الذى كان من أمركم , وقد ولدت ، فهو ابنک يا فلان ، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل . والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها – وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن – فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطه ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلک" . . . [أخرجه البخارى فى كتاب النكاح] .

وكان فى استطاعة محمد ﷺ أن يعلنها دعوة إصلاحية ، تتناول تقويم الأخلاق ، وتطهير المجتمع ، وتزكية النفوس ، وتعديل القيم والموازين ، وكان واجدا وقتها – كما يجد كل مصلح أخلاقى فى أية بيئة – نفوسا طيبة ، يؤذيها هذا الدنس ؛ وتأخذها الأريحية والنخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهير . وربما قال قائل إنه لو صنع رسول الله ﷺ ذلک فاستجابت له – فى أول الأمر – جمهرة صالحة ؛ تتطهر أخلاقها ، وتزكو أرواحها ، فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها ، بدلا من أن تثير دعوة أن لا إله إلا الله المعارضة القوية منذ أول الطريق ! ولكن الله – سبحانه – وهو العليم الحكيم ، لم يوجه رسوله ﷺ إلى مثل هذا الطريق . . لقد كان الله – سبحانه – يعلم أن ليس هذا هو الطريق ! كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة ، تضع الموازين ، وتقرر القيم وتقرر السلطة التى ترتكن إليها هذه الموازين والقيم ؛ كما تقرر الجزاء الذى تملكه هذه السلطة وتوقعه على الملتزمين والمخالفين . وأنه قبل تقرير تلک العقيدة تظل القيم كلها متأرجحة ؛ وتظل الأخلاق التى تقوم عليها متأرجحة كذلک ؛ بلا ضابط ، وبلا سلطان ، وبلا جزاء !

فلما تقررت العقيدة – بعد الجهد الشاق – وتقررت السلطة التى ترتكن إليها هذه العقيدة ، لما عرف الناس ربهم وعبدوه وحده ، لما تحرر الناس من سلطان العبيد ، ومن سلطان الشهوات سواء ، لما تقررت فى القلوب:"لا إله إلا الله" . . صنع الله بها وبأهلها كل شىء مما يقترحه المقترحون . تطهرت الأرض من الرومان والفرس . . لا ليتقرر فيها سلطان العرب ، ولكن ليتقرر فيها سلطان الله . لقد تطهرت من الطاغوت كله:رومانيا وفارسيا وعربيا على السواء . وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعى بجملته . وقام النظام الإسلامى يعدل بعدل الله , ويزن بميزان الله ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ؛ ويسميها راية الإسلام , لا يقرن إليها اسما آخر ؛ ويكتب عليها:"لا إله إلا الله" ! وتطهرت النفوس والأخلاق ، وزكت القلوب والأرواح ؛ دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود والتعازير التى شرعها الله – إلا فى الندرة النادرة – لأن الرقابة قامت هنالک فى الضمائر ; ولأن الطمع فى رضى الله وثوابه ، والحياء والخوف من غضبه وعقابه قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات .وارتفعت البشرية فى نظامها ، وفى أخلاقها ، وفى حياتها كلها ، إلى القمة السامقة التى لم ترتفع إليها من قبل قط ؛ والتى لم ترتفع إليها من بعد إلا فى ظل الإسلام . . ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين فى صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام ؛ كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل فى ضمائرهم وفى حياتهم ، فى صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوک . وكانوا قد وعدوا على إقامة هذا الدين وعدا واحدا ، لا يدخل فيه الغلب والسلطان . . ولا حتى لهذا الدين على أيديهم . . وعدا واحدا لا يتعلق بشىء فى هذه الدنيا . . وعدا واحدا هو الجنة . . هذا كل ما وعدوه على الجهاد المضنى ، والابتلاء الشاق ، والمضى فى الدعوة ، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذى يكرهه أصحاب السلطان , فى كل زمان وفى كل مكان ، وهو:"لا إله إلا الله" ! فلما أن ابتلاهم الله فصبروا ؛ ولما أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم ؛ ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء فى هذه الأرض – كائنا ما كان هذا الجزاء ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم ، وقيام هذا الدين فى الأرض بجهدهم – ولما لم يعد فى نفوسهم اعتزاز بجنس ولا قوم ، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض . ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت . . لما علم الله منهم ذلک كله ، علم أنهم قد أصبحوا – إذن – أمناء على هذه الأمانة الكبرى . أمناء على العقيدة التى يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمية فى القلوب والضمائر وفى السلوک والشعائر ، وفى الأرواح والأموال ، وفى الأوضاع والأحوال . . وأمناء على السلطان الذى يوضع فى أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها , وعلى عدل الله يقيمونه ، دون أن يكون لهم من ذلک السلطان شىء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم ، إنما يكون السلطان الذى فى أيديهم لله ولدينه وشريعته ، لأنهم يعلمون أنه من الله ، هو الذى آتاهم إياه . ولم يكن شىء من هذا المنهج المبارک ليتحقق على هذا المستوى الرفيع ، إلا أن تبدأ الدعوة ذلک البدء ، وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها . . راية لا إله إلا الله . . ولا ترفع معها سواها . . وإلا أن تسلک الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق فى ظاهره ; المبارک الميسر فى حقيقته .ـ

- لماذا بدأ القرآن بالعقيدة ثم بالتشريعات ؟

إن طبيعة هذا الدين هى التى قضت بهذا . . فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة . . كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير . . وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة المديدة الظلال المتشابكة الأغصان ، الضاربة فى الهواء . . لا بد لها أن تضرب بجذورها فى التربة على أعماق بعيدة ، وفى مساحات واسعة ; تناسب ضخامتها وامتدادها فى الهواء . . فكذلك هذا الدين . . إن نظامه يتناول الحياة كلها ؛ ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها ؛ وينظم حياة الإنسان لا فى هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولكن كذلك فى الدار الآخرة ؛ ولا فى عالم الشهادة وحده ولكن كذلك فى عالم الغيب المكنون عنها ؛ ولا فى المعاملات الظاهرة المادية ، ولكن فى أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا . . فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية . . ولا بد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضا . . هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته ؛ يحدد منهجه فى بناء نفسه وفى امتداده ؛ ويجعل بناء العقيدة وتمكينها ، وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها . . ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة ، وضمانا من ضمانات الاحتمال والتناسق بين الظاهر من الشجرة فى الهواء ، والضارب من جذورها فى الأعماق ، وجانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى فى هذا المنهج القويم . . إن هذا الدين منهج عملى حركى جاد . . جاء ليحكم الحياة فى واقعها ؛ ويواجه هذا الواقع ليقضى فيه بأمره . . يقره أو يعدله أو يغيره من أساسه . . ومن ثم فهو لا يشرع إلا لحالات واقعة فعلا , فى مجتمع يعترف ابتداء بحاكمية الله وحده . إنه ليس نظرية تتعامل مع الفروض ! إنه منهج يتعامل مع الواقع ! فلا بد أولا أن يقوم المجتمع المسلم الذى يقر عقيدة أن لا إله إلا الله ، وأن الحاكمية ليست إلا لله ; ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله ؛ ويرفض شرعية أى وضع لا يقوم على هذه القاعدة . . وحين يقوم هذا المجتمع فعلا ، تكون له حياة واقعية ، تحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع . . وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين فى تقرير النظم وفى سن الشرائع . . لقوم مستسلمين أصلا للنظم والشرائع ، رافضين ابتداء لغيرها من النظم والشرائع . . والمسلمون فى مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم . وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله . . ومن ثم لم ينزل الله فى هذه الفترة تنظيمات وشرائع ؛ وإنما نزل لهم عقيدة ، وخلقا منبثقا من العقيدة بعد استقرارها فى الأعماق البعيدة . . فلما صارت لهم دولة فى المدينة ذات سلطان تنزلت عليهم الشرائع ؛ وتقرر لهم النظام ؛ الذى يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية ؛ والذى تكفل له الدولة بسلطانها الجدية والنفاذ . . ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع فى مكة ، ليختزنوها جاهزة ، حتى تطبق بمجرد قيام الدولة فى المدينة ! إن هذه ليست طبيعة هذا الدين ! إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية ! إنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولا . . إنما هو يواجه الواقع بحجمه وشكله وملابساته لصوغه فى قالبه الخاص ، وفق حجمه وشكله وملابساته . . والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قوالب نظام ، وأن يصوغ تشريعات حياة . . بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها ، ورفض كل شريعة سواها , مع تملكه للسلطة التى تفرض هذا وتنفذه . . الذين يريدون من الإسلام ذلك لا يدركون طبيعة هذا الدين ، ولا كيف يعمل فى الحياة ؛ كما يريد له الله . . إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية ، ومناهج بشرية . ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبى رغبات وقتية فى نفوسهم إنما تنشئها الهزيمة الداخلية فى أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة . . إنهم يريدون منه أن يصوغ نفسه فى قالب فروض ، تواجه مستقبلا غير موجود . . والله يريد لهذا الدين أن يكون كما أراده . . عقيدة تملأ القلب ، وتفرض سلطانها على الضمير . عقيدة مقتضاها لا يخضع الناس إلا لله ، ولا يتلقوا الشرائع إلا من الله . وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم ، ويصبح لهم السلطان فى مجتمعهم , تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية ، وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك .

كذلك يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية ، أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين ، يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة – حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ! وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون – يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة:لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقى وهو رد الحاكمية لله فى أمرهم كله ، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم . . إقرارها فى ضمائرهم وشعائرهم ، وإقرارها فى أوضاعهم وواقعهم . ولتكن هذه القضية هى أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت هى أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة . . هذه الدعوة التى تكفل بها القرآن المكى طوال ثلاثة عشر عاما كاملة . . وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض أسس النظام الإسلامى عليه ؛ كما يأخذ هذا المجتمع نفسه فى سن التشريعات التى تقتضيها حياته الواقعية ، فى إطار الأسس العامة للنظام الإسلامى . . فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الإسلامى الواقعى العملى الجاد . .

ولقد يخيل إلى بعض المخلصين المتعجلين ، ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين ، وطبيعة منهجه الربانى القويم ، المؤسس على حكمه العليم الحكيم ، وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة . . أن عرض أسس النظام الإسلامى – بل التشريعات الإسلامية كذلك – على الناس مما ييسر لهم طريق الدعوة ، ويحبب الناس فى هذا الدين ! وهذا وهم تنشئه العجلة ! وهم كالذى كان يقترحه المقترحون:أن تقوم دعوة رسول الله ﷺ – فى أولها تحت راية قومية ، أو اجتماعية ، أو أخلاقية ، تيسيرا للطريق ! إن النفوس يجب أن تخلص أولا لله ، وتعلن عبوديتها له ، بقبول شرعه وحده ورفض كل شرع غيره . . من ناحية المبدأ . . قبل أن تخاطب بأى تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه !

منهج القرآن في عرض العقيدة

وبعد فلا بد أن نقول كيف عالج القرآن المكى قضية العقيدة فى خلال الثلاثة عشر عاما . . إنه لم يعرضها فى صورة "نظرية" ! ولم يعرضها فى صورة "لاهوت" ولم يعرضها فى صورة جدل كلامى كالذى زاوله فيما بعد ما سمى ب "علم التوحيد" أو" علم الكلام"! كلا . . لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة "الإنسان" بما فى وجوده هو وبما فى الوجود من حوله من دلائل وإيحاءات . . كان يستنفذ فطرته من الركام ؛ ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها ؛ ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها . . والسورة التى بين أيدينا نموذج كامل من هذا المنهج المتفرد وسنتحدث عن خصائصها بعد قليل . . كان القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية . . كان يخوض بها معركة مع الركام المعطل للفطرة . . فى نفوس آدمية حاضرة واقعة . . ومن ثم لم يكن شكل "النظرية" هو الشكل الذى يناسب هذا الواقع الحاضر . إنما كان هو شكل المواجهة الحية للعقابيل والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية فى النفوس الحاضرة الحية . . ولم يكن الجدل الذهنى الذى انتهجه – فى العصور المتأخرة – علم التوحيد , هو الشكل المناسب كذلك . . فلقد كان القرآن يواجه واقعا بشريا كاملا بكل ملابساته الحية ؛ ويخاطب الكينونة البشرية بجملتها فى خضم هذا الواقع . . وكذلك لم يكن "اللاهوت" هو الشكل المناسب . فإن العقيدة الإسلامية ولو أنها عقيدة ، إلا أنها عقيدة تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملى ؛ ولا تقبع فى الزاوية الضيقة التى تقبع فيها الأبحاث اللاهوتية النظرية ! كان القرآن وهو يبنى العقيدة فى ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها ؛ كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية فى ضميرها وأخلاقها وواقعها . . ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة ، لا فى صورة نظرية ، ولا فى صورة لاهوت ولا فى صورة جدل كلامى . . ولكن فى صورة تكوين تنظيمى مباشر للحياة ، ممثل فى الجماعة المسلمة ذاتها . وكان نمو الجماعة المسلمة فى تصورها الاعتقادى ، وفى سلوكها الواقعى وفق هذا التصور ، وفى دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها . . كان هذا النمو ذاته ممثلا تماما لنمو البناء العقيدى , وترجمة حية له . . وهذا هو منهج الإسلام الذى يمثل طبيعته كذلك . . وإنه لمن الضرورى لأصحاب الدعوة الإسلامية أن يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه فى الحركة على هذا النحو الذى بيناه . . ذلك ليعلموا أن مرحلة بناء العقيدة التى طالت فى العهد المكى على هذا النحو ، لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملى للحركة الإسلامية , والبناء الواقعى للجماعة المسلمة . . لم تكن مرحلة تلقى "النظرية" ودراستها ! ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدى للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلى معا . . وهكذا ينبغى أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى . . هكذا ينبغى أن تطول مرحلة بناء العقيدة ؛ وأن تتم خطواتها على مهل وفى عمق وتثبت . . وهكذا ينبغى ألا تكون مرحلة بناء العقيدة مرحلة دراسة نظرية للعقيدة ؛ ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة فى صورة حية ، متمثلة فى ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ؛ ومتمثلة فى بناء جماعى يعبر نموه عن نمو العقيدة ذاتها ؛ ومتمثلة فى حركة واقعية تواجه الجاهلية وتخوض معها المعركة فى الضمير وفى الواقع كذلك ؛ لتتمثل العقيدة حية وتنمو نموا حيا فى خضم المعركة . وخطأ أى خطأ – بالقياس إلى الإسلام – أن تتبلور النظرية فى صورة نظرية مجردة للدراسة النظرية . . المعرفية الثقافية . . بل خطر أى خطر كذلك . . إن القرآن لم يقض ثلاثة عشر عاما كاملة فى بناء العقيدة بسبب أنه كان يتنزل للمرة الأولى . . كلا !فلو أراد الله لأنزل هذا القرآن جملة واحدة ؛ ثم ترك أصحابه يدرسونه ثلاثة عشر عاما أو أكثر أو أقل ، حتى يستوعبوا "النظرية الإسلامية ! " ولكن الله – سبحانه – كان يريد أمراً آخر . كان يريد منهجا معينا متفردا . كان يريد بناء الجماعة وبناء الحركة وبناء العقيدة فى وقت واحد . كان يريد أن يبنى الجماعة والحركة بالعقيدة ، وأن يبنى العقيدة بالجماعة والحركة ! كان يريد أن تكون العقيدة هى واقع الجماعة الفعلى ، وأن يكون واقع الجماعة الحركى الفعلى هو صورة العقيدة . . وكان الله – سبحانه – يعلم أن بناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة . . فلم يكن بد أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذى يستغرقه بناء النفوس والجماعة . . حتى إذا نضج التكوين العقيدى كانت الجماعة هى المظهر الواقعى لهذا

النضوج . . هذه هى طبيعة هذا الدين – كما تستخلص من منهج القرآن المكى – ولا بد أن نعرف طبيعته هذه ؛ ولا نحاول أن نغيرها تلبية لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية ! فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة ، وبها يصنع الأمة المسلمة فى كل مرة يراد أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود ، كما أخرجها الله أول مرة . . يجب أن ندرك خطأ المحاولة ، وخطرها معا ، فى تحويل العقيدة الإسلامية الحية التى يجب أن تتمثل فى واقع تام حى متحرك ، إلى "نظرية" للدراسة والمعرفة الثقافية لمجرد أننا نريد أن نواجه "النظريات" البشرية الهزيلة بنظرية إسلامية ! إن العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل فى نفوس حية ، وفى تنظيم واقعى ، وفى حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها ، كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة فى نفوس أصحابها – بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل أن تدخل العقيدة إلى نفوسهم وتنتزعها من الوسط الجاهلى . وهى فى صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول ومن الحياة أيضا مساحة أضخم وأوسع وأعمق مما تشغله "النظرية" ؛ وتشمل – فيما تشمل – مساحة النظرية ومادتها . ولكنها لا تقتصر عليها . إن التصور الإسلامى للألوهية وللوجود الكونى وللحياة وللإنسان ، تصور شامل كامل . ولكنه كذلك تصور واقعى إيجابى . وهو يكره – بطبيعته – أن يتمثل فى مجرد تصور ذهنى معرفى . لأن هذا يخالف طبيعته وغايته . ويجب أن يتمثل فى أناسى ، وفى تنظيم حى ، وفى حركة واقعية . . وطريقته فى التكون أن ينمو من خلال الأناسى والتنظيم الحى والحركة الواقعية ؛ حتى يكتمل نظريا فى نفس الوقت الذى يكتمل فيه واقعيا ؛ ولا ينفصل فى صورة نظرية ؛ بل يظل ممثلا فى الصورة الواقعية . .

ونمضى بعد ذلك مع السورة .

هذه السورة – وهى أولى السور المكية التى نتعرض لها هنا فى سياق هذه الظلال – نموذج كامل للقرآن المكى الذى تحدثنا عن طبيعته وخصائصه ومنهجه فى الصفحات السابقة ; وهى تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه ، فى موضوعها الأساسى ، وفى منهج التناول وفى طريقة العرض سواء . . ذلك مع احتفاظها "بشخصيتها" الخاصة ؛ وفق الظاهرة الملحوظة فى كل سور القرآن ؛ والتى لا تخطئها الملاحظة البصيرة فى أية سورة ، فلكل سورة شخصيتها ، وملامحها ، ومحورها ، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسى ؛ والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض ؛ والصور والظلال والجو الذى يظللها ؛ والعبارات الخاصة التى تتكرر فيها ؛ وتكون أشبه باللوازم المطردة فيها . . . حتى وهى تتناول موضوعا واحدا أو موضوعات متقاربة . فليس الموضوع هو الذى يرسم شخصية السورة ؛ ولكنه هذه الملامح والسمات الخاصة بها ! وهذه السورة – مع ذلك – تعالج موضوعها الأساسى بصورة فريدة . . إنها فى كل لمحة منها وفى كل موقف ، وفى كل مشهد ، تمثل "الروعة الباهرة" . . الروعة التى تبده النفس , وتشده الحس ، وتبهر النفس أيضا ؛ وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعها وموحياتها مبهورا ! نعم ! هذه حقيقة ! حقيقة أجدها فى نفسى وحسى وأنا أتابع سياق السورة ومشاهدها وإيقاعاتها . . وما أظن بشرا ذا قلب لا يجد منها لونا من هذا الذى أجد . . إن الروعة فيها تبلغ فعلا حد البهر . حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلا مبهورا مبدوها ! إنها –فى جملتها – تعرض "حقيقة الألوهية" . . تعرضها فى مجال الكون والحياة ، كما تعرضها فى مجال النفس والضمير ، وتعرضها فى مجاهيل هذا الكون المشهود ، كما تعرضها فى مجاهيل ذلك الغيب المكنون . . وتعرضها فى مشاهد النشأة الكونية والنشأة الحيوية والنشأة الإنسانية ، كما تعرضها فى مصارع الغابرين واستخلاف المستخلفين . . وتعرضها فى مشاهد الفطرة وهى تواجه الكون ، وتواجه الأحداث ، وتواجه النعماء والضراء , كما تعرضها فى مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة فى حياة البشر الظاهرة والمستكنة ,وفى أحوالهم الواقعة والمتوقعة . . وأخيرا تعرضها فى مشاهد القيامة ، ومواقف الخلائق وهى موقوفة على ربها الخالق . . إن موضوعها الذى تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة ، بكل مقوماتها وبكل مكوناتها . وهى تأخذ بمجامع النفس البشرية ، وتطوف بها فى الوجود كله ، وراء ينابيع العقيدة وموحياتها المستترة والظاهرة فى هذا الوجود الكبير . . إنها تطوف بالنفس البشرية فى ملكوت السماوات والأرض ، تلحظ فيها الظلمات والنور ، وترقب الشمس والقمر والنجوم . وتسرح فى الجنات المعروشات وغير المعروشات ، والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها ؛ وتقف بها على مصارع الأمم الخالية ، وآثارها البائدة والباقية . ثم تسبح بها فى ظلمات البر والبحر ، وأسرار الغيب والنفس ، والحى يخرج من الميت والميت يخرج من الحى ، والحبة المستكنة فى ظلمات الأرض ، والنطفة المستكنة فى ظلمات الرحم . ثم تموج بالجن والإنس ، والطير والوحش ، والأولين والآخرين ، والموتى والأحياء ، والحفظة على النفس بالليل والنهار . . إنه الحشد الكونى الذى يزحم أقطار النفس ، وأقطار الحس . . ثم إنها اللمسات المبدعة المحيية ، التى تنتفض بعدها المشاهد والمعانى أحياء فى الحس والخيال . . وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر ، جديد نابض ، كأنما تتلقاه النفس أول مرة ; وكأنما لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان

! وهي تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات والصور والظلال مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها ، متشابكة معها ؛ في المجرى المتصل المتدفق ! وهي في كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة ، تبلغ حد "الروعة الباهرة" التي وصفنا - مع تناسق منهج العرض في شتى المشاهد كما سنبين - وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة ، وبالحيوية الدافقة ، وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي وبالتجمع والاحتشاد ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة ! ونحن - سلفا - على يقين أننا لسنا ببالغين شيئا في نقل إيقاعات هذه السورة إلى أي قلب إلا بأن ندع السورة ذاتها تنطلق بسياقها الذاتي ، وإيقاعها الذاتي ، إلى هذا القلب . . لسنا ببالغين شيئا بالوصف البشري والأسلوب البشري . . ولكنها مجرد المحاولة لإقامة القنطرة بين المعزولين عن هذا القرآن - بحكم بعدهم عن الحياة في جو القرآن - وبين هذا القرآن !

والحياة في جو القرآن لا تعني مدارسة القرآن ؛ وقراءته والاطلاع على علومه . . إن هذا ليس "جو القرآن" الذي نعنيه . . إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن:هو أن يعيش الإنسان في جو ، وفي ظروف ، وفي حركة ، وفي معاناة ، وفي صراع ، وفي اهتمامات . . كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن . . أن يعيش الإنسان في مواجهةهذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض اليوم ، وفي قلبه , وفي همه ، وفي حركته ، أن "ينشيء" الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس ، وفي حياته وفي حياة الناس ، مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية . بكل تصوراتها ، وكل اهتماماتها وكل تقاليدها ، وكل واقعها العملي ؛ وكل ضغطها كذلك عليه ، وحربها له ، ومناهضتها لعقيدتها الربانية ، ومنهجه الرباني ؛ وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة ؛ بعد الكفاح والجهاد والإصرار . . هذا هو الجو القرآني الذي يمكن أن يعيش فيه الإنسان ؛ فيتذوق هذا القرآن . . فهو في مثل هذا الجو نزل ، وفي مثل هذا الخضم عمل . . والذين لا يعيشون في مثل هذا الجو معزولون عن القرآن مهما استغرقوا في مدارسته وقراءته والاطلاع على علومه . . والمحاولة التي نبذلها لإقامة القنطرة بين المخلصين من هؤلاء وبين القرآن ، ليست بالغة شيئا ، إلا بعد أن يجتاز هؤلاء القنطرة ؛ ويصلوا إلى المنطقة الأخرى ؛ ويحاولوا أن يعيشوا في "جو القرآن" حقا بالعمل والحركة . وعندئذ فقط سيتذوقون هذا القرآن ; ويتمتعون بهذه النعمة التي ينعم الله بها على من يشاء

- مجالات عرض الألوهية والعبودية والحاكمية في الأنعام

هذه السورة تعالج قضية العقيدة الأساسية . . قضية الألوهية والعبودية . . تعالجها بتعريف العباد برب العباد . من هو ؟ ما مصدر هذا الوجود ؟ ماذا وراءه من أسرار ؟ من هم العباد ؟ من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود ؟ من أنشاهم ؟ من يطعمهم ? من يكفلهم ؟ من يدبر أمرهم ؟ من يقلب أفئدتهم وأبصارهم ؟ من يقلب ليلهم ونهارهم ؟ من يبدئهم ثم يعيدهم ؟ لأي شيء خلقهم ؟ ولأي أجل أجلهم ؟ ولأي مصير يسلمهم ؟ . . هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك . . من بثها في هذا الموات ؟ . . هذا الماء الهاطل . هذا البرعم النابغ . هذا الحب المتراكب . هذا النجم الثاقب . هذا الصبح البازغ . هذا الليل السادل . هذا الفلك الدوار . . هذا كله من وراءه ؟ وماذا وراءه من أسرار , ومن أخبار ؟ . . هذه الأمم ، وهذه القرون ، التي تذهب وتجيء ، وتهلك وتستخلف . . من ذا يستخلفها ؟ ومن ذا يهلكها ؟ لماذا تستخلف ؟ ولماذا يدركها البوار ؟ وماذا بعد الاستخلاف والابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء ؟ ؟ ؟ هكذا تطوف السورة بالقلب البشري في هذه الآماد والآفاق ، وفي هذه الأغوار والأعماق . . ولكنها تمضي في هذه كله على منهج القرآن المكي . الذي أسلفنا الحديث عنه في الصفحات السابقة - وعلى منهج القرآن كله . . إنها لا تهدف إلى تصوير نظرية في العقيدة ولا إلى جدل لاهوتي يشغل الأذهان والأفكار . . إنما تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق ؛ لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق . تعبيد ضمائرهم وأرواحهم ، وتعبيد سعيهم وحركتهم ، وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم ، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد . . سلطان الله الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء . . ويكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد . . من أولها إلى آخرها . . فالله هو الخالق . والله هو الرازق . والله هو المالك . والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان . والله هو العليم بالغيوب والأسرار . والله هو الذي يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار . . وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد ; وألا يكون لغيره نهي ولا أمر ، ولا شرع ولا حكم ، ولا تحليل ولا تحريم . فهذا كله من خصائص الألوهية ، ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله ، لا يخلق ، ولا يرزق ، ولا يحيي ولا يميت ، ولا يضر ولا ينفع ، ولا يمنح ولا يمنع ، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا في الدنيا ولا في الآخرة . . وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته في تلك

المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة ؛ والتى تواجه القلب بالحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية ، من كل درب ومن كل باب ! والقضية الكبيرة التى تعالجها السورة هى قضية الألوهية والعبودية فى السماوات والأرض . فى محيطها الواسع ، وفى مجالها الشامل . . ولكن المناسبة الحاضرة فى حياة الجماعة المسلمة حينذاك ، المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة ، هى ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم فى الذبائح والمطاعم ، ومن حق تقرير بعض الشعائر فى النذور من الذبائح والثمار والأولاد . . وهى المناسبة التى تتحدث عنها هذه الآيات فى أواخر السورة (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ، وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه , وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون. .)]١٢١ - ١١٨ (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا:هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . وقالوا:هذه أنعام وحرث حجر , لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها - افتراء عليه - سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا:ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم , إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ؛ وحرموا ما رزقهم الله - افتراء على الله - قد ضلوا وما كانوا مهتدين). . [١٤٠ - ١٣٦] والحشد الذى يتدفق به سياق السورة من التقريرات والمؤثرات ، وهو يواجه الجاهلية وأهلها فى أمر هذه الأنعام والذبائح والنذور - وهى المناسبة التى تتمثل فيها قضية حق التشريع - وربطها بقضية العقيدة كلها - قضية الألوهية والعبودية - وجعلها مسألة إيمان أو كفر ، ومسألة إسلام أو جاهلية . كذلك يدل ذلك الحشد على مدى الأهمية التى ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله من ظلال حاكمية البشر فى أى شأن من شؤون البشر - جل أم حقر ، كبر أم صغر - وربط أى شأن من هذه الشؤون بالأصل الكبير الذى يتمثل فيه هذا الدين . . وهو حاكمية الله المطلقة التى تتمثل فيها ألوهيته فى الأرض ، كما تتمثل ألوهيته فى الكون كله بتصريف أمر هذا الكون كله بلا شريك . إن سياق السورة يعقب على تلك الشعائر الجاهلية فى شأن الأنعام والثمار ، والنذور منها ومن الأولاد تعقيبات منوعة . بعضها مباشر ، لتصوير مدى السخف والتناقض فى هذه الشعائر , وبعضها للربط بين مزاولة البشر لحق التحريم والتحليل وقضية العقيدة الكبرى , ولبيان أن اتباع أمر الله فيها هو صراطه المستقيم ، الذى يخرج من لا يتبعه عن هذا الدين . . على النحو التالى بعد ذكر تلك الشعائر فى الآيات السابقة:

وكذلك نرى أن هذه المسألة الجزئية الخاصة بالتحريم والتحليل فى الأنعام والنذور فى الأنعام والثمار ، وفى الأولاد - على ما كان متبعا فى الجاهلية - يربطها السياق بتلك القضايا الكبيرة:بالهدى والضلال . واتباع منهج الله أو اتباع خطوات الشيطان ، وبرحمة الله أو بأسه وبالشهادة بوحدانية الله أو عدل غيرها به . وباتباع صراطه مستقيما أو التفرق عنه . ويستخدم نفس التعبيرات التى استخدمها وهو بصدد القضية الكبرى فى محيطها الشامل و هو ما تتعرض له الآيات [141 - 153 كما نراه يحشد لها من المؤثرات والموحيات - فى هذا الموضع وحده - مشهد الخلق والإحياء فى الجنات المعروشات وغير المعروشات . ومشهد النخل والزرع مختلفا ألوانه والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه . وموقف الإشهاد والمفاصلة . وموقف البأس والتدمير على المشركين . . وهى ذات المشاهد التى حشدها السياق فى السورة كلها من قبل ، وهو يتناول قضية العقيدة بجملتها ، قبل أن يتعرض لهذه المناسبة الخاصة التى تتمثل فيها . ولكل هذا دلالته التى لا تخطى ء على طبيعة هذا الدين ، ونظرته لقضية الحاكمية والتشريع فى الكثير والقليل . .

ولعلنا قد سبقنا سياق السورة ؛ ونحن نبين منهجها الموضوعى وهى تتناول قضية العقيدة بجملتها ، فى مواجهة مناسبة جزئية تتعلق بأمر التشريع والحاكمية . وهى المناسبة التى لا نقول:إنها اقتضت ذلك الحشد المتجمع المتدفق من التقريرات والتأثيرات فى سياق السورة كله ، وهذا البيان الرائع الباهر لحقيقة الألوهية فى مجالها الواسع الشامل . ولكننا نقول:إنها المناسبة التى ربطت فى سياق السورة بهذا كله ; فدل هذا الربط على طبيعة هذا الدين ؛ ونظرته لقضية التشريع والحاكمية فى الكبير والصغير ، وفى الجليل والحقير من شؤون هذه الحياة الدنيا . . كما أسلفنا . .

فالآن نمضى فى التعريف المجمل بالسورة وخصائصها وملامحها ، على النحو الذى ألفناه فى هذه الظلال ، قبل الدخول فى الاستعراض المفصل للسياق:

- مكية الأنعام ورد القول بمدنية بعض آياتها

فى روايات عن ابن عباس ، وعن أسماء بنت يزيد ، وعن جابر ، وعن أنس بن مالك وعن عبدالله بن مسعود – رضى الله عنهم جميعا – أن هذه السورة مكية ، وأنها نزلت كلها جملة واحدة .

وليس فى هذه الروايات ما يعين تاريخ نزول السورة ؛ وليس فى موضوعها كذلك ما يحدد زمن نزولها من العهد المكي . . وهى حسب الترتيب الراجح لسور القرآن يجيء ترتيبها بعد سورة الحجر ؛ وتكون هى السورة الخامسة والخمسين . . ولكننا – كما بينا من قبل ، لا نستطيع بمثل هذه المعلومات أن نجزم بشيء عن تاريخ محدد لنزول السور . فالمعول عليه عندهم – فى الغالب – فى ترتيب السور على هذا النحو هو تاريخ نزول أوائلها – لا جملتها – وقد تكون هناك أجزاء من سورة متقدمة نزلت بعد أجزاء من سورة متأخرة . إذ المعول فى الترتيب على أوائل السورة . . أما فى سورة الأنعام فقد نزلت كلها جملة . ولكننا لا نملك تحديد تاريخ نزولها . غير أننا نرجح أنها كانت بعد السنوات الأولى من الرسالة . . ربما الخامسة أو السادسة . . ولا نعتمد فى هذا الترجيح على أكثر من رقم الترتيب ؛ ثم على سعة الموضوعات التى تناولتها ,والتوسع فى عرضها على هذا النحو , الذى يشى بأن الدعوة والجدل مع المشركين , وطول الإعراض منهم والتكذيب لرسول الله ، أصبح يقتضى التوسع فى عرض القضايا العقيدية على هذا النحو ؛ كما يقتضى تسلية رسول الله ﷺ عن طول الصد والإعراض والتكذيب . . وفى رواية عن ابن عباس وقتادة:أن السورة مكية كلها إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة . قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . قل:من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل:الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون). وهى الآية:٩١ . نزلت فى مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين . وقوله تعالى (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)وهى الآية ١٤١ ، نزلت فى ثابت بن قيس شماس الأنصارى . . وقال ابن جريج والماوردى نزلت فى معاذ ابن جبل . وإنما الذى جعل بعضهم يعتبرها مدنية هو ما جاء فيها من قوله تعالى: (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده). . واعتبارهم هذا الأمر يعنى الزكاة . والزكاة لم تتقرر بأنصبتها المحددة فى الزروع والثمار إلا فى المدينة . . ولكن هذا المعنى ليس متعينا فى الآية . إذ أن هناك أقوالا مأثورة فى تفسيرها بأنها تعنى الصدقات ، أو بأنها تعنى الإطعام منها لمن يمر بهم يوم الحصاد أو جنى الثمار ؛ أو لقرابتهم . . وأن الزكاة حددت فيما بعد بالعشر ونصف العشر . . وعلى هذا تكون الآية مكية .

-عرض سورة الأنعام لموضوعاتها فى موجات متدافقة وأمثلة على ذلك

أما موضوع السورة الأساسى وشخصيتها العامة فقد أجملنا الإشارة إليهما فى مطلع الحديث عنها . ولكن لا بد من شيء من التفصيل فى هذا التعريف . .

روى أبو بكر بن مردويه – بإسناده – عن أنس بن مالك قال قال رسول الله " ﷺ نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين ، لهم زجل بالتسبيح ، والأرض بهم ترتج" . ورسول الله يقول:" سبحان الله العظيم . سبحان الله العظيم . . " . . هذا الموكب ، وهذا الارتجاج ، واضح ظلهما فى السورة ! . . إنها هى ذاتها موكب . موكب ترتج له النفس ، ويرتج له الكون ! . . إنها زحمة من المواقف والمشاهد والموحيات والإيقاعات ! . . وهى – كما قلنا من قبل – تشبه فى سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجه تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها ، ومتشابكة معها , فى المجرى المتصل المتدفق ! والموضوع الرئيسى الذى تعالجه متصل ؛ فلا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع ، كل مقطع منها يعالج جانبا من الموضوع . . إنما هى موجات . . وكل موجة تتفق مع التى قبلها وتكملها . ومن ثم فلن نحاول عرض الموضوعات التى تحتويها السورة فى هذا التعريف ؛ وإنما سنحاول فقط عرض نماذج من هذه الموجات المتلاحقة فيها: تبدأ السورة بمواجهة المشركين ، الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى ، بينما دلائل التوحيد تجبههم وتواجههم وتحيط بهم

وتطالعهم فى الآفاق وفى أنفسهم . . تبدأ بمواجهتهم بحقيقة الألوهية متجلية فى لمسات عريضة تشمل الوجود كله ؛ وتشمل وجودهم كله . . تبدأ فى لمسات ثلاث ترسم مجالى الوجود الكبيرة على أقصى عمق واتساع (الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده , ثم أنتم تمترون . وهو الله فى السماوات وفى الأرض ، يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون) ثلاث آيات تذرع الوجود الكونى كله فى الآية الأولى ، وتذرع الوجود الإنسانى كله فى الآية الثانية . . ثم تحيط الألوهية بالوجودين كليهما فى الآية الثالثة ! أى إعجاز ! وأية روعة ! وأى شمول ! وأية إحاطة ! وفى هذه اللحظة تبدأ الموجة التالية تعرض موقف المكذبين بآيات الله هذه المبثوثة فى الكون والحياة ؛ ومع عرض الموقف المنكر الغريب ، يجىء التهديد ، وتعرض مصارع الغابرين , ويتجلى السلطان القاهر الذى تدل عليه هذه المصارع ، وهذه القوارع . فيبدو عجيبا منكرا تعنت المنكرين أمام هذا الحق المبين ؛ ويبدو أن المنكرين ليس الذى ينقصهم هو الدليل ولكنه صدق النية ، وتفتح القلب للدليل (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ، ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا:إن هذا إلا سحر مبين . وقالوا:لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون . ولقد استهزئ برسل من قبلك ؛ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون . قل:سيروا فى الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ومن هنا تبدأ موجة ثالثة فى التعريف بحقيقة الألوهية ، متجلية فى ملكية الله سبحانه لما فى السماوات وما فى الأرض ، ولما سكن بالليل والنهار . ومتجلية فى كونه الرازق الذى يطعم ولا يطعم . فهو من ثم الولى الذى لا ولى غيره . الذى يجب أن يسلم العبيد أنفسهم إليه وحده . وهو الذى يعذب العصاة فى الآخرة . وهو الذى يملك الضر والخير . وهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده . وهو الحكيم الخبير . . وتبلغ الموجة قمتها بعد هذا التمهيد كله ، فى الإشهاد والمفاصلة بين الرسول ﷺ وبين القوم ، وإنذارهم والتبرؤ من شركهم ، وإعلان التوحيد فى مواجهتهم ، فى رنة عالية فاصلة جازمة (لمن ما فى السماوات والأرض ؟ قل:لله . كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ، قل:أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل:إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل:إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير . قل:أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل:لا أشهد . قل إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون) ثم تبدأ موجة رابعة تتحدث عن معرفة أهل الكتاب لهذا الكتاب الجديد الذى يكذب به المشركون ; وتصف هذا الشرك بأنه أظلم الظلم ؛ وتقف المشركين أمام مشهدهم يوم الحشر وهم يسألون عن شركائهم فينكرون الشرك ويذهب عنهم الافتراء ؛ وتصور حالهم وأجهزة الاستقبال الفطرية فيهم معطلة ، لا تلتقط موحيات الإيمان ولا تستجيب ، وقلوبهم محجوبة لا تدرك دلائل الإيمان ، وهم يدعون أن هذا القرآن أساطير الأولين ؛ وتقول لهم:إنهم يهلكون أنفسهم وهم ينهون غيرهم عن الهدى ، وينأون عنه . ثم تصور حالهم وهم موقوفون على النار يقولون:يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! ثم تعود بهم إلى الدنيا وهم ينكرون البعث والمعاد . ثم تعقب على هذا بتصوير حالهم وهم موقوفون على ربهم ، وهم يسألون عن هذا الإنكار ؛ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم . وتنتهى الموجة بتقرير خسارة المكذبين بلقاء الله ، وتفاهة الحياة الدنيا إلى جانب الدار الآخرة المدخرة للذين يتقون (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؛ إنه لا يفلح الظالمون . ويوم نحشرهم جميعا . ثم نقول للذين أشركوا:أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا:والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا:إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ وقفوا على النار ، فقالوا:يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . وقالوا:إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال:أليس هذا بالحق ؟ قالوا:بلى

وربنا ! قال:فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا:يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم , ألا ساء ما يزرون ! وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون) ثم تبدأ موجة خامسة ، يلتفت فيها السياق إلى رسول الله ﷺ يسليه ويسرى عنه ما يحزنه من تكذيبهم له ولما جاءهم به من عند الله . ويجعل له أسوة في الرسل قبله ممن صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله . ويقرر أن سنة الله لا تتبدل ، ولكنها كذلك لا تستعجل ! فإن كان ﷺ لا يصبر على إعراضهم ، فليبذل جهده البشرى فى إتيانهم بخارقة ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . إنما اقتضت مشيئته فى خلقه - وهو وحده صاحب الأمر المتصرف - أن يستجيب الذين لا تتعطل أجهزتم الفطرية عن التلقى . والموتى لا حياة فيهم فهم لا يستقبلون موحيات الهدى ولا يستجيبون . والله يبعثهم , وهم إليه يرجعون (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون)

- حقيقة الألوهية في مواقف ومشاهد مختارة من الأنعام

ولقد سبق القول بأن هذه السورة تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة ، إذ أنها فى كل لمحة منها وفى كل موقف وفى كل مشهد ، تبلغ حد "الروعة الباهرة " التى تبده النفس وتشده الحس ، وتبهر النفس وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعاتها وموحياتها . . فالآن ندع نصوصا من السورة ذاتها تصور هذه الحقيقة بأسلوبها القرآنى . ذلك أن الوصف مهما بلغ ، لا يبلغ شيئا فى نقل هذه الحقيقة إلى القلب البشرى ! إن تقرير حقيقة الألوهية ، وتعريف الناس بربهم الحق ، وتعبيدهم له وحده ، هو الموضوع الأساسي للسورة . فلنسمع إذن تقرير السياق القرآنى لهذه الحقيقة فى مواقف منه شتى ، فى موقف الإشهاد والمفاصلة ، حيث تتجلى تلك الحقيقة فى القلب المؤمن بها ؛ وحيث يواجه بها المخالفين ، ويصدع بها فى قوة وفى يقين (قل:أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ! قل:إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل:إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين ، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . قل:أى شىء أكبر شهادة ؟ قل:الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل:لا أشهد . قل:إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون) وفى موقف التهديد ، حيث يتجلى سلطان الله محيطا بالعباد ؛ وتتعرى أمامه الفطرة ويسقط عنها الركام ، وتتجه إلى ربها الحق وحده وتنسى الآلهة الزائفة ، أمام الهول ، وأمام مصارع المكذبين (قل:أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ? بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه - إن شاء - وتنسون ما تشركون . ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ! ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين:قل:أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات , ثم هم يصدفون . قل:أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ؟ هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟) وفى موقف التعريف بإحاطة الله بالغيوب والأسرار ، والأنفاس والأعمار ، مع القدرة والقهر والسيطرة فى البر والبحر ، والنهار والليل ، والدنيا والأخرة ، والحياة والممات (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه لتقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) وفى موقف شهادة الفطرة ، واهتدائها الذاتى إلى ربها الحق ، بمجرد تفتحها لاستقبال دلائل الهدى وموحياته فى صفحات الكون ، التى تخاطب الفطرة بلسان مفهوم الإيقاع فى أعماقها المكنونة (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر:أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال:هذا ربى ؛ فلما أفل قال:لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال:هذا ربى ، فلما أفل قال:لئن لم

يهدني ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال:هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال:يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين . وحاجه قومه , قال :أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به - إلا أن يشاء ربى شيئا - وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) وفى مشهد الحياة النابضة فى الفصائل والأنواع ، ومشهد الإصباح والإمساء ، ومشهد النجوم والظلمات فى البر والبحر ، ومشهد الماء الهاطل ، والزرع النامى ، والثمر اليانع . . حيث تتجلى وحدانية الخالق بلا شريك ، المبدع بلا شبيه ، وحيث تبدو دعوى الشركاء والأبناء سخفا تنكره العقول والقلوب (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب , والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن - وخلقهم - وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السماوات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار , وهو اللطيف الخبير) وأخيرا فى موقف الابتهال والإنابة إلى الله الواحد بلا شريك ، والتجرد له صلاة ونسكا , ومحيا ومماتا ، واستنكار ابتغاء غيره ربا وهو رب كل شيء ، ورد الأمر إليه كله فى الدنيا فى أمر الاستخلاف والابتلاء ، وفى الآخرة فى أمر الحساب والجزاء ، حيث تختم السورة بهذا الابتهال الخاشع المنيب (قل:إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم:دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل:إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت , وأنا أول المسلمين . قل:أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شيء , ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم). . وليست هذه النماذج الستة التى اخترناها إلا نماذج تصور حد "الروعة الباهرة " الذى يبلغه سياق السورة ، فى كل موقف ، وفى كل مشهد ، وفى كل إيقاع ، وفى كل إيحاء . . إن السياق يعرض المشاهد والمواقف منوعة ؛ ولكنها تلتقى فى ظاهرة واحدة . . إنه فى كل مشهد أو موقف ، كأنما يأخذ بالسامع ليقفه أمام المشهد يتملاه ، وأمام المواقف يتدبره . . يقفه أمامه بحركة تكاد الألفاظ تجسمها ! كما أن المشاهد والمواقف ذاتها فيها ناس موقوفون ، يراهم السامع فى وقفتهم ، والسياق يقفه هو الآخر ليشاهدهم ويتملاهم ! ففى مشاهد القيامة ومشاهد الاحتضار ترد هذه الوقفات (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا:يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا:أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا:والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) وفى مواقف التهديد ببطش الله وأخذ المكذبين بسلطانه الذى لا يرد ، يقفهم أمام هذا البطش كأنهم يعاينونه (قل:أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ؛ أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ? بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه - إن شاء - وتنسون ما تشركون). . وفى تمثيل حالة الضلال بعد الهدى ، والرجوع عن الحق بعد الاهتداء إليه ، يرسم مشهدا شاخصا يقف السامع أمامه يتملاه ، ولو لم يكن فى اللفظ أمر بالنظر أو إشارة إلى الوقوف (قل:أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله , كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ; ائتنا .)كذلك يقف السياق السامع أمام مشهد الثمار اليانعة فى الجنات التى تتمثل فيها الحياة , والتى تتجلى فيها يد الله المبدعة للألوان والثمار (وهو الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا , نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) . .

لون آخر من ألوان التناسق ، يمت إلى هذا اللون بصلة كذلك . . مواقف الإشهاد . إن مشاهد القيامة فى السورة تعرض كأنما هى مواقف إشهاد على ما كان من المشركين والمكذبين ; ومواقف تشهير بهم ؛ وتوجيه للأنظار إلى هذه المواقف . . وقد سبق عرض نماذج منها . . وفى كل منها (ولو ترى . . .)

وتلتقي بها مواقف الإشهاد على العقيدة ، ومواقف الإشهاد على الشريعة . . كلتاهما سواء . في أول السورة عند الحديث عن العقيدة في محيطها الشامل يجيء هذا الموقف (قل:أي شيء أكبر شهادة ؟ قل:الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل:لا أشهد . قل:إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون) حتى إذا جاء السياق إلى المناسبة الخاصة في السورة ، المتعلقة بالعقيدة في قضية التحريم والتحليل أقام مشهدا آخر ، ودعا إلى إشهاد على هذه القضية الخاصة ، كالإشهاد على تلك القضية العامة ، للدلالة على أنها هي هي من ناحية الموضوع ؛ ولضمان التناسق الذي هو طابع التعبير القرآني العام (قل:هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون). . لون ثالث من ألوان التناسق ؛ هو التناسق التعبيري الذي يقتضيه التقرير الموضوعي . والذي يتمثل في تكرار عبارات بعينها للدلالة على أنها تعبيرعن حقيقة واحدة في صور متعددة . وهذا كالتعبير في أول السورة عن الذين كفروا حين يشركون بالله غيره بأنهم بربهم يعدلون . ثم التعبير كذلك في أواخرها عن الذين يشرعون لأنفسهم بأنهم كذلك بربهم يعدلون . على النحو التالي (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) (قل:هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة . وهم بربهم يعدلون) ففي الآية الأولى هم يعدلون بربهم لأنهم يشركون به . . وفي الثانية هم يعدلون بربهم لأنهم يشركون به كذلك . ممثلا هذا الشرك في ادعاء حق الألوهية في التشريع . . ولهذا دلالته الموضوعية ، وجماله التعبيري أيضا . . . كذلك يكرر كلمة الصراط ، وهو يعبر عن الإسلام جملة ; وهو يعبر عن قضية التشريع على هذا النحو (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيما . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) وبعد أن يتحدث عن الأنعام والحرث ، والحلال والحرام في نهاية السورة كما جاء في مقدمة التعريف بالسورة يقول (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله:ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) فيدل على أن هذه القضية هي قضية العقيدة . وأن الالتزام فيها هو المضي على صراط الله , وأن الانحراف فيها هو الخروج عن هذا الصراط . . وأنها قضية إيمان أو كفر ، وجاهلية أو إسلام . . كما فصلنا ذلك في مطلع الكلام !

وإلى هنا يحسن أن نكتفي في التعريف المجمل ، لنواجه نصوص السورة في سياقها القرآني بعون الله . . ووفق طبيعة السورة سنعرضها موجة موجة – فهذه الطريقة في العرض أدنى إلى طبيعة السورة ؛ وإلى تحقيق التناسق بينها وبين ظلالها كذلك . .ـ

وبالله التوفيق . .

(الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ{١} هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ{٢} وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ{٣} وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٤} فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{٥} أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ{٦} وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ{٧} وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ{٨} وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ{٩} وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١٠} قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ{١١} قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٢} وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{١٣} قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{١٤} قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِن عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{١٥} مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ{١٦} وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{١٧} وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ{١٨} قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن

بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{١٩}

إنها اللمسات العريضة للحقيقة الكبيرة ؛ والإيقاعات المديدة في مطلع السورة . وهي ترسم القاعدة الكلية لموضوع السورة ولحقيقة العقيدة (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) إنها اللمسات الأولى . . تبدأ بالحمد لله . ثناء عليه ، وتسبيحا له ، واعترافا بأحقيته للحمد والثناء ، على ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء . . بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيصتها الأولى . . الخلق . . وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود . . السماوات والأرض . . ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السماوات والأرض وفق تدبير مقصود . . الظلمات والنور . . فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام الضخمة في الكون المنظور ، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام ، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك . . لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم ، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون ؛ بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) فيا للمفارقة الهائلة بين الدلائل الناطقة في الكون ، وآثارها الضائعة في النفس ! يا للمفارقة التي تعدل الأجرام الضخمة ، والمسافات الشاسعة ، والظواهر الشاملة . . بل تزيد . . واللمسة الثانية (هو الذي خلقكم من طين ، ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون) إنها لمسة الوجود الإنساني ، التالي في وجوده للوجود الكوني . ولظاهرتي الظلمات والنور . لمسة الحياة الإنسانية في هذا الكون الخامد . لمسة النقلة العجيبة من عتمة الطين المظلم إلى نور الحياة البهيج ؛ تتناسق تناسقا فنيا جميلا مع "الظلمات والنور . . "وإلى جانبها لمسة أخرى متداخلة:لمسة الأجل الأول المقضي للموت ، والأجل الثاني المسمى للبعث . . لمستان متقابلتان في الهمود والحركة كتقابل الطين الهامد والخلق الحي في النشأة (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ، وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) وبين كل متقابلين مسافة هائلة في الكنه والزمن . . وكان من شأن هذا كله أن ينقل إلى القلب البشري اليقين بتدبير الله ، واليقين بلقائه . ولكن المخاطبين بالسورة يشكون في هذا ولا يستيقنون (ثم أنتم تمترون) واللمسة الثالثة تضم اللمستين الأوليين في إطار واحد ؛ وتقرر ألوهية الله في الكون والحياة الإنسانية سواء (وهو الله في السماوات وفي الأرض ، يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون) إن الذي خلق السماوات والأرض هو الله في السماوات وفي الأرض . هو المتفرد بالألوهية فيهما على السواء . وكل مقتضيات الألوهية متحققة عليهما ، من خضوع للناموس الذي سنه الله لهما ، وائتمار بأمره وحده . وكذلك ينبغي أن يكون الشأن في حياة الإنسان . فلقد خلقه الله كما خلق السماوات والأرض ؛ وهو في تكوينه الأول من طين هذه الأرض ؛ وما رزقه من خصائص جعلت منه إنسانا رزقه إياه الله ؛ وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الذي سنه الله له – رضي أم كره – يعطي وجوده وخلقه ابتداء بمشيئة الله ، لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه: والله - سبحانه – يعلم سره وجهره . ويعلم ما يكسب في حياته في سره وجهره . إن هذه الموجة العريضة الشاملة في مطلع السورة ، إنما تخاطب القلب البشري والعقل البشري بدليل "الخلق" ودليل "الحياة " ممثلين في الآفاق وفي الأنفس . . ولكنها لا تخاطب بهما الإدراك البشري خطابا جدليا ، لاهوتيا أو فلسفيا ! ولكن خطابا موحيا موقظا للفطرة ، حيث يواجهها بحركة الخلق والإحياء ؛ وحركة التدبير والهيمنة ؛ في صورة التقرير لا في صورة الجدل ؛ وبسلطان اليقين المستمد من تقرير الله ؛ ومن شهادة الفطرة الداخلية بصدق هذا التقرير فيما تراه .

ومشركو العرب الذين كانت هذه السورة تواجههم ما كانوا يجحدون الله البتة ؛ بل كانوا يقرون بوجوده سبحانه ، وبأنه الخالق الرازق ، المالك ، المحيي المميت . . إلى كثير من الصفات – كما يقرر القرآن ذلك في مواجهتهم ، وفي حكاية أقوالهم – ولكن انحرافهم الذي وصمهم بالشرك هو أنهم ما كانوا يعترفون بمقتضى اعترافهم ذاك:من تحكيم الله – سبحانه – في أمرهم كله ؛ ونفي الشركاء له في تدبير شؤون حياتهم ؛ واتخاذ شريعته وحدها قانونا ، ورفض مبدأ تحكيم غير الله في أي شأن من شؤون الحياة . ودليل الخلق ودليل الحياة كما أنهما صالحان لمواجهة المشركين لتقرير الوحدانية ، ولتقرير الحاكمية ، هما كذلك صالحان لمواجهة اللوثات الجاهلية الحديثة التافهة في إنكار الله . . والحقيقة أن هناك شكا كثيرا فيما إذا كان هؤلاء الملحدون يصدقون أنفسهم ! فأغلب الظن أنها بدأت مناورة في وجه الكنيسة ؛ ثم استغلها اليهود لرغبتهم في تدمير قاعدة الحياة البشرية الأساسية ، كي لا يبقى على وجه الأرض من يقوم على هذه القاعدة غيرهم - كما يقولون في بروتوكولات حكماء صهيون – ومن ثم تنهار البشرية وتقع تحت سيطرتهم ، بما أنهم هم وحدهم الذين سيحافظون على مصدر القوة الحقيقية الذي توفره العقيدة ! واليهود -

مهما بلغ من كيدهم ومكرهم – لا يملكون أن يغلبوا الفطرة البشرية ، التى تجد فى قرارتها الإيمان بوجود إله – وإن كانت تضل فقط فى معرفة الإله الحق بصفاته الحقة ؛ كما أنها تنحرف بعدم توحيد سلطانه فى حياتها ، فتوصم بالشرك والكفر على هذا الأساس – ولكن بعض النفوس تفسد فطرتها ، وتتعطل فيها أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . وهذه النفوس وحدها هى التى يمكن أن يفلح معها كيد اليهود الذى يستهدف نفى وجود الله فيها . ولكن هذه النفوس المعطلة الفطرة ستظل قليلة وشاذة فى مجموع البشر فى كل زمان . . والملحدون الحقيقيون على ظهر الأرض اليوم لا يتجاوزون بضعة ملايين فى روسيا والصين من بين مئات الملايين الذين يحكمهم الملحدون بالحديد والنار ; على الرغم من الجهد الناصب خلال أربعين عاما فى نزع الإيمان بكل وسائل التعليم والإعلام ! إنما يفلح اليهود فى حقل آخر . وهو تحويل الدين إلى مجرد مشاعر وشعائر . وطرده من واقع الحياة . وإيهام المعتقدين به أنهم يمكن أن يظلوا مؤمنين بالله ؛ مع أن هناك أربابا أخرى هى التى تشرع لحياتهم من دون الله ! ويصلون بذلك إلى تدمير البشرية فعلا ، حتى مع وهمها أنها لا تزال تؤمن بالله . وهم يستهدفون الإسلام – قبل كل دين آخر – لأنهم يعرفون من تاريخهم كله ، أنهم لم يغلبهم إلا هذا الدين يوم كان يحكم الحياة . وأنهم غالبوا أهله طالما أهله لا يحكمونه فى حياتهم ؛ مع توهمهم أنهم ما يزالون مسلمين مؤمنين بالله ! فهذا التخدير بوجود الدين – وهو غير موجود فى حياة الناس – ضرورى لتنجح المؤامرة . . أو يأذن الله فيصحو الناس ! ثم تأتى الموجة التالية فى افتتاح السورة ؛ حيث يعرض السياق موقف المشركين الذين يعارضون الدعوة الإسلامية فى ظل هذا الوجود الغامر الباهر القاهر ؛ فيبدو هذا الموقف منكرا قبيحا ، حتى فى حس أصحابه الذين يواجههم هذا القرآن بهذه الحقيقة ! ويكسب القرآن المعركة فى الجولة الأولى . يكسبها فى أعماق فطرة الناس ، على الرغم من مكابرتهم ومن عنادهم الظاهرين ! وهو يعرض فى هذه الموجة صورة العناد والمكابرة ؛ ويواجهها بالتهديد مرة ؛ وبتوجيه القلوب إلى مصارع المكذبين من قبل مرة ؛ ويحشد فيها عدة مؤثرات وموحيات . بعد الهزة الأولى التى مضت بها تلك الموجة العريضة (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) إنهم يتخذون موقف الإعراض عنادا واصرارا . فليس الذى ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان ، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية ، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة ، هى التى يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها . . ليس هذا هو الذى ينقصهم ، إنما تنقصهم الرغبة فى الاستجابة ، ويمسك بهم العناد والإصرار ، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر ، وحين يكون الأمر كذلك . حين يكون الإعراض متعمدا ومقصودا – مع توافر الأدلة ، وتواتر الآيات ووضوح الحقائق – فإن التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التى تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حاجز الكبر والعناد (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم . فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون) إنه الحق هذا الذى جاءهم من لدن خالق السماوات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، وخالق الإنسان من طين ، والإله فى السماوات وفى الأرض الذى يعلم سرهم وجهرهم ويعلم ما يكسبون . . إنه الحق وقد كذبوا به .. فليرتقبوا إذن أن يأتيهم الخبر اليقين عما كانوا به يستهزئون ! ويتركهم أمام هذا التهديد المجمل ، الذى لا يعرفون نوعه ولا موعده . . يتركهم يتوقعون فى كل لحظة أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ! حيث يتكشف لهم الحق أمام العذاب المرتقب المجهول ! وفى موقف التهديد يلفت أعناقهم وأنظارهم وقلوبهم وأعصابهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم - وقد كانوا يعرفون بعضها فى دور عاد بالأحقاف وثمود بالحجر ، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب فى رحلة الشتاء للجنوب وفى رحلة الصيف للشمال ، كما كانوا يمرون بقرى لوط المخسوفة ويعرفون ما يتناقله المحيطون بها من أحاديث – فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم . فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة . وقد مكنهم الله فى الأرض ، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله للمخاطبين من قريش فى الجزيرة ؛ وأرسل المطر عليهم متتابعا ينشىء فى حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق . . ثم ماذا ؟ ثم عصوا ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم جيلا آخر ، ورث الأرض من بعدهم ; ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض ! فقد ورثها قوم آخرون! لقد أهلكوا وغبروا فما أحست هذه الأرض بالخلاء والخواء ؛ إنما عمرها جيل آخر ؛ ومضت الأرض فى دورتها كأن لم يكن هنا سكان ؛ ومضت الحياة فى حركتها كأن لم يكن هنا أحياء ! وهى حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم فى الأرض . ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ، ليبلوهم فيه:أيقومون عليه بعهد الله وشرطه ، من العبودية له وحده , والتلقى منه وحده – بما أنه هو صاحب الملك وهم مستخلفون فيه – أم يجعلون من

أنفسهم طواغيت ، تدعى حقوق الألوهية وخصائصها ؛ ويتصرفون فيما استخلفوا فيه تصرف المالك لا المستخلف . وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغى ، أو المستهتر الفاسد ، أو الملحد الكافر , ممكنا له فى الأرض ، غير مأخوذ من الله . . ولكن الناس إنما يستعجلون . . إنهم يرون أول الطريق أو وسطه ؛ ولا يرون نهاية الطريق . . ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجىء ! لا ترى إلا فى مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث . . والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون – فى حياتهم الفردية القصيرة – نهاية الطريق ؛ فيخدعهم ما يرون فى حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق ! إن هذا النص فى القرآن (فأهلكناهم بذنوبهم) وما يماثله ، وهو يتكرر كثيرا فى القرآن الكريم . . إنما يقرر حقيقة ، ويقرر سنة ، ويقرر طرفا من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ . . إنه يقرر حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها ، وأن الله هو الذى يهلك المذنبين بذنوبهم ; وأن هذه سنة ماضية – ولو لم يرها فرد فى عمره القصير ، أو جيل فى أجله المحدود – ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب ؛ وحين تقوم حياتها على الذنوب . . كذلك هى جانب من التفسير الإسلامى للتاريخ:فإن هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال ؛ من عوامله ، فعل الذنوب فى جسم الأمم ؛ وتأثيرها فى إنشاء حالة تنتهى إلى الدمار ؛ إما بقارعة من الله عاجلة – كما كان يحدث فى التاريخ القديم – وإما بالانحلال البطىء الفطرى الطبيعى ، الذى يسرى فى كيان الأمم – مع الزمن – وهى توغل فى متاهة الذنوب ! وأمامنا فى التاريخ القريب – نسبيا – الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقى , والدعارة الفاشية ، واتخاذ المرأة فتنة وزينة ، والترف والرخاوة ، والتلهى بالنعيم . . أمامنا الشواهد الكافية من فعل هذا كله فى انهيار الإغريق والرومان – وقد أصبحوا أحاديث – وفى الانهيار الذى تتجلى أوائله ، وتلوح نهايته فى الأفق فى أمم معاصرة ، كفرنسا وانجلترا كذلك – على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض . إن التفسير المادى للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفا باتا من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هى استبعاد العنصر الأخلاقى من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقادية التى يقوم عليها . . ولكن هذا التفسير يضطر إلى مماحكات مضحكة فى تفسير أحداث وأطوار فى حياة البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلا على أساس القاعدة الاعتقادية . والتفسير الإسلامى – بشمولة وجديته وصدقه وواقعيته – لا يغفل أثر العناصر المادية –التى يجعلها التفسير . المادى هى كل شىء – ولكنه يعطيها مكانها الذى تستحقه فى رقعة الحياة العريضة ؛ ويبرز العناصر الفعالة الأخرى التى لا ينكرها إلا أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود . . يبرز قدر الله من وراء كل شىء ؛ ويبرز التغير الداخلى فى الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات ؛ ويبرز السلوك الواقعى والعنصر الأخلاقى ثم يمضى السياق يصور طبيعة العناد ، التى ينبعث منها ذلك الإعراض ؛ فيرسم نموذجا عجيبا من النفوس البشرية . . ولكنه نموذج مع ذلك مكرور ، يجده الإنسان فى كل عصر وفى كل بيئة وفى كل جيل . . نموذج النفس المكابرة ، التى يخرق الحق عينها ولا تراه ! والتى تنكر ما لا ينكر لأنه من الوضوح بحيث يخجل المخالف أن ينكره ! على الأقل من باب الحياء ! . . والقرآن يرسم هذا النموذج شاخصا فى كلمات قلائل ، على طريقة التعبير القرآنى المبدعة المعجزة فى التعبير والتصوير (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا:إن هذا إلا سحر مبين) إنه ليس الذى يجعلهم يعرضون عن آيات الله ، أن البرهان على صدقها ضعيف ، أو غامض , أو تختلف فيه العقول . إنما الذى يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق ! وهو الإصرار مبدئيا على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلا ! ولو أن الله – سبحانه – نزل على رسول الله ﷺ هذا القرآن ، لا عن طريق الوحى الذى لا يرونه ؛ ولكن فى ورقة منظورة ملموسة محسوسة ؛ ثم لمسوا هم هذه الورقة بأيديهم – لا سماعا عن غيرهم ، ولا مجرد رؤية بعيونهم – ما سلموا بهذا الذى يرونه ويلمسونه ، ولقالوا جازمين مؤكدين (إن هذا إلا سحر مبين) وهى صورة صفيقة ، منكرة ، تثير الاشمئزاز ، وتستعدى من يراها عليها ! صورة تثير النفس لتتقدم فتصفعها ! حيث لا مجال مع هذه الجبلات لحجة أو جدل أو دليل ! وتصويرها على هذا النحو – وهى صورة تمثل حقيقة لنماذج مكرورة – يؤدى غرضين أو عدة أغراض: إنه يجسم للمعارضين أنفسهم حقيقة موقفهم الشائن الكريه البغيض ؛ كالذى يرفع المرآة لصاحب الوجه الشائه والسحنة المنكرة ، ، ليرى نفسه فى هذه المرآة ، ويخجل منها ! وهو فى الوقت ذاته يستجيش ضمائر المؤمنين تجاه إعراض المشركين وإنكار المنكرين ؛ ويثبت قلوبهم على الحق ، فلا تتأثر بالجو المحيط من التكذيب والإنكار والفتنة والإيذاء . كذلك هو يوحى بحلم الله الذى لا يعجل على هؤلاء المعارضين المكذبين ، وهم فى مثل هذا العناد المنكر الصفيق . وكلها أسلحة وحركة فى المعركة التى كانت تخوضها الجماعة المسلمة بهذا القرآن فى مواجهة المشركين . بعد ذلك يحكى نموذجا من اقتراحات المشركين ، التى يمليها التمحل والعناد ، كما يمليها الجهل وسوء التصور . . ذلك إذ يقترحون أن ينزل الله – سبحانه – على الرسول ﷺ ملكا يصاحبه فى تبليغ الدعوة ؛ ويصدقه فى أنه مرسل من عند الله . . ثم يبين لهم ما فى هذا الاقتراح من جهل بطبيعة الملائكة ، وبسنة الله فى إرسالهم ، كما يبين لهم رحمة

الله بهم فى أن لا يستجيب لهم فيما يقترحون (وقالوا:لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون) وهذا الاقتراح الذى كان المشركون يقترحونه ؛ والذى اقترحه من قبلهم أقوام كثيرون على رسلهم - كما يحكى القرآن الكريم فى قصصهم - والرد القرآنى عليه فى هذا الموضع . . هذا وذاك يثيران جملة حقائق نلم بها هنا بقدر الإمكان:

الحقيقة الأولى:أن أولئك المشركين من العرب لم يكونوا يجحدون الله ؛ ولكنهم كانوا يريدون برهانا على ان الرسول ﷺ مرسل من عنده ؛ وأن هذا الكتاب الذى يتلوه عليه منزل من عند الله حقا . ويقترحون برهانا معينا:هو أن ينزل الله عليه ملكا يصاحبه فى الدعوة ويصدق دعواه . . ولم يكن هذا إلا اقتراحا من اقتراحات كثيرة من مثله , واقتراحات من نوعه تدل كلها على التعنت الذى وصفته الآية

والحقيقة الثانية:أن العرب كانوا يعرفون الملائكة ؛ وكانوا يطلبون أن ينزل الله على رسوله ملكا يدعو معه ويصدقه . . ولكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة هذا الخلق التى لا يعلمها إلا الله ؛ وكانوا يخبطون فى التيه بلا دليل فى تصور هذا الخلق ؛ وفى نوع علاقته بربه ؛ ونوع علاقته بالأرض وأهلها . . وقد حكى القرآن الكريم كثيرا من ضلالات العرب وأساطير الوثنية حول الملائكة ؛ وصححها كلها لهم ليستقيم تصور من يهتدى بهذا الدين منهم ؛ وتصح معرفتهم لهذا الكون وما يعمره من خلائق . وكان الإسلام - من هذا الجانب - منهجا لتقويم العقل والشعور ، كما كان منهجا لتقويم القلب والضمير ، ومنهجا لتقويم الأوضاع والأحوال سواء . . وحكى القرآن الكريم من أضاليل العرب ومن جهالاتهم فى جاهليتهم ، أنهم كانوا يظنون أن الملائكة بنات الله ! سبحانه وتعالى عما يصفون ! وأنهم - من ثم - لهم شفاعة عند الله لا ترد ! والراجح أن بعض كبار الأصنام كانت رموزا للملائكة ! كما حكى قولهم هذا فى طلبهم أن ينزل الله على رسوله ملكا ليصدقه فى دعواه . . وقد صحح لهم القرآن ضلالتهم الأولى فى مواضع منه شتى .كما صحح لهم ضلالتهم الثانية فى تصورهم لطبيعة الملائكة فى هاتين الآيتين فى هذه السورة وفى مواضع أخرى كثيرة (وقالوا:لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون). . وهذا جانب من التعريف بهذا الخلق من عباد الله . . إنهم يقترحون أن ينزل الله ملكا . ولكن سنة الله أن ينزل الملائكة - حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم - أن ينزلوا للتدمير عليهم ، وتحقيق أمر الله فيهم بالهلاك والدمار . ولو أن الله استجاب للمشركين من العرب فأنزل ملكا ، لقضى الأمر ، وتم التدمير ، ولم ينظروا إلى مهلة بعد هذا التنزيل ! فهل هذا ما يريدون وما يقترحون ؟ وهلا يستشعرون رحمة الله فى عدم إجابتهم لما يقترحون لأنفسهم من الهلاك المبين ؟! . . هكذا يقفهم السياق وجها لوجه أمام رحمة الله بهم وحلمه عليهم ؛ وأمام جهلهم بمصلحة أنفسهم ، وجهلهم بسنة الله فى تنزيل الملائكة . . وهم بهذا الجهل الذى يكاد يدمر عليهم حياتهم , يرفضون الهدى ويرفضون الرحمة ويتعنتون فى طلب الدليل ! والجانب الثانى من التعريف بهذا الخلق من عباد الله تتضمنه الآية الثانية (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون)

إنهم يقترحون أن ينزل الله - سبحانه - ملكا على رسوله ﷺ يصدقه فى دعواه . . ولكن الملائكة خلق آخر غير الخلق الإنسانى . خلق ذو طبيعة خاصة يعلمها الله . وهم - كما يقول الله عنهم ، ونحن لا علم لنا بهم إلا مما يقوله عنهم الذى خلقهم - لا يستطيعون أن يمشوا فى الأرض بهيئتهم التى خلقهم الله عليها ؛ لأنهم ليسوا من سكان هذا الكوكب ؛ ولكن لهم - مع ذلك - من الخصائص ما يجعلهم يتخذون هيئة البشر حين يؤدون وظيفة من وظائفهم فى حياة البشر ؛ كتبليغ الرسالة ؛ أو التدمير على من يريد الله أن يدمر عليهم من المكذبين ؛ أو تثبيت المؤمنين ، أو قتال أعدائهم وقتلهم . . إلى آخر الوظائف التى يقص القرآن الكريم أنهم يكلفون بها من ربهم ، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فلو شاء الله أن يرسل ملكا يصدق رسوله ، لتبدى للناس فى صورة رجل - لا فى صورته الملائكية - وعندئذ يلتبس عليهم الأمر مرة أخرى ! وإذا كانوا يلبسون على أنفسهم الحقيقة ومحمد ﷺ يقول لهم:أنا محمد الذى تعرفونه أرسلنى الله إليكم لأنذركم وأبشركم , . . فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك - فى صورة رجل لا يعرفونه - يقول لهم:أنا ملك أرسلنى الله لأصدق رسوله . . بينما هم يرونه رجلا كأى منهم ؟! إنهم يلبسون الحقيقة البسيطة . فلو أرسل الله ملكا لجعله رجلا وللبس عليهم الحقيقة التى يلبسونها ; ولما اهتدوا قط إلى يقين ! وهكذا يكشف الله - سبحانه - جهلهم بطبيعة خلائقه ، كما كشف لهم جهلهم فى معرفة سننه . . وذلك بالإضافة إلى كشف تعنتهم وعنادهم بلا مبرر ، وبلا معرفة ، وبلا دليل !

والحقيقة الثالثة التى يثيرها النص القرآنى فى الفكر:هى طبيعة التصور ... لقد تضمن التصور الإسلامى عن

عالم الغيب ، أن هناك خلقا من عباد الله اسمهم الملائكة . وأخبرنا القرآن الكريم عن قدر من صفاتهم ، يكفى لهذا التصور ، ويكفى للتعامل معهم فى حدوده .

وتنتهى هذه الموجة بعرض ما وقع للمستهزئين بالرسل . ودعوة المكذبين إلى تدبر مصارع أسلافهم ، والسير فى الأرض لرؤية هذه المصارع ؛ الناطقة بسنة الله فى المستهزئين المكذبين: (ولقد استهزئ برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون . قل:سيروا فى الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) إن هذه اللفتة – بعد ذكر إعراضهم عنادا وتعنتا ؛ وبعد بيان ما فى اقتراحاتهم من عنت وجهالة ؛ وما فى عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من الله وحلم – لترمى إلى غرضين ظاهرين:

الأول:تسلية رسول الله ﷺ والتسرية عنه ، مما يلقاه من عناد المعرضين ، وعنت المكذبين ; وتطمين قلبه [ص] إلى سنة الله سبحانه فى أخذ المكذبين لمستهزئين بالرسل ; وتأسيته كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعا فى تاريخ الدعوة إلى الحق . فقد لقى مثله الرسل قبله ؛ وقد لقى المستهزئون جزاءهم الحق وحاق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب ، ومن غلبة الحق على الباطل فى نهاية المطاف . .

والثانى:لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين:وتذكيرهم بهذه المصارع التى تنتظرهم إن هم لجوا فى الاستهزاء والسخرية والتكذيب . وقد أخذ الله – من قبلهم – قرونا كانت أشد منهم قوة وتمكينا فى الأرض ؛ وأكثر منهم ثراء ورخاء ، كما قال لهم فى مطلع هذه الموجة ؛ التى ترج القلوب رجا بهذه اللفتات الواقعية المخيفة . ومما يستدعى الانتباه ذلك التوجيه القرآنى (قل:سيروا فى الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) والسير فى الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار ؛ ولمعرفة سنن الله مرتسمة فى الأحداث , والوقائع ؛ مسجلة فى الآثار الشاخصة ، وفى التاريخ المروى فى الأحاديث المتداولة حول هذه الآثار فى أرضها وقومها . . السير على هذا النحو ، لمثل هذا الهدف , وبمثل هذا الوعى . . أمور كلها كانت جديدة على العرب ؛ تصور مدى النقلة التى كان المنهج الإسلامى الربانى ينقلهم إليها من جاهليتهم إلى هذا المستوى من الوعى والفكر والنظر والمعرفة . لقد كانوا يسيرون فى الأرض ، ويتنقلون فى أرجائها للتجارة والعيش ، وما يتعلق بالعيش من صيد ورعى . . أما أن يسيروا وفق منهج معرفى تربوى . . فهذا كان جديدا عليهم . وكان هذا المنهج الجديد يأخذهم به .

هذه الموجة الجديدة ذات المد العالى والإيقاع الرهيب ، تجىء فى أعقاب الحديث عن التكذيب والإعراض والسخرية والاستهزاء ؛ وما ختم به هذا الحديث وما تخلله من التهديد المخيف ؛ مع توجيه الأنظار والقلوب إلى الاعتبار بمصارع المكذبين المستهزئين ،هذه الموجة الجديدة فتستهدف كذلك إبراز حقيقة الألوهية ، ممثلة فى الملك والفاعلية , وفى الرزق والكفالة ؛ وفى القدرة والقهر ؛ وفى النفع والضر . . كل ذلك لا لمجرد التقرير اللاهوتى أو الفلسفى النظرى السلبى . . ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه ؛ وتوحيد الاستسلام والعبودية . . واعتبار الولاية والتوجه مظهر الاستسلام والعبودية . فإذا أمر رسول الله ﷺ أن يستنكر أن يتخذ غير الله وليا ؛ بين أن هذا الاستنكار قائم أولا على أن الله يطعم ولا يطعم ؛ وقائم ثانيا على أن تولى غير الله نقض لما أمر به من الإسلام وعدم الشرك أيضا . . ويصاحب عرض حقيقة الألوهية ، فى هذه الصورة ولهذا الغرض ، جملة مؤثرات قوية تخلخل القلوب . تبدأ بعرض حقيقة الملكية لكل شيء . وحقيقة أن الله هو الذى يطعم ولا يطعم . وعرض العذاب الرعيب الذى يعد مجرد صرفه رحمة من الله وفوزا عظيما . وعرض القدرة على الضر والخير . وعرض الاستعلاء والقهر . وعرض الحكمة والخبرة . . ثم الإيقاع الرهيب المزلزل ، المتمثل فى الأمر العلوى الهائل:قل . قل . قل: فإذا تم هذا العرض بكل مؤثراته العميقة ، جاء الختام بالإيقاع العالى المجلجل ، إيقاع الإشهاد على التوحيد ، وإنكار الشرك ، والمفاصلة الحاسمة ؛ مصحوبا كذلك بالأمر العلوى فى كل فاصلة (قل: أى شيء أكبر شهادة ؟). . (قل:الله). . (قل: لا أشهد) . .(قل: إنما هو إله واحد). . مما يضفى على الجو كله رهبة غامرة ؛ ويضفى على الأمر كله طابع جد مرهوب ! (قل:لمن ما فى السماوات والأرض ؟ قل لله ، كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن فى الليل والنهار , وهو السميع العليم) إنه موقف المواجهة للبيان والتقرير ، ثم المفاصلة . . ومن ثم يبدأ بتوجيه الرسول ﷺ لهذه المواجهة . مواجهة المشركين – الذين يعرفون أن الله هو الخالق ثم يعدلون به من لا يخلق ؛ فيجعلون له شركاء مع الله فى تصريف حياتهم – مواجهتهم بالسؤال عن الملكية – بعد الخلق – لكل ما فى السماوات والأرض ، مسقصيا بهذا السؤال حدود الملكية فى المكان (قل لمن ما

فى السماوات والأرض). . مع تقرير الحقيقة التى لم يكونوا هم يجادولن فيها ؛ والتى حكى القرآن فى مواضع إقرارهم الكامل بها (قل:لمن ما فى السماوات والأرض ؟ قل:لله) ولقد كان العرب فى جاهليتهم – على كل ما فى هذه الجاهلية من ضلال فى التصور ينشأ عنه انحطاط فى الحياة – أرقى – فى هذا الجانب – من الجاهلية "العلمية" الحديثة ، التى لا تعرف هذه الحقيقة ، والتى تغلق فطرتها وتعطلها دون رؤية هذه الحقيقة ! كانوا يعرفون ويقررون أن لله ما فى السماوات والأرض . ولكنهم ما كانوا يرتبون على هذه الحقيقة نتائجها المنطقية ؛ بإفراد الله سبحانه بالحاكمية فيما يملك ، وعدم التصرف فيه إلا بإذن الله وحده وشرعه . . وبهذا اعتبروا مشركين ، وسميت حياتهم بالجاهلية ! فكيف بمن يخرجون الحاكمية فى أمرهم كله من اختصاص الله سبحانه ؛ ويزاولونها هم بأنفسهم ؟! بماذا يوصفون وبماذا توصف حياتهم ؟ لا بد من إعطائهم صفة أخرى غير الشرك . . فهو الكفر والظلم والفسق كما يقرر الله سبحانه . . أيا كانت دعواهم فى الإسلام وأيا كانت الصفة التى تعطيها لهم شهادات الميلاد ! ونعود إلى الآية . لنجد السياق يلحق بهذا التقرير لملكية الله – سبحانه – لما فى السماوات وما فى الأرض ، أنه – سبحانه (كتب على نفسه الرحمة) فهو سبحانه المالك ، لا ينازعه منازع ، ولكنه – فضلا منه ومنة – كتب على نفسه الرحمة . كتبها بإرادته ومشيئته ; لا يوجبها عليه موجب ولا يقترحها عليه مقترح ؛ ولا يقتضيها منه مقتض – إلا إرادته الطليقة وإلا ربوبيته الكريمة – وهى – الرحمة – قاعدة قضائه فى خلقه ، وقاعدة معاملته لهم فى الدنيا والآخرة ، وإن استقرار هذه الحقيقة فى تصور المسلم لينشىء فى حسه وفى حياته وفى خلقه آثارا عميقة ؛ يصعب كذلك تقصيها ؛ ولا بد من الاكتفاء بالإشارة السريعة إليها ، كى لا نخرج من نطاق الظلال القرآنية ، إلى قضية مستقلة ! ومن مواضع رحمة الله التى تقررها الآية الكريمة: أن الله كتب ليجمعنهم إلى يوم القيامة (قل لمن ما فى السماوات والأرض ؟ قل:لله . كتب على نفسه الرحمة . ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . .) ولقد كان العرب فى جاهليتهم – قبل أن يمن الله عليهم بهذا الدين ويرفعهم إلى مستواه الكريم – يكذبون بيوم القيامة – شأنهم فى هذا شأن أهل الجاهلية" العلمية " الحديثة !!! لذلك جاء التعبير فى هذه الصيغة المؤكدة بشتى التوكيدات ، لمواجهة ذلك التكذيب (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) ولن يخسر فى هذا اليوم إلا الذين لم يؤمنوا فى الدنيا . . وهؤلاء لن يخسروا شيئا ويكسبوا شيئا . . هؤلاء خسروا كل شىء . . فقد خسروا أنفسهم كلها ، فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا شيئا . أليس أن الإنسان إنما يكسب لنفسه ؟ فإذا خسر نفسه ذاتها فماذا يكسب ؟ ولمن يكسب ؟! (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون). . لقد خسروا أنفسهم وفقدوها ؛ فلم تعد لهم نفس تؤمن ! . . وهو تعبير دقيق عن حالة واقعة . . إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين – مع عمق ندائه وإيحائه للفطرة بموحيات الإيمان ودلائله – هؤلاء لا بد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم ! لا بد أن تكون أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فى كيانهم معطلة مخربة ؛ أو محجوبة مغلفة . فهم فى هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها ، بفقدانهم أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية الحية فى كيانها ، ومن ثم فهم لا يؤمنون . . إذ أنهم لم يعودوا يملكون أنفسهم التى بها يؤمنون . . وهذا هو التفسير العميق لعدم إيمانهم مع توافر دلائل الإيمان وموحياته من حولهم . . وهذا هو الذى يحدد مصيرهم فى ذلك اليوم . وهو الخسارة الكبرى المترتبة على خسارتهم من قبل لنفوسهم ! بعد ذلك يمضى السياق يستقصى الخلائق فى الزمان – كما استقصاها فى الآية السابقة فى المكان – ليقرر تفرد الله – سبحانه – بملكيتها ؛ وعلمه – سبحانه – وسمعه المحيطين بها (وله ما سكن فى الليل والنهار ، وهو السميع العليم) وأقرب تأويل لقوله تعالى (ما سكن) أنه من السكنى – كما ذكر الزمخشرى فى الكشاف – وهو بهذا يعنى كل ما اتخذ الليل والنهار سكنا ؛ فهو يعنى جميع الخلائق ؛ ويقرر ملكيتها لله وحده . كما قرر من قبل ملكية الخلائق كلها له سبحانه . غير أنه فى الآية الأولى :(قل: لمن ما فى السماوات والأرض ؟ قل: لله) قد استقصى الخلائق من ناحية المكان . وفى هذه الآية الثانية: (وله ما سكن فى الليل والنهار). . قد استقصى الخلائق من ناحية الزمان . . ومثله معروف فى التعبير القرآنى حين يتجه إلى الاستقصاء . . وهذا هو التأويل الذى نطمئن إليه فى الآيتين من بين شتى التأويلات . والتعقيب بصفتى السمع والعلم يفيد الإحاطة بهذه الخلائق ، وبكل ما يقال عنها كذلك من مقولات المشركين الذى يواجههم هذا النص . . ولقد كانوا مع إقرارهم بوحدانية الخالق المالك ، يجعلون لأربابهم المزعومة جزءا من الثمار ومن الأنعام ومن الأولاد ، فهو يأخذ عليهم الإقرار هنا بملكية كل شىء ؛ ليواجههم بها فيما يجعلونه للشركاء بغير إذن من الله . كما أنه يمهد بتقرير هذه الملكية الخالصة لما سيلى فى هذه الفقرة من ولاية لله وحده ، بما أنه هو المالك المتفرد بملكية كل شىء . فى كل مكان وفى كل زمان ، الذى يحيط سمعه وعلمه بكل شىء ، وبكل ما يقال عن كل شىء كذلك !

والآن , وقد تقرر أن الله وحده هو الخالق ، وأن الله وحده هو المالك . . . يجىء الاستنكار العنيف للاستنصار بغير الله ، والعبودية لغير الله ، والولاء لغير الله . ويتقر أن هذا مناقض لحقيقة الإسلام لله ، وأنه

هو الشرك الذى لا يجتمع مع الإسلام . وتذكر من صفات الله سبحانه: أنه فاطر السماوات والأرض ، وأنه الرازق المطعم , وأنه الضار النافع ، وأنه القادر القاهر . كما يذكر العذاب المخوف المرهوب . . فتجلل الموقف كله ظلال الجلال والرهبة ، فى إيقاع مدو عميق (قل:أغير الله أتخذ وليا ، فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل:إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل:إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) إن هذه القضية . . قضية اتخاذ الله وحده وليا . بكل معانى كلمة "الولى" . أى اتخاذه وحده ربا ومولى معبودا يدين له العبد بالعبودية ممثلة فى الخضوع لحاكميته وحده ; ويدين له بالعبادة له شعائرها وحده . واتخاذه وحده ناصرا يستنصر به ويعتمد عليه , ويتوجه إليه فى الملمات . . إن هذه القضية هي قضية العقيدة فى صميمها . فإما إخلاص الولاء لله – بهذه المعانى كلها – فهو الإسلام . وإما إشراك غيره معه فى أى منها , فهو الشرك الذى لا يجتمع فى قلب واحد هو والإسلام ! (قل: أغير الله أتخذ وليًا). . وهذه صفاته سبحانه . . أى منطق يسمح بأن يتخذ غير الله وليا ؟ إن كان يتولاه لينصره ويعينه ، فالله هو فاطر السماوات والأرض ، فله السلطان فى السماوات والأرض . وإن كان يتولاه ليرزقه ويطعمه ، فالله هو الرازق المطعم لمن فى السماوات ومن فى الأرض . ففيم الولاء لغير صاحب السلطان الرزاق ؟ ثم (قل:إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين). . والإسلام وعدم الشرك معناهما المتعين ألا أتخذ غير الله وليا . فاتخاذ غير الله وليا – بأى معنى - هو الشرك . ولن يكون الشرك إسلاما (قل: إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين) إنه تصوير لحقيقة مشاعر الرسول ﷺ تجاه أمر ربه له ؛ وتجسيم لخوفه من عذابه . العذاب الذى يعتبر مجرد صرفه عن العبد رحمه من الله وفوزا مبينا . ولكنه فى الوقت ذاته حمله مزلزلة على قلوب المشركين فى ذلك الزمان ، وقلوب المشركين بالله فى كل زمان . حملة مزلزلة تصور العذاب فى ذلك اليوم العظيم ؛ يطلب الفريسة ، ويحلق عليها , ويهجم ليأخذها . فلا تصرفه عنها إلا القدرة القادرة التى تأخذ بخطامه فتلويه عنها ! وإن أنفاس القارىء لهذا التصوير لتحتبس – وهو يتمثل المشهد – فى انتظار هذه اللقطة الأخيرة ! ثم إنه لماذا يتخذ غير الله وليا ، ويعرض نفسه للشرك الذى نهى عنه وللمخالفة عن الإسلام الذى أمر به ، ولما يعقب المعصية من هذا العذاب الهائل الرعيب ؟ . . ألعل ذلك رجاء جلب نفع أو دفع ضر فى هذه الحياة الدنيا ؟ رجاء نصرة الناس له فى الضراء ؛ ورجاء نفع الناس له بالسراء ؟ . . إن هذا كله بيد الله ؛ وله القدرة المطلقة فى عالم الأسباب ؛ وله القهر كذلك على العباد ؛ وعنده الحكمة والخبرة فى المنع والعطاء(وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) إنه تتبع هواجس النفس ووساوس الصدر ؛ وتتبع مكامن الرغائب والمخافات ، ومطارح الظنون والشبهات وتجليه هذا كله بنور العقيدة ، وفرقان الإيمان ، ووضوح التصور ، وصدق المعرفة بحقيقة الألوهية ، وأخيرا تجىء قمة المد فى هذه الموجة ؛ ويجىء الإيقاع المدوى العميق ؛ فى موقف الإشهاد والإنذار والمفاصلة والتبرؤ من المشاركة فى الشرك . . كل ذلك فى رنة عالية , وفى حسم رهيب (قل: أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله . شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل:لا أشهد ، قل:إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون) فها هو ذا رسول الله ﷺ يؤمر من ربه هذا الأمر . . ثم ها هو ذا يواجه المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء ؛ يجعلون لهم بعض خصائص الألوهية مع الله ; ويدعون رسول الله ﷺ أن يقرهم على هذا الذى هم فيه ليدخلوا هم فيما جاءهم به ! كأن ذلك يمكن أن يكون ! وكأنه يمكن أن يجتمع الإسلام والشرك فى قلب واحد على هذا النحو الذى كانوا يتصورونه ؛ والذى لا يزال يتصوره ناس فى هذا الزمان ، من أنه يمكن أن يكون الإنسان مسلما لله ؛ بينما هو يتلقى من غير الله فى شؤون الحياة ؛ وبينما هو يخضع لغير الله ويستنصر بغير الله ، ويتولى غير الله ! وها هو ذا يبدأ معهم مشهد الإشهاد العلنى المفتوح المكشوف (قل: أى شىء أكبر شهادة ؟) أى شاهد فى هذا الوجود كله هو أكبر شهادة ؟ أى شاهد تعلو شهادته كل شهادة ؟ أى شاهد تحسم شهادته فى القضية فلا يبقى بعد شهادته شهادة ؟ وكما يؤمر رسول الله ﷺ بالسؤال ، فهو يؤمر كذلك بالجواب . ذلك أنه لا جواب غيره باعتراف المخاطبين أنفسهم . ولا جواب غيره فى حقيقة الأمر والواقع ... نعم ! فالله – سبحانه وتعالى – هو أكبر شهادة . هو الذى يقص الحق وهو خير الفاصلين . . هو الذى لا شهادة بعد شهادته ، ولا قول بعد قوله . فإذا قال فقد انتهى القول , وقد قضى الأمر . فإذا أعلن هذه الحقيقة : حقيقة أن الله سبحانه هو أكبر شهادة ، أعلن لهم أنه – سبحانه - هو الشهيد بينه وبينهم فى القضية (شهيد بينى وبينكم) فهو حجة عليهم وعلى من يبلغه غيرهم ؛ لأنه يتضمن شهادة الله فى هذه القضية الأساسية ؛ التى تقوم عليها الدنيا والآخرة ، ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنسانى ضمنا (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) فكل من بلغه

هذا القرآن من الناس ، بلغة يفهمها ، ويحصل منها محتواه ، فقد قامت عليه الحجة به ، وبلغه الإنذار ، وحق عليه العذاب ، إن كذب بعد البلاغ . . [فأما من يحول عدم فهمه للغة القرآن دون فهمه لفحواه ، فلا تقوم عليه الحجة به ؛ ويبقى إثمه على أهل هذا الدين الذين لم يبلغوه بلغته التي يفهم بها مضمون هذا الشهادة . . هذا إذا كان مضمون القرآن لم يترجم إلى لغته] فإذا أعلن إليهم أن شهادة الله – سبحانه – متضمنة في هذا القرآن ، أعلن إليهم مضمون هذه الشهادة في صورة التحدي والاستنكار لشهادتهم هم ، المختلفة في أساسها عن شهادة الله سبحانه . وعالنهم بأنه ينكر شهادتهم هذه ويرفضها ؛ وأنه يعلن غيرها ويقرر عكسها ويشهد لربه بالوحدانية المطلقة والألوهية المتفردة ؛ وأنه يفاصلهم على هذا عند مفرق الطريق ؛ وأنه يتبرأ من شركهم في صيغة التشديد والتوكيد (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل: لا أشهد ، قل: إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون)

مواجهة المشركين بمصيرهم في يوم البعث الذي يكذبون به

مقدمة الوحدة – الرابعة من سورة الأنعام هذه الجولة – أو هذه الموجه – عودة إلى مواجهة المشركين المكذبين بالقرآن الكريم , المكذبين بالبعث والآخرة . . ولكنها لا تواجههم بتصوير تعنتهم وعنادهم ؛ ولا تواجههم بمصارع الغابرين من المكذبين من أسلافهم – كما سبق في سياق السورة – إنما تواجههم بمصيرهم في يوم البعث الذي يكذبون به ؛ وبجزائهم في الآخرة التي ينكرونها . . تواجههم بهذا الجزاء وبذلك المصير في مشاهد حية شاخصة . . تواجههم به وهم محشورون جميعا ، مسؤولون سؤال التبكيت والتأنيب ، وسؤال التشهير والتعجيب: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ وهم في رعب وفزع ، وفي تضعضع وذهول يقسمون بالله ويعترفون له وحده بالربوبية: (والله ربنا ما كنا مشركين)! . . وتواجههم به وهم موقوفون على النار ، محبوسون عليها ، وهم في رعب وفزع ، وفي ندم وحسرة يقولون: (يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين)! . . وتواجههم به وهم موقوفون على ربهم ، وهم يتذاوبون من الخجل والندم ، ومن الروع والهول ؛ وهو – جل جلاله – يسألهم سبحانه: (أليس هذا بالحق ؟)فيجيبون في استخذاء وتذاوب: (بلى وربنا). فلا يجديهم هذا الاعتراف شيئا: (قال: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون). . ويواجهون به وهم قد خسروا أنفسهم وخسروا كل شيء إذن ؛ وجاءوا يحملون أوزارهم على ظهورهم ؛ وهم يجارون بالحسرة على تفريطهم في الأخرة ، وأخذهم للصفقة الخاسرة !

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{٢٠} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ{٢١} وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ{٢٢} ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ{٢٣} انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{٢٤} وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ{٢٥} وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ{٢٦} وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{٢٧} بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{٢٨} وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ{٢٩} وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٣٠} قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاءِ اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ{٣١} وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ){٣٢}

ذكر أهل الكتاب فيها على هذا النحو يفيد أنها كانت مواجهة للمشركين بأن هذا القرآن الذي ينكرونه ، يعرفه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم ؛ وإذا كانت كثرتهم لم تؤمن به فذلك لأنهم خسروا أنفسهم ، فهم لا يؤمنون . شأنهم في هذا شأن المشركين ، الذين خسروا أنفسهم ، فلم يدخلوا في هذا الدين ! والسياق قبل هذه الآية وبعدها كله عن المشركين . مما يرجح مكيتها كما قلنا من قبل في التعريف بالسورة ، وقد جرى المفسرون على تفسير مثل هذا التقرير (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم). . على أنهم يعرفون أنه منزل من عند الله حقا ؛ أو على أن النبي ﷺ رسول من عند الله حقا ، يوحى إليه بهذا القرآن . . وهذا جانب من مدلول النص فعلا ولكنا نلمح – باستصحاب الواقع التاريخي وموقف أهل الكتاب من هذا الدين فيه – أن هناك جانبا آخر من مدلول النص ؛ لعل الله – سبحانه – أراد أن يعلمه للجماعة المسلمة ، ليستقر في وعيها على مدار التاريخ , وهي تواجه أهل الكتاب بهذا الدين ، إن أهل الكتاب

يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله ؛ ويعرفون – من ثم – ما فيه من سلطان وقوة ؛ ومن خير وصلاح ؛ ومن طاقة دافعة للأمة التى تدين بالعقيدة التى جاء بها ; وبالأخلاق التى تنبثق منها ؛ وبالنظام الذى يقوم عليها . ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله ؛ ويعلمون جيدا أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الدين ! . . إنهم يعرفون ما فيه من حق ، ويعرفون ما هم فيه من باطل . . ويعرفون أن الجاهلية التى صاروا إليها ، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم ، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين , أو يبقى عليها . . وأنها – من ثم – معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض , ويستعلى هذا الدين ، ويكون الدين كله لله . . أى أن يكون السلطان فى الأرض كله لله ؛ وأن يطارد المعتدون على سلطان الله فى الأرض كلها . وبذلك وحده يكون الدين كله لله . . إن أهل الكتاب يعلمون جيدا هذه الحقيقة فى هذا الدين . . ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم . . وهم جيلا بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة دقيقة عميقة ؛ وينقبون عن أسرار قوته ؛ وعن مداخلة إلى النفوس ومساربه فيها ؛ ويبحثون بجد:كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة فى هذا الدين ؟ كيف يلقون بالريب والشكوك فى قلوب أهله ؟ كيف يحرفون الكلم فيه عن مواضعه ؟ كيف يصدون أهله عن العلم الحقيقى به ؟ كيف يحولونه من حركة دافعة تحطم الباطل والجاهلية وتسترد سلطان الله فى الأرض وتطارد المعتدين على هذا السلطان ، وتجعل الدين كله لله . . إلى حركة ثقافية بارده ، وإلى بحوث نظرية ميتة , وإلى جدل لاهوتى أو فقهى أو طائفى فارغ ؟ كيف يفرغون مفهوماته فى أوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه مدمرة له ، مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة ؟! كيف فى النهاية يملأون فراغ العقيدة بتصورات أخرى ومفهومات أخرى واهتمامات أخرى ، ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة ؟! إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة ؛ لا لأنهم يبحثون عن الحقيقية - كما يتوهم السذج من أهل هذا الدين ! – ولا لينصفوا هذا الدين وأصله – كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافا من باحث أو مستشرق بجانب طيب فى هذا الدين - ! كلا ! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة ، لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين ! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يميعوها ! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها ! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبنى نفسه فى النفوس ليبنوا على غراره التصورات المضادة التى يريدون ملء فراغ الناس بها ! وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ! ومن واجبنا نحن أن نعرف ذلك . . وأن نعرف معه أننا نحن الأولى بأن نعرف ديننا كما نعرف أباءنا ! إن الواقع التاريخى من خلال أربعة عشر قرنا ينطق بحقيقة واحدة . . هى هذه الحقيقة التى يقررها القرآن الكريم فى هذه الآية: (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ولكن هذه الحقيقة تتضح فى هذه الفترة وتتجلى بصورة خاصة . . إن البحوث التى تكتب عن الإسلام فى هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب كل أسبوع ؛ بلغة من اللغات الأجنبية . . وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه ، ومصادر قوته ، ووسائل مقاومته ، وطرق إفساد توجيهه ! ومعظمهم - بطبيعة الحال – لا يفصح عن نيته هذه ؛ فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان يثير حماسة الدفاع والمقاومة ; وأن الحركات التى قامت لطرد الهجوم المسلح على هذا الدين – الممثل فى الاستعمار – إنما كانت ترتكز على قاعدة من الوعى الدينى أو على الأقل العاطفة الدينية ؛ وأن استمرار الهجوم على الإسلام - ولو فى الصورة الفكرية – سيظل يثير حماسة الدفاع والمقاومة ! لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة أخبث . . يلجأ إلى إزجاء الثناء لهذا الدين ، حتى ينوم المشاعر المتوفزة , ويخدر الحماسة المتحفزة ، وينال ثقة القارىء واطمئنانه . ثم يضع السم فى الكأس ويقدمها مترعة . . هذا الدين نعم عظيم . . ولكنه ينبغى أن يتطور بمفهوماته ويتطور كذلك بتنظيماته ليجارى الحضارة "الإنسانية" الحديثة ! وينبغى ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التى وقعت فى أوضاع المجتمع ، وفى أشكال الحكم , وفى قيم الأخلاق ! وينبغى – فى النهاية – أن يتمثل فى صورة عقيدة فى القلوب , ويدع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة "الإنسانية" الحديثة ! ويقف فقط ليبارك ما تقرره الأرباب الأرضية من هذه التجارب والأساليب . . وبذلك يظل دينا عظيما . . !!! (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ إنه لا يفلح الظالمون . ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا:أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون) هذا استطرد فى مواجهة المشركين بحقيقة ما يزاولونه ، ووصف موقفهم وعملهم فى تقدير الله سبحانه . . مواجهة تبدأ باستفهام تقريرى لظلمهم بافتراء الكذب على الله ; وذلك فيما كانوا يدعونه من أنهم على دينه الذى جاء به إبراهيم عليه السلام ؛ ومن زعمهم أن ما يحلونه وما يحرمونه من الأنعام والمطاعم والشعائر – كالذى سيجىء فى آخر السورة مشفوعا بقوله تعالى (بزعمهم)– هو من أمر الله . . وليس من أمره . وذلك كالذى يزعمه بعض من يدعون اليوم أنهم على دين الله الذى جاء به محمد ﷺ ويقولون عن أنفسهم إنهم "مسلمون" ! وهو من الكذب المفترى على الله . ذلك أنهم يصدرون أحكاما

وينشئون أوضاعا ، ويبتدعون قيما من عند أنفسهم يغتصبون فيها سلطان الله ويدعونه لأنفسهم , ويزعمون أنها هى دين الله ؛ ويزعم لهم بعض من باعوا دينهم ليشتروا به مثوى فى دركات الجحيم ، أنه هو دين الله ! . . وباستنكار تكذيبهم كذلك بآيات الله ، التى جاءهم بها النبى ﷺ فردوها وعارضوها وجحدوها . وقالوا: إنها ليست من عند الله . بينما هم يزعمون أن ما يزاولونه فى جاهليتهم هو الذى من عند الله ! وذلك كالذى يحدث من أهل الجاهلية اليوم . . حذوك النعل بالنعل . . يواجههم باستنكار هذا كله ؛ ووصفه بأنه أظلم الظلم (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته !) والظلم هنا كناية عن الشرك . فى صورة التفظيع له والتقبيح . وهو التعبير الغالب فى السياق القرآنى عن الشرك . وذلك حين يريد أن يبشع الشرك وينفر منه . ذلك أن الشرك ظلم للحق ، وظلم للنفس ، وظلم للناس . هو اعتداء على حق الله – سبحانه – فى أن يوحد ويعبد بلا شريك . واعتداء على النفس بإيرادها موارد الخسارة والبوار . واعتداء على الناس بتعبيدهم لغير ربهم الحق ، وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التى تقوم على أساس هذا الاعتداء . . ومن ثم فالشرك ظلم عظيم ، كما يقول عنه رب العالمين . ولن يفلح الشرك ولا المشركون (إنه لا يفلح الظالمون) والله - سبحانه – يقرر الحقيقة الكلية ؛ ويصف الحصيلة النهائية للشرك والمشركين -أو للظلم والظالمين – فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر ، فى الأمد القريب , فلاحا ونجاحا . . فهذا هو الاستدراج المؤدى إلى الخسار والبوار . . ومن أصدق من الله حديثا ؟ . . وهنا يصور من عدم فلاحهم موقفهم يوم الحشر والحساب ، فى هذا المشهد الحى الشاخص الموحى(ويوم نحشرهم جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا:والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم , وضل عنهم ما كانوا يفترون) إن الشرك ألوان ، والشركاء ألوان ، والمشركين ألوان . . وليست الصورة الساذجة التى تتراءى للناس اليوم حين يسمعون كلمة الشرك وكلمة الشركاء وكلمة المشركين:من أن هناك ناسا كانوا يعبدون أصناما أو أحجارا ، أو أشجارا ، أو نجوما ، أو نارا . . الخ . . هى الصورة الوحيدة للشرك ! إن الشرك فى صميمه هو الاعتراف لغير الله – سبحانه – بإحدى خصائص الألوهية . . سواء كانت هى الاعتقاد بتسيير إرادته للأحداث ومقادير الكائنات . أو كانت هى التقدم لغير الله بالشعائر التعبدية والنذور وما إليها . أو كانت هى تلقى الشرائع من غير الله لتنظيم أوضاع الحياة . . كلها ألوان من الشرك ، يزاولها ألوان من المشركين ، يتخذون ألوانا من الشركاء ولقد كان العرب يزاولون هذه الألوان من الشرك جميعا: كانوا يعتقدون أن هناك كائنات من خلق الله ، لها مشاركة – عن طريق الشفاعة الملزمة عند الله – فى تسيير الأحداث والأقدار . كالملائكة . أو عن طريق قدرتها على الأذى - كالجن بذواتهم أو باستخدام الكهان والسحرة لهم – أو عن طريق هذه وتلك – كأرواح الآباء والأجداد – وكل أولئك كانوا يرمزون له بالأصنام التى تعمرها أرواح هذه الكائنات ؛ ويستنطقها الكهان ؛ فتحل لهم ما تحل ، وتحرم عليهم ما تحرم . . وإنما هم الكهان فى الحقيقة . . هم الشركاء ! وكانوا يزاولون الشرك فى تقديم الشعائر لهذه الأصنام ؛ وتقديم القربان لها والنذور - وفى الحقيقة للكهان – كما أن بعضهم – نقلا عن الفرس – كانوا يعتقدون فى الكواكب ومشاركتها فى تسيير الأحداث – عن طريق المشاركة لله – ويتقدمون لها كذلك بالشعائر] وكذلك كانوا يزاولون اللون الثالث من الشرك بإقامتهم لأنفسهم – عن طريق الكهان والشيوخ – شرائع وقيما وتقاليد ، لم يأذن بها الله . . وكانوا يدعون ما يدعيه بعض الناس اليوم من أن هذا هو شريعة الله ! وفى هذا المشهد – مشهد الحشر والمواجهة - يواجه المشركين – كل أنواع المشركين بكل ألوان الشرك – بسؤالهم عن الشركاء - كل أصناف الشركاء – أين هم ؟ فإنه لا يبدو لهم أثر ؛ ولا يكفون عن أتباعهم الهول والعذاب (ويوم نحشرهم جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟) والمشهد شاخص ، والحشر واقع ، والمشركون مسؤولون ذلك السؤال العظيم . . الأليم) (أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟) وهنا يفعل الهول فعله . . هنا تتعرى الفطرة من الركام الذى ران عليها فى الدنيا . . هنا ينعدم من الفطرة ومن الذاكرة – كما هو منعدم فى الواقع والحقيقة – وجود الشركاء ; فيشعرون أنه لم يكن شرك ، ولم يكن شركاء . . لم يكن لهذا كله من وجود لا فى حقيقة ولا واقع . . هنا "يفتنون فيذهب الخبث ، ويسقط الركام – من فتنة الذهب بالنار ليخلص من الخبث والزبد (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين) لذلك يقرر الله سبحانه ، معجبا رسوله ﷺ من أمر القوم ، أنهم كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا هؤلاء الشركاء شركاء ، حيث لا وجود لشركتهم مع الله فى الحقيقة . وأنهم اليوم غاب عنهم ما كانوا يفترونه ، فاعترفوا بالحق بعد ما غاب عنهم الافتراء (انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون) فالكذب منهم كان على أنفسهم ؛ فهم كذبوها وخدعوها يوم اتخذوا مع الله شريكا ، وافتروا على الله هذا الافتراء . وقد ظل عنهم ما كانوا يفترون وغاب ، فى يوم الحشر والحساب ! ويمضى السياق يصور حال فريق من المشركين ؛ ويقرر مصيرهم فى مشهد من مشاهد القيامة . . يصور حالهم وهم يستمعون القرآن معطلى الإدراك ، مطموسى الفطرة ، معاندين مكابرين ، يجادلون رسول الله ﷺ وهم على

هذا النحو من الاستغلاق والعناد ، ويدعون على هذا القرآن الكريم أنه أساطير الأولين ؛ وينأون عن سماعه وينهون غيرهم عنه أيضا . . يصور حالهم هكذا فى الدنيا فى صفحة ، وفى الصفحة الأخرى يرسم لهم مشهدا كئيبا مكروبا ; وهم موقوفون على النار محبوسون عليها ، وهى تواجههم بهول المصير الرعيب ؛ وهم يتهافتون متخاذلين ؛ ويتهاوون متحسرين ؛ يتمنون لو يردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف ، الذى انتهى بهم إلى هذا المصير . فيردون عن هذا التمنى بالتصغير والتحقير (ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاؤوك يجادلونك ، يقول الذين كفروا:إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا:يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون) إنهما صفحتان متقابلتان :صفحة فى الدنيا يرتسم فيها العناد والإعراض ; وصفحة فى الآخرة يرتسم فيها الندم والحسرة . . يرسمها السياق القرآنى ، ويعرضهما هذا العرض المؤثر الموحى ؛ ويخاطب بهما الفطر الجاسية ؛ ويهز بها هذه الفطر هزا ، لعل الركام الذى ران عليها يتساقط ، ولعل مغاليقها الصلدة تتفتح ، ولعلها تفيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان (ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) والأكنة هى الأغلفة التى تحول دون أن تتفتح هذه القلوب فتفقه ؛ والوقر هو الصمم الذى يحول دون هذه الآذان أن تؤدى وظيفتها فتسمع وهذه النماذج البشرية التى تستمع ؛ ولكنها لا تفقه ، كأن ليس لها قلوب تدرك ؛ وكأن ليس لها آذان تسمع . . نماذج مكرورة فى البشرية فى كل جيل وفى كل قبيل ، فى كل زمان وفى كل مكان . . إنهم أناسى من بنى آدم . . ولكنهم يسمعون القول وكأنهم لا يسمعونه . كأن آذانهم صماء لا تؤدى وظيفتها . وكأن إدراكهم فى غلاف لا تنفذ إليه مدلولات ما سمعته الآذان ! (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . حتى إذا جاؤوك يجادلونك . يقول الذين كفروا:إن هذا إلا أساطير الأولين) فأعينهم ترى كذلك . ولكن كأنها لا تبصر . أو كأن ما تبصره لا يصل إلى قلوبهم وعقولهم ! فما الذى أصاب القوم يا ترى ؟ ما الذى يحول بينهم وبين التلقى والاستجابة . بينما لهم آذان ولهم عيون ولهم عقول ؟ يقول الله – سبحانه (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) وهذا يعبر عن قضاء الله فيهم بألا يتلقى إدراكهم هذا الحق ولا يفقهه ؛ وبألا تؤدى أسماعهم وظيفتها فتنقل إلى إدراكهم ما تسمع من هذا الحق فتستجيب له ، مهما يروا من دلائل الهدى وموحيات الإيمان . غير أنه يبقى أن نلتمس سنة الله فى هذا القضاء . . إنه سبحانه يقول: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا). . والذين أثاروا قضايا القضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، وإرادة العبد وكسبه . . ليجعلوا منها مباحث لاهوتية ، تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات ، إنما يجانبون منهج القرآن فى عرض هذه القضية فى صورتها الواقعية التقريرية البسيطة ؛ التى تقرر أن كل شيء إنما يكون بقدر من الله ؛ وأن اتجاه الإنسان على هذا النحو أو ذاك داخل فى حدود فطرته التى خلقه الله عليها ، والتى جرى بها قدر الله فكانت على ما كانت عليه ؛ وأن اتجاهه على هذا النحو أو ذاك تترتب عليه نتائج وآثار فى الدنيا والآخرة يجرى بها قدر الله أيضا ، فتكون . . وبهذا يكون مرجع الأمر كله إلى قدر الله . . ولكن على النحو الذى يرتب على إرادة الإنسان الموهوبة له ما يوقعه قدر الله به . . وليس وراء هذا التقرير إلا الجدل الذى ينتهى إلى المراء ! (حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا:إن هذا إلا أساطير الأولين) والأساطير جمع أسطورة . وكانوا يطلقونها على الحكايات التى تتضمن الخوارق المتعلقة بالألهة والأبطال فى قصص الوثنيات . وأقربها إليهم كانت الوثنية الفارسية وأساطيرها . وهم كانوا يعلمون جيدا أن هذا القرآن ليس بأساطير الأولين . ولكنهم إنما كانوا يجادلون ; ويبحثون عن أسباب الرد والتكذيب ؛ ويتلمسون أوجه الشبهات البعيدة . . وكانوا يجدون فيما يتلى عليهم من القرآن قصصا عن الرسل وأقوامهم ؛ وعن مصارع الغابرين من المكذبين . فمن باب التمحل والتماس أوهى الأسباب ، قالوا عن هذا القصص وعن القرآن كله: (إن هذا إلا أساطير الأولين)! وإمعانا فى صرف الناس عن الاستماع لهذا القرآن ، وتثبيت هذه الفرية . . فرية أن هذا القرآن إن هو إلا أساطير الأولين . . كان مالك بن النضر ، وهو يحفظ أساطير فارسية عن رستم واسفنديار من أبطال الفرس الأسطوريين ، يجلس مجلسا قريبا من رسول الله ﷺ وهو يتلو القرآن . فيقول للناس:إن كان محمد يقص عليكم أساطير الأولين , فعندى أحسن منها ! ثم يروح يقص عليهم مما عنده من الأساطير ، ليصرفهم عن الاستماع إلى القرآن الكريم ! ولقد كانوا كذلك ينهون الناس عن الاستماع إليه – وهم كبراؤهم – وينأون هم عن الاستماع خشية التأثر والاستجابة (وهم ينهون عنه ، وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) لقد كانوا على يقين من أنه ليس أساطير الأولين . وأن مواجهته بأساطير الأولين لا تجدى لو ترك الناس يسمعون ! وكان كبراء قريش يخافون على أنفسهم من تأثير هذا القرآن فيها كما يخافون على أتباعهم . وهذا الجهد كله الذى كانوا يبذلونه ليمنعوا أنفسهم ويمنعوا غيرهم من الاستماع لهذا القرآن ؛

ومن التأثر به والاستجابة له . . هذا الجهد كله إنما كانوا يبذلونه فى الحقيقة لإهلاك أنفسهم – كما يقرر الله – سبحانه (وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) وهل يهلك إلا نفسه من يجاهد نفسه ويجاهد غيره دون الهدى والصلاح والنجاة ، فى الدنيا والآخرة ؟ إنهم مساكين أولئك الذين يجعلون همهم كله فى الحيلولة بين أنفسهم والناس معهم وبين هدى الله ! مساكين ! ولو تبدوا فى ثياب الجبابرة وزى الطواغيت ! مساكين فهم لا يهلكون إلا أنفسهم فى الدنيا والآخرة . وإن بدا لهم حينا من الدهر وبدا للمخدوعين بالزبد أنهم رابحون مفلحون . ومن شاء أن يرى فلينظر فى الصفحة الأخرى المواجهة لهذه الصفحة الأولى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا:يا ليتنا نرد ، ولا نكذب بآيات ربنا ، ونكون من المؤمنين)

إنه المشهد المقابل لمشهدهم فى الدنيا . . مشهد الاستخذاء والندامة والخزى والحسرة . فى مقابل مشهد الإعراض والجدال والنهى والنأى والادعاء العريض ! (ولو ترى إذ وقفوا على النار). . لو ترى ذلك المشهد ! لو تراهم وقد حبسوا على النار لا يملكون الإعراض والتولى ! ولا يملكون الجدل والمغالطة ! لو ترى لرأيت ما يهول ! ولرأيتهم يقولون ولكنها ليست سوى الأمانى التى لا تكون !.على أنهم إنما يجهلون جبلتهم . فهى جبلة لا تؤمن . وقولهم هذا عن أنفسهم:إنهم لو ردوا لما كذبوا ولكانوا مؤمنين ، إنما هو كذب لا يطابق حقيقة ما يكون منهم لو كان لإجابتهم من سبيل ! وإنهم ما يقولون قولتهم هذه ، إلا لأنه تكشف لهم من سوء عملهم وسوء مغبتهم ما كانوا من قبل يخفونه على أتباعهم ليوهموهم أنهم محقون ، وأنهم ناجون , وأنهم مفلحون (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه . وإنهم لكاذبون) إن الله يعلم طبيعتهم ؛ ويعلم إصرارهم على باطلهم ؛ ويعلم أن رجفة الموقف الرعيب على النار هى التى أنطقت ألسنتهم بهذه الأمانى وهذه الوعود . . (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) ويدعهم السياق فى هذا المشهد البائس ، وهذا الرد يصفع وجوهم بالمهانة والتكذيب ! يدعهم ليفتح صفحتين جديدتين متقابلتين كذلك ؛ ويرسم لهما مشهدين متقابلين:أحدهما فى الدنيا وهم يجزمون بأن لا بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا جزاء . وثانيهما فى الآخرة وهم موقوفون على ربهم يسألهم عما هم فيه: (أليس هذا بالحق ؟). . السؤال الذى يزلزل ويذيب . . فيجيبون إجابة المهين الذليل: (بلى ! وربنا). . فيجبهون عندئذ بالجزاء الأليم بما كانوا يكفرون . . ثم يمضى السياق يرسم مشهدهم والساعة تأخذهم بغتة ,بعدما كذبوا بلقاء الله ، فتنتابهم الحسرة ؛ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ! وفى النهاية يقرر حقيقة وزن الدنيا والآخرة فى ميزان الله الصحيح: (وقالوا:إن هى إلا حياتنا الدنيا ، وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال:أليس هذا بالحق ؟ قالوا:بلى وربنا . قال:فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا:يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ، وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ؟) وقضية البعث والحساب والجزاء فى الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية ، التى جاء بها الإسلام ؛ والتى يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية . والتى لا يقوم هذا الدين – عقيدة وتصورا ، وخلقا وسلوكا ، وشريعة ونظاما – إلا عليها . . وبها . . إن إنسانا يعيش فى هذا المدى المتطاول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات ، غير إنسان يعيش فى ذلك الجحر الضيق ، ويصارع الآخرين عليه ، بلا انتظار لعوض عما يفوته , ولا لجزاء عما يفعله وما يفعل به . . إلا فى هذه الأرض ومن هؤلاء الناس ! والذين يفترون على عقيدة الحياة الآخرة فيقولون:إنها تدعو الناس إلى السلبية فى الحياة الدنيا ؛ وإلى إهمال هذه الحياة ؛ وتركها بلا جهد لتحسينها وإصلاحها ؛ وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعا إلى نعيم الآخرة . . الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة ! فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة – كما هى فى التصورات الكنسية المنحرفة – وعقيدة الآخرة كما هى فى دين الله القويم . . فالدنيا – فى التصور الإسلامى – هى مزرعة الآخرة . والجهاد فى الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة ، ورفع الشر والفساد عنها , ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعا . . كل أولئك هو زاد الآخرة ؛ وهو الذى يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعوضهم عما فقدوا فى صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى . .

وكان العرب فى جاهليتهم – وبسبب من هذه الجاهلية – لا تتسع آفاقهم التصورية والشعورية والفكرية للاعتقاد فى حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ؛ ولا فى عالم آخر غير هذا العالم الحاضر:ولا فى امتداد الذات الإنسانية إلى آماد وآفاق وأعماق غير هذه الآماد المحسوسة . . مشاعر وتصورات أشبه شىء بمشاعر الحيوان وتصوراته . . شأنهم فى هذا شأن الجاهلية الحاضرة . . "العلمية " كما يصر أهلها على تسميتها ! (وقالوا:إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين). . وكان الله – سبحانه – يعلم أن الاعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ فى ظله حياة إنسانية رفيعة كريمة . . هذه الآفاق الضيقة فى الشعور

والتصور ، التى تلصق الإنسان بالأرض ، وتلصق تصوره بالمحسوس منها كالبهيمة . . وهذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ، التى تطلق السعار فى النفس ، والتكالب على المتاع المحدود ، والعبودية لهذا المتاع الصغير ، كما تطلق الشهوات من عقالها تعربد وحدها بلا كابح ، ولا هدنة ، ولا أمل فى عوض ، إن لم تقض هذه الشهوات الهابطة الصغيرة ، التى لا تكاد تبلغ نزوات البهيمة ! . . وهذه الأنظمة والأوضاع ، التى تنشأ فى الأرض منظورا فيها إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ; بلا عدل ولا رحمة ، ولا قسط ولا ميزان . . إلا أن يصارع الأفراد بعضهم بعضا ، وتصارع الطبقات بعضها بعضا ، وتصارع الأجناس بعضها بعضا . . وينطلق الكل فى الغابة انطلاقا لا يرتفع كثيرا على انطلاق الوحوش والغيلان ! كما نشهد اليوم فى عالم" الحضارة " . . فى كل مكان . .

كان الله – سبحانه – يعلم هذا كله ؛ ويعلم أن الأمة التى قدر أن يعطيها مهمة الإشراف على الحياة البشرية ، وقيادتها إلى القمة السامقة التى يريد أن تتجلى فيها كرامة الإنسانية فى صورة واقعية . . أن هذه الأمة لا يمكن أن تؤدى واجبها هذا إلا بأن تخرج بتصوراتها وقيمها من ذلك الجحر الضيق إلى تلك الآفاق والآماد الواسعة . . من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . . ولهذا كان ذلك التوكيد على حقيقة الآخرة . أولا لأنها حقيقة . والله يقص الحق . وثانيا لأن اليقين بها ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان:تصورا واعتقادا ، وخلقا وسلوكا ، وشريعة ونظاما . ومن ثم كانت هذه الإيقاعات العنيفة العميقة التى نراها فى هذه الموجة من نهر السورة المتدفق . . الإيقاعات التى يعلم الله أن فطرة الإنسان تهتز لها وترجف ؛ فتفتح نوافذها ، وتستيقظ أجهزة الاستقبال فيها ، وتتحرك وتحيا ، وتتأهب للتلقى والاستجابة . . ذلك كله فضلا على أنها تمثل الحقيقة (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم . قال:أليس هذا بالحق ؟ قالوا:بلى وربنا . قال:فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وهم موقوفون فى حضرة ربهم الذى كذبوا بلقائه ، لا يبرحون الموقف . وكأنما أخذ بأعناقهم حتى وقفوا فى هذا المشهد الجليل الرهيب (قال:أليس هذا بالحق ؟). . وهو سؤال يخزى ويذيب ! (قالوا:بلى وربنا) الآن . وهم موقوفون على ربهم . فى الموقف الذى نفوا على سبيل التوكيد أن يكون ! وفى اختصار يناسب جلال الموقف ، ورهبة المشهد ، وهول المصير ، يجىء الأمر العلوى بالقضاء الأخير:قال: (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وهو مصير يتفق مع الخلائق التى أبت على نفسها سعة التصور الإنسانى وآثرت عليه جحر التصور الحسى ! والتى أبت أن ترتفع إلى الأفق الإنسانى الكريم ، وأخلدت إلى الأرض ، وأقامت حياتها وعاشت على أساس ذلك التصور الهابط الهزيل ! لقد ارتكست هذه الخلائق حتى أهلت نفسها لهذا العذاب ؛ الذى يناسب طبائع الكافرين بالآخرة ؛ الذين عاشوا ذلك المستوى الهابط من الحياة ! بذلك التصور الهابط الهزيل ! ويستكمل السياق المشهد الذى ختمه هناك بهذا القضاء العلوى تنسيقا له مع الجلال والروعة والهول . . يستكمله بتقرير حقيقته (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله . حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا:يا حسرتنا على ما فرطنا فيها !) فهى الخسارة المحققة المطلقة . . خسارة الدنيا بقضاء الحياة فيها فى ذلك المستوى الأدنى . . وخسارة الآخرة على النحو الذى رأينا . . والمفاجأة التى لم يحسب لها أولئك الغافلون الجاهلون حسابا (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا:يا حسرتنا على ما فرطنا فيها !) ثم مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) بل الدواب أحسن حالا . فهى تحمل أوزارا من الأثقال . ولكن هؤلاء يحملون أوزارا من الآثام ! والدواب تحط عنها أوزارها فتذهب لتستريح . وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم . مشيعين بالتأثيم (ألا ساء ما يزرون !). . وفى ظلال هذا المشهد الناطق بالخسارة والضياع ، بعد ذلك المشهد الناطق بالهول والرهبة . . يجىء الإيقاع الأخير فى هذا القطع ؛ بحقيقة وزن الدنيا ووزن الآخرة فى ميزان الله ؛ وقيمة هذه الدنيا وقيمة الآخرة فى هذا الميزان الصحيح (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون) هذه هى القيمة المطلقة الأخيرة فى ميزان الله للحياة الدنيا وللدار الآخرة . . وما يمكن أن يكون وزن ساعة من نهار ، على هذا الكوكب الصغير ، إلا على هذا النحو ، حين توازن بذلك الأبد الأبيد فى ذلك الملك العريض . وما يمكن أن تكون قيمة نشاط ساعة فى هذه العبادة إلا لعبا ولهوا حين تقاس إلى الجد الرزين فى ذلك العالم الآخر العظيم ، والآخرة غيب . فالإيمان بها سعة فى التصور . وارتقاء فى العقل . والعمل لها خير للمتقين يعرفه الذين يعقلون (وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون)

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ{٣٣} وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ{٣٤} وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ{٣٥} إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ

يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ{٣٦} وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{٣٧} وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ{٣٨} وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ){٣٩}

فى هذه الموجة من موجات السياق المتدفق فى السورة ؛ يتجه الحديث إلى رسول الله ﷺ يطيب الله – سبحانه – خاطره فى أوله ، مما يلاقيه من تكذيب قومه له ، وهو الصادق الأمين ، فإنهم لا يظنون به الكذب ، إنما هم مصرون على الجحود بآيات الله وعدم الاعتراف بها وعدم الإيمان ، لأمر آخر غير ظنهم به الكذب ! كما يواسيه بما وقع لإخوانه الرسل قبله من التكذيب والأذى ، وما وقع منهم من الصبر والاحتمال ، ثم ما انتهى إليه أمرهم من نصر الله لهم . وفق سنته التى لا تتبدل . حتى إذا انتهى من المواساة والتسرية والتطمين ، التفت إلى النبى ﷺ يقرر له الحقيقة الكبرى فى شأن هذه الدعوة . . إنها تجرى بقدر الله وفق سنته ، وليس للداعية فيها إلا التبليغ والبيان . . إن الله هو الذى يتصرف فى الأمر كله ، فليس على الداعية إلا أن يمضى وفق هذا الأمر ، لا يستعجل خطوة ولا يقترح على الله شيئا . حتى ولو كان هو النبى الرسول ! ولا يستمع إلى مقترحات المكذبين – ولا الناس عامة – فى منهج الدعوة ، ولا فى اقتراح براهين وآيات معينة عليه . . والأحياء الذين يسمعون سيستجيبون , أما موتى القلوب فهم موتى لا يستجيبون ، والأمر إلى الله إن شاء أحياهم وإن شاء أبقاهم موتى حتى يرجعوا إليه يوم القيامة .

وهم يطلبون آية خارقة على نحو ما كان يقع للأقوام من قبلهم ، والله قادر على أن ينزل آية . ولكنه سبحانه لا يريد – لحكمة يراها – فإذا كبر على الرسول إعراضهم فليحاول هو إذن بجهده البشرى أن يأتيهم بآية ! . . إن الله – سبحانه – هو خالق الخلائق جميعا ، وعنده أسرار خلقهم ، وحكمة اختلاف خصائصهم وطباعهم . وهو يترك المكذبين من البشر صما وبكما فى الظلمات ، ويضل من يشاء ويهدى من يشاء وفق ما يعلمه من حكمة الخلق و التنويع

إن مشركى العرب فى جاهليتهم – وخاصة تلك الطبقة التى كانت تتصدى للدعوة من قريش - لم يكونوا يشكون فى صدق محمد ﷺ فلقد عرفوه صادقا أمينا ، ولم يعلموا عنه كذبة واحدة فى حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة ، كذلك لم تكن تلك الطبقة التى تتزعم المعارضة لدعوته تشك فى صدق رسالته ، وفى أن هذا القرآن ليس من كلام البشر ، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله . ولكنهم - على الرغم من ذلك – كانوا يرفضون إظهار التصديق ، ويرفضون الدخول فى الدين الجديد ! إنهم لم يرفضوا لأنهم يكذبون النبى ﷺ ولكن لأن فى دعوته خطرا على نفوذهم ومكانتهم . . وهذا هو السبب الذى من أجله قرروا الجحود بآيات الله ، والبقاء على الشرك الذى كانوا فيه (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) والظالمون فى هذا الموضع هم المشركون . كما يغلب فى التعبير القرآنى الكريم ، ويستطرد من تطييب خاطر الرسول ﷺ وبيان الأسباب الحقيقية لموقف المكذبين منه ومن دعوته ، ومن آيات الله الناطقة بصدقه وصدق ما جاء به . . يستطرد من هذا إلى تذكيره بما وقع لإخوانه الرسل قبله – وقد جاءه من أخبارهم فى هذا القرآن – ثم ما كان منهم من الصبر والمضى فى الطريق ، حتى جاءهم نصر الله . ليقرر أن هذه هى سنة الدعوات التى لا تتبدل ، ولا يغير منها اقتراحات المقترحين ، كما أنها لا تستعجل مهما ينزل بالدعاة من الأذى والتكذيب والضيق (ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين) إن موكب الدعوة إلى الله موغل فى القدم ، ضارب فى شعاب الزمن ، ماض فى الطريق اللاحب , ماض فى الخط الواصب . . مستقيم الخطى ، ثابت الأقدام . يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل ، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون ، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة ، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء . . والموكب فى طريقه لا ينحنى ولا ينثنى ولا ينكص ولا يحيد . . والعاقبة هى العاقبة ، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق . . إن نصر الله دائما فى نهاية الطريق (ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين) كلمات يقولها الله – سبحانه – لرسوله ﷺ كلمات للذكرى ، وللتسرية وللمواساة , والتأسية . . وهى ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله ﷺ طريقهم واضحا , ودورهم محددا ، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته ، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله فى نهاية الطريق ، إنها تعلمهم أن سنة الله فى الدعوات واحدة . كما انها كذلك وحدة . وحدة لا تتجزأ . . دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب ، وتتلقى أصحابها بالأذى . . وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى . . وسنة تجرى بالنصر فى النهاية . . ولكنها تجىء فى موعدها . لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء

الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب ، ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين ، ثم يبلغ الجد الصارم مداه ، في مواجهة ما عساه يعتمل في نفس رسول الله [ص] من الرغبة البشرية ، المشتاقة إلى هداية قومه ، المتطلعة إلى الاستجابة لما يطلبونه من آية لعلهم يهتدون . وهي الرغبة التي كانت تجيش في صدور بعض المسلمين في ذلك الحين ، والتي تشير إليها آيات أخرى في السورة آتية في السياق . وهي رغبة بشرية طبيعية . ولكن في صدد الحسم في طبيعة هذه الدعوة ومنهجها ودور الرسل فيها ، ودور الناس أجمعين , تجيء تلك المواجهة الشديدة في القرآن الكريم (وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض ، أو سلما في السماء , فتأتيهم بآية ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون) وإنه للهول الهائل ينسكب من خلال الكلمات الجليلة . . وما يملك الإنسان إن يدرك حقيقة هذا الأمر ، إلا حين يستحضر في كيانه كله أن هذه الكلمات موجهة من رب العالمين إلى نبيه الكريم . . النبي الصابر من أولى العزم من الرسل . . الذي لقي ما لقي من قومه صابرا محتسبا ، لم يدع عليهم دعوة نوح – عليه السلام – وقد لقي منهم سنوات طويلة ، ما يذهب بحلم الحليم ! تلك سنتنا – يا محمد – فإن كان قد كبر عليك إعراضهم ، وشق عليك تكذيبهم ، وكنت ترغب في إتيانهم بآية . . إذن . . فإن استطعت فابتغ لك نفقا في الأرض أو سلما في السماء ، فأتهم بآية ! إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية . فليس الذي ينقص هو الآية التي تدلهم على الحق فيما تقول . . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى:إما بتكوين فطرتهم من الأصل على أن لا تعرف سوى الهدى – كالملائكة – وإما بتوجيه قلوبهم وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى والاستجابة إليه . وإما بإظهار خارقة تلوي أعناقهم جميعا . وإما بغير هذه من الوسائل وكلها يقدر الله عليها . ولكنه سبحانه – لحكمته العليا الشاملة في الوجود كله – خلق هذا الخلق المسمى بالإنسان , لوظيفة معينة ، تقتضي – في تدبيره العلوي الشامل – أن تكون له استعدادات معينة غير استعدادات الملائكة . من بينها التنوع في الاستعدادات ، والتنوع في استقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، والتنوع في الاستجابة لهذه الدلائل والموحيات . في حدود من القدرة على الاتجاه ، بالقدر الذي يكون عدلا معه تنوع الجزاء على الهدى والضلال لذلك لم يجمعهم الله على الهدى بأمر تكويني من عنده ، ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية ، وتلقى الجزاء العادل في نهاية المطاف . . فأعلم ذلك ولا تكن مما يجهلونه (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . فلا تكونن من الجاهلين) يا لهول الكلمة ! ويا لحسم التوجيه ! ولكنه المقام الذي يقتضي هول الكلمة وحسم التوجيه ، وبعد ذلك بيان للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ولمواقفهم المختلفة في مواجهة الهدى , الذي لا تنقصه البينة ولا ينقصه الدليل (إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله . ثم إليه يرجعون) إن الناس يواجهون هذا الحق الذي جاءهم به الرسول من عند الله وهم فريقان:

فريق حي ، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية ، عاملة ، مفتوحة . . وهؤلاء يستجيبون للهدى . فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن تسمعه ، فتستجيب له (إنما يستجيب الذين يسمعون)

وفريق ميت ، معطل الفطرة ، لا يسمع ولا يستقبل ، ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب . . ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله – فدليله كامن فيه ، ومتى بلغ إلى الفطرة وجدت فيها مصداقه ، فاستجابت إليه حتما – إنما الذي ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة ، وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقي ! وهؤلاء لا حيلة فيهم للرسول , ولا مجال معهم للبرهان . إنما يتعلق أمرهم بمشيئة الله . إن شاء بعثهم إن علم منهم ما يستحق أن يحييهم ، وإن شاء لم يبعثهم في هذه الحياة الدنيا ، وبقوا أمواتا بالحياة حتى يرجعوا إليه في الآخرة (والموتى يبعثهم الله . ثم إليه يرجعون)

هذه هي قصة الاستجابة وعدم الاستجابة ! تكشف حقيقة الموقف كله ، وتحدد واجب الرسول وعمله ، وتترك الأمر كله لصاحب الأمر يقضي فيه بما يريد .

(وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{٣٧} وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ{٣٨} وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٣٩} قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٤٠} بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ{٤١} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى

أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ{٤٢} فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{٤٣} فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ{٤٤} فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{٤٥} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ{٤٦} قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ){٤٧} لَ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ{٤٧} وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٤٨} وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ{٤٩} قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ{٥٠}

ومن خطاب رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة ، ينتقل السياق إلى حكاية ما يطلبه المشركون من إنزال خارقة ، وإلى بيان ما فى هذا الطلب من الجهالة بسنة الله ، ومن سوء إدراك لرحمته بهم ألا يستجيب لهذا الإقتراح الذى فى أعقابه التدمير لهم لو أجيبوا إليه ! ويعرض جانبا من دقة التدبير الإلهى وإحاطته بالأحياء جميعا ، يوحى بحكمة السنة الشاملة للأحياء جميعا . وينتهى بتقرير ما وراء الهدى والضلال من أسرار وسنن تجرى بها مشيئة الله طليقة ، لقد كانوا يطلبون آية خارقة كالخوارق المادية التى صاحبت الرسالات السابقة ، ولا يقنعون بآية القرآن الباقية ، التى تخاطب الإدراك البشرى الراشد ، وتعلن عهد الرشد الإنسانى , وتحترم هذا الرشد فتخاطبه هذا الخطاب الراقى ؛ والتى لا تنتهى بانتهاء الجيل الذى يرى الخارقة المادية ؛ بل تظل باقية تواجه الإدراك البشرى بإعجازها إلى يوم القيامة . وكانوا يطلبون خارقة ، ولا يفطنون إلى سنة الله فى أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجىء الخارقة ، وإهلاكهم فى الدنيا . ولا يدركون حكمة الله فى عدم مجيئهم بهذه الخارقة , وهو يعلم أنهم سيجحدون بها بعد وقوعها – كما وقع فى الأقوام قبلهم – فيحق عليهم الهلاك ، بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن . فمن لم يؤمن استخرج الله من ظهره ذرية مؤمنة . ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى إمهالهم ، وذلك بعدم الاستجابة لاقتراحهم ، الذى لا يعلمون جرائره ! والقرآن يذكر اقتراحهم هذا ، ويعقب عليه بأن أكثرهم لا يعلمون ما وراءه ولا يعلمون حكمه الله فى عدم الاستجابة ، ويقرر قدرة الله على تنزيل الآية ، ولكن حكمته هى التى تقتضى ، ورحمته التى كتبها على نفسه هى التى تمنع البلاء (وقالوا:لولا نزل عليه آية من ربه ! قل:إن الله قادر على أن ينزل آية . ولكن أكثرهم لا يعلمون). ويأخذ السياق القرآنى طريقه إلى قلوبهم من مدخل آخر لطيف . ويوقظ فيها قوى الملاحظة والتدبر لما فى الوجود حولهم من دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، لو تدبروه وعقلوه (وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ، ثم إلى ربهم يحشرون) إن الناس ليسوا وحدهم فى هذا الكون ، حتى يكون وجودهم مصادفة ، وحتى تكون حياتهم سدى ! إن حولهم أحياء أخرى ، كلها ذات أمر منتظم ، يوحى بالقصد والتدبير والحكمة ، ويوحى كذلك بوحدة الخالق ، ووحدة التدبير الذى يأخذ به خلقه كله ، إنه ما من دابة تدب على الأرض – وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقاريات - وما من طائر يطير بجناحية فى الهواء – وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة غير ذلك من الكائنات الطائرة . . ما من خلق حى فى هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم فى أمة , ذات خصائص واحدة ، وذات طريقة فى الحياة واحدة كذلك . . شأنها فى هذا شأن أمة الناس . . ما ترك الله شيئا من خلقه بدون تدبير يشمله ، وعلم يحصيه . . وفى النهاية تحشر الخلائق إلى ربها . . فيقضى فى أمرها بما يشاء . . وتختم هذه الجولة – أو هذه الموجة – بتقرير ما وراء الهدى والضلال من مشيئة الله وسنته , وما يدلان عليه من فطرة الناس فى حالات الهدى وحالات الضلال (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات . من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) وهو إعادة لتقرير الحقيقة التى مضت فى هذه الجولة عن استجابة الذين يسمعون ، وموت الذين لا يستجيبون . ولكن فى صورة أخرى ومشهد آخر . . إن الذين كذبوا بآيات الله هذه المبثوثة فى صفحات الوجود ، وآياته الأخرى المسجلة فى صفحات هذا القرآن ، إنما كذبوا لأن أجهزة الاستقبال فيهم معطلة . . إنهم صم لا يسمعون ، بكلم لا يتكلمون , غارقون فى الظلمات لا يبصرون ! إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجثمانى المادى . فإن لهم عيونا وآذانا وأفواها . . ولكن إدراكهم معطل , فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل ! .

هنا - فى هذه الموجه – يواجه السياق القرآنى فطرة المشركين ببأس الله . بل يواجههم بفطرتهم ذاتها حين تواجه بأس الله . . حين تتعرى من الركام فى مواجهة الهول , وحين يهزها الهول فيتساقط عنها ذلك

الركام ! وتنسى حكاية الآلهة الزائفة ؛ وتتجه من فورها إلى ربها الذى تعرفه فى قرارتها تسأله وحده الخلاص والنجاة ! ثم يأخذ بأيديهم ليوقفهم على مصارع الغابرين من أسلافهم ، وفى الطريق يريهم كيف تجرى سنة الله ، وكيف يعمل قدر الله . ويكشف لأبصارهم وبصائرهم عن استدراج الله لهم , بعد تكذيبهم برسل الله ، وكيف قدم لهم الابتلاء بعد الابتلاء – الابتلاء بالبأساء والضراء , ثم الابتلاء بالرخاء والنعماء – وأتاح لهم الفرصة بعد الفرصة ، لينتبهوا من الغفلة ، حتى إذا استنفدوا الفرص كلها ، وغرتهم النعمة بعد أن لم توقظهم الشدة . جرى قدر الله ، وفق سنته الجارية وجاءهم العذاب بغتة (قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) وما يكاد هذا المشهد الذى يهز القلوب هزا يتوارى ، حتى يجىء فى أعقابه مشهد آخر وهم يتعرضون لبأس الله أيضا ، فيأخذ سمعهم وأبصارهم ، ويختم على قلوبهم ، ثم لا يجدون إلها غير الله يرد عليهم سمعهم وأبصارهم وإدراكهم . وفى مواجهة هذين المشهدين الرائعين الهائلين يتحدث إليهم عن وظيفة الرسل . . إنها البشارة والنذارة . . ليس وراء ذلك شىء . . ليس لهم أن يأتوا بالخوارق ، ولا أن يستجيبوا لمقترحات المقترحين ! إنما هم يبلغون . يبشرون وينذرون . ثم يؤمن فريق من الناس ويعمل صالحا فيأمن الخوف وينجو من الحزن . ويكذب فريق ويعرض فيمسه العذاب بهذا الإعراض والتكذيب . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . . فهذا هو المصير . (قل:أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة . . أغير الله تدعون . . إن كنتم صادقين) إنها مواجهة الفطرة بتصور الهول . . عذاب الله فى الدنيا عذاب الهلاك والدمار ؛ أو مجىء الساعة على غير انتظار . و يسألهم ويطلب إليهم الجواب بالصدق من ألسنتهم ؛ ليكون تعبيرا عن الصدق فى فطرتهم (أغير الله تدعون . . إن كنتم صادقين) ثم يبادر فيقرر الجواب الصادق ، المطابق لما فى فطرتهم بالفعل ، ولو لم تنطق به ألسنتهم (بل إياه تدعون . . فيكشف ما تدعون إليه إن شاء . . وتنسون ما تشركون) بل تدعونه وحده ؛ وتنسون شرككم كله ! . ومع كل هذا الجهد الناصب ، المتمثل فى محاولة "الشيوعية" – وهى إحدى المنظمات اليهودية - لنشر الإلحاد ، خلال أكثر من نصف قرن ، بمعرفة كل أجهزة الدولة الساحقة , فإن الشعب الروسى نفسه لم يزل فى أعماق فطرته الحنين إلى عقيدة فى الله . . ولقد اضطر "ستالين" الوحشى - كما يصوره خلفه خروشوف ! – أن يهادن الكنسية ، فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأن يفرج عن كبير الأساقفة ، لأن ضغط الحرب كان يلوى عنقه للاعتراف للعقيدة فى الله بأصالتها فى فطرة الناس . . مهما يكن رأيه ورأى القليلين من الملحدين من ذوى السلطان حوله (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) إنها المواجهة بنموذج من بأس الله سبحانه . نموذج من الواقع التاريخى . نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لبأس الله ، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له ، وكيف يمنحهم الله الفرصة بعد الفرصة ، ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) ولكنهم لم يفعلوا ما كان حريا أن يفعلوا . لم يلجأوا إلى الله ، ولم يرجعوا عن عنادهم ، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم ، ولم تفتح بصيرتهم , ولم تلين قلوبهم . وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من الضلال والعناد (ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون). . والقلب الذى لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة ! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس ! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه ، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة ، التى تنبه القلوب الحية للتلقى والاستجابة . والشدة ابتلاء من الله للعبد ؛ فمن كان حيا أيقظته ، وفتحت مغاليق قلبه ، وردته إلى ربه ; وكانت رحمه له من الرحمة التى كتبها الله على نفسه . . ومن كان ميتا حسبت عليه , ولم تفده شيئا . فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شىء للاستدراج بعد الابتلاء . . والتعبير القرآنى (فتحنا عليهم أبواب كل شىء). . يصور الأرزاق والخيرات ، والمتاع , والسلطان . . متدفقة كالسيول ؛ بلا حواجز ولا قيود ! وهى مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة ! إنه مشهد عجيب ؛ يرسم حالة فى حركة ؛ على طريقة التصوير القرآنى العجيب (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة ؛ واستغرقوا فى المتاع بها والفرح لها – بلا شكر ولا ذكر – وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه ؛ وانحصرت اهتماماتهم فى لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات ، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هى عادة المستغرقين فى اللهو والمتاع . وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع ، بعد فساد القلوب والأخلاق ؛ وجر هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها . . عندئذ جاء موعد السنة التى لا تتبدل (أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون) فكان أخذهم على غرة ؛ وهم فى سهوة وسكرة . فإذا هم حائرون منقطعو الرجاء فى النجاة عاجزون عن التفكير فى أى اتجاه . واذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم (فقطع

دابر القوم الذين ظلموا) ودابر القوم هو آخر واحد منهم يدبرهم أى يجىء على أدبارهم فإذا قطع هذا فأوائلهم أولى . . ! و (الذين ظلموا) تعنى هنا الذين أشركوا . . كما هو التعبير القرآنى فى أغلب المواضع عن الشرك بالظلم وعن المشركين بالظالمين (والحمد لله رب العالمين) بعد ذلك يقف السياق القرآنى المشركين بالله ، أمام بأس الله ، فى ذوات أنفسهم ، فى أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم ، وهم عاجزون عن رده ، وهم لا يجدون كذلك إلها غير الله , يرد عليهم أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم إن أخذها الله منهم (قل:أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون !) وهو مشهد تصويرى يجسم لهم عجزهم أمام بأس الله من جانب ، كما يصور لهم حقيقة ما يشركون به من دون الله فى موقف الجد من جانب ، ولكن هذا المشهد يهزهم من الأعماق (انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون !) وهو تعجيب مصحوب بمشهد الصدوف ! المعروف عند العرب ، والذى يذكرهم بمشهد البعير المؤوف ! فيثير فى النفس السخرية والاستخفاف والعزوف ! وقبل أن يفيقوا من تأثير ذلك المشهد المتوقع يتلقاهم بتوقع جديد ، ليس على الله ببعيد , يريهم فيه مصارعهم – وهم الظالمون:أى المشركون – وهو يرسم مصارع الظالمين حين يباغتهم عذاب الله أو يواجههم ؛ وحين يأتيهم على غرة أو وهم مستيقظون (قل:أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟) وهو توقع يعرضه السياق عليهم ليتقوه ، ويتقوا أسبابه قبل أن يجىء . والله – سبحانه - يعلم أن عرض هذا التوقع فى هذا المشهد يخاطب الكينونة البشرية خطابا تعرفه فى قرارتها ، وتعرف ما وراءه من حقيقة ترجف لها القلوب ! وحين تبلغ الموجة أقصى مداها ، بعرض هذه المشاهد المتوالية ، والتعقيبات الموحية , والإيقاعات التى تحمل الإنذار إلى أعماق السرائر . . تختم ببيان وظيفة الرسل ، الذين تطالبهم أقوامهم بالخوارق ، وإن هم إلا مبلغين ، مبشرين ومنذرين ، ثم يكون بعد ذلك من أمر الناس ما يكون ، وفق ما يتخذونه لأنفسهم من مواقف يترتب عليها الجزاء الأخير (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون) تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض . وبيان محكم عن الرسول ووظيفته وحدود عمله فى هذا الدين . . تصور يفرد الله سبحانه بالألوهية وخصائصها ؛ ويرد إلى مشيئة الله وقدره الأمر كله ، ويجعل للإنسان – منخلال ذلك – حرية اتجاهه وتبعة هذا الاتجاه ، ويبين مصائر الطائعين لله والعصاة بيانا حاسما ؛ وينفى كل الأساطير والتصورات الغامضة عن طبيعة الرسول وعمله ، مما كان سائدا فى الجاهليات . . وبذلك ينقل البشرية إلى عهد الرشد العقلى ؛ دون أن يضرب بها فى تيه الفلسفات الذهنية ، والجدل اللاهوتى ، الذى استنفذ طاقة الإدراك البشرى أجيالا بعد أجيال !!!

وفى ثنايا الإفصاح عن هذه الحقائق يعرض السياق حوانب من حقيقة الألوهية ، وعلاقة الرسول بها ، وعلاقة الناس جميعا – الطائعين منهم والعصاة – ويتحدث عن طبيعة الهدى وطبيعة الضلال عن هذه الحقيقة . فالهدى إليها بصر والضلال عنها عمى . والله كتب على نفسه الرحمة متمثلة فى التوبة على عباده والمغفرة لما يرتكبونه من المعاصى فى جهالة متى تأبوا منها وأصلحوا بعدها . وهو يريد أن تستبين سبيل المجرمين ، فيؤمن من يؤمن عن بينة ، ويضل من يضل عن بينة ، ويتخذ الناس مواقفهم فى وضوح لا تغشيه الأوهام والظنون (قل:لا أقول لكم:عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم:إنى ملك . إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل:هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون) لقد كان المعاندون من قريش يطلبون أن يأتيهم رسول الله ﷺ بآية من الخوارق يصدقونه بها – وهم كانوا كما أسلفنا يعلمون صدقه ولا يشكون فيه – وتارة كانوا يطلبون أن تكون هذه الآية تحويل الصفا والمروة ذهبا ! وتارة تكون إبعادهما عن مكة ليصبح مكانهما خصبا مخضرا بالزروع والثمار ! وتارة تكون إنباءهم بما سيقع لهم من أحداث مغيبة ! وتارة تكون طلب إنزال ملك عليه ! وتارة تكون طلب كتاب مكتوب فى قرطاس يرونه يتنزل عليه من السماء . . إلى آخر هذه المطالب التى يوارون وراءها تعنتهم وعنادهم ! ولكن هذه المطالب كلها إنما كانوا يصوغون فكرتها من تلك الأوهام والأساطير التى أحاطت بصورة النبوة وصورة النبى فى الجاهليات من حولهم ، وأقربها إليهم أوهام أهل الكتاب وأساطيرهم حول النبوة ، بعدما انحرفوا عما جاءتهم به رسلهم من الحق الواضح فى هذه الأمور ، ثم إن اتباع الوحى وحده هداية وبصر ، والمتروك بغير هذا الهادى متروك أعمى . . هذا ما تقرره هذه الآية فى وضوح وصرامة . . فما شأن العقل البشرى فى هذا المجال ؟ سؤال جوابه فى التصور الإسلامى واضح بسيط . . إن هذا العقل الذى وهبه الله للإنسان قادر على تلقى ذلك الوحى ، وإدراك مدلولاته . . وهذه وظيفته . . ثم هذه هى فرصته فى النور والهداية ؛ وفى الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فأما حين يستقل هذا العقل البشرى بنفسه بعيدا عن الوحى ، فإنه يتعرض حينئذ للضلال والانحراف ، وسوء الرؤية ، ونقص الرؤية ، وسوء التقدير ، وسوء التدبير . والذين يزعمون للعقل البشرى درجة من الأصالة فى الصواب

كدرجة الوحى ، باعتبار أن كليهما - العقل والوحى – من صنع الله فلا بد أن يتطابقا . . هؤلاء إنما يستندون إلى تقريرات عن قيمة العقل قال بها بعض الفلاسفة من البشر ، ولم يقل بها الله سبحانه ! والذين يرون أن هذا العقل يغنى عن الوحى – حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر – إنما يقولون فى هذه القضية غير ما يقول الله . . فالله قد جعل حجته على الناس هى الوحى والرسالة ، ولم يجعل هذه الحجة هى عقلهم البشرى ، ولا حتى فطرتهم التى فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به . لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل ، وأن الفطرة وحدها تنحرف . وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة ، إلا أن يكون الوحى هو الرائد الهادى ، وهو النور والبصيرة . والذى يزعمون أن الفلسفة تغنى العقل عن الدين ؛ أو أن العلم – وهو من منتجات العقل - يغنى البشرية عن هدى الله ؛ إنما يقولون قولا لا سند له من الحقيقة ولا من الواقع كذلك . . فالواقع يشهد أن الحياة البشرية التى قامت أنظمتها على المذاهب الفلسفية أو على العلم ، هى أبأس حياة يشقى فيها "الإنسان" مهما فتحت عليه أبواب كل شىء ; ومهما تضاعف الإنتاج والإيراد ؛ ومهما تيسرت أسباب الحياة ووسائل الراحة فيها على أوسع نطاق . . وليس مقابل هذا أن تقوم الحياة على الجهل والتلقائية ! فالذين يضعون المسألة هكذا مغرضون ! فإن الإسلام منهج حياة يكفل للعقل البشرى الضمانات التى تقيه عيوب تركيبه الذاتى ، وعيوب الضغوط التى تقع عليه من الأهواء والشهوات والنزعات . ثم يقيم له الأسس ، ويضع له القواعد ، التى تكفل استقامته فى انطلاقه للعلم والمعرفة والتجربة ؛ كما تكفل له استقامة الحياة الواقعية التى يعيش فى ظلها - وفق شريعة الله – فلا يضغط عليه الواقع لينحرف بتصوراته ومناهجه كذلك ! والعقل بمصاحبة وحى الله وهداه بصير ، وبترك وحى الله وهداه أعمى ، واقتران الحديث عن تلقى الرسول ﷺ من الوحى وحده ، بالإشارة إلى العمى والبصر ، بالسؤال التحضيضى على التفكير: إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل:هل يستوى الأعمى والبصير:أفلا تتفكرون . . ? اقتران الإشارات وتتابعها على هذا النحو فى السياق ، أمر ذو دلالة فى التعبير القرآنى . . فالتفكر مطلوب ، والحض عليه منهج قرآنى ؛ ولكنه التفكر المضبوط بضابط الوحى , الذى يمضى معه مبصرا فى النور ؛ لا مطلق التفكر الذى يخبط فى الظلام أعمى ، بلا دليل ولا هدى ولا كتاب منير . . والعقل البشرى حين يتحرك فى إطار الوحى لا يتحرك فى مجال ضيق ، إنما يتحرك فى مجال واسع جدا . . يتحرك فى مجال هو هذا الوجود كله ، الذى يحتوى عالم الشهادة وعالم الغيب أيضا ؛ كما يحتوى أغوار النفس ومجالى الأحداث ، ومجالات الحياة جميعا . . فالوحى لا يكف العقل عن شىء إلا عن انحراف المنهج ، وسوء الرؤية والتواء الأهواء والشهوات ! وبعد ذلك يدفعه إلى الحركة والنشاط دفعا . فهذه الأداة العظيمة التى وهبها الله للإنسان . . العقل . . إنما وهبها له لتعمل وتنشط فى حراسة الوحى والهدى الربانى . . فلا تضل إذن ولا تطغى . .

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{٥١} وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِن حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ{٥٢} وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُواْ أَهَـؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ{٥٣} وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٥٤} وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ{٥٥} قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ{٥٦} قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ{٥٧} قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنِكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ{٥٨} وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ{٥٩} وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٦٠} وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ{٦١} ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ{٦٢} قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{٦٣} قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ{٦٤} قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ){٦٥}

إنها عزة هذه العقيدة ، واستعلاؤها على قيم الأرض الزائفة ، وتخلصها من الاعتبارات البشرية الصغيرة . . لقد أمر رسول الله ﷺ أن يقدمها للناس دون زخرف ولا طلاء ؛ ودون إطماع فى شىء من قيم الأرض ولا

إغراء . . كذلك أمر أن يوجه عنايته إلى من يرجى منهم الانتفاع بالدعوة , وأن يؤوى إليه الذين يتلقونها مخلصين ؛ ويتجهون بقلوبهم إلى الله وحده يريدون وجهه ؛ وألا يقيم وزنا بعد ذلك لشيء من قيم المجتمع الجاهلى الزائفة ؛ ولا لشيء من اعتبارات البشر الصغيرة (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ، لعلهم يتقون) أنذر به هؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ، حالة أن ليس من دونه ولى ينصرهم ولا شفيع يخلصهم . ذلك أنه ما من شفيع يشفع عند الله إلا بإذنه ، وهو لا يشفع يومئذ - بعد الإذن - إلا لمن ارتضى الله أن يتشفع عند الله فيهم . . فهؤلاء الذين تستشعر قلوبهم خوف ذلك اليوم الذى ليس فيه - من دون الله - ولى ولا شفيع ، أحق بالإنذار ، وأسمع له ، وأكثر إنتفاعا به . . لعلهم أن يتوقوا فى حياتهم الدنيا وما يعرضهم لعذاب الله فى الآخرة . فالإنذار بيان كاشف كما أنه مؤثر موح . بيان يكشف لهم ما يتقونه ويحذرونه ، ومؤثر يدفع قلوبهم للتوقى والحذر ؛ فلا يقعون فيما نهوا عنه بعدما تبين لهم (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) لا تطرد هؤلاء الذين أخلصوا نفوسهم لله ؛ فاتجهوا لعبادته ودعائه فى الصباح والمساء ; يريدون وجهه سبحانه ! ولا يبتغون إلا وجهه ورضاه . . وهى صورة للتجرد ، والحب ، والأدب . . فإن الواحد منهم لا يتوجه إلا إلى الله وحده بالعبادة والدعاء . وهو لا يبغى وجه الله ، إلا إذا تجرد . وهو لا يبغى وجه الله وحده حتى يكون قلبه قد أحب . وهو لا يفرد الله - سبحانه - بالدعاء والعبادة ابتغاء وجهه إلا ويكون قد تعلم الأدب , وصار ربانيا يعيش لله وبالله . . ولقد كان أصل القصة أن جماعة من "أشراف" العرب ، أنفوا أن يستجيبوا إلى دعوة الإسلام ; لأن محمدا [ص] يؤوى إليه الفقراء الضعاف ، من أمثال صهيب وبلال وعمار وخباب وسلمان وابن مسعود . . ومن إليهم . . وعليهم جباب تفوح منها رائحة العرق لفقرهم ; ومكانتهم الاجتماعية لا تؤهلهم لأن يجلس معهم سادات قريش فى مجلس واحد ! فطلب هؤلاء الكبراء إلى رسول الله ﷺ أن يطردهم عنه . . فأبى . . فاقترحوا أن يخصص لهم مجلسا ويخصص للأشراف مجلسا آخر ، لا يكون فيه هؤلاء الفقراء الضعاف ، كى يظل للسادة امتيازهم واختصاصهم ومهابتهم فى المجتمع الجاهلى ! فهم ﷺ رغبة فى إسلامهم أن يستجيب لهم فى هذه . فجاءه أمر ربه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) ولقد تقول أولئك الكبراء على هؤلاء الضعاف ، الذين يخصهم رسول الله ﷺ بمجلسه وبعنايته ; وطعنوا فيهم وعابوا ما هم فيه من فقر وضعف وما يسببه وجودهم فى مجلس رسول الله ﷺ من نفور السادة وعدم إقبالهم على الإسلام . . فقضى الله سبحانه فى هذه الدعوى بقضائه الفصل ؛ ورد دعواهم من أساسها ودحضها دحضا (ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين) فإن حسابهم على أنفسهم ، وحسابك على نفسك . وكونهم فقراء مقدر عليهم فى الرزق هذا حسابهم عند الله ، لا شأن لك به . كذلك غناك وفقرك هو حسابك عند الله لا شأن لهم به . ولا دخل لهذه القيم فى قضية الإيمان والمنزلة فيه . فإن أنت طردتهم من مجلسك بحساب الفقر والغنى كنت لا تزن بميزان الله ، ولا تقوم بقيمة . . فكنت من الظالمين . . وحاشا لرسول الله ﷺ أن يكون من الظالمين ! وبقى فقراء الجيوب أغنياء القلوب فى مجلس رسول الله ﷺ وبقى ضعاف الجاه الأقوياء بالله فى مكانهم الذى يؤهلهم له إيمانهم ؛ والذى يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه . واستقرت موازين الإسلام وقيمه على المنهج الذى قرره الله . . عندئذ نفر المستكبرون المستنكفون يقولون:كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء ؟ إنه لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقونا إليه ؛ ولهدانا الله به قبل أن يهديهم ! فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمن الله عليهم من بيننا ويتركنا ونحن أصحاب المقام والجاه ! وكانت هذه هى الفتنة التى قدرها الله لهؤلاء المتعالين بالمال والنسب ؛ والذين لم يدركوا طبيعة هذا الدين ؛ وطبيعة الدنيا الجديدة التى يطلع بها على البشرية ، مشرقة الآفاق ، مصعدة بهذه البشرية إلى تلك القمة السامقة ؛ (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟) ويرد السياق القرآنى على هذا الاستفهام الاستنكارى الذى يطلقه الكبراء (أليس الله بأعلم بالشاكرين) ويمضى السياق يأمر رسول الله ﷺ وهو رسول الله أن يبدأ أولئك الذين أسبغ عليهم فضل السبق بالاسلام ؛ والذين يسخر منهم أولئك الكبراء الأشراف ! . . أن يبدأهم بالسلام . . وأن يبشرهم بما كتبه الله على نفسه من الرحمة ؛ متمثلا فى معفرته لمن عمل منهم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل:سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فأنه غفور رحيم) وهو التكريم - بعد نعمة الإيمان واليسر فى الحساب ، والرحمة فى الجزاء ، حتى ليجعل الله - سبحانه - الرحمة كتابا على نفسه للذين آمنوا بآياته ؛ ويأمر رسوله ﷺ أن يبلغهم ما كتبه ربهم عل نفسه . وحتى لتبلغ الرحمة أن يشمل العفو والمغفرة الذنب كله ، متى تابوا من بعده وأصلحوا - إذ يفسر بعضهم الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب ؛ فما يذنب الإنسان إلا من جهالة ؛ وعلى ذلك يكون النص شاملا لكل سوء يعمله صاحبه ؛ متى تاب من بعده وأصلح . ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التى تجعل التوبة من الذنب - أيا كان - والإصلاح بعده

، مستوجبة للمغفرة بما كتب الله على نفسه من الرحمة (وكذلك نفصل الآيات ، ولتستبين سبيل المجرمين) ختام هذه الفقرة التى قدمت طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول فى هذه النصاعة الواضحة . كما قدمت هذه العقيدة عارية من كل زخرف ؛ وفصلت الاعتبارات والقيم التى جاءت هذه العقيدة لتلغيها من حياة البشرية ؛ والاعتبارات والقيم التى جاءت لتقررها (وكذلك نفصل الآيات) بمثل هذا المنهج ، وبمثل هذه الطريقة ، وبمثل هذا البيان والتفصيل . . تفصل الآيات , التى لا تدع فى هذا الحق ريبة ؛ ولا تدع فى هذا الأمر غموضا ؛ ولا تبقى معها حاجة لطلب الخوارق ؛ فالحق واضح ، والأمر بين ، بمثل ذلك المنهج الذى عرض السياق القرآنى منه ذلك النموذج . . أما ختام هذه الآية القصيرة (ولتستبين سبيل المجرمين) فهو شأن عجيب ! . . إنه يكشف عن خطة المنهج القرآنى فى العقيدة والحركة بهذه العقيدة ! إن هذا المنهج لا يعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب . إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضا . . إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين . وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق ! ... (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ) هذه الموجه عودة إلى "حقيقة الألوهية " بعد بيان "حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول" فى الموجة السابقة لها فى السياق المتلاحم ؛ وبعد استبانة سبيل المجرمين واستبانة سبيل المؤمنين – كما ذكرنا ذلك فى نهاية الفقرة السابقة . وحقيقة الألوهية فى هذه الموجة تتجلى فى مجالات شتى ؛ نجملها هنا – قبل تفصيلها فى استعراض النصوص القرآنية:

تتجلى فى قلب رسول الله ﷺ وهو يجد فى نفسه بينة من ربه ، هو منها على يقين ، لا يزعزعه تكذيب المكذبين . ومن ثم يخلص نفسه لربه ، ويفاصل قومه مفاصلة المستيقن من ضلالهم يقينه من هداه (قل:إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل:لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . قل:إنى على بينة من ربى وكذبتم به . ما عندى ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين). .

وتتجلى فى حلم الله على المكذبين ، وعدم استجابته لاقتراحاتهم أن ينزل عليهم خارقة مادية حتى لا يعجل لهم بالعذاب عند تكذيبهم بها – كما جرت سنته تعالى – وهو قادر عليه . ولو كان رسول الله ﷺ يملك هذا الذى يستعجلون به ، ما أمسكه عنهم ، ولضاقت بشريته بهم وبتكذيبهم . فإمهالهم هذا الإمهال هو مظهر من مظاهر حلم الله ورحمته , كما أنها مجال تتجلى فيه ألوهيته (قل:لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم ، والله أعلم بالظالمين). .

وتتجلى فى علم الله بالغيب ؛ وإحاطة هذا العلم بكل ما يقع فى هذا الوجود ؛ فى صورة لا تكون إلا لله ؛ ولا يصورها هكذا إلا الله:(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو , ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . ولا حبة فى ظلمات الأرض , ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين). .

وتتجلى فى هيمنة الله على الناس وقهره للعباد فى كل حالة من حالاتهم ، فى النوم والصحو , فى الموت والحياة ، فى الدنيا والآخرة: (وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ،حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ، وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين).

وتتجلى فى فطرة المكذبين أنفسهم ، حين يواجهون الهول ؛ فلا يدعون إلا الله لرفعه عنهم . . ثم هم مع ذلك يشركون ، وينسون أن الله ، الذى يدعونه لكشف الضر ، قادر على أن يذيقهم ألوان العذاب فلا يدفعه عنهم أحد:(قل:من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية:لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ؟ قل:الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون . قل:هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون

(قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل لا أتبع أهواءكم . قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . . قل إنى على بينة من ربى – وكذبتم به – ما عندى ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله يقص الحق ، وهو خير الفاصلين . قل:لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم ، والله أعلم

بالظالمين). . تحتشد هذه الموجة بالمؤثرات الموحية ، التي تتمثل في شتي الإيقاعات التي تواجه القلب البشرى بحقيقة الألوهية فى شتي مجاليها . . ومن بين هذه المؤثرات العميقة ، ذلك الإيقاع المتكرر:"قل . . قل . . قل . . " خطابا لرسول الله ﷺ ليبلغ عن ربه , ما يوحيه إليه ؛ وما لا يملك غيره ؛ ولا يتبع غيره ؛ ولا يستوحى غيره (قل:إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل:لا أتبع أهواءكم . قد ضللت إذا ,وما أنا من المهتدين) يأمر الله – سبحانه – رسوله ﷺ أن يواجه المشركين بأنه منهى من ربه عن عبادة الذين يدعونهم من دون الله ويتخذونهم أندادا لله . . ذلك أنه منهى عن اتباع أهوائهم - وهم إنما يدعون الذين يدعون من دون الله عن هوى لا عن علم ، ولا عن حق – وأنه إن يتبع أهواءهم هذه يضل ولا يهتدى . فما تقوده أهواؤهم وما تقودهم إلا إلى الضلال . يأمر الله – سبحانه – نبيه ﷺ أن يواجه المشركين هذه المواجهة ، وأن يفاصلهم هذه المفاصلة ، كما أمره من قبل فى السورة بمثل هذا وهو يقول (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل:لا أشهد . قل:إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون ، ولقد كان المشركون يدعون رسول الله ﷺ أن يوافقهم على دينهم ، فيوافقوه على دينه ! وأن يسجد لآلهتم فيسجدوا لإلهه ! كأن ذلك يمكن أن يكون ! وكأن الشرك والإسلام يجتمعان فى قلب ! وكأن العبودية لله يمكن أن تقوم مع العبودية لسواه ! وهو أمر لا يكون أبدا . فالله أغنى الشركاء عن الشرك وهو يطلب من عباده أن يخلصوا له العبودية ; ولا يقبل منهم عبوديتهم له إذا شابوها بشىء من العبودية لغيرة . . فى قليل أو كثير . . ومع أن المقصود فى الآية أن يواجههم رسول الله ﷺ بأنه منهى عن عبادة أى مما يدعون ويسمون من دون الله ، فإن التعبير ب (الذين) فى قوله تعالى (قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) يستوقف النظر . فكلمة الذين تطلق على العقلاء . ولو كان المقصود هى الأوثان , والأصنام ، وما إليها لعبر ب"ما" بدل(الذين). . فلا بد أن يكون المقصود بالذين نوعا آخر – مع الأصنام والأوثان وما إليها – نوعا من العقلاء الذين يعبر عنهم بالاسم الموصول (الذين) فغلب العقلاء ، ووصف الجميع بوصف العقلاء . . وهذا الفهم يتفق مع الواقع من جهة ؛ ومع المصطلحات الإسلامية فى هذا المقام من جهة ، فمن جهة الواقع نجد أن المشركين ما كانوا يشركون بالله الأصنام والأوثان وحدها . ولكن كانوا يشركون معه الجن والملائكة والناس . . وهم ما كانوا يشركون الناس إلا فى أن يجعلوا لهم حق التشريع للمجتمع وللأفراد . حيث يسنون لهم السنن ، ويضعون لهم التقاليد ; ويحكمون بينهم فى منازعاتهم وفق العرف والرأى . . وهنا نصل إلى جهة المصطلحات الإسلامية . . فالإسلام يعتبر هذا شركا ؛ ويعتبر أن تحكيم الناس فى أمور الناس تأليه لهم ؛ وجعلهم أندادا من دون الله . . وينهى الله عنه نهيه عن السجود للأصنام والأوثان ؛ فكلاهما فى عرف الإسلام سواء . . شرك بالله , ودعوة أنداد من دون الله ! ثم يجىء الإيقاع الثانى موصولا بالإيقاع الأول ومتمما له: (قل:إنى على بينة من ربى ; وكذبتم به ، ما عندى ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله ، يقص الحق ، وهو خير الفاصلين وهو أمر من الله – سبحانه – لنبيه ﷺأن يجهر فى مواجهة المشركين المكذبين بربهم - بما يجده فى نفسه من اليقين الواضح الراسخ ، والدليل الداخلى البين ، والإحساس الوجدانى العميق ، بربه . . ووجوده ، ووحدانيته ، ووحيه إليه . وهو الشعور الذى وجده الرسل من ربهم ، وعبروا عنه مثل هذا التعبير أو قريبا منه: قالها نوح – عليه السلام (قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ؟ أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟) وقالها صالح – عليه السلام قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير . وقالها إبراهيم – عليه السلام –: (وحاجه قومه . قال:أتحاجونى فى الله وقد هدان (? وقالها يعقوب – عليه السلام – لبنيه (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال ألم أقل لكم:إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟). . فهى حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلوب أوليائه ؛ ممن يتجلى الله لهم فى قلوبهم ؛ فيجدونه - سبحانه – حاضرا فيها ؛ ويجدون هذه الحقيقة بينة هنالك فى أعماقهم تسكب فى قلوبهم اليقين بها . وهى الحقيقة التى يأمر الله نبيه أن يجهر بها فى مواجهة المشركين المكذبين ؛ الذين يطلبون منه الخوارق لتصديق ما جاءهم به من حقيقة ربه ، الحقيقة التى يجدها هو كاملة واضحة عميقة فى قلبه (قل إنى على بينة من ربى ، وكذبتم به) كذلك كانوا يطلبون أن ينزل عليهم خارقة أو ينزل بهم العذاب ، ليصدقوا أنه جاءهم من عند الله . . وكان يؤمر أن يعلن لهم حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول ؛ وأن يفرق فرقانا كاملا بينها وبين حقيقة الألوهية ؛ وإن يجهر بأنه لا يملك هذا الذى يستعجلونه ; فالذى يملكه هو الله وحده ؛ وهو ليس إلها ، إنما هو رسول (قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) إن إيقاع العذاب بهم بعد مجيء الخارقة وتكذيبهم بها حكم وقضاء ؛ ولله وحده الحكم والقضاء . فهو وحده الذى يقص الحق ويخبر به ؛ وهو وحده الذى يفصل فى الأمر بين الداعى إلى الحق والمكذبين به . وليس هذا أو ذلك لأحد من خلقه . وبذلك يجرد الرسول ﷺ نفسه من أن تكون له قدرة ، أو تدخل فى شأن القضاء الذى ينزله الله بعباده . فهذا من شأن الألوهية وحدها وخصائصها ، وهو بشر يوحى إليه ، ليبلغ وينذر ؛ لا لينزل قضاء ويفصل . وكما أن الله سبحانه هو

الذى يقص الحق ويخبر به ; فهو كذلك الذى يقضى فى الأمر ويفصل فيه . . وليس بعد هذا تنزيه وتجريد لذات الله - سبحانه - وخصائصه ، عن ذوات العبيد ، ثم يؤمر أن يلمس قلوبهم وعقولهم ويلفتها إلى دلالة قوية على أن هذا الأمر من عند الله , ومتروك لمشيئة الله . فلو أن أمر الخوارق - بما فيها إنزال العذاب - فى مقدوره - وهو بشر - ما استطاع أن يمسك نفسه عن الاستجابة لهم ، وهم يلحفون هذا الإلحاف . ولكن لأن الأمر بيد الله وحده ، فهو يحلم عليهم ؛ فلا يجيئهم بخارقة يتبعها العذاب المدمر ، إن هم كذبوا بها كما فعل بمن قبلهم (قل:لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم ، والله أعلم بالظالمين) وصدق الله العظيم . . فإن الإنسان ليرى من بعض الخلق ما يضيق به الصدر ، وتبلغ منه الروح الحلقوم . . ثم ينظر فيجد الله - سبحانه - يسعهم فى ملكه ، ويطعمهم ، ويسقيهم , ويغدق أحيانا عليهم ، ويفتح عليهم أبواب كل شىء . . وما يجد الإنسان إلا أن يقول قوله أبى بكر - رضى الله عنه - والمشركون يضربونه الضرب المبرح الغليظ ، حتى ما يعرف له أنف من عين:"رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! " . . فإنما هو حلم الله وحده . . وهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون ! (والله أعلم بالظالمين) فهو يمهلهم عن علم ، ويملى لهم عن حكمة ، ويحلم عليهم وهو قادر على أن يجيبهم إلى ما يقترحون ، ثم ينزل بهم العذاب الأليم . . وبمناسبة علم الله - سبحانه - بالظالمين ؛ واستطرادا فى بيان حقيقة الألوهية ؛ يجلى هذه الحقيقة فى مجال ضخم عميق من مجالاتها الفريدة . . مجال الغيب المكنون ، وعلم الله المحيط بهذا الغيب إحاطته بكل شىء ، ويرسم صورة فريدة لهذا العلم ؛ ويرسل سهاما بعيدة المدى تشير إلى آماده وآفاقه من بعيد (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو , ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض , ولا رطب ولا يابس ، إلا فى كتاب مبين) إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط ؛ الذى لا يند عنه شىء فى الزمان ولا فى المكان , فى الأرض ولا فى السماء ، فى البر ولا فى البحر ، فى جوف الأرض ولا فى طباق الجو ، من حى وميت ويابس ورطب . ولكن أين هذا الذى نقوله نحن - بأسلوبنا البشرى المعهود - من ذلك النسق القرآنى العجيب ? وأين هذا التعبير الإحصائى المجرد ، من ذلك التصوير العميق الموحى ؟ إن الخيال البشرى لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وعالم الغيب وعالم الشهود ، وهو يتبع ظلال علم الله فى أرجاء الكون الفسيح ، ووراء حدود هذا الكون المشهود . . وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد . وهو يرتاد - أو يحاول أن يرتاد - أستار الغيوب المختومة فى الماضى والحاضر والمستقبل ; البعيدة الآماد والآفاق والأغوار . . مفاتحها كلها عند الله ؛ لا يعلمها إلا هو . . ويجول فى مجاهل البر وفى غيابات البحر ، المكشوفة كلها لعلم الله . ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض ، لا يحصيها عد ، وعين الله على كل ورقة تسقط , هنا وهنا وهناك . ويلحظ كل حبة مخبوءة فى ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله . ويرقب كل رطب وكل يابس فى هذا الكون العريض ، لا يند منه شىء عن علم الله المحيط . . إنها جولة تدير الرؤوس ، وتذهل العقول . جولة فى آماد من الزمان ، وآفاق من المكان , وأغوار من المنظور والمحجوب ، والمعلوم والمجهول . . جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف ، يعيا بتصور آمادها الخيال . . وهى ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة فى بضع كلمات . . ألا إنه الإعجاز ! (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو). . آماد وآفاق وأغوار فى "المجهول" المطلق . فى الزمان والمكان ، وفى الماضى والحاضر والمستقبل ، وفى أحداث الحياة وتصورات الوجدان . . (ويعلم ما فى البر والبحر). . آماد وآفاق وآغوار فى "المنظور" ، على استواء وسعة وشمول . . تناسب فى عالم الشهود المشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار فى عالم الغيب المحجوب (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها). . حركة الموت والفناء ؛ وحركة السقوط والانحدار , من علو إلى سفل ، ومن حياة إلى اندثار (ولا حبة فى ظلمات الأرض) حركة البزوغ والنماء ، المنبثقة من الغور إلى السطح , ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق (ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين). . التعميم الشامل ، الذى يشمل الحياة والموت , والأزدهار والذبول ؛ فى كل حى على الإطلاق . . فمن ذا الذى يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق ؟ ومن ذا الذى يبدع هذا التناسق والجمال ؟ . . من ذا الذى يبدع هذا كله وذلك كله ، فى مثل هذا النص القصير . . من ؟ ومن علم الله الشامل بمفاتح الغيب ، وبما يجرى فى جنبات الكون ، ينتقل السياق إلى مجال من مجالات هذا العلم الشامل ، فى ذوات البشر ، ومجال كذلك من مجالات الهيمنة الإلهية ، بعد العلم المحيط (وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى , ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) بضع كلمات أخرى ، كالتى رسمت آفاق الغيب وآماده وأغواره ، وأشارات إلى مدى العلم الإلهى وشموله فى الآية السابقة . . بضع كلمات أخرى تضم حياة البشرية كلها فى قبضة الله - سبحانه - وفى علمه وقدره وتدبيره . . صحوهم ومنامهم . . موتهم وبعثهم . حشرهم وحسابهم . . ولكن على "طريقة القرآن" المعجزة فى الإحياء والتشخيص ، وفى لمس المشاعر واستجاشتها ، مع كل صورة وكل مشهد وكل حركة يرسمها تعبيره العجيب (وهو الذى يتوفاكم بالليل) فهى الوفاة إذن حين يأخذهم النعاس ؛ هى الوفاة فى صورة من

صورها بما يعترى الحاس من غفلة ، وما يعترى الحس من سهوة ، وما يعترى العقل من سكون ، وما يعترى الوعى من سبات - أى انقطاع - وهو السر الذى لا يعلم البشر كيف يحدث ؛ وإن عرفوا ظواهره . فما أضعف البشر فى قبضة الله ! (ويعلم ما جرحتم بالنهار) فما تتحرك جوارحهم لأخذ أو ترك ، إلا وعند الله علم بما كسبت من خير أو شر . . وهؤلاء هم البشر مراقبين فى الحركات والسكنات ؛ لا يند عن علم الله منهم شيء , مما تكسبه جوارحهم بعد الصحو بالنهار ! (ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى) أى يوقظكم فى النهار من سباتكم وانقطاعكم ؛ لتتم آجالكم التى قضاها الله . . وهؤلاء هم البشر داخل المجال الذى قدره الله . لا مهرب لهم منه ، ولا منتهى لهم سواه ! (ثم إليه مرجعكم) فهى الأوبة إلى الراعى بعد انقضاء المراح ! (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) وهكذا تشمل الآية الواحدة ، ذات الكلمات المعدودة ، ذلك الشريط الحافل بالصور والمشاهد , والمقررات والحقائق ، والإيحاءات والظلال . . فمن ذا الذى يملك أن يصنع ذلك ؟ وكيف تكون الآيات الخوارق ، إن لم تكن هى هذه ؟ التى يغفل عنها المكذبون ، ويطلبون الخوارق المادية وما يتبعها من العذاب الأليم ! ... ولمسة أخرى من حقيقة الألوهية . . لمسة القوة القاهرة فوق العباد . والرقابة الدائمة التى لا تغفل . والقدر الجارى الذى لا يتقدم ولا يتأخر ، والمصير المحتوم الذى لا مفر منه ولا مهرب . والحساب الأخير الذى لا ينى ولا يمهل . . وكله من الغيب الذى يلف البشر ويحيط بالناس (وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) (وهو القاهر فوق عباده) فهو صاحب السلطان القاهر ؛ وهم تحت سيطرته وقهره . هم ضعاف فى قبضة هذا السلطان ; لا قوة لهم ولا ناصر . هم عباد . والقهر فوقهم . وهم خاضعون له مقهورون . . وهذه هى العبودية المطلقة للألوهية القاهرة . . وهذه هى الحقيقة التى ينطق بها واقع الناس - مهما ترك لهم من الحرية ليتصرفوا ، ومن العلم ليعرفوا ، ومن القدرة ليقوموا بالخلافة - إن كل نفس من أنفاسهم بقدر ؛ وكل حركة فى كيانهم خاضعة لسلطان الله بما أودعه فى كيانهم من ناموس لا يملكون أن يخالفوه . وإن كان هذا الناموس يجرى فى كل مرة بقدر خاص حتى فى النفس والحركة ! (ويرسل عليكم حفظة) لا يذكر النص هنا ما نوعهم . . وفى مواضع أخرى أنهم ملائكة يحصون على كل إنسان كل ما يصدر عنه . . أما هنا فالمقصود الظاهر هو إلقاء ظل الرقابة المباشرة على كل نفس . ظل الشعور بأن النفس غير منفردة لحظة واحدة ، وغير متروكة لذاتها لحظة واحدة . فهناك حفيظ عليها رقيب يحصى كل حركة وكل نأمة ؛ ويحفظ ما يصدر عنها لا يند عنه شيء . . وهذا التصور كفيل بأن ينتفض له الكيان البشرى ؛ وتستيقظ فيه كل خالجة وكل جارحة (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) الظل نفسه ، فى صورة أخرى . . فكل نفس معدودة الأنفاس ، متروكة لأجل لا تعلمه - فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه - بينما هو مرسوم محدد فى علم الله ، لا يتقدم ولا يتأخر . وكل نفس موكل بأنفاسها وأجلها حفيظ قريب مباشر حاضر ، لا يغفو ولا يغفل ولا يهمل - فهو حفيظ من الحفظة - وهو رسول من الملائكة - فإذا جاءت اللحظة المرسومة الموعودة - والنفس غافلة مشغولة - أدى الحفيظ مهمته ، وقام الرسول برسالته . .وهذا التصور كفيل كذلك بأن يرتعش له الكيان البشرى ؛ وهو يحس بالقدر الغيبى يحيط به ؛ ويعرف أنه فى كل لحظة قد يقبض ، وفى كل نفس قد يحين الأجل المحتوم (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) مولاهم الحق من دون الآلهة المدعاة . . مولاهم الذى أنشأهم ، والذى أطلقهم للحياة ما شاء . . فى رقابته التى لا تغفل ولا تفرط . . ثم ردهم إليه عندما شاء ؛ ليقضى فيهم بحكمه بلا معقب (ألا له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين) فهو وحده يحكم ، وهو وحده يحاسب . وهو لا يبطيء فى الحكم ، ولا يمهل فى الجزاء . ولذكر السرعة هنا وقعه فى القلب البشرى . فهو ليس متروكا ولو إلى مهلة فى الحساب ! ثم يحاكمهم إلى فطرتهم التى تعرف حقيقة الألوهية ؛ وتلتجيء إلى إلهها الحق فى ساعة الشدة ؛ ويرسم لهم هذه الفطرة أمام الهول والكرب ؛ وكيف يخالفون عنها فى اليسر والرخاء . . فى مشهد قصير سريع ، ولكنه واضح حاسم ، وموح مؤثر . إن الهول والكرب الذى ترتعد له الفرائص ليس مؤجلا دائما إلى يوم الحشر والحساب . فهم يصادفون الهول فى ظلمات البر والبحر . فلا يتوجهون عند الكرب إلا لله ؛ ولا ينجيهم من الكرب إلا الله . . ولكنهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشرك عند اليسر والرخاء(قل:من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعا وخفية:لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل:الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون) إن تصور الخطر ، وتذكر الهول ، قد يردان النفوس الجامحة ، ويرققان القلوب الغليظة , ويذكران النفس لحظات الضعف والإنابة ؛ كما يذكرانها رحمة الفرج ونعمة النجاة (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية:لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) إنها تجربة يعرفها كل من وقع فى ضيقة ، أو رأى المكروبين فى لحظة الضيق . . وظلمات البر والبحر كثيرة . وليس من الضرورى أن يكون الليل لتتحقق الظلمات . فالمتاهة ظلام ، والخطر ظلام ، والغيب الذى ينتظر الخلق فى البر والبحر حجاب . . وحيثما وقع الناس فى ظلمة من ظلمات البر والبحر لم يجدوا فى أنفسهم

إلا الله يدعونه متضرعين أو يناجونه صامتين . . إن الفطرة تتعرى حينئذ من الركام ؛ فتواجه الحقيقة الكامنة فى أعماقها . . حقيقة الألوهية الواحدة . . وتتجه إلى الله الحق بلا شريك ؛ لأنها تدرك حينئذ سخافة فكرة الشرك ، وتدرك انعدام الشريك ! ويبذل المكروبون الوعود (لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) والله - سبحانه - يقول لرسوله ﷺ ليذكرهم بحقيقة الأمر (قل:الله ينجيكم منها ومن كل كرب). فليس هنالك غيره يستجيب ، ويقدر على دفع الكروب ثم ليذكرهم بتصرفهم المنكر العجيب (ثم أنتم تشركون). . وهنا يواجههم ببأس الله الذى قد يأخذهم بعد النجاة ! فما هى مرة وتنتهى ، ثم يفلتون من القبضة كما يتصورون (قل:هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا , ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) وتصور العذاب الغامر من فوق ، أو النابع من تحت ، أشد وقعا فى النفس من تصوره آتيا عن يمين أو شمال . فالوهم قد يخيل للإنسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال ! أما العذاب الذى يصب عليه من فوق ، أو يأخذه من تحت ، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل , لا مقاومة له ولا ثبات معه ! والتعبير الموحى يتضمن هذا المؤثر القوى فى حس الإنسان ووهمه ، وهو يقرر حقيقة قدرة الله على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء. ويضيف إلى ألوان العذاب الداخلة فى قدرة الله ؛ والتى قد يأخذ العباد بها متى شاء ; لونا آخر بطيئا طويلا ؛ لا ينهى أمرهم كله فى لحظة ولكنه يصاحبهم ويساكنهم ويعايشهم بالليل والنهار (أو يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض). . وهى صورة من العذاب المقيم الطويل المديد ؛ الذى يذوقونه بأيديهم ، ويجرعونه لأنفسهم ; إذ يجعلهم شيعا وأحزابا ، متداخلة لا يتميز بعضها عن بعض ، ولا يفاصل بعضها بعضا ، فهى أبدا فى جدال وصراع ، وفى خصومة ونزاع ، وفى بلاء يصبه هذا الفريق على ذاك . وطريق هذه الدعوة واحد . ولن يكون فى شأنها إلا ما كان على عهود رسل الله جميعا , صلوات الله عليهم وسلامه (انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) والله نسأل أن يجعلنا ممن يصرف الله لهم الآيات فيفقهون .

(وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ {٦٩} وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ {٧٠} قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {٧١} وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ {٧٢} وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ {٧٣}

إنها جولة لتقرير المفاصلة التى انتهت بها الموجة السابقة ؛ فقوم النبى ﷺ هم الذين كذبوا بما جاءهم به - وهو الحق - ومن ثم انفصل ما بينه وبين قومه وانبت ؛ وأمر أن يفاصلهم فيعلن إليهم أنه ليس عليهم بوكيل ، وأنه يتركهم لمصيرهم الذى لا بد آت , وأمر أن يعرض عنهم فلا يجالسهم متى رآهم يخوضون فى الدين ، ويتخذونه لعبا ولهو , ولا يوقرونه التوقير الواجب للدين ، وأمر - مع ذلك - أن يذكرهم ويحذرهم ويبلغهم وينذرهم , ولكن على أنه وإياهم - وهم قومه - فريقان مختلفان ، وأمتان متميزتان . . فلا قوم ولا جنس ولا عشيرة ولا أهل فى الإسلام . . إنما هو الدين الذى يربط ما بين الناس أو يفصم . . وإنما هى العقيدة التى تجمع بين الناس أو تفرق . وحين يوجد أساس الدين توجد تلك الروابط الأخرى . وحين تنفصم هذه العروة تفصم الروابط والصلات . وهذه هى الخلاصة المجملة لهذه الموجة من السياق . والخطاب لرسول الله ﷺ يعطيه ، ويعطى المؤمنين من ورائه ، الثقة التى تملأ القلب بالطمأنينة . الثقة بالحق - ولو كذب به قومه وأصروا على التكذيب - فما هم بالحكم فى هذا الأمر ، إنما كلمة الفصل فيه لله سبحانه . وهو يقرر أنه الحق . وأن لا قيمة ولا وزن لتكذيب القوم ! ثم يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبرأ من قومه ، وينفض منهم يده ، وأن يعلنهم بهذه المفاصلة ، ويعلمهم أنه لا يملك لهم شيئا ؛ وأنه ليس حارسا عليهم ولا موكلا بهم بعد البلاغ ، ولا مكلفا أن يهدى قلوبهم - فليس هذا من شأن الرسول - ومتى أبلغهم ما معه من الحق ، فقد انتهى بينه وبينهم الأمر ؛ وأنه يخلى بينهم وبين المصير الذى لا بد أن ينتهى إليه أمرهم . فإن لكل نبأ مستقرا ينتهى إليه ويستقر عنده . وعندئذ يعلمون ما سيكون ! (لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون). . وفى هذا الإجمال من التهديد ما يزلزل القلوب . . إنها الطمأنينة الواثقة بالحق ؛ الواثقة

بنهاية الباطل مهما تبجح ، الواثقة بأخذ الله للمكذبين فى الأجل المرسوم ، الواثقة من أن كل نبأ إلى مستقر ؛ وكل حاضر إلى مصير . فإذا أنهى إليهم هذا البلاغ ، وإذا واجه تكذيبهم بهذه المفاصلة . . فإنه ﷺ مأمور بعد ذلك ألا يجالسهم – حتى للبلاغ والتذكير – إذا رآهم يخوضون فى آيات الله بغير توقير ؛ ويتحدثون عن الدين بغير ما ينبغى للدين من الجد والمهابة ؛ ويجعلون الدين موضعا للعب واللهو ؛ بالقول أو بالفعل ؛ حتى لا تكون مجالسته لهم – وهم على مثل هذه الحال – موافقة ضمنية على ما هم فيه ؛ أو قلة غيرة على الدين الذى لا يغار المسلم على حرمة كما يغار عليه . فإذا أنساه الشيطان فجلس معهم ، ثم تذكر ، قام من فوره وفارق مجلسهم (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره . وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين)

ولقد كان هذا الأمر للرسول ﷺ ويمكن فى حدود النص أن يكون أمرا لمن وراءه من المسلمين . . كان هذا الأمر فى مكة . حيث كان عمل الرسول ﷺ يقف عند حدود الدعوة . وحيث كان غير مأمور بقتال للحكمة التى أرادها الله فى هذه الفترة . وحيث كان الاتجاه واضحا لعدم الاصطدام بالمشركين ما أمكن . . فكان هذا الأمر بألا يجلس النبى ﷺ فى مجالس المشركين ؛ متى رآهم يخوضون فى آيات الله ويذكرون دينه بغير توقير ، والمسارعة إلى ترك هذه المجالس – لو أنساه الشيطان – بمجرد أن يتذكر أمر الله ونهيه .وكان المسلمون كذلك مأمورين بهذا الأمر كما تقول بعض الروايات . . والقوم الظالمون , المقصود بهم هنا القوم المشركون . كما هو التعبير الغالب فى القرآن الكريم (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)فأما بعد أن قامت للإسلام دولة فى المدينة ، فكان للنبى ﷺ شأن آخر مع المشركين . وكان الجهاد والقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . حيث لا يجترىء أحد على الخوض فى آيات الله ! ثم يكرر السياق المفاصلة بين المؤمنين والمشركين ، كما قررها من قبل بين الرسول [ص] وبين المشركين . ويقرر اختلاف التبعة واختلاف المصير (وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ، ولكن ذكرى لعلهم يتقون). .

فليست هنالك تبعة مشتركة بين المتقين والمشركين . فهما أمتان مختلفتان – وإن اتحدتا فى الجنس والقوم فهذه لا وزن لها فى ميزان الله ، ولا فى اعتبار الإسلام . . إنما المتقون أمة ، والظالمون [أى المشركون] أمة ، وليس على المتقين شىء من تبعة الظالمين وحسابهم . ولكنهم إنما يقومون بتذكيرهم رجاء أن يتقوا مثلهم ، وينضموا إليهم . . وإلا فلا مشاركة فى شىء ، إذا لم تكن مشاركة فى عقيدة ! هذا دين الله وقوله . . ولمن شاء أن يقول غيره . ولكن ليعلم أنه يخرج من دين الله كله إذ يقول ما يقول ! ويستمر السياق فى تقرير هذه المفاصلة ؛ وفى بيان الحدود التى تكون فيها المعاملة (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا ، وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها . أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون)ونقف من الآية أمام عدة أمور:

أولها: أن الرسول ﷺ وينسحب الأمر على كل مسلم – مأمور أن يهمل شأن الذين يتخذون دينهم لعبا ولهوا . . وهذا يتم بالقول كما يتم بالفعل . . فالذى لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذه قاعدة حياته اعتقادا وعبادة ، وخلقا وسلوكا ، وشريعة وقانونا , إنما يتخذ دينه لعبا ولهوا . . والذى يتحدث عن مبادىء هذا الدين وشرائعه فيصفها أوصافا تدعو إلى اللعب واللهو . كالذين يتحدثون عن "الغيب" – وهو أصل من أصول العقيدة – حديث الاستهزاء . والذين يتحدثون عن "الزكاة" وهى ركن من أركان الدين حديث الاستصغار . والذين يتحدثون عن الحياء والخلق والعفة – وهى من مبادىء هذا الدين – بوصفها من أخلاق المجتمعات الزراعية ، أو الإقطاعية ، أو "البرجوازية" الزائلة ! والذين يتحدثون عن قواعد الحياة الزوجية المقررة فى الإسلام حديث إنكار أو استنكار . والذين يصفون الضمانات التى جعلها الله للمرأة لتحفظ عفتها بأنها" أغلال ! " . . وقبل كل شىء وبعد كل شىء . . الذين ينكرون حاكمية الله المطلقة فى حياة الناس الواقعية . . السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية . . ويقولون:إن للبشر أن يزاولوا هذا الاختصاص دون التقيد بشريعة الله . . . أولئك جميعا من المعنيين فى هذه الآيات بأنهم يتخذون دينهم لعبا ولهوا . وبأن المسلم مأمور بمفاصلتهم ومقاطعتهم إلا للذكرى . وبأنهم الظالمون – أى المشركون – والكافرون الذين أبسلوا بما كسبوا ، فلهم شراب من حميم وعذاب أليم لما كانوا يكفرون . .

وثانيها:أن الرسول ﷺ وينسحب الامر على كل مسلم – مأمور بعد إهمال شأن هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا – أن يقوم بتذكيرهم وتخويفهم من أن ترتهن نفوسهم بما كسبوا ، وأن

يلاقوا الله ليس لهم من دونه ولى ينصرهم ، ولا شفيع يشفع لهم ؛ كما أنه لا يقبل منهم فدية لتطلق نفوسهم بعد ارتهانها بما كسبت .

وللتعبير القرآنى جماله وعمقه وهو يقول (وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) فكل نفس على حدة تبسل [أى ترتهن وتؤخذ] بما كسبت ، حالة أن ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ولا يقبل منها عدل تفتدى به وتفك الربقة ! فأما أولئك الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا فهؤلاء قد ارتهنوا بما كسبوا ؛ وحق عليهم ما سبق فى الآية ؛ وكتب عليهم هذا المصير (أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) لقد أخذوا بما فعلوا ؛ وهذا جزاؤهم:شراب ساخن يشوى الحلوق والبطون ؛ وعذاب أليم بسبب كفرهم ، الذى دل عليه استهزاؤهم بدينهم . .

وثالثها:قول الله تعالى فى المشركين: (الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوًا). . فهل هو دينهم ؟ . . إن النص ينطبق على من دخل فى الإسلام ، ثم اتخذ دينه هذا لعبا ولهوا . . وقد وجد هذا الصنف من الناس وعرف باسم المنافقين . . ولكن هذا كان فى المدينة . . هل هو ينطبق على المشركين الذين لم يدخلوا فى الإسلام ؟ إن الإسلام هو الدين . هو دين البشرية جميعا . . سواء من آمن به ومن لم يؤمن . . فالذى رفضه إنما رفض دينه . . باعتبار أنه الدين الوحيد الذى يعده الله دينا ويقبله من الناس بعد بعثة خاتم النبيين . ولهذه الأضافة دلالتها فى قوله (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوًا). . فهى - والله أعلم - إشارة إلى هذا المعنى الذى أسلفناه ، من اعتبار الإسلام دينا للبشرية كافة . فمن اتخذه لعبا ولهوا ، فإنما يتخذ دينه كذلك . . ولو كان من المشركين . .

ورابعها:حدود مجالسة الظالمين - أى المشركين - والذين يتخذون دينهم لعبا ولهوا . . وقد سبق القول بأنها لمجرد التذكير والتحذير . فليست لشيء وراء ذلك - متى سمع الخوض فى آيات الله ؛ أو ظهر اتخاذها لعبا ولهوا بالعمل بأية صورة مما ذكرنا أو مثلها . .

وقد جاء فى قول القرطبى فى كتابه:الجامع لأحكام القرآن بصدد هذه الآية:

"فى هذه الآية رد من كتاب الله عز وجل ، على من زعم أن الأئمة الذين هم حجج وأتباعهم , لهم أن يخالطوا الفاسقين ، ويصوبوا آراءهم تقية . . " ونحن نقول:إن المخالطة بقصد الموعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية فى الحدود التى بينتها . أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبدونه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحظور . لأنه - فى ظاهرة - إقرار للباطل ، وشهادة ضد الحق . وفيه تلبيس على الناس ، ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله . وفى هذه الحالة يكون النهى والمفارقة .

هذا الإيقاع القوى بحقيقة الألوهية وخصائصها ؛ وباستنكار الشرك والعودة إليه بعد الهدى ; وبمشهد الذى يرجع القهقرى مرتدا عن دين الله ؛ وحيرته فى التيه بلا اتجاه ؛ وبتقرير أن هدى الله وحده هو الهدى . . هذا الإيقاع يختم برنة عالية عميقة مدوية . عن سلطان الله المطلق ، فى الأمر والخلق ؛ وعن انكشاف هذا السلطان وتفرده بالظهور - حتى للمنكرين المطموسين - (يوم ينفخ فى الصور)ويبعث من فى القبور ؛ ويستيقن من لم يكن يستيقن أن الملك لله وحده ، وأن إليه المصير (قل:أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله , كالذى استهوته الشياطين فى الأرض ، حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى . ائتنا . قل:إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين . وأن أقيموا الصلاة واتقوه) (قل) الإيقاع القوى المتكرر فى السورة ؛ الذى يوحى بأن هذا الأمر لله وحده ، وأن الرسول ﷺ إنما هو منذر ومبلغ ؛ والذى يوحى بجلال هذا الأمر وعلويته ورهبته ; وأن الرسول ﷺ إنما هو مأمور به من ربه (قل:أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ؟) قل لهم يا محمد ما هم عليه من دعوة غير الله والاستعانة به وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دونه ، وهم لا يملكون نفعا ولا ضرا . سواء كان ما يدعونه وثنا أو صنما , حجرا أو شجرا ، روحا أم ملكا ، شيطانا أم إنسانا . . فكلهم سواء فى أنهم لا ينفعون شيئا ولا يضرون . فهم أعجز من النفع والضر . وكل حركة إنما تجرى بقدر من الله . فما لم يأذن به الله لا يكون ، ولا يكون إلا قدره وما جرى به قضاؤه من الأمور، قل لهم مستنكرا دعوة غير الله ، وعبادة غير الله ، والاستعانة بغير الله ، والخضوع لغير الله . وسخف هذا التصرف وهذا الاتجاه . . وسواء كان ذلك

ردا على ما كان يقترحه المشركون على النبى [ص] من مشاركتهم عبادة آلهتهم ليشاركوه عبادة ربه ! أو كان ذلك استنكارا مبتدأ لما عليه المشركون ، وإعلانا للمفارقة والمفاصلة فيه من جانب النبى ﷺ والمؤمنين . . فإن المؤدى فى النهاية واحد ؛ وهو استنكار هذا السخف الذى يرفضه العقل البشرى ذاته متى عرض له فى النور ؛ بعيدا عن الموروثات الراسبة , وبعيدا كذلك عن العرف السائد فى البيئة ! ولتجسيم السخف وتضخيم الاستنكار يعرض هذه المعتقدات فى ضوء ما هدى الله المسلمين إليه من عبادته وحده ، واتخاذه وحده إلها ، والدينونه له وحده بلا شريك: ١) قل:أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا ؟ فهو ارتداد على الأعقاب ؛ ورجوع إلى الوراء ؛ بعد التقدم والارتقاء ، ثم هذا المشهد الشاخص المتحرك الموحى المثير (كالذى استهوته الشياطين فى الأرض) (. . حيران . . له أصحاب يدعونه إلى الهدى:ائتنا). . إنه مشهد حى شاخص متحرك للضلالة والحيرة التى تنتاب من يشرك بعد التوحيد ، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد ، والآلهة المتعددة من العبيد ! ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال ، فيذهب فى التيه . . إنه مشهد ذلك المخلوق التعيس: (الذى استهوته الشياطين فى الأرض)- ولفظ الاستهواء لفظ مصور بذاته لمدلوله - ويا ليته يتبع هذا الاستهواء فى اتجاهه ، فيكون له اتجاه صاحب القصد الموحد - ولو فى طريق الضلال ! -ولكن هناك ، من الجانب الآخر ، أصحاب له مهتدون ، يدعونه إلى الهدى ، وينادونه (ائتنا)- وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء(حيران) لا يدرى أين يتجه ، ولا أى الفريقين يجيب ! إنه العذاب النفسى يرتسم ويتحرك ، حتى ليكاد يحس ويلمس من خلال التعبير ! ولقد كنت أتصور هذا المشهد وما يفيض به من عذاب الحيرة والتأرجح والقلقلة كلما قرأت هذا النص . . ولكن مجرد تصور . . حتى رأيت حالات حقيقية ، يتمثل فيها هذا الموقف , ويفيض منها هذا العذاب . . حالات ناس عرفوا دين الله وذاقوه - أيا كانت درجة هذه المعرفة وهذا التذوق - ثم ارتدوا عنه إلى عبادة الآلهة الزائفة ، تحت قهر الخوف والطمع . . ثم إذا هم فى مثل هذا البؤس المرير . . وعندئذ عرفت ماذا تعنى هذه الحالة , وماذا يعنى هذا التعبير ! وبينما ظل المشهد الحى الشاخص المتحرك الموحى ، يغمر النفس بالوجل من هذا المصير التعيس . . يأتى التقرير الحاسم بالاتجاه الثابت المستقيم (قل:إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه) إنه التقرير الحاسم فى الظرف النفسى المناسب ، فالنفس التى ترتسم لها صورة الحيرة الطاغية ، والعذاب المرير من هذه الحيرة التى لا تستقر على قرار ، تكون أقرب ما تكون إلى استقبال القرار الحاسم بالراحة والتسليم . ثم إنه الحق فى ذلك التقرير الحاسم (قل:إن هدى الله هو الهدى) هو وحدة الهدى - كما يفيد التركيب البيانى للجملة - وإنه لكذلك عن يقين . . وإن البشرية لتخبط فى التيه ، كلما تركت هذا الهدى ، أو انحرفت عن شىء منه واستبدلت به شيئا من تصوراتها هى ومقولاتها ، وأنظمتها وأوضاعها ، وشرائعها وقوانينها , وقيمها وموازينها ، بغير(علم) ولا (هدى) ولا (كتاب منير). . ومن ثم يستطرد السياق فى الآية ليقرر ضرورة الاستسلام لله وحده ، وعبادته وحده ، ومخافته وتقواه: (وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه) قل يا محمد وأعلن أن هدى الله هو الهدى ؛ وأننا - من ثم - أمرنا أن نسلم لرب العالمين . فهو وحده الذى يستسلم له العالمون . فالعوالم كلها مستسلمة له ، فماذا الذى يجعل الإنسان وحده - من بين العالمين - يشذ عن الاستسلام لهذه الربوبية الشاملة التى تستسلم لها العوالم فى السماوات والأرضين ؟ إن ذكر الربوبية للعالمين هنا له موضعه . . إنه يقرر الحقيقة التى لا مناص من الاعتراف بها وهى استسلام الوجود كله ، وما فيه من عوالم مشهودة ومغيبة ، للنواميس التى وضعها الله لها ؛ وهى لا تملك الخروج عليها ، والإنسان - من ناحية تركيبه العضوى - يستسلم كذلك لهذه النواميس كرها ، ولا يملك الخروج عليها . . فلا يبقى إلا أن يستسلم فى الجانب الذى ترك له الخيار فيه ليبتلى فيه ، وهو جانب الاختيار . . اختيار الهدى أو الضلال . . ولو استسلم فيه استسلام كيانه العضوى ، لاستقام أمره ، وتناسق تكوينه وسلوكه ، وجسمه وروحه ، ودنياه وآخرته . . وفى إعلان الرسول ﷺ والمسلمين معه ، أنهم أمروا بالاستسلام فاستسلموا ، إيحاء مؤثر لمن يفتح الله قلبه للتلقى والاستجابة على مدى الزمان . وبعد إعلان الاستسلام لرب العالمين تجىء التكاليف التعبدية والشعورية (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) فالأصل هو الاستسلام لربوبية رب العالمين ، وسلطانه وتربيته وتقويمه . ثم تجىء العبادات الشعائرية ؛ وتجىء الرياضات النفسية . . لتقوم على قاعدة الاستسلام . . فإنها لا تقوم إلا إذا رسخت هذه القاعدة ليقوم عليها البناء . وفى الإيقاع الأخير فى الفقرة يحشد السياق المؤثرات من الحقائق الأساسية فى العقيدة:حقيقة الحشر . وحقيقة الخلق . وحقيقة السلطان . وحقيقة العلم بالغيب والشهادة . وحقيقة الحكمة والخبرة . . من خصائص الألوهية ، التى هى الموضوع الرئيسى فى هذه السورة (وهو الذى إليه تحشرون . وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق . ويوم يقول:كن فيكون . قوله الحق ، وله الملك يوم ينفخ فى الصور ، عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الخبير) (وهو الذى إليه تحشرون) إن الاستسلام لرب العالمين ضرورة وواجب . . فهو الذى إليه تحشر الخلائق . . فأولى لهم أن يقدموا بين يدى الحشر - الحتمى - ما ينجيهم ؛

وأولى لهم أن يستسلموا اليوم له استسلام العالمين ؛ قبل أن يقفوا أمامه مسؤولين . . وكذلك يصبح تصور هذه الحقيقة – حقيقة الحشر – موحيا بالاستسلام في المبدأ ، ما دام أنه لا مفر من الاستسلام في المصير ! (وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق) وهذه حقيقة أخرى تحشد كمؤثر آخر . . فالله الذي يؤمرون بالاستسلام له هو الذي خلق السماوات والأرض – والذي يخلق يملك ويحكم ويقضي ويتصرف – ولقد خلق السماوات والأرض (بالحق). فالحق قوام هذا الخلق . . وفضلا عما يقرره هذا النص من نفي الأوهام التي عرفتها الفلسفة عن هذا الكون – وبخاصة الأفلاطونية والمثالية – من أن هذا العالم المحسوس وهم لا وجود له على الحقيقة ! – فضلا على تصحيح مثل هذه التصورات ، فإن النص يوحي بأن الحق أصيل في بنية هذا الكون ، وفي مآلاته كذلك . فالحق الذي يلوذ به الناس يستند إلى الحق الكامن في فطرة الوجود وطبيعته ، فيؤلف قوة هائلة ، لا يقف لها الباطل ، الذي لا جذور له في بنية الكون ، وإنما هو كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . وكالزبد يذهب جفاء ، إذ لا أصالة له في بناء الكون . . كالحق . . وهذه حقيقة ضخمة ، ومؤثر كذلك عميق . . إن المؤمن الذي يشعر أن الحق الذي معه – هو شخصيا وفي حدود ذاته – إنما يتصل بالحق الكبير في كيان هذا الوجود . [وفي الآية الأخرى: (ذلك بأن الله هو الحق)] فيتصل الحق الكبير الذي في الوجود بالحق المطلق في الله سبحانه . . إن المؤمن الذي يشعر بهذه الحقيقة على هذا النحو الهائل ، لا يرى في الباطل – مهما تضخم وانتفخ وطغى وتجبر وقدر على الأذى المقدر – إلا فقاعة طارئة على هذا الوجود ؛ لا جذور لها ولا مدد ؛ تنفثىء من قريب ، وتذهب كأن لم تكن في هذا الوجود (وله الملك يوم ينفخ في الصور)

ففي هذا اليوم يوم الحشر . . يوم ينفخ في الصور [هو القرن المجوف كالبوق] وهو اليوم الذي يكون فيه البعث والنشر ؛ بكيفية غيبية لا يعلمها البشر ، فهي من غيب الله الذي احتفظ به . والصور كذلك غيب من ناحية ماهيته وحقيقته ، ومن ناحية كيفية استجابة الموتى له ، والروايات المأثورة ؛ تقول:هو بوق من نور ينفخ فيه ملك ، فيسمع من في القبور ، حيث يهبون للنشور – وهذه هي النفخة الثانية – أما الأولى فيصعق لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله كما جاء في آية الزمر (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض – إلا من شاء الله – ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون). . وهذه الأوصاف للصور ولآثار النفخة فيه تعطينا – عن يقين – أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض أو تصوروه . . وهو من ثم غيب من غيب الله . . نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وأثره ، ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه ، ولا يقين . إنما هي الظنون ! في هذا اليوم الذي ينفخ فيه في الصور يبرز – حتى للمنكرين – ويظهر – حتى للمطموسين - أن الملك لله وحده ، وأنه لا سلطان إلا سلطانه ، ولا إرادة إلا إرادته . . فأولى لمن يأبون الاستسلام له في الدنيا طائعين أن يستسلموا قبل أن يستسلموا لسلطانه المطلق يوم ينفخ في الصور (عالم الغيب والشهادة) الذي يعلم ذلك الغيب المحجوب ، كما يعلم هذا الكون المشهود . والذي لا تخفى عليه خافية من أمر العباد ، ولا يند عنه شأن من شؤونهم . . فأولى لهم أن يسلموا له ويعبدوه ويتقوه . وهكذا تذكر هذه الحقيقة لذاتها ، وتتخذ مؤثرا موحيا في مواجهة المكذبين والمعارضين (وهو الحكيم الخبير) يصرف أمور الكون الذي خلقه ، وأمور العباد الذين يملكهم في الدنيا والآخرة بالحكمة والخبرة . . فأولى أن يستسلموا لتوجيهه وشرعه ، ويسعدوا بآثار حكمته وخبرته . ويفيئوا إلى هداه وحده . ويخرجوا من التيه ، ومن الحيرة ، إلى ظلال الحكمة والخبرة , وإلى كنف الهدى والبصيرة . .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٧٤} وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ{٧٥} فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ{٧٦} فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ{٧٧} فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{٧٨} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{٧٩} وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَآجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ{٨٠} وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{٨١} الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ{٨٢} وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{٨٣} وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{٨٤} وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ{٨٥} وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ{٨٦} وَمِن

آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {٨٧} ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {٨٨} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ {٨٩} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ {٩٠} وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ {٩١} وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ {٩٢} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ {٩٣} وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) {٩٤}

هذا الدرس بطوله لحمة واحدة ؛ يتناول موضوعا متصل الفقرات . . إنه يعالج الموضوع الأساسى فى السورة – وهو بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وما بينهما من ارتباطات - ولكنه يعالجه فى أسلوب آخر غير ما جرى به السياق منذ أول السورة . . يعالجه فى أسلوب القصص والتعقيب عليه . . مع استصحاب المؤثرات الموحية التى تزخر بها السورة ؛ ومنها مشهد الاحتضار الكامل السمات ؛ وذلك كله فى نفس طويل رتيب يتوسط الموجات المتلاحقة التى تحدثنا عنها فى تقديم السورة . . والدرس - فى جملته – يعرض موكب الإيمان الموصول منذ نوح – عليه السلام ، إلى محمدﷺ وفى مطلع هذا الموكب يستعرض حقيقة الألوهية – كما تتجلى فى فطرة عبد من عباد الله الصالحين – إبراهيم عليه السلام – ويرسم مشهدا رائعا حقا للفطرة السليمة , وهى تبحث عن إلهها الحق ، الذى تجده فى أعماقها ، بينما هى تصطدم فى الخارج بانحرافات الجاهلية وتصوراتها . إلى أن يخلص لها تصور حق ، يطابق ما ارتسم فى أعماقها عن إلهها الحق . ويقوم على ما تحده فى أطوائها من برهان داخلى هو أقوى وأثبت من المشهود المحسوس ! ذلك حين يحكى السياق عن إبراهيم عليه السلام بعد اهتدائه إلى ربه الحق ، واطمئنانه إلى ما وجده فى قلبه منه (وحاجه قومه . قال:أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟) ثم يمضى السياق مع موكب الإيمان الموصول ؛ يقوده الرهط الكريم من رسل الله على توالى العصور ؛ حيث يبدو شرك المشركين وتكذيب المكذبين لغوا لا وزن له ، يتناثر على جانبى الموكب الجليل ، الماضى فى طريقه الموصول . وحيث يلتحم آخره مع أوله ؛ فيؤلف الأمة الواحدة ، يقتدى آخرها بالهدى الذى اهتدى به أولها ، دون اعتبار لزمان أو مكان ; ودون اعتبار لجنس أو قوم ، ودون اعتبار لنسب أو لون . . فالحبل الموصول بين الجميع هو هذا الدين الواحد الذى يحمله ذلك الرهط الكريم . إنه مشهد رائع كذلك ؛ يبدو من خلال قول الله تعالى لرسوله الكريم بعد استعراض الموكب العظيم:(ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل:لا أسألكم عليه أجرا ، إن هو إلا ذكرى للعالمين) وبعد استعراض هذا الموكب الجليل يجىء التنديد بمن يزعمون أن الله لم يرسل رسلا ، ولم ينزل على بشر كتابا . . إنهم لم يقدروا الله حق قدره . فما قدر الله حق قدره من يقول:إنه – سبحانه – تارك الناس لأنفسهم وعقولهم وما يتعاورها من الأهواء والشهوات والضعف والقصور . فما يليق هذا بألوهية الله وربوبيته ، وعلمه وحكمته وعدله ورحمته . . إنما اقتضت رحمة الله وعلمه ورحمته وعدله أن يرسل إلى عباده رسلا ، وأن ينزل على بعض الرسل كتبا ، ليحاولوا جميعا هداية البشرية إلى بارئها ، واستنقاذ فطرتها من الركام الذى يرين عليها ، ويغلق منافذها ، ويعطل أجهزة الالتقاط والاستجابة فيها ويضرب مثلا الكتاب الذى أنزل على موسى . وهذا الكتاب الذى يصدق ما بين يديه من الكتب جميعا . وينتهى الدرس الطويل المتلاحم الفقرات باستنكار الافتراء ممن يفترى على الله ، وادعاء من يزعم أنه يوحى إليه من الله ، وادعاء القدرة على تنزيل مثل ما أنزل الله . . وهى الدعاوى التى كان يدعيها بعض من يواجهون الدعوة الإسلامية ، وفيهم من ادعى الوحى وفيهم من ادعى النبوة . وفى الختام يجىء مشهد الاحتضار المكروب للمشركين (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت , والملائكة باسطوا أيديهم: أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ،

وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ! لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون !) وهو مشهد كئيب مكروب رعيب ؛ يجلله الهوان ويصاحبه التنديد والتأنيب . جزاء الاستكبار والإعراض والافتراء والتكذيب (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر:أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين . . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا . قال:هذا ربى ، فلما أفل قال:لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال:هذا ربى ، فلما أفل قال:لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال:هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال:يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين) إنه مشهد رائع باهر هذا الذى يرسمه السياق القرآنى فى هذه الآيات . . مشهد الفطرة وهى – للوهلة الأولى – تنكر تصورات الجاهلية فى الأصنام وتستنكرها . وهى تنطلق بعد إذ نفضت عنها هذه الخرافة فى شوق عميق دافق تبحث عن إلهها الحق ، الذى تجده فى ضميرها ، ولكنها لا تتبينه فى وعيها وإدراكها . وهى تتعلق فى لهفتها المكنونة بكل ما يلوح أنه يمكن أن يكون هو هذا الإله ! حتى إذا اختبرته وجدته زائفا , ولم تجد فيه المطابقة لما هو مكنون فيها من حقيقة الإله وصفته . . ثم وهى تجد الحقيقة تشرق فيها وتتجلى لها . وهى تنطلق بالفرحة الكبرى ، والامتلاء الجياش ، بهذه الحقيقة ، وهى تعلن فى جيشان اللقيا عن يقينها الذى وجدته من مطابقة الحقيقة التى انتهت إليها بوعيها للحقيقة التى كانت كامنة من قبل فيها ! . . إنه مشهد رائع باهر هذا الذى يتجلى فى قلب إبراهيم – عليه السلام – والسياق يعرض التجربة الكبرى التى اجتازها فى هذه الآيات القصار . . إنها قصة الفطرة مع الحق والباطل . وقصة العقيدة كذلك يصدع بها المؤمن ولا يخشى فيها لومة لائم ؛ ولا يجامل على حسابها أبا ولا أسرة ولا عشيرة ولا قوما . . كما وقف إبراهيم من أبيه وقومه هذه الوقفه الصلبة الحاسمة الصريحة (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر:أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين)

إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم . إنه لم يهتد بعد بوعيه وإدراكه – إلى إلهة - ولكن فطرته السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التى يعبدها قومه آلهة – وقوم إبراهيم من الكلدانيين بالعراق كانوا يعبدون الأصنام كما كانوا يعبدون الكواكب والنجوم - فالإله الذى يعبد ، والذى يتوجه إليه العباد فى السراء والضراء ، والذى خلق الناس والأحياء . . هذا الإله فى فطرة إبراهيم لا يمكن أن يكون صنما من حجر ، أو وثنا من خشب . . وإذا لم تكن هذه الاصنام هى التى تخلق وترزق وتسمع وتستجيب – وهذا ظاهر من حالها للعيان – فما هى بالتى تستحق أن تعبد ؛ وما هى بالتى تتخذ آلهة حتى على سبيل أن تتخذ واسطة بين الإله الحق والعباد ! وإذن فهو الضلال البين تحسه فطرة إبراهيم – عليه السلام – للوهلة الأولى . وهى النموذج الكامل للفطرة التى فطر الله الناس عليها . . ثم هى النموذج الكامل للفطرة وهى تواجه الضلال البين ، فتنكره وتستنكره ، وتجهر بكلمة الحق وتصدع ، حينما يكون الأمر هو أمر العقيدة (أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) كلمة يقولها إبراهيم – عليه السلام – لأبيه . وهو الأواه الحليم الرضى الخلق السمح اللين ، كما ترد أوصافه فى القرآن الكريم . ولكنها العقيدة هنا . والعقيدة فوق روابط الأبوة والبنوة ، وفوق مشاعر الحلم والسماحة . وإبراهيم هو القدوة التى أمر الله المسلمين من بنيه أن يتأسوا بها . والقصة تعرض لتكون أسوة ومثالا . . وكذلك استحق إبراهيم – عليه السلام – بصفاء فطرته وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة فى الكون ، والدلائل الموحية بالهدى فى الوجود (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين) بمثل هذه الفطرة السليمة ، وهذه البصيرة المفتوحة ؛ وعلى هذا النحو من الخلوص للحق , ومن إنكار الباطل فى قوة . . نرى إبراهيم حقيقة هذا الملك . . ملك السماوات والأرض . . ونطلعه على الأسرار المكنونة فى صميم الكون ، ونكشف له عن الآيات المبثوثة فى صحائف الوجود ، ونصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل الهدى فى هذا الكون العجيب . لينتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة الزائفة ، إلى درجة اليقين الواعى بالإله الحق (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا . قال:هذا ربى ، فلما أفل قال:لا أحب الآفلين) إنها صورة لنفس إبراهيم ، وقد ساورها الشك – بل الإنكار الجازم – لما يعبد أبوه وقومه من الأصنام . وقد باتت قضية العقيدة هى التى تشغل باله ، وتزحم عالمه . . صورة يزيدها التعبير شخوصا بقوله: (فلما جن عليه الليل). . كأنما الليل يحتويه وحده , وكأنما يعزله عن الناس حوله ، ليعيش مع نفسه وخواطره وتأملاته ، ومع همه الجديد الذى يشغل باله ويزحم خاطره (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال:هذا ربى) وكان قومه يعبدون الكواكب والنجوم – كما أسلفنا – فلما أن يئس من أن يكون إلهة الحق - الذى يجده فى فطرته فى صورة غير مدركة ولا واعية – صنما من تلك الأصنام ، فلعله رجا أن يجده فى شىء مما يتوجه إليه قومه بالعبادة ! وما كانت هذه أول مرة يعرف فيها إبراهيم أن قومه يتجهون بالعبادة إلى الكواكب والنجوم . وما كانت هذه أول مرة يرى فيها إبراهيم كوكبا . . ولكن الكوكب – الليلة – ينطق له بما لم ينطق من قبل ، ويوحى إلى خاطره بما يتفق مع الهم الذى يشغل باله ، ويزحم عليه عالمه: (قال:هذا

ربى) فهو بنوره وبزوغه وارتفاعه أقرب – من الأصنام – إلى أن يكون ربا ! . . ولكن لا ! إنه يكذب ظنه: (فلما أفل قال:لا أحب الآفلين) إنه يغيب . . يغيب عن هذه الخلائق . فمن ذا يرعاها إذن ومن ذا يدبر أمرها . . إذا كان الرب يغيب ؟! لا , إنه ليس ربا ، فالرب لا يغيب ! إنه منطق الفطرة البديهي القريب . . لا يستشير القضايا المنطقية والفروض الجدلية , إنما ينطلق مباشرة في يسر وجزم . لأن الكينونة البشرية كلها تنطق به في يقين عميق (لا أحب الآفلين) فالصلة بين الفطرة وإلهها هي صلة الحب ؛ والآصرة هي آصرة القلب . . وفطرة إبراهيم " لا تحب " الآفلين ، ولا تتخذ منهم إلها . إن الإله الذى تحبه الفطرة . . لا يغيب . ! .(فلما رأى القمر بازغا قال:هذا ربي . فلما أفل قال:لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) إن التجربة تتكرر . وكأن إبراهيم لم ير القمر قط ؛ ولم يعرف أن أهله وقومه يعبدونه ! فهو الليلة فى نظره جديد (قال:هذا ربى) بنوره الذى ينسكب فى الوجود ؛ وتفرده فى السماء بنوره الحبيب . . ولكنه يغيب ! . . والرب – كما يعرفة إبراهيم بفطرته وقلبه – لا يغيب ! هنا يحس إبراهيم أنه فى حاجة إلى العون من ربه الحق الذى يجده فى ضميره وفطرته . ربه الذى يحبه ، ولكنه بعد لم يجده فى إدراكه ووعيه . . ويحس أنه ضال مضيع إن لم يدركه ربه بهدايته . إن لم يمد إليه يده . ويكشف له عن طريقه: (قال:لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) (فلما رأى الشمس بازغة قال:هذا ربي . هذا أكبر . فلما أفلت قال:يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهي للذى فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين)إنها التجربة الثالثة مع أضخم الأجرام المنظورة وأشدها ضوءا وحرارة . . الشمس . . والشمس تطلع كل يوم وتغيب . ولكنها اليوم تبدو لعيني إبراهيم كأنها خلق جديد . إنه اليوم يرى الأشياء بكيانه المتطلع إلى إله يطمئن به ويطمئن إليه ؛ ويستقر على قرار ثابت بعد الحيرة المقلقة والجهد الطويل (قال:هذا ربى . هذا أكبر) ولكنها كذلك تغيب .هنا يقع التماس ، وتنطلق الشرارة ، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق , ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهر وعلى العقل والوعى . . هنا يجد إبراهيم إلهه . . يجده فى وعيه وإدراكه كما هو فى فطرته وضميره . . هنا يقع التطابق بين الإحساس الفطرى المكنون والتصور العقلى الواضح . . وهنا يجد إبراهيم إلهه . ولكنه لا يجده فى كوكب يلمع ، ولا فى قمر يطلع ، ولا فى شمس تسطع . . ولا يجده فيما تبصر العين ، ولا فيما يحسه الحس . . إنه يجده فى قلبه وفطرته , وفى عقله ووعيه ، وفى الوجود كله من حوله . . إنه يجده خالقا لكل ما تراه العين , ويحسه الحس ، وتدركه العقول . وعندئذ يجد فى نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه فى كل ما يعبدون من آلهة زائفة ; ويبرأ فى حسم لا مواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم وما هم عليه من الشرك – وهم لم يكونوا يجحدون الله البتة ، ولكنهم كانوا يشركون هذه الأرباب الزائفة – وإبراهيم يتجه إلى الله وحده بلا شريك (قال:يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين). فهو الاتجاه إلى فاطر السماوات والأرض . الاتجاه الحنيف الذى لا ينحرف إلى الشرك . وهى الكلمة الفاصلة ، واليقين الجازم ، والاتجاه الأخير . . فلا تردد بعد ذلك ولا حيرة فيما تجلى للعقل من تصور مطابق للحقيقة التى فى الضمير . . ومرة أخرى نشهد ذلك المشهد الرائع الباهر . . مشهد العقيدة وقد استعلنت فى النفس , واستولت على القلب ، بعدما وضحت وضوحها الكامل وانجلى عنها الغبش . . نشهدها وقد ملأت الكيان الإنسانى ، فلم يعد وراءها شيء . وقد سكبت فيه الطمأنينة الواثقة بربه الذى وجده فى قلبه وعقله وفى الوجود من حوله . . وهو مشهد يتجلى بكل روعته وبهائه فى الفقرة التالية فى السياق . لقد انتهى إبراهيم إلى رؤية الله – سبحانه – فى ضميره وعقله وفى الوجود من حوله . وقد اطمأن قلبه واستراح باله . وقد احس بيد الله تأخذ بيده وتقود خطاه فى الطريق . . والآن يجيء قومه ليجادلوه فيما انتهى إليه من يقين ؛ وفيما انشرح له صدره من توحيد ; وليخوفوه آلهتهم التى تنكر لها أن تنزل به سوءا . . وهو يواجههم فى يقينه الجازم ; وفى إيمانه الراسخ ؛ وفى رؤيته الباطنة والظاهرة لربه الحق الذى هداه (وحاجه قومه ، قال:أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شيء علما . أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟) إن الفطرة حين تنحرف تضل ؛ ثم تتمادى فى ضلالها ، وتتسع الزاوية ويبعد الخط عن نقطة الابتداء ، حتى ليصعب عليها أن تثوب . . وهؤلاء قوم إبراهيم – عليه السلام – يعبدون أصناما وكواكب ونجوما . فلا يتفكرون ولا يتدبرون هذه الرحلة الهائلة التى تمت فى نفس إبراهيم . ولم يكن هذا داعيا لهم لمجرد التفكر والتدبر . بل جاءوا يجادلونه ويحاجونه . وهم على هذا الوهن الظاهر فى تصوراتهم وفى ضلال مبين . ولكن إبراهيم المؤمن الذى وجد الله فى قلبه وعقله وفى الوجود كله من حوله ، يواجههم مستنكرا فى طمأنينة ويقين (قال:أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟) أتجادلوننى فى الله وقد وجدته يأخذ بيدى ، ويفتح بصيرتى ، ويهدينى إليه ، ويعرفنى به . . لقد أخذ بيدى وقادنى فهو موجود – وهذا هو فى نفسى دليل الوجود – لقد رأيته فى ضميرى وفى وعيى ، كما رأيته فى الكون من حولى . فما جدالكم فى أمر أنا أجده فى نفسى ولا أطلب

عليه الدليل . فهدايته لي إليه هي الدليل ؟! (ولا أخاف ما تشركون به) وكيف يخاف من وجد الله ؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف ؟ وكل قوة – غير قوة الله – هزيلة وكل سلطان – غير سلطان الله – لا يخاف ؟! ولكن إبراهيم في عمق إيمانه ، واستسلام وجدانه ، لا يريد أن يجزم بشيء إلا مرتكنا إلى مشيئة الله الطليقة ، وإلى علم الله الشامل (إلا أن يشاء ربي شيئا . وسع ربي كل شيء علمًا). فهو يكل إلى مشيئة الله حمايته ورعايته ؛ ويعلن أنه لا يخاف من آلهتهم شيئا ، لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته . ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما شاءه الله ، ووسعه علمه الذي يسع كل شيء (وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ? فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟).

إنه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود . إنه إن كان أحد قمينا بالخوف فليس هو إبراهيم – وليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله ويمضي في الطريق – وكيف يخاف آلهة عاجزة – كائنة ما كانت هذه الآلهة ، والتي تتبدى أحيانا في صورة جبارين في الأرض بطاشين ؛ وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعوفون ! – كيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة ، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطانا ولا قوة من الأشياء والأحياء ؟ وأي الفريقين أحق بالأمن ؟ الذي يؤمن به ويكفر بالشركاء ? أم الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة ؟ أي الفريقين أحق بالأمن ، لو كان لهم شيء من العلم والفهم ؟! هنا يتنزل الجواب من الملأ الأعلى ؛ ويقضي الله بحكمه في هذه القضية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله ، لا يخلطون بهذا الإيمان شركا في عبادة ولا طاعة ولا اتجاه . هؤلاء لهم الأمن ، وهؤلاء هم المهتدون(وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء). . ولقد كانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله إبراهيم ليدحض بها حجتهم التي جاءوا بها يجادلونه . ولقد كشف لهم عن وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسيء إليه . . وواضح أنهم ما كانوا يجحدون وجود الله ؛ ولا أنه هو صاحب القوة والسلطان في الكون ، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة . فلما واجههم إبراهيم ، بأن من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه ، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة . . لما واجههم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها ، سقطت حجتهم ، وعلت حجته , وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة . وهكذا يرفع الله من يشاء درجات . متصرفا في هذا بحكمته وعلمه (إن ربك حكيم عليم) (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّن الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) ٨٨ (أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) وفي الآيات ذكر لسبعة عشر نبيا رسولا – غير نوح وإبراهيم – وإشارة إلى آخرين (منَ آبائهم وذرياتهم وإخوانهم) والتعقيبات على هذا الموكب: (وكذلك نجزي المحسنين) وكلا فضلنا على العالمين). . (واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم). . وكلها تعقيبات تقرر إحسان هذا الرهط الكريم واصطفاءه من الله ، وهدايته إلى الطريق المستقيم . وذكر هذا الرهط على هذا النحو ، واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة ، كله تمهيد للتقريرات التي تليه (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وهذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض . فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل . وينحصر المستيقن منه ، والذي يجب اتباعه ، في هذا المصدر الواحد ، الذي يقرر الله – سبحانه – أنه هو هدى الله ؛ وأنه هو الذي يهدي إليه من يختار من عباده . . ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله ، وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداه ، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقي ، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم:أي ان يذهب ضياعا ، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نبتا مسموما فتنتفخ ثم تموت . . وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط ! (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين). .

وهذا هو التقرير الثاني . . فقرر في الأول مصدر الهدى ، وقصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل . وقرر في الثاني أن الرسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم ، هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة –(والحكم)يجيء بمعنى الحكمة كما يجيء بمعنى السلطان كذلك – وكلا المعنيين محتمل في الآية . فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى ، والزبور مع داود ،

والإنجيل مع عيسى . وبعضهم آتاه الله الحكم كداود وسليمان – وكلهم أوتى السلطان على معنى أن ما معه من الدين هو حكم الله , وأن الدين الذى جاءوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور . فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا ، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط ، كما جاء فى الآيات الأخرى . وكلهم أوتى الحكمة وأوتى النبوة . . وأولئك هم الذين وكلهم الله بدينه , يحملونه إلى الناس ، ويقومون عليه ، ويؤمنون به ويحفظونه . . فإذا كفر بالكتاب والحكم والنبوة مشركو العرب (هؤلاء) فإن دين الله غنى عنهم ؛ وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين ! . . إنها حقيقة قديمة امتدت شجرتها ، وموكب موصول تماسكت حلقاته ؛ ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول ؛ وآمن بها ويؤمن من يقسم الله له الهداية ؛ بما يعلمه من استحقاقه للهداية ! . . وهو تقرير يسكب الطمأنينة فى قلب المؤمن ، وفي قلوب العصبة المسلمة – أيا كان عددها – إن هذه العصبة ليست وحدها . ليست مقطوعة من شجرة ! إنها فرع منبثق من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وحلقة في موكب جليل موصول ، موصولة أسبابه بالله وهداه . . إن المؤمن الفرد ، فى أى أرض وفى أى جيل ، قوى قوى ، وكبير كبير ، إنه من تلك الشجرة المتينة السامقة الضاربة الجذور فى أعماق الفطرة البشرية وفي أعماق التاريخ الأنساني, وعضو من ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل:لا أسألكم عليه أجرا . إن هو إلا ذكرى للعالمين) وهو التقرير الثالث . . فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان ، هم الذين هداهم الله . وهداهم الذى جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله ﷺ ومن آمن به . فهذا الهدى وحده هو الذى يسير عليه . وهذا الهدى وحده هو الذى يحتكم إليه ، وهذا الهدى وحده هو الذى يدعو إليه ويبشر به . . قائلا لمن يدعوهم (لا أسألكم عليه أجرا) (إن هو إلا ذكرى للعالمين) للعالمين . . لا يختص به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد ، إنه هدى الله لتذكير البشر كافة . ومن ثم فلا أجر عليه يتقاضاه . وإنما أجره على الله ! ثم يمضي السياق يندد بمنكرى النبوات والرسالات ، ويصمهم بأنهم لا يقدرون الله قدره , ولا يعرفون حكمة الله ورحمته وعدله . ويقرر أن الرسالة الأخيرة إنما تجرى على سنة الرسالات قبلها ؛ وأن الكتاب الأخير مصدق لما بين يديه من الكتب . . مما يتفق مع ظل الموكب الذى سبق عرضه ويتناسق (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا:ما أنزل الله على بشر من شيء . قل:من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس – تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا – وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ؟ قل:الله . ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون) لقد كان المشركون في معرض العناد واللجاج يقولون:إن الله لم يرسل رسولا من البشر ; ولم ينزل كتابا يوحى به إلى بشر . بينما كان إلى جوارهم فى الجزيرة أهل الكتاب من اليهود ; ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب ، ولا أن الله أنزل التوارة على موسى - عليه السلام – إنما هم كانوا يقولون ذلك القول في زحمة العناد واللجاج ، ليكذبوا برسالة محمد ﷺ.لذلك يواجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولتهم:ما أنزل الله على بشر من شيء ؛ كما يواجههم بالكتاب الذى جاء به موسى من قبل: (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا:ما أنزل الله على بشر من شيء) وهذا القول الذى كان يقوله مشركو مكة فى جاهليتهم ، يقوله أمثالهم في كل زمان ؛ ومنهم الذين يقولونه الآن ؛ ممن يزعمون أن الأديان من صنع البشر ؛ وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم . لا يفرقون في هذا بين ديانات هى من تصورات البشر أنفسهم , كالوثنيات كلها قديما وحديثا ، ترتقى وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم ، ولكنها تظل خارج دين الله كله . وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله ، وهي ثابتة على أصولها الأولى ؛ جاء بها كل رسول ؛ فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة ؛ ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها ، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد ، بذات الدين الواحد الموصول . وهذا القول يقوله – قديما أو حديثا – من لا يقدر الله حق قدره ؛ ومن لا يعرف كرم الله وفضله ، ورحمته وعدله . . إنهم يقولون:إن الله لا يرسل من البشر رسولا ولو شاء لأنزل ملائكة ! كما كان العرب يقولون . أو يقولون:إن خالق هذا الكون الهائل لا يمكن أن يعنى بالإنسان "الضئيل" في هذه الذرة الفلكية التى اسمها الأرض ! بحيث يرسل له الرسل ; وينزل على الرسل الكتب لهداية هذا المخلوق الصغير فى هذا الكوكب الصغير ! وذلك كما يقول بعض الفلاسفة في القديم والحديث ! أو يقولون:إنه ليس هناك من إله ولا من وحى ولا من رسل . . إنما هى أوهام الناس أو خداع بعضهم لبعض باسم الدين ! كما يقول الماديون الملحدون ! وكله جهل بقدر الله – سبحانه – فالله الكريم العظيم العادل الرحيم ، العليم الحكيم . . . لا يدع هذا الكائن الإنسانى وحده ، وهو خلقه ، وهو يعلم سره وجهره ، وطاقاته وقواه ، ونقصه وضعفه ، وحاجته إلى الموازين القسط التى يرجع إليها بتصوراته وأفكاره , وأقواله وأعماله ، وأوضاعه ونظامه ، ليرى إن كانت صوابا وصلاحا ، أو كانت خطأ وفسادا . . ويعلم – سبحانه – أن العقل الذى أعطاه له ، يتعرض لضغوط كثيرة من شهواته ونزواته ومطامعه ورغباته ، فضلا على أنه موكل بطاقات الأرض التى له عليها سلطان بسبب تسخيرها له

من الله ، وليس موكلا بتصور الوجود تصورا مطلقا , ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة . فهذا مجال العقيدة التي تأتي له من الله ; فتنشيء له تصورا سليما للوجود والحياة . . ومن ثم لا يكله الله إلى هذا العقل وحده ,ولا يكله كذلك إلى ما أودع فطرته من معرفة لدنية بربها الحق ، وشوق إليه ، ولياذ به في الشدائد . . فهذه الفطرة قد تفسد كذلك بسبب ما يقع عليها من ضغوط داخلية وخارجية ، وبسبب الإغواء والاستهواء الذي يقوم به شياطين الجن والإنس ، بكل ما يملكون من أجهزة التوجيه والتأثير . . إنما يكل الله الناس إلى وحيه ورسله وهداه وكتبه , ليرد فطرتهم إلى استقامتها وصفائها ، وليرد عقولهم إلى صحتها وسلامتها ، وليجلو عنهم غاشية التضليل من داخل أنفسهم ومن خارجها . . وهذا هو الذي يليق بكرم الله وفضله ، ورحمته وعدله ، وحكمته وعلمه . . فما كان ليخلق البشر، ثم يتركهم سدى . . ثم يحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث فيهم رسولا: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا) . . فتقدير الله حق قدره يقتضي الاعتقاد بأنه أرسل إلى عباده رسلا يستنقذون فطرتهم من الركام ، ويساعدون عقولهم على الخلاص من الضغوط ، والانطلاق للنظر الخالص والتدبر العميق . وأنه أوحى إلى هؤلاء الرسل منهج الدعوة إلى الله ، وأنزل على بعضهم كتبا تبقي بعدهم في قومهم إلى حين - ككتب موسى وداود وعيسى -أو تبقى إلى آخر الزمان كهذا القرآن . ولما كانت رسالة موسى معروفة بين العرب في الجزيرة ، وكان أهل الكتاب معروفين هناك ,فقد أمر الله رسوله أن يواجه المشركين المنكرين لأصل الرسالة والوحي ؛ بتلك الحقيقة(قل:من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس - تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا - وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) فيبدون منها للناس ما يتفق مع خطتهم في التضليل والخداع ، والتلاعب بالاحكام والفرائض ; ويخفون ما لا يتفق مع هذه الخطة من صحائف التوراة ! مما كان العرب يعلمون بعضه وما أخبرهم الله به في هذا القرآن من فعل اليهود . . فهذا خبر عن اليهود معترض في سياق الآية لا خطابا لهم . . والآية على هذا مكية لا مدنية . . ونحن نختار ما اختاره ابن جرير . فقل لهم يا محمد:من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس ، مما يجعله اليهود صحائف يخفون بعضها ويظهرون بعضها قضاء للباناتهم من وراء هذا التلاعب الكرية ! كذلك واجههم بأن الله علمهم بما يقص عليهم من الحقائق والأخبار ما لم يكونوا يعلمون ; فكان حقا عليهم أن يشكروا فضل الله ؛ ولا ينكروا أصله بإنكار أن الله نزل هذا العلم على رسوله وأوحى به إليه . ولم يترك لهم أن يجيبوا على ذلك السؤال . إنما أمر رسول الله ﷺ أن يحسم القول معهم في هذا الشأن ؛ وألا يجعله مجالا لجدل لا يثيره إلا اللجاج (قل:الله . ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) قل:الله أنزله . . ثم لا تحفل جدالهم ولجاجهم ومراءهم ، ودعهم يخوضون لاهين لاعبين . وفي هذا من التهديد ، قدر ما فيه من الاستهانة ، قدر ما فيه من الحق والجد ; فحين يبلغ العبث أن يقول الناس مثل ذلك الكلام ، يحسن احترام القول وحسم الجدل وتوفير الكلام ! ويمضي السياق يحكي شيئا عن الكتاب الجديد ، الذي ينكر الجاحدون أن يكون الله نزله . فإذا هو حلقة مسبوقة جاءت قبلها حلقات ، فليس بدعا من الكتب التي ينزلها الله على من يشاء من رسله الكرام (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها . والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون) إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل ، وأن ينزل الله عليهم الكتب . وهذا الكتاب الجديد , الذي ينكرون تنزيله ، هو كتاب مبارك . . وصدق الله . . فإنه والله لمبارك . . مبارك بكل معاني البركة . . إنه مبارك في أصله . باركه الله وهو ينزله من عنده . ومبارك في محله الذي علم الله أنه له أهل . . قلب محمد الطاهر الكريم الكبير . . ومبارك في حجمه ومحتواه . فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر ; ولكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام ، في أضعاف أضعاف حيزه وحجمه ! وإن الذي مارس فن القول عند نفسه وعند غيره من بني البشر ؛ وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات , ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فن القول ولا يعالجون قضايا التعبير , أن هذا النسق القرآني مبارك من هذه الناحية . وأن هنالك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز - ولا في أضعاف أضعافه - عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات ! وأن الآية الواحدة تؤدي من المعاني وتقرر من الحقائق ما يجعل الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئا متفردا لا نظير له في كلام البشر . . وإنه لمبارك في أثره . وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية بجملتها خطابا مباشرا عجيبا لطيف المدخل ؛ ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن ؛ فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل . ذلك أن به من الله سلطانا . وليس في قول القائلين من سلطان !(مصدق الذي بين يديه) فهو يصدق ما بين يديه من الكتب التي نزلت من عندالله - في صورتها التي لم تحرف لا فيما حرفته المجامع وقالت: إنه من عندالله - هو يصدقها لأنها جاءت بالحق الذي جاء به في أصول العقيدة . أما الشرائع فقد جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا ، في حدود العقيدة الكبرى في الله . والذين يكتبون عن الإسلام فيقولون:إنه أول دين جاء بالعقيدة الكاملة في توحيد الله ; أو جاء بالعقيدة الكاملة في حقيقة الرسالة

والرسول ؛ أو جاء بالعقيدة الكاملة في الآخرة والحساب والجزاء . . وهم يقصدون الثناء على الإسلام ! . . هؤلاء لا يقرؤون القرآن ! ولو قرأوه لسمعوا الله تعالى يقرر أن جميع رسله – صلوات الله عليهم وسلامه – جاءوا بالتوحيد المطلق الخالص الذي لا ظل فيه للشرك في صورة من صوره . . وأنهم جميعا أخبروا الناس بحقيقة الرسول ، وبشريته وأنه لا يملك لهم ولا لنفسه ضرا ولا نفعا ، ولا يعلم غيبا ،ولا يبسط أو يقبض رزقا . . وأنهم جميعا أنذروا قومهم بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء . . وأن سائر حقائق العقيدة الإسلامية الأساسية جاء بها كل رسول . . وصدق الكتاب الأخير ما جاءت به الكتب قبله . . إنما تلك الأقوال أثر من آثار الثقافة الأوربية . التي تزعم أن أصول العقيدة – بما فيها العقائد السماوية – قد تطورت وترقت ، بتطور الأقوام وترقيها ! وما يمكن أن يدافع عن الإسلام بهدم أصوله التي يقررها القرآن ! فليحذر الكتاب والقارئون هذا المزلق الخطير !!! فأما حكمة إنزال هذا الكتاب ، فلكي ينذر به الرسول ﷺ أهل مكة – أم القرى – وما حولها (ولتنذر أم القرى ومن حولها) وسميت مكة أم القرى ، لأنها تضم بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله فيه وحده بلا شريك ؛ وجعله مثابة أمن للناس وللأحياء جميعا ؛ ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض ؛ ولم تكن دعوة عامة من قبل ؛ وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة ، ليعودوا إلى البيت الذي خرجت منه الدعوة ! وليس المقصود ، كما يتصيد أعداء الإسلام من المستشرقين ، أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها . فهم يقتطعون هذه الآية من القرآن كله ، ليزعموا أن محمدا ﷺ ما كان يقصد في أول الأمر أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة وبعض المدن حولها . وأنه إنما تحول من هذا المجال الضيق الذي ما كان خياله يطمح في أول الأمر إلى أوسع منه ؛ فتوسع في الجزيرة كلها ، ثم هم أن يتخطاها . . لمصادفات لم يكن في أول الأمر على علم بها ! وذلك بعد هجرته إلى المدينة ، وقيام دولته بها ! . . وكذبوا . . ففي القرآن المكي ، وفي أوائل الدعوة ، قال الله سبحانه لرسوله ﷺ (وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين) [الأنبياء:١٠٧] . . (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا)] سبأ:٢٨] ولعل الدعوة يومذاك كانت محصورة في شعاب مكة يحيط بها الكرب والابتلاء ! (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون) فالذين يؤمنون بأن هناك آخرة وحسابا وجزاء ، يؤمنون بأن الله لا بد مرسل للناس رسولا يوحي إليه ؛ ولا يجدون في نفوسهم مشقة في التصديق به ؛ بل إنهم ليجدون داعيا يدعوهم إلى هذا التصديق . كما أنهم لإيمانهم بالآخرة وبهذا الكتاب يحافظون على صلاتهم ، ليكونوا على صلة دائمة وثيقة بالله ؛ وليقوموا بطاعته ممثلة في الصلاة . . فهي طبيعة نفس . . متى صدقت بالآخرة واستيقنتها ، صدقت بهذا الكتاب وتنزيله ، وحرصت على الصلة بالله وطاعته . . وملاحظة نماذج النفوس البشرية تصدق في الواقع هذا الكلام الصادق بذاته . ويختم هذه الجولة المتلاحقة الأشواط بمشهد حي شاخص متحرك مكروب رعيب . . مشهد الظالمين] . . رأى المشركين] الذين يفترون على الله الكذب ، أو يدعون أنهم أوحي إليهم ادعاء لا حقيقة له . أو يزعمون أنهم مستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن . . مشهد هؤلاء الظالمين – الذين لا يقاس إلى ظلمهم هذا ظلم – وهم في غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم إليهم بالعذاب ، ويطلبون أرواحهم . والتأنيب يجبه وجوههم ، وقد تركوا كل شيء وراءهم وضل عنهم شركاؤهم (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا ، أو قال:أوحى إلي ولم يوح إليه شيء ،ومن قال:سأنزل مثل ما أنزل الله ؟ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم:أخرجوا أنفسكم . اليوم تجزون عذاب الهون ، بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ! لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون) والمشهد الذي يرسمه السياق في جزاء هؤلاء الظالمين [أي المشركين] مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب . الظالمون في غمرات الموت وسكراته – ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب – والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب ، وهم يطلبون أرواحهم للخروج ! وهم يتابعونهم بالتأنيب (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم: أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون) وجزاء الاستكبار العذاب المهين ، وجزاء الكذب على الله هذا التأنيب الفاضح . . وكله مما يضفي على المشهد ظلالا مكروبة ، تأخذ بالخناق من الهول والكآبة والضيق ! ثم في النهاية ، ذلك التوبيخ والتأنيب من الله تعالى ، الذي كذبوا عليه ، وها هم أولاء بين يديه ، يواجههم في موقف الكربة والضيق (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة)! فما معكم إلا ذواتكم مجردة ؛ ومفردة كذلك . تلقون ربكم أفرادا لا جماعة . كما خلقكم أول مرة أفرادا ، ينزل أحدكم من بطن أمه فردا عريان أجرد غلبان ! ولقد ند عنكم كل شيء ، وتفرق عنكم كل أحد ؛ وما عدتم تقدرون على شيء مما ملككم الله إياه ؛ (وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم). . تركتم كل شيء من مال وزينة ، وأولاد ومتاع ، وجاه وسلطان . . كله هناك متروك وراءكم ، ليس معكم شيء منه ، ولا تقدرون منه على قليل أو كثير ! (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء). . هؤلاء الذين كنتم

تزعمون أنهم يشفعون لكم فى الشدائد ، وكنتم تشركونهم فى حياتكم وأموالكم , وتقولون:إنهم سيكونون عند الله شفعاءكم [كالذين كانوا يقولون: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى !)] سواء كانوا ناسا من البشر كهانا أو ذوى سلطان ؛ أو كانوا تماثيل من الحجر ، أو أوثانا , أو جنا أو ملائكة ، أو كواكب أو غيرها مما يرمزون به إلى الآلهة الزائفة ، ويجعلون له شركا فى حياتهم وأموالهم وأولادهم كما سيجىء فى السورة فأين ؟ أين ذهب الشركاء والشفعاء ؟ (لقد تقطع بينكم) تقطع كل شىء . كل ما كان موصولا . كل سبب وكل حبل ! (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) وغاب عنكم كل ما كنتم تدعونه من شتى الدعاوى . ومنها أولئك الشركاء ، وما لهم من شفاعة عند الله أو تأثير فى عالم الأسباب ! إنه المشهد الذى يهز القلب البشرى هزا عنيفا . وهو يشخص ويتحرك ؛ ويلقى ظلاله على النفس ، ويسكب إيحاءاته فى القلب ، ظلاله الرعيبة المكروبة ، وإيحاءاته العنيفة المرهوبة . . إنه القرآن . . إنه القرآن . .

{ إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ{٩٥} فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٩٦} وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{٩٧} وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ{٩٨} وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{٩٩} وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ{١٠٠} بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{١٠١} ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ{١٠٢} لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ{١٠٣} قَدْ جَاءكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ{١٠٤} وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{١٠٥} اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{١٠٦} وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ{١٠٧} وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{١٠٨} وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠} وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ){١١١}

وبعد فنحن – فى هذا الدرس – أمام كتاب الكون المفتوح ، الذى يمر به الغافلون فى كل لحظة . فلا يقفون أمام خوارقه وآياته ، ويمر به المطموسون فلا تتفتح عيونهم على عجائبه وبدائعه . . وها هو ذا النسق القرآنى العجيب يرتاد بنا هذا الوجود ، كأنما نهبط إليه اللحظة ، فيقفنا أمام معالمه العجيبة ، ويفتح أعيننا على مشاهده الباهرة , ويثير تطلعنا إلى بدائعه التى يمر عليها الغافلون غافلين ! والجمال هو السمة البارزة هنا . . الجمال الذى يبلغ حد الروعة الباهرة . . المشاهد منتقاة وملتقطة من الزاوية الجمالية . والعبارات كذلك فى بنائها اللفظى الإيقاعى , وفى دلالتها . والمدلولات أيضا – على كل ما تزخر به الحقيقة الأصيلة فى هذه العقيدة – تتناول هذه الحقيقة من الزاوية الجمالية . . فتبدو الحقيقة ذاتها وكأنما تتلألأ فى بهاء !

ها هو ذا يقفنا أمام الخارقة المعجزة التى تقع فى كل لحظة من الليل والنهار . . خارقة انبثاق الحياة النابضة من هذا الموات الهامد . . لا ندرى كيف انبثقت ، ولا ندرى من أين جاءت – إلا أنها جاءت من عند الله وانبثقت بقدر من الله . لا يقدر بشر على إدراك كنهها بله ابتداعها !

وها هو ذا يقف بنا أمام دورة الفلك العجيبة . . الدورة الهائلة الدائبة الدقيقة . . وهى خارقة لا يعدلها شىءمما يطلبه الناس من الخوارق . . وهى تتم فى كل يوم وليلة . بل تتم فى كل ثانية ولحظة . .

وها هو ذا يقف بنا أمام نشأة الحياة البشرية . . من نفس واحدة . . وأمام تكاثرها بتلك الطريقة .

وها هو ذا يقف بنا أمام نشأة الحياة فى النبات . . وأمام مشاهد الأمطار الهاطلة , والزروع النامية ، والثمار اليانعة . وهى حشد من الحيوات والمشاهد ، ومجال للتأمل والريادة . لو نشاهدها بالحس المتوفز والقلب المتفتح .

وها هو ذا الوجود كله ، جديدا كأنما نراه أول مرة . حيا يعاطفنا ونعاطفه ، متحركا تدب الحركة فى أوصاله ، عجيبا يشده الحواس والمشاعر . ناطقا بذاته عن خالقه . دالا بآياته على تفرده وقدرته . .

وعندئذ يبدو الشرك بالله – والسياق يواجه الشرك والمشركين بهذا الاستعراض – غريبا غريبا على فطرة هذا الوجود وطبيعته . وشائها شائها فى ضمير من يشاهد هذا الوجود الحافل بدلائل الهدى ويتأمله . وتسقط حجة الشرك والمشركين ، فى مواجهة هذا الإيمان الغامر فى مجالى الوجود العجيب . .

والمنهج القرآنى – فى خطاب الكينونة البشرية بحقيقة الألوهية ؛ وفى بيانه لموقف العبودية منها ؛ يجعل حقيقة الخلق والإنشاء للكون ، وحقيقة الخلق والإنشاء للحياة ، وحقيقة كفالة الحياة بالرزق الذى ييسره لها الله فى ملكه ، وحقيقة السلطان الذى يخلق ويرزق ويتصرف فى عالم الأسباب بلا شريك . . يجعل من هذه الحقائق مؤثرا موحيا . وبرهانا قويا على ضرورة ما يدعو إليه البشر:من العبودية لله وحده ، وإخلاص الاعتقاد والعبادة والطاعة والخضوع له وحده . . وكذلك يجىء فى السياق – بعد استعراض صفحة الوجود ;وانكشاف حقيقة الخلق والإنشاء والرزق والكفالة والسلطان – الدعوة إلى عبادة الله وحده ، أى إلى إفراده سبحانه بالألوهية وخصائصها ، فى حياة العباد كلها ; وجعل الحاكمية والتحاكم إليه وحده فى شؤون الحياة كافة ، واستنكار ادعاء الألوهية أو إحدى خصائصها .

وكذلك نجد فى هذا الدرس قوله تعالى:(ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل). نموذجا للمنهج القرآنى فى ربط العبادة الخالصة , بإفراد الألوهية لله وحده ، مع تقرير أنه – سبحانه – (خالق كل شىء) (وهو على كل شىء وكيل)

وفى نهاية الدرس – وبعد عرض هذه الآيات فى صفحة الوجود كله – يكشف عن تفاهة طلب الخوارق , كما يكشف عن طبيعة المكذبين المعاندة ، التى لا تتخلف عن الإيمان لنقص فى الآيات والدلائل ؛ ولكن لطبع فيها

(إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟) إنها المعجزة التى لا يدرى سرها أحد ؛ فضلا على أن يملك صنعها أحد ! معجزة الحياة نشأة وحركة . . وفى كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية ، وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة . والحياة الكامنة فى الحبة والنواة ، النامية فى النبتة والشجرة ، سر مكنون، لا يعلم حقيقته إلا الله ؛ ولا يعلم مصدره إلا الله . . وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها ، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها . . تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول ، تدرك الوظيفة والمظهر ، وتجهل المصدر والجوهر ، والحياة ماضية فى طريقها . والمعجزة تقع فى كل لحظة !!! ومنذ البدء أخرج الله الحى من الميت . فقد كان هذا الكون – أو على الأقل كانت هذه الأرض – ولم يكن هناك حياة . . ثم كانت الحياة . . أخرجها الله من الموات . . كيف ؟ لا ندرى ! وهى منذ ذلك الحين تخرج من الميت ؛ فتتحول الذرات الميتة فى كل لحظة - عن طريق الأحياء – إلى مواد عضوية حية تدخل فى كيان الأجسام الحية ؛ وتتحول - وأصلها ذرات ميتة – إلى خلايا حية . . والعكس كذلك . . ففى كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة ؛ إلى أن يتحول الكائن الحى كله ذات يوم إلى ذرات ميتة ! (يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى) ولا يقدر إلا الله أن يصنع ذلك . . لا يقدر إلا الله أن ينشىء الحياة منذ البدء من الموات . ولا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحى بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية . ولا يقدر إلا الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة . . فى دورة لم يعلم أحد يقينا بعد متى بدأت ، ولا كيف تتم . . وإن هى إلا فروض ونظريات واحتمالات !!! لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة ، على غير أساس أنها من خلق الله . . ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة فى أوربا . .(كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة !). وهم يحاولون تفسير نشأة الكون وتفسير نشأة الحياة ، بدون التجاء إلى الاعتراف بوجود الله . . ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعا . . ولم تبق منها فى القرن العشرين إلا مماحكات تدل على العناد ، ولا تدل على الإخلاص ! وأقوال "علمائهم" الذين عجزوا عن تفسير وجود

الحياة إلا بالاعتراف بالله ، تصور حقيقة موقف "علمهم" نفسه من هذه القضية . ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يقتاتون على فتات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من موائد الأوربيين ، عازفين عن هذا الدين ، لأنه يثبت "الغيب" وهم "علميون ! " لا "غيبيون" ! . . ونختار لهم هؤلاء العلماء من "أمريكا !!! يقول" فرانک أللن" . [ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل وأستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا] في مقال:نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد ؟ من كتاب:"الله يتجلى في عصر العلم" . . ترجمة الدكتور: الدمرداش عبد المجيد سرحان .

" . .فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق ، فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة فما هي تلك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة ؟" إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق . وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب – مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم – ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا ، حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر ، التي نقول:إنها تحدث بالمصادفة ، والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى [مثل قذف الزهر في لعبة النرد] . وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراساتقادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة , وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة ، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان . . ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة: إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية . وهي تتكون من خمسة عناصر ; هي:الكربون ، والأدروجين ، والنيتروجين ، والأكسجين ، والكبريت . . ويبلغ عدد الذرات في الجزيء الواحد ٤٠ ٠٠٠ ذرة . ولما كان عدد العناصر الكيموية في الطبيعة ٩٢ عنصرا ، موزعة كلها توزيعا عشوائيا ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة , لكي تكون جزئيا من جزيئات البروتين ، يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء ؛ ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد .

"وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعا ، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد ، إلا بنسبة ١ إلى ١٠ ١٦٠ , أي بنسبة ١ إلى رقم عشرة مضروبا في نفسه ١٦٠ مرة . وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات . . وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات . . ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها – عن طريق المصادفة – بلايين لا تحصى من السنوات ، قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين [١٠ ٢٤٣ سنة] .

"إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية . فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ? إنها إذا تآلفت بطريقة أخرى ، غير التي تتآلف بها ، تصير غير صالحة للحياة . بل تصير في بعض الأحيان سموما ، وقد حسب العالم الانجليزي:ج . ب . سيثر . . الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات ، فوجد أن عددها يبلغ الملايين [١٠ ٤٨] وعلى ذلک فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبنى جزيئا بروتينيا واحدا .

"ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلک السر العجيب ، الذي لا ندري من كنهه شيئا ، إنه العقل اللانهائي . وهو الله وحده ، الذي استطاع أن يدرک ببالغ حكمته ، أن مثل هذا الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقرا للحياة ، فبناه وصوره ، وأغدق عليه سر الحياة " . .

مبدع هذه المعجزة المتكررة المغيبة السر . . هو الله . . وهو ربكم الذي يستحق أن تدينوا له وحده . . بالعبودية والخضوع والاتباع (فأنى تؤفكون ؟) فكيف تصرفون عن هذا الحق الواضح للعقول والقلوب والعيون ! إن معجزة انبثاق الحياة من الموات يجيء ذكرها كثيرا في القرآن الكريم – كما يجيء ذكر خلق الكون ابتداء – في معرض التوجيه إلى حقيقة الألوهية ، وآثارها الدالة على وحدة الخالق ، لينتهي منها إلى ضرورة وحدة المعبود ، الذي يدين له العباد ؛ بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، والطاعة لربوبيته وحده ، والتقدم إليه وحده بالشعائر التعبدية , والتلقي منه وحده في منهج الحياة كله ، والدينونة لشريعته كذلک

وحدها . . وهذه الدلائل لا تذكر في القرآن الكريم في صورة قضايا لاهوتية أو نظريات فلسفية ! إن هذا الدين أكثر جدية من أن ينفق طاقة البشر فى قضايا لاهوتية ونظريات فلسفية . إنما يهدف إلى تقويم تصور البشر – بإعطائهم العقيدة الصحيحة – لينتهى إلى تقويم حياة البشر الباطنة والظاهرة . ومن هنا نرى التعقيب على معجزة الحياة (ذلكم الله فأنى تؤفكون) ذلكم الله الذى يستحق الربوبية فيكم . . والرب هو المربى والموجه والسيد والحاكم ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا الله (فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا . ذلك تقدير العزيز العليم) إن فالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضا ، وهو الذى جعل الليل للسكون ، وجعل الشمس والقمر محسوبة حركاتهما مقدرة دوراتهما . . مقدرا ذلك كله بقدرته التى تهيمن على كل شيء ، وبعلمه الذى يحيط بكل شيء . وانفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه فى شكلها انفلاق الحبة والنواة . وانبثاق النور فى تلك الحركة ، كانبثاق البرعم فى هذه الحركة . . وبينهما من مشابه الحركة والحيوية والبهاء والجمال سمات مشتركة ، ملحوظة فى التعبير عن الحقائق المشتركة فى طبيعتهما وحقيقتهما كذلك . . وبين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى . . إن الإصباح والإمساء , والحركة والسكون ، فى هذا الكون – أو فى هذه الأرض – ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة . إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس ؛ وكون القمر بهذا الحجم وبهذا البعد من الأرض ؛ وكون الشمس كذلك بهذا الحجم وهذا البعد وهذه الدرجة من الحرارة . . هى تقديرات من(العزيز) ذى السلطان القادر(العليم)ذى العلم الشامل . . ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة فى الأرض على هذا النحو ، ولما انبثق النبت والشجر , من الحب والنوى . . إنه كون مقدر بحساب دقيق . ومقدر فيه حساب الحياة ، ودرجة هذه الحياة ، ونوع هذه الحياة . . كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه – وحتى ما يسمونه المصادفة خاضع لقانون ومقدر بحساب . . والذين يقولون:إن هذه الحياة فلتة عابرة فى الكون . وأن الكون لا يحفلها . بل يبدو أنه يعاديها . وأن ضآلة الكوكب الذى قام عليه هذا النوع من الحياة توحى بهذا كله . بل يقول بعضهم:إن هذه الضآلة توحى بأنه لو كان للكون إله ما عنى نفسه بهذه الحياة ! . . إلى آخر ذلك اللغو , الذى يسمونه أحيانا "علمًا ! " ويسمونه أحيانا "فلسفة " ! وهو لا يستأهل حتى مناقشته ! إن هؤلاء إنما يحكمون أهواء مستقرة فى نفوسهم ؛ ولا يحكمون حتى نتائج علمهم التى تفرض نفسها عليهم ! ويقرأ لهم الإنسان فيجد كأنما هم هاربون من مواجهة حقيقة قرروا سلفا ألا يواجهوها ! . . إنهم هاربون من الله الذى تواجههم دلائل وجوده ووحدانيته وقدرته المطلقة فى كل اتجاه ! وكلما سلكوا طريقا يهربون بها من مواجهة هذه الحقيقة وجدوا الله فى نهايتها ، فعادوا فى ذعر إلى سكة أخرى . ليواجهوا الله – سبحانه – فى نهايتها كذلك ! إنهم مساكين ! بائسون إنهم مساكين بائسون لأن نتائج علومهم ذاتها تواجههم اليوم أيضا . . فإلى أين الفرار ؟ . .

يقول" فرانک ألين" العالم الطبيعى الذى اقتطفنا فقرات من مقاله فى الفقرة السابقة عن نشأة الحياة: (إن الأدلة "العلمية " تتكاثر فى وجوههم وتتجمع لتعلن عجز المصادفة عجزا كاملا عن تعليل نشأة الحياة ، بما يلزم لهذه النشأة – وللنمو والبقاء والتنوع بعدها – من موافقات لا تحصى فى تصميم الكون . . منها هذه الموافقات التى ذكرها العالم الطبيعى السابق , ووراءها من نوعها كثير . فلا يبقى إلا تقدير العزيز العليم . الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . والذى خلق كل شيء فقدره تقديرا) (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون). . تتمة لمشهد الفلك الدائر بشمسه وقمره ونجومه . تتمة لعرض المشهد الكونى الهائل الرائع مرتبطا بحياة البشر ومصالحهم واهتماماتهم: (لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) متاهات البر والبحر ظلمات يهتدى فيها البشر بالنجوم . . كانوا كذلك وما يزالون . . تختلف وسائل الاهتداء بالنجوم ويتسع مداها بالكشوف العلمية والتجارب المنوعة . . وتبقى القاعدة ثابتة: قاعدة الاهتداء بهذه الأجرام فى ظلمات البر والبحر . . سواء فى ذلك الظلمات الحسية أو ظلمات التصور والفكر . ويبقى النص القرآنى الجامع يخاطب البشرية فى مدارجها الأولى بهذه الحقيقة ، فتجد مصداقها فى واقع حياتها الذى تزاوله . ويخاطبها بها وقد فتح عليها ما أراد أن يفتح من الأسرار فى الأنفس والآفاق . فتجدها كذلك مصداق قوله فى واقع حياتها الذى تزاوله ، لذلك يعقب على آية النجوم التى جعلها الله للناس ليهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر هذا التعقيب الموحى (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) فالاهتداء بالنجوم فى ظلمات البر والبحر يحتاج إلى علم بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها . . كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم (وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) إنها اللمسة المباشرة فى هذه المرة . . اللمسة فى ذات النفس البشرية . النفس البشرية الواحدة الموحدة الكنة والحقيقة فى الذكر والأنثى . تبدأ الحياة فيها خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة . فنفس هى مستودع لهذه الخلية فى صلب الرجل ,ونفس هى مستقر لها فى رحم الأنثى . . ثم تأخذ الحياة فى النمو والانتشار . فإذا أجناس وألوان ؛ وإذا

شيات ولغات ؛ وإذا شعوب وقبائل ؛ وإذا النماذج التى لا تحصى ، والأنماط التى ما تزال تتنوع ما دامت الحياة (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) فالفقة هنا ضرورى لإدراك صنع الله فى هذه النفس الواحدة ، التى تنبثق منها النماذج والأنماط . ولإدراك الموافقات العجيبة الكامنة وراء اتخاذ التلاقح وسيلة للإكثار وتوفير الأعداد المناسبة دائما من الذكور والإناث – فى عالم الإنسان – لتتم عملية التزاوج التى قدر الله أن تكون هى وسيلة الإخصاب والإكثار . ووسيلة تنشئة الأطفال فى ظروف تحفظ "إنسانيتهم" وتجعلهم أكفاء للحياة "الإنسانية" ! وهذه الموازنة الدائمة تكفى وحدها لتكون آية على تدبير الخالق وحكمته وتقديره . . ولكن لقوم يفقهون: (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) أما المطموسون المحجوبون . . وفى أولهم أصحاب "العلمية" الذين يسخرون من "الغيبية" . فإنهم يمرون على هذه الآيات كلها مطموسين محجوبين: "وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها" . ثم يمضى السياق إلى مشاهد الحياة المتفتحة فى جنيات الأرض . تراها الأعين ، وتستجليها الحواس ، وتتدبرها القلوب . وترى فيها بدائع صنع الله . . والسياق يعرضها - كما هى فى صفحة الكون – ويلفت إليها النظر فى شتى أطوارها ، وشتى أشكالها ، وشتى أنواعها ; ويلمس الوجدان بما فيها من حياة نامية ، ودلالة على القدرة التى تبدع الحياة ; كما يوجه القلب إلى استجلاء جمالها والاستمتاع بهذا الجمال (وهو الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شىء . فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية . وجنات من أعناب والزيتون والرمان , مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) والماء كثيرا ما يذكر فى القرآن فى صدد ذكر الحياة والإنبات (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء) ودور الماء الظاهر فى إنبات كل شىء دور واضح يعلمه البدائى والمتحضر ، ويعرفه الجاهل والعالم . . ولكن دور الماء فى الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذى يخاطب به القرآن الناس عامة . فقد شارك الماء ابتداء – بتقدير الله – فى جعل تربة الأرض السطحية صالحة للإنبات [إذا صحت النظريات التى تفترض أن سطح الأرض كان فى فترة ملتهبا ، ثم صلبا لا توجد فيه التربة التى تنبت الزرع ، ثم تم ذلك بتعاون الماء والعوامل الجوية على تحويلها إلى تربة لينة] ثم ظل الماء يشارك فى إخصاب هذه التربة , وذلك بإسقاط [النتروجين – الأزوت] من الجو كلما أبرق فاستخلصت الشرارة الكهربائية , التى تقع فى الجو ، النتروجين الصالح للذوبان فى الماء ويسقط مع المطر , ليعيد الخصوبة إلى الأرض . . وهو السماد الذى قلد الإنسان القوانين الكونية فى صنعه , فأصبح يصنعه الآن بنفس الطريقة ! وهو المادة التى يخلو وجه الأرض من النبات لو نفدت من التربة ! (فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية . وجنات من أعناب . والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه)

وكل نبت يبدأ أخضر . واللفظ(خضر) أرق ضلا ، وأعمق ألفة من لفظ "أخضر" . . هذا النبت الخضر (يخرج منه حبا متراكبًا). . كالسنابل وأمثالها . (ومن النخل من طلعها قنوان دانية). . وقنوان جمع قنو وهو الفرع الصغير . وفى النخلة هو العذق الذى يحمل الثمر . ولفظة(قنوان)ووصفها(دانية)يشتركان فى إلقاء ظل لطيف أليف . وظل المشهد كله ظل وديع حبيب . . (وجنات من أعناب). . (والزيتون والرمان). هذا النبات كله بفصائله وسلالاته (مشتبها وغير متشابه)– (انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه). . انظروا بالحس البصير ، والقلب اليقظ . . انظروا إليه فى ازدهاره ، وازدهائه ، عند كمال نضجه . انظروا إليه واستمتعوا بجماله . . لا يقول هنا ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، ولكن يقول: (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) لأن المجال هنا مجال جمال ومتاع ، كما أنه مجال تدبر فى آيات الله ، وبدائع صنعته فى مجالى الحياة (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون). . فالإيمان هو الذى يفتح القلب ، وينير البصيرة ، وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة فى الفطرة ، ويصل الكائن الإنسانى بالوجود ، ويدعو الوجدان إلى الإيمان بالله خالق الجميع . . وإلا فإن هناك قلوبا مغلقة ، وبصائر مطموسة ، وفطرا منتكسة ، تمر بهذا الإبداع كله ، وبهذه الآيات كلها ، فلا تحس بها ولا تستجيب . . (إنما يستجيب الذين يسمعون)، وإنما يدرك هذه الآيات الذين يؤمنون ! وعندما يبلغ السياق إلى هذا المقطع ؛ وقد عرض على القلب البشرى صفحة الوجود الحافلة بدلائل وجود الله ، ووحدانيته ، وقدرته ، وقد غمر الوجدان بتلك الظلال الكونية الموحية ، وقد وصل الضمير بقلب الوجود النابض فى كل حى ، الناطق ببديع صنع الخلاق . . عندما يبلغ إلى هذا المقطع يعرض شرك المشركين ، فإذا هو غريب غريب فى هذا الجو المؤمن الموصول بمبدع الوجود . ويعرض أوهام المشركين فإذا هى سخف تشمئز منه القلوب والعقول . وسرعات ما يعقب عليها بالاستنكار . والجو كله مهيأ للاستنكار (وجعلوا لله شركاء الجن – وخلقهم – وخرقوا له بنين وبنات بغير علم . سبحانه وتعالى عما يصفون ! بديع السماوات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم) وقد كان بعض مشركى العرب يعبدون الجن . . وهم لا يعرفون من هم الجن ! ولكنها أوهام الوثنية ! والنفس متى انحرفت عن التوحيد المطلق قيد شبر انساقت فى انحرافها إلى أى مدى ؛ وانفرجت

المسافة بينها وبين نقطة الانحراف التى بدأت صغيرة لا تكاد تلحظ ! وهؤلاء المشركون كانوا على دين إسماعيل . . دين التوحيد الذى جاء به إبراهيم عليه السلام فى هذه المنطقة . . ولكنهم انحرفوا عن هذا التوحيد . . ولا بد أن يكون الانحراف قد بدأ يسيرا . . ثم انتهى إلى مثل هذا الانحراف الشنيع . . الذى يبلغ أن يجعل الجن شركاء لله . . وهم من خلقه سبحانه (وجعلوا لله شركاء الجن – وخلقهم) ولقد عرفت الوثنيات المتعددة فى الجاهليات المتنوعة أن هناك كائنات شريرة – تشبه فكرة الشياطين – وخافوا هذه الكائنات – سواء كانت أرواحا شريرة أو ذوات شريرة – وقدموا لها القرابين اتقاء لشرها ؛ ثم عبدوها ! والوثنية العربية واحدة من هذه الوثنيات التى وجدت فيها هذه التصورات الفاسدة ، فى صورة عبادة للجن ، واتخاذهم شركاء لله . . سبحانه . . والسياق القرآنى يواجههم بسخف هذا الاعتقاد . . يواجههم بكلمة واحدة (وخلقهم) وهى لفظة واحدة ، ولكنها تكفى للسخرية من هذا التصور ! فإذا كان الله سبحانه هو الذى(خلقهم) فكيف يكونون شركاء له فى الألوهية والربوبية ؟! ولم تكن تلك وحدها دعواهم . فأوهام الوثنية متى انطلقت لا تقف عند حد من الانحراف . بل كانوا يزعمون له سبحانه بنين وبنات (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) و"خرقوا" أى:اختلقوا . . وفى لفظها جرس خاص وظل خاص ؛ يرسم مشهد الطلوع بالفرية التى تخرق وتشق ! خرقوا له بنين: عند اليهود: عزير . وعند النصارى:المسيح:وخرقوا له بنات . عند المشركين: الملائكة . وقد زعموا أنهم إناث . . ولا يدرى أحد طبعا لماذا هم إناث ! فالادعاءات كلها لا تقوم على أساس من علم . . فكلها (بغير علم) (سبحانه وتعالى عما يصفون) ثم يواجه فريتهم هذه وتصوراتهم بالحقيقة الإلهية ، ويناقشهم فى هذه التصورات بما يكشف عما فيها من هلهلة (بديع السماوات والأرض . أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة . وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم) إن الذى يبدع هذا الوجود إبداعا من العدم ما تكون حاجته إلى الخلف ! ؟ والخلف إنما هو امتداد الفانين ، وعون الضعفاء ، ولذة من لا يبدعون ! ثم هم يعرفون قاعدة التكاثر . . أن يكون للكائن صاحبة أنثى من جنسه . . فكيف يكون لله ولد – وليست له صاحبة – وهو – سبحانه – مفرد أحد ، ليس كمثله شيء . فأنى يكون النسل بلا تزاوج ؟! وهى حقيقة ، ولكنها تواجه مستواهم التصورى ؛ وتخاطبهم بالأمثلة القريبة من حياتهم ومشاهداتهم ! ويتكىء السياق – فى مواجهتهم – على حقيقة "الخلق" لنفى كل ظل للشرك . فالمخلوق لا يكون أبدا شريكا للخالق . وحقيقة الخالق غير حقيقة المخلوق: كما يواجههم بعلم الله المطلق الذى لا تقابله منهم إلا أوهام وظنون (وخلق كل شيء) (وهو بكل شيء عليم) وكما واجههم السياق القرآنى بحقيقة أن الله (خلق كل شيء)، ليرتب عليها تهافت تصوراتهم بأن لله – سبحانه – بنين وبنات ، أو أن له شركاء الجن – وهو خلقهم – فإنه يتكىء على هذه الحقيقة مرة أخرى . لتقرير أن الذى يعبد ويخضع له ويطاع ، ويعترف له بالدينونة وحده هو خالق كل شيء ، فلا إله إذن غيره ، ولا رب إذن سواه (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ، خالق كل شيء ؛ فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل) إن تفرد الله سبحانه بالخلق ، يفرده سبحانه بالملك . والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق . فهو خالق خلقه ومالكهم ، فهو كذلك يرزقهم من ملكه الذى ليس لأحد شرك فيه . فكل ما يقتاته الخلق وكل ما يستمتعون به فإنما هو من هذا الملك الخالص لله . . فإذا تقررت هذه الحقائق . . الخلق والملك والرزق . . تقرر معها – ضرورة وحتما – أن تكون الربوبية له سبحانه . فتكون له وحده خصائص الربوبية – وهى القوامة والتوجيه والسلطان الذى يخضع له ويطاع ، والنظام الذى يتجمع عليه العباد – وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها . ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام . ولم يكن العرب – فى جاهليتهم – ينكرون أن الله هو خالق هذا الكون ، وخالق الناس ، ورازقهم كذلك من ملكه ، الذى ليس وراءه ملك تقتات منه العباد ! . . وكذلك لم تكن الجاهليات الأخرى تنكر هذه الحقائق – على قلة من الفلاسفة الماديين من الإغريق ! – ولم تكن هنالك هذه المذاهب المادية التى تنتشر اليوم بشكل أوسع مما عرف أيام الإغريق . لذلك لم يكن الإسلام يواجه فى الجاهلية العربية إلا الانحراف فى التوجه بالشعائر التعبدية لآلهة – مع الله – على سبيل الزلفى والقربى من الله ! – وإلا الانحراف فى تلقى الشرائع والتقاليد التى تحكم حياة الناس . . أى أنه لم يكن يواجه الإلحاد فى وجود الله – سبحانه – كما يقول اليوم "ناس" ! أو كما يتبجحون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ! والحق أن هؤلاء الذين يجادلون فى وجود الله اليوم قلة . وسيظلون قلة . إنما الانحراف الأساسى هو ذاته الذى كان فى الجاهلية . وهو تلقى الشرائع فى شؤون الحياة من غير الله . . وهذا هو الشرك التقليدى الأساسى الذى قامت عليه الجاهلية العربية ، وكل الجاهليات أيضا ! والقلة الشاذة التى تجادل فى وجود الله اليوم لا تعتمد على "العلم" وإن كانت هذه دعواها . فالعلم البشرى ذاته لا يملك أن يقرر هذا الإلحاد ولا يجد عليه دليلا لا من هذا العلم ولا من طبيعة الكون . . إنما هى لوثة سببها الأول الشرود من الكنيسة وإلهها الذى كانت تستذل به الرقاب من غير أصل من الدين . . ثم نقص فى التكوين الفطرى لهؤلاء المجادلين ، ينشأ عنه تعطل فى الوظائف الأساسية للكينونة البشرية . . كما يقع للأمساخ من المخلوقات . . ! ومع أن حقيقة الخلق والتقدير فيه –

كحقيقة انبثاق الحياة أيضا – لم تكن تساق فى القرآن لإثبات وجود الله – إذ كان الجدال فى وجوده تعالى سخفا لا يستحق من جدية القرآن العناية به – إنما كانت تساق لرد الناس إلى الرشاد ، كى ينفذوا فى حياتهم ما تقتضيه تلك الحقيقة من ضرورة إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والحاكمية فى حياتهم كلها ؛ وعبادته وحده بلا شريك . . مع هذا فإن حقيقة الخلق والتقدير فيه – كحقيقة انبثاق الحياة أيضا – تقذف فى وجوه الذين يجادلون فى الله – سبحانه – بالحجة الدامغة التى لا يملكون بإزائها إلا المراء . وإلا التبجح الذى يصل إلى حد الاستهتار فى كثير من الأحيان !

"جوليان هاكسلى" مؤلف كتاب:"الإنسان يقوم وحده" وكتاب "الإنسان فى العالم الحديث "من هؤلاء المتبجحين المستهترين ؛ وهو يقذف بالمقررات التى لا سند لها إلا هواه وهو يقول فى كتاب "الإنسان فى العالم الحديث" ؛ فى فصل:"الدين كمسألة موضوعية " ذلك الكلام !

"ولقد أوصلنا تقدم العلوم والمنطق وعلم النفس إلى طور أصبح فيه الإله فرضا عديم الفائدة , وطردته العلوم الطبيعية من عقولنا ، حتى اختفى كحاكم مدبر للكون ، وأصبح مجرد" أول سبب" أو أساسا عاما غامضا .

و"ول ديورانت" مؤلف كتاب "مباهج الفلسفة " يقول: إن الفلسفة تبحث عن الله ، ولكنه ليس" إله اللاهوتيين الذين يتصورونه خارج عالم الطبيعة . بل إله الفلاسفة ؛ وهو قانون العالم وهيكله ، وحياته ومشيئته" . . وهو كلام لا تستطيع إمساكه ! ولكنه كلام يقال !

ونحن لا نحاكم هؤلاء الخابطين فى الظلام إلى قرآننا ، ولا نحاكمهم كذلك إلى عقولنا المنضبطة بهدى هذا القرآن . إنما نكلهم إلى أندادهم من "العلماء" وإلى العلم البشرى الذى يواجه هذه القضية بشىء من الجد والتعقل . .

يقول جون كليفلاند كوتران: [من علماء الكيمياء والرياضة . دكتوراه من جامعة كورنيل . رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث] . من مقال:"النتيجة الحتمية " من كتاب":الله يتجلى فى عصر العلم":

"فهل يتصور عاقل ، أو يفكر ، أو يعتقد ، أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ؟ أو أنها هى التى أوجدت هذا النظام وتلك القوانين , ثم فرضته على نفسها ؟ لا شك أن الجواب سوف يكون سلبيا . بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة ، فإن كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة . والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التى تخضع لها المادة التى وجدت قبلها . وتدلنا الكيميا على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ؛ ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة . وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضا أنها ليست أزلية . إذ أن لها بداية . وتدل الشواهد من الكيميا وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ,بل وجدت بصورة فجائية . وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد . وعلى ذلك فإن هذا العالم المادى لا بد أن يكون مخلوقا . وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان . فإذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن أن يخلق نفسه ، أو يحدد القوانين التى يخضع لها ، فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدره كائن غير مادى . وتدل الشواهد جميعا على أن هذا الخالق لا بد أن يكون متصفا بالعقل والحكمة . إلا أن العقل لا يستطيع أن يعمل فى العالم المادى – كما فى ممارسة الطب والعلاج السيكلوجى – دون أن يكون هنالك إرادة . ولا بد لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجودا وجودا ذاتيا . . وعلى ذلك فإن النتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيما عليما قادرا على كل شىء ، حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ؛ ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود ، تتجلى آياته فى كل مكان . وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود الله ، خالق هذا الكون وموجهه –

"أما الرأى الثانى القائل بأن هذا العالم ، بما فيه من مادة وطاقة ، قد نشأ هكذا وحده من العدم ، فهو لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة ؛ ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضعا للنظر أو المناقشة .

والرأى الثالث الذى يذهب إلى أن هذا الكون أزلى ليس لنشأته بداية ، إنما يشترك مع الرأى الذى ينادى بوجود خالق لهذا الكون – وذلك فى عنصر واحد هو الأزلية – وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت ، وإما أن ننسبها إلى إله حى يخلق ، وليس هنالك صعوبة فكرية فى الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما فى الآخر . ولكن قوانين" الديناميكا الحرارية " تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا ، وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض , هى الصفر المطلق ؛ ويومئذ تنعدم الطاقة ، وتستحيل الحياة . ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق , بمضى الوقت . أما الشمس المستعرة ، والنجوم المتوهجة ، والأرض الغنية بأنواع الحياة , فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسة يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة , فهو إذن حدث من الأحداث . . ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلى ، ليس له بداية ، عليم محيط بكل شىء ، قوى ليس لقدرته حدود ، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه" .

الله - سبحانه – خالق كل شىء . لا إله إلا هو . . هذه هى القاعدة التى يقيم عليها السياق القرآنى هنا وجوب عبادة الله وحده . ووجوب ربوبيته وحده – بكل مدلولات الربوبية من الحكم والتربية والتوجيه والقوامة (ذلكم الله ربكم . لا إله إلا هو:خالق كل شىء . فاعبدوه . وهو على كل شىء وكيل) فهى القوامة لا على البشر وحدهم ، ولكن على كل شىء كذلك . بما أنه هو خالق كل شىء . . . وهذا هو المقصود من تقرير تلك القاعدة ، التى لم يكن المشركون – فى جاهليتهم - يجحدونها . ولكنهم ما كانوا يسلمون بمقتضاها . وهو:الخضوع والطاعة لحاكمية الله وحده والدينونة لسلطانه بلا شريك . .

ثم تعبير عن صفة الله سبحانه ، يغشى الجوانح والحنايا بظلال ما أحسب أن لغة البشر تملك لها وصفا ، فلندعها تلقى ظلالها فى شفافية ولين ؛ وترسم المشهد الذى يغلف فيه ما يهول ويروع من صفة الله ، بما يطمئن ويروح ، ويشف شفافية النور (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير) إن الذين كانوا يطلبون فى سذاجة أن يروا الله ، كالذين يطلبون فى سماجة دليلا ماديا على الله ! هؤلاء وهؤلاء لا يدركون ماذا يقولون ! إن أبصار البشر وحواسهم وإدراكهم الذهنى كذلك . . كلها إنما خلقت لهم ليزاولوا بها التعامل مع هذا الكون ، والقيام بالخلافة فى الأرض . . وإدراك آثار الوجود الإلهى فى صفحات هذا الوجود المخلوق . . فأما ذات الله – سبحانه – فهم لم يوهبوا القدرة على إدراكها . لأنه لا طاقة للحادث الفانى أن يرى الأزلى الأبدى . فضلا على أن هذه الرؤية لا تلزم لهم فى خلافة الأرض . وهى الوظيفة التى هم معانون عليها وموهوبون ما يلزم لها . . وقد يفهم الإنسان سذاجة الأولين . ولكنه لا يملك أن يفهم سماجة الآخرين ! إن هؤلاء يتحدثون عن "الذرة " وعن "الكهرب" وعن "البروتون" وعن "النيوترون" . . وواحد منهم لم ير ذرة ولا كهربا ولا بروتونا ولا نيوترونا فى حياته قط . فلم يوجد بعد الجهاز المكبر الذى يضبط هذه الكائنات . . ولكنها مسلمة من هؤلاء كفرض ، ومصداق هذا الفرض أن يقدروا آثارا معينة تقع لوجود هذه الكائنات . فإذا وقعت هذه الآثار [جزموا [بوجود الكائنات التى أحدثتها ! بينما قصارى ما تصل إليه هذه التجربة هو" احتمال" وجود هذه الكائنات على الصفة التى افترضوها ! . . ولكنهم حين يقال لهم عن وجود الله – سبحانه – عن طريق آثار هذا الوجود التى تفرض نفسها فرضا على العقول ! يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ويطلبون دليلا ماديا تراه الأعين . . كأن هذا الوجود بجملته ، وكأن هذه الحياة بأعاجيبها لا تكفى لتكون هذا الدليل ! وكذلك يعقب السياق القرآنى على ما عرضه من آيات فى صفحة الوجود وفى مكنونات النفوس . وعلى تقريره عن ذات الله سبحانه بأنه (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار , وهو اللطيف الخبير) ثم يعقب السياق على هذا الوصف الذى لا تملك لغة البشر أن تشرحه أو تصفه . . بقوله (قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ) فهذا الذى جاء من عند الله . . بصائر . . والبصائر تهتدى وتهدى . . وهذا بذاته . . بصائر . . تهدى فمن أبصر فلنفسه فإنما يجد الهدى والنور . وليس وراء ذلك إلا العمى . فما يبقى على الضلال بعد هذه الآيات والبصائر إلا أعمى . . معطل الحواس . مغلق المشاعر . مطموس الضمير ، ويوجه النبى ﷺ أن يعلن براءته من أمرهم ومغبته (وما أنا عليكم بحفيظ) بعد ذلك يلتفت السياق إلى الرسول ﷺ فيتحدث عن تصريف الآيات على هذا المستوى , الذى لا يتناسب مع أمية النبى ﷺ وبيئته ؛ والذى يدل بذاته على مصدره الربانى - لمن تتفتح بصيرته – ولكن المشركين ما كانوا يريدون الاقتناع بالآيات . ومن ثم كانوا يقولون:إن محمدا درس هذه القضايا العقيدية والكونية مع أحد أهل الكتاب ! وما دروا أن أهل الكتاب ما كانوا يعلمون شيئا على هذا المستوى الذى يحدثهم محمد فيه ؛ وما كان أهل الأرض جميعا – وما يزالون – يبلغون شيئا من هذا المستوى السامق

على كل ما عرف البشر وما يعرفون . ومن ثم يوجه الرسول ﷺ إلى اتباع ما أوحى إليه والإعراض عن المشركين (وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا:درست ، ولنبينه لقوم يعلمون . اتبع ما أوحى إليك من ربك ، لاإله إلا هو ، وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما أشركوا . وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل) إن الله يصرف آياته على هذا المستوى الذى لا عهد للعرب به ؛ لأنه ليس نابعا من بيئتهم - كما أنه ليس نابعا من البيئة البشرية على العموم - فينتهى هذا التصريف إلى نتيجتين متقابلتين فى البيئة ، فأما الذين لا يريدون الهدى ، ولا يرغبون فى العلم ، ولا يجاهدون ليبلغوا الحقيقة . فهؤلاء سيحاولون أن يجدوا تعليلا لهذا المستوى الذى يخاطبهم به محمد - وهو منهم - وسيختلقون ما يعلمون أنه لم يقع . فما كان شىء من حياة محمد خافيا عليهم قبل الرسالة ولا بعدها . . ولكنهم يقولون: درست هذا يا محمد مع أهل الكتاب وتعلمته منهم ! وما كان أحد من أهل الكتاب يعلم شيئا على هذا المستوى . . وهذه كتب أهل الكتاب التى كانت بين أيديهم يومذاك ما تزال بين أيدينا . والمسافة شاسعة شاسعة بين هذا الذى فى أيديهم وهذا القرآن الكريم . . إن ما بين أيديهم إن هو إلا روايات لا ضابط لها عن تاريخ الأنبياء والملوك مشوبة بأساطير وخرافات من صنع أشخاص مجهولين - هذا فيما يختص بالعهد القديم - فأما العهد الجديد - وهو الأناجيل - فما يزيد كذلك على أن يكون روايات رواها تلاميذ المسيح - عليه السلام - بعد عشرات السنين ؛ وتداولتها المجامع بالتحريف والتبديل والتعديل على ممر السنين . وحتى المواعظ الخلقية والتوجيهات الروحية لم تسلم من التحريف والإضافة والنسيان . . وهذا هو الذى كان بين أيدى أهل الكتاب حينذاك ، وما يزال . . فأين هذا كله من القرآن الكريم ؟! ولكن المشركين - فى جاهليتهم - كانوا يقولون هذا ؛ وأعجب العجب أن جاهليين فى هذا العصر من "المستشرقين" و"المتمسلمين" ! يقولون هذا القول فيسمى الآن "علمًا" و"بحثا" و"تحقيقًا" لا يبلغة إلا المستشرقون ! فأما الذين(يعلمون)حقا ، فإن تصريف الآيات على هذا النحو يؤدى إلى بيان الحق لهم فيعرفونه (ولنبينه لقوم يعلمون) ثم تقع المفاصلة بين قوم مبصرين يعلمون ، وقوم عمى لا يعلمون ! ويصدر الأمر العلوى للنبى الكريم ، وقد صرف الله الآيات ، فافترق الناس فى مواجهتها فريقين . . يصدر الأمر العلوى للنبى ﷺ أن يتبع ما أوحى إليه ، وأن يعرض عن المشركين ، فلا يحفلهم ولا يحفل ما يقولون من قول متهافت ، ولا يشغل باله بتكذيبهم وعنادهم ولجاجهم . فإنما سبيله أن يتبع ما أوحى إليه من ربه ؛ فيصوغ حياته كلها على أساسه ؛ ويصوغ نفوس أتباعه كذلك . ولا عليه من المشركين ؛ فإنما هو يتبع وحى الله ، الذى لا إله إلا هو ، فماذا عليه من العبيد ؟! (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو ، وأعرض عن المشركين)

ولو شاء الله أن يلزمهم الهدى لألزمهم ، ولو شاء أن يخلقهم ابتداء لا يعرفون إلا الهدى كالملائكة لخلقهم . ولكنه سبحانه خلق الإنسان بهذا الاستعداد للهدى وللضلال ، وتركه يختار طريقه ويلقى جزاء الاختيار - فى حدود المشيئة المطلقة التى لا يقع فى الكون إلا ما تجرى به ، ولكنها لا ترغم إنسانا على الهدى أو الضلال - وخلقه على هذا النحو لحكمة يعلمها ؛ وليؤدى دوره فى هذا الوجود كما قدره الله له . باستعداداته هذه وتصرفاته (ولو شاء الله ما أشركوا) وليس الرسول ﷺ مسؤولا عن عملهم ، وهو لم يوكل بقلوبهم فالوكيل عليها هو الله (وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل) وهذا التوجيه لرسول الله ﷺ يحدد المجال الذى يتناوله اهتمام الرسول ﷺ وعمله ، كما يحدد هذا المجال لخلفائه وأصحاب الدعوة إلى دينه فى كل أرض وفى كل جيل . .

ومع أمر الرسول ﷺ بالإعراض عن المشركين ، فقد وجه المؤمنين إلى أن يكون هذا الإعراض فى أدب ، وفى وقار ، وفى ترفع ، يليق بالمؤمنين . . لقد أمروا ألا يسبوا آلهة المشركين مخافة أن يحمل هذا أولئك المشركين على سب الله سبحانه - وهم لا يعلمون جلال قدره وعظيم مقامه - فيكون سب المؤمنين لآلهتهم المهينة الحقيرة ذريعة لسب الله الجليل العظيم (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم . كذلك زينا لكل أمة عملهم) من يعمل الصالحات استحسنها ودافع عنها . وإن كان يعمل السيئات استحسنها ودافع عنها . وإن كان على الهدى رآه حسنا ، وإن كان على الضلال رآه حسنا كذلك ! فهذه طبيعة فى الإنسان . . وهؤلاء يدعون من دون الله شركاء . . مع علمهم وتسليمهم بأن الله هو الخالق الرازق . . ولكن إذا سب المسلمون آلهتهم هؤلاء اندفعوا وعدوا عما يعتقدونه من ألوهية الله ، دفاعا عما زين لهم من عبادتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ! فليدعهم المؤمنون لما هم فيه (ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) وهو أدب يليق بالمؤمن ، المطمئن لدينه ، الواثق من الحق الذى هو عليه . الهادىء القلب , الذى لا يدخل فيما لا طائل وراءه من الأمور . فإن سب آلهتهم لا يؤدى بهم إلى الهدى ولا يزيدهم إلا عنادا . فما للمؤمنين وهذا الذى لا جدوى وراءه . وإنما قد يجرهم إلى سماع ما يكرهون .

من سب المشركين لربهم الجليل العظيم ؟! وأخيرا يختم هذه الموجة التى استعرض فيه صفحة الوجود الحافلة بالآيات والخوارق , فى كل لحظة من ليل أو نهار . . يختمه بأن هؤلاء المشركين يقسمون بالله جهد أيمانهم أن لو جاءتهم آية – أى خارقة مادية كخوارق الرسل السابقة – ليؤمنن بها ! (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل:إنما الآيات عند الله . وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ؟ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ، كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا – إلا أن يشاء الله – ولكن أكثرهم يجهلون) إن القلب الذى لا يؤمن بآيات الله المبثوثة فى هذا الوجود – بعد توجيهه إليها على هذا النحو العجيب الذى تكفل به هذا الكتاب العجيب – ولا توحى آيات الله المبثوثة فى الأنفس والآفاق إليه أن يبادر إلى ربه ، ويثوب إلى كنفه . . إن هذاالقلب هو قلب مقلوب . . والذى عاق هؤلاء عن الإيمان فى أول الأمر ، ما الذى يدرى المسلمين الذين يقترحون إجابة طلبهم ، أن يعوقهم عن الإيمان بعد ظهور الخارقة ؟ إن الله هو الذى يعلم حقيقة هذه القلوب . . وهو يذر المكذبين فى طغيانهم يعمهون ، لأنه يعلم منهم أنهم يستحقون جزاء التكذيب ؛ كما يعلم عنهم أنهم لا يستجيبون . . لا يستجيبون ولو نزل إليهم الملائكة كما يقترحون ! ولو بعث لهم الموتى يكلمونهم – كما اقترحوا كذلك ! – ولو حشر الله عليهم كل شىء فى هذا الوجود يواجههم ويدعوهم إلى الإيمان . . ! إنهم لا يؤمنون – إلا أن يشاء الله – والله سبحانه لا يشاء ، لأنهم هم لا يجاهدون فى الله ليهديهم الله إليه . . وهذه هى الحقيقة التى يجهلها أكثر الناس عن طبائع القلوب . . إنه ليس الذى ينقص الذين يلجون فى الضلال أنه لا توجد أمامهم دلائل وبراهين . . إنما الذى ينقصهم آفة فى القلب ، وعطل فى الفطرة ، وانطماس فى الضمير وإن الهدى جزاء لا يستحقه إلا الذين يتجهون إليه ، والذين يجاهدون فيه . .

.....

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ{١١٢} وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ{١١٣} أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِن الْمُمْتَرِينَ{١١٤} وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{١١٥} وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ{١١٦} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ{١١٧} فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ{١١٨} وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ{١١٩} وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ{١٢٠} وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ{١٢١} أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{١٢٢} وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ{١٢٣} وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىَ نُؤْتَىَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ{١٢٤} فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٢٥} وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ{١٢٦} لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{١٢٧} وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{١٢٨} وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{١٢٩} يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ{١٣٠} ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ{١٣١} وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ{١٣٢}

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تفسير قوله تعالى:كذلك . . كالذى قدرناه من أن أولئك المشركين الذين يعلقون إيمانهم بمجىء الخوارق , ويعرضون عن دلائل الهدى وموحياته فى الكون

والنفس ، لا يقع منهم الإيمان ولو جاءتهم كل آية . . كذلك الذى قدرناه فى شأن هؤلاء ، قدرنا أن يكون لكل نبى عدوهم شياطين الإنس والجن . وقدرنا أن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليخدعوهم به ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى . وقدرنا أن تصغى إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويرضوه ، ويقترفوا ما يقترفونه من العداوة للرسل وللحق ؛ ومن الضلال والفساد فى الأرض . . كل ذلك إنما جرى بقدر الله ؛ وفق مشيئته . ولو شاء ربك ما فعلوه . ولمضت مشيئته بغير هذا كله ؛ ولجرى قدره بغير هذا الذى كان . فليس شىء من هذا كله بالمصادفة . وليس شيء من هذا كله بسلطان من البشر كذلك أو قدرة فإذا تقرر أن هذا الذى يجرى فى الأرض من المعركة الناشبة التى لا تهدأ بين الرسل والحق الذى معهم ، وبين شياطين الإنس والجن وباطلهم وزخرفهم وغرورهم . . إذا تقرر أن هذا الذى يجرى فى الأرض إنما يجرى بمشيئة الله ويتحقق بقدر الله ، فإن المسلم ينبغى أن يتجه إذن إلى تدبر حكمة الله من وراء ما يجرى فى الأرض ؛ بعد أن يدرك طبيعة هذا الذى يجرى والقدرة التى وراءه (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا ، شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) بإرادتنا وتقديرنا ، جعلنا لكل نبى عدوا . . هذا العدو هو شياطين الإنس والجن . . والشيطنة وهى التمرد والغواية والتمحض للشر صفة تلحق الإنس كما تلحق الجن . وكما أن الذى يتمرد من الجن ويتمحض للشر والغواية يسمى شيطاناً ؛ فكذلك الذى يتمرد من الإنس ويتمحض للشر والغواية . . وقد يوصف بهذه الصفة الحيوان أيضا إذا شرس وتمرد واستشرى أذاه ! وقد ورد: "الكلب الأسود شيطان" . هؤلاء الشياطين – من الإنس والجن – الذين قدر الله أن يكونوا عدوا لكل نبى ، يخدع بعضهم بعضا بالقول المزخرف ، الذى يوحيه بعضهم إلى بعض – ومن معانى الوحى التأثير الداخلى الذى ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن آخر – ويغر بعضهم بعضا ، ويحرض بعضهم بعضاً على التمرد والغواية والشر والمعصية . . وشياطين الإنس أمرهم معروف ومشهود لنا فى هذه الأرض ، ونماذجهم ونماذج عدائهم لكل نبى ، وللحق الذى معه ، وللمؤمنين به ، معروفة يملك أن يراها الناس فى كل زمان . فأما شياطين الجن – والجن كله – فهم غيب من غيب الله ، لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا به من عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . . ومن ناحية مبدأ وجود خلائق أخرى فى هذا الكون غير الإنسان وغير الأنواع والأجناس المعروفة فى الأرض من الأحياء . نقول من ناحية المبدأ ونحن نؤمن بقول الله عنها ، ونصدق بخبره فى الحدود التى قررها . فأما أولئك الذين يتترسون "بالعلم" لينكروا ما يقرره الله فى هذا الشأن ، فلا ندرى علام يرتكنون ؟ إن علمهم البشرى لا يزعم أنه أحاط بكل أجناس الأحياء ، فى هذا الكوكب الأرضى ! كما أن علمهم هذا لا "يعلم" ماذا فى الأجرام الأخرى ! وكل ما يمكن أن "يفترضه" أن نوع الحياة الموجودة فى الأرض يمكن أولا يمكن أن يوجد فى بعض الكواكب والنجوم . . وهذا لا يمكن أن ينفى – حتى لو تأكدت الفروض – أن أنواعا أخرى من الحياة وأجناساً أخرى من الأحياء يمكن أن تعمر جوانب أخرى فى الكون لا يعلم هذا "العلم" عنها شيئاً ! فمن التحكم والتبجح أن ينفى أحد باسم "العلم" وجود هذه العوالم الحية الأخرى . وأما من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ؛ والذى يتشيطن بعضه ويتمحض للشر والغواية - كإبليس وذريته – كما يتشيطن بعض الإنس . . من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ، نحن لا نعلم عنه إلا ما جاءنا الخبر الصادق به عن الله – سبحانه – وعن رسول الله ﷺ ونحن نعرف أن هذا الخلق مخلوق من مارج من نار . وأنه مزود بالقدرة على الحياة فى الأرض وفى باطن الأرض وفى خارج الأرض أيضاً . وأنه يملك الحركة فى هذه المجالات باسرع مما يملك البشر . وأن منه الصالحين المؤمنين ، ومنه الشياطين المتمردين . وأنه يرى بنى آدم وبنو آدم لا يرونه – فى هيئته الأصلية – وكم من خلائق ترى الإنسان ولا يراها الإنسان ! وأن الشياطين منه مسلطون على بنى الإنسان يغوونهم ويضلونهم ، وهم قادرون على الوسوسة لهم والإيحاء بطريقة لا نعلمها . وأن هؤلاء الشياطين لا سلطان لهم على المؤمنين الذاكرين . وأن الشيطان مع المؤمن إذا ذكر الله خنس وتوارى , وإذا غفل برز فوسوس له ! وأن المؤمن اقوى بالذكر من كيد الشيطان الضعيف . وأن عالم الجن يحشر مع عالم الإنس ؛ ويحاسب ؛ ويجازى بالجنة وبالنار كالجنس الإنسانى . وأن الجن حين يقاسون إلى الملائكة يبدون خلقاً ضعيفاً لا حول له ولا قوة ! وفى هذه الآية نعرف أن الله سبحانه قد جعل لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن . . ولقد كان الله – سبحانه – قادراً – لو شاء – ألا يفعلوا شيئاً من هذا . . ألا يتمردوا ; وألا يتمحضوا للشر ؛ وألا يعادوا الأنبياء ؛ وألا يؤذوا المؤمنين ؛ وألا يضلوا الناس عن سبيل الله . . كان الله سبحانه قادراً أن يقهرهم قهراً على الهدى ؛ أو أن يهديهم لو توجهوا للهدى ; أو أن يعجزهم عن التصدى للأنبياء والحق والمؤمنين به . . ولكنه سبحانه ترك لهم هذا القدر من الاختيار . وأذن لهم أن تمتد أيديهم بالأذى لأولياء الله – بالقدر الذى تقضى به مشيئته ويجرى به قدره – وقدر أن يبتلى أولياءه بأذى أعدائه ؛ كما يبتلى أعداءه بهذا القدر من الاختيار والقدرة الذى أعطاهم إياه . فما يملك هؤلاء أن يوقعوا بأولياء الله من الأذى إلا ما قدره الله (ولو شاء الله ما فعلوه)

فما الذى يخلص لنا من هذه التقريرات ؟

يخلص لنا ابتداء:أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبى ؛ ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء . . هم "شياطين" إ . شياطين من الإنس ومن الجن . . وأنهم يؤدون جميعاً – شياطين الإنس والجن – وظيفة واحدة ! وأن بعضهم يخدع بعضاً ويضله كذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله . .

ويخلص لنا ثانياً:أن هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئاً من هذا كله ، ولا يقدرون على شىء من عداء الأنبياء وإيذاء أتباعهم بقدرة ذاتية فيهم . إنما هم فى قبضة الله . وهو يبتلى بهم أولياءه لأمر يريده ٠من تمحيص هؤلاء الأولياء ، وتطهير قلوبهم ، وامتحان صبرهم على الحق الذى هم عليه أمناء . فإذا اجتازوا الامتحان بقوة كف الله عنهم الابتلاء . وكف عنهم هؤلاء الأعداء . وعجز هؤلاء الأعداء أن يمدوا إليهم أيديهم بالأذى وراء ما قدر الله . وآب أعداء الله بالضعف والخذلان ؛ وبأوزارهم كاملة يحملونها على ظهورهم

(ولو شاء الله ما فعلوه)

ويخلص لنا ثالثا: أن حكمة الله الخالصة هى التى اقتضت أن يترك لشياطين الإنس والجن أن يتشيطنوا – فهو إنما يبتليهم فى القدر الذى تركه لهم من الاختيار والقدرة - وأن يدعهم يؤذون أولياءه فترة من الزمان – فهو إنما يبتلى أولياءه كذلك لينظروا:أيصبرون ؟ أيثبتون على ما معهم من الحق بينما الباطل ينتفش عليهم ويستطيل ؟ أيخلصون من حظ أنفسهم فى أنفسهم ويبيعونها بيعة واحدة لله ، على السراء وعلى الضراء سواء . وفى المنشط والمكره سواء ؟ وإلا فقد كان الله قادراً على ألا يكون شىء من هذا الذى كان !

ويخلص لنا رابعاً: هو أن الشياطين من الإنس والجن ، وهو أن كيدهم وأذاهم . فما يستطيلون بقوة ذاتية لهم ؛ وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم . . والمؤمن الذى يعلم أن ربه هو الذى يقدر ، وهو الذى يأذن ، خليق أن يستهين بأعدائه من الشياطين ؛ مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدّعى . ومن هنا هذا التوجيه العلوى لرسول الله الكريم

(فذرهم وما يفترون) دعهم وافتراءهم . فأنا من ورائهم قادر على أخذهم ، مدخر لهم جزاءهم . .

وهناك حكمة أخرى غير ابتلاء الشياطين ، وابتلاء المؤمنين . . لقد قدر الله أن يكون هذا العداء ، وأن يكون هذا الايحاء ، وأن يكون هذا الغرور بالقول والخداع . . لحكمة أخرى (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون) أى لتستمع إلى ذلك الخداع والإيحاء قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . . فهؤلاء يحصرون همهم كله فى الدنيا . وهم يرون الشياطين فى هذه الدنيا يقفون بالمرصاد لكل نبى وينالون بالأذى أتباع كل نبى ويزين بعضهم لبعض القول والفعل فيخضعون للشياطين ، معجبين بزخرفهم الباطل ، معجبين بسلطانهم الخادع . ثم يكسبون ما يكسبون من الإثم والشر والمعصية والفساد . فى ظل ذلك الإيحاء ، وبسبب هذا الإصغاء . . وهذا أمر أراده الله كذلك وجرى به قدره . لما وراءه من التمحيص والتجربة . ولما فيه من إعطاء كل أحد فرصته ليعمل لما هو ميسر له ؛ ويستحق جزاءه بالعدل والقسطاس . ثم لتصلح الحياة بالدفع ؛ ويتميز الحق بالمفاصلة ؛ ويتمحض الخير بالصبر ؛ ويحمل الشياطين أوزارهم كاملة يوم القيامة . . وليجرى الأمر كله وفق مشيئة الله . . أمر أعدائه وأمر أوليائه على السواء . . إنها مشيئة الله ، والله يفعل ما يشاء (ولو شاء ربك ما فعلوه . فذرهم وما يفترون)

الآن نجىء إلى القضية التى تعالجها بقية السورة ; والتى كان التمهيد لها مطرداً فى سياق السورة كله ؛ وآخر هذا التمهيد ما ساقه من قضايا العقيدة الكبيرة ؛ ومن واقع المعركة العقيدية الطويلة فى الآيتين السابقتين . ومن تقرير سلطان الله المطلق فيما يقع من المعركة بين شياطين الإنس والجن وكل نبى . ومن قواعد الهدى والضلال وسنة الله التى يجرى وفقها الضلال والهدى . . . إلى آخر ما استعرضناه فى الصفحات السابقة

الآن نجيء إلى القضية التى جعلت هذه المقدمات كلها قاعدة لها . . قضية الحل والحرمة فيما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح . . وهى تأخذ أهميتها من ناحية تقرير المبدأ الإسلامى الأول: مبدأ حق الحاكمية المطلقة لله وحده ؛ وتجريد البشر من ادعاء هذا الحق أو مزاولته فى أية صورة من الصور . . وحين تكون القضية هى قضية هذا المبدأ فإن الصغيرة تكون كالكبيرة فى تحقيق هذا المبدأ أو نقضه . . ولا يهم أن يكون الأمر أمر ذبيحة يؤكل منها أولا يؤكل ؛ أو أن يكون أمر دولة تقام أو نظام مجتمع يوضع . فهذه كتلك من ناحية المبدأ . وهذه كتلك تعنى الاعتراف بألوهية الله وحده ؛ أو تعنى رفض هذه الألوهية . والمنهج القرآنى يتكئ كثيراً جدا على هذا المبدأ لتقريره فى كل مناسبة . ولا يمل تكراره حيثما جاءت مناسبته أمام كل تشريع للصغير وللكبير من الأمور . . ذلك أن هذا المبدأ هو العقيدة ، وهو الدين ، وهو الإسلام ؛ وليس وراءه من هذا الدين كله إلا التطبيقات والتفريعات ، إن السياق يبدأ بتقرير جهة الحاكمية فى أمر العباد كله – تمهيدا لتقرير جهة الحاكمية فى التحليل والتحريم فى الذبائح ، الأمر الذى يزاول فيه المشركون حق الحاكمية افتراء على الله واعتداء على سلطانه – ويمهد لهذا الأمر تمهيداً طويلاً كما نلحظ من سياق الآيات فى هذا الموضع (أفغير الله أبتغى حكما ، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله , وهو أعلم بالمهتدين) هذا التمهيد كله يجيء قبل أن يدخل فى الموضوع الواقع الحاضر الذى يمهد له هذا التمهيد , ثم يربطه ربطاً مباشراً بقضية الإيمان أو الكفر (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بآياته مؤمنين . . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم – إلا ما اضطررتم إليه) وقبل أن ينتهى من عرض قضية التحليل والتحريم – بعد ذلك التمهيد كله – يفصل بين فقرتين بتوجيهات وتعقيبات أخرى ، تحوى مؤثرات قوية من الأمر والنهى والبيان والوعيد(وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) ثم يستأنف الحديث فى قضية التحليل والتحريم ؛ فيربطها مباشرة بقضية الإسلام والشرك (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه – وإنه لفسق – وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) ثم يمضى بعد ذلك شوطاً آخر فى الحديث عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان . . شوطاً كأنه تعقيب على أمر التحليل والتحريم . ومن هذا التتابع ، وهذا الربط ، وهذا التوكيد ، تتمثل طبيعة نظرة الإسلام لقضية التشريع والحاكمية ، فى شؤون الحياة اليومية (أفغير الله أبتغى حكماً ، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين) إنه سؤال على لسان رسول الله ﷺ للاستنكار . استنكار أن يبتغى حكما غير الله فى شأن من الشؤون على الاطلاق . وتقرير لجهة الحاكمية فى الأمر كله ، وإفرادها بهذا الحق الذى لا جدال فيه . ونفى أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالباً حكمه فى أمر الحياة كله (أفغير الله أبتغى حكماً ؟) ثم . . تفصيل لهذا الإنكار ، وللملابسات التى تجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكراً غريباً . . إن الله لم يترك شيئاً غامضاً ؛ ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر ، يحكمونه فى ما يعرض لهم من مشكلات الحياة (وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً) لقد نزل هذا الكتاب ليحكم بالعدل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ولتتمثل فيه حاكمية الله وألوهيته . ثم لقد نزل هذا الكتاب مفصلاً ، محتوياً على المبادئ الأساسية التى يقوم عليها نظام الحياة جملة . كما أنه تضمن أحكاماً تفصيلية فى المسائل التى يريد الله تثبيتها فى المجتمع الإنسانى مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية والواقعية جملة . . وبهذا وذلك كان فى هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله فى شأن من شؤون الحياة . . هذا ما يقرره الله – سبحانه – عن كتابه . فمن شاء أن يقول:إن البشرية فى طور من أطوارها لا تجد فى هذا الكتاب حاجتها فليقل . . ولكن ليقل معه . . إنه – والعياذ بالله – كافر بهذا الدين ، مكذب بقول رب العالمين ! ثم إن هناك من حولهم ملابسة أخرى تجعل ابتغاء غير الله حكماً فى شأن من الشؤون أمراً مستنكراً غريباً . . إن الذين اوتوا الكتاب من قبل يعلمون أن هذا الكتاب منزل من عند الله ، وهم اعرف بالكتاب لأنهم من أهل الكتاب (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق)

ولقد كانت هذه ملابسة حاضرة فى مكة وفى الجزيرة ، يخاطب الله بها المشركين . . سواء أقر أهل الكتاب بها وجهروا – كما وقع من بعضهم ممّن شرح الله صدره للإسلام – أو كتموها وجحدوها – كما وقع من بعضهم فالأمر فى الحالين واحد ؛ وهو إخبار الله سبحانه - وخبره هو الصدق – أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربه بالحق . . فالحق محتواه ; كما أن الحق متلبس بتنزيله من الله ، وما يزال أهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق . وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذى

يتلبس به ، ومن هذا الحق الذى يحتويه . وما يزالون – من أجل علمهم بهذا كله – يحاربون هذا الدين ، ويحاربون هذا الكتاب , حرباً لا تهدأ . . وأشد هذه الحرب وأنكاها ، هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب ؛ إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر . وجعل غير الله حكماً ، حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود . وإقامة ألوهيات أخرى فى البلاد التى كانت الألوهية فيها لله وحده ؛ يوم كانت تحكمها شريعة الله التى فى كتابه ؛ ولا تشاركها شريعة أخرى ، ولا يوجد إلى جوار كتاب الله كتب أخرى , تستمد منها أوضاع المجتمع , وأصول التشريعات ، ويرجع إليها ويستشهد بفقراتها ، وحين يقرر السياق أن هذا الكتاب أنزله الله مفصلاً ؛ وأن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق ، يلتفت إلى رسول الله ﷺ ومن وراءه من المؤمنين به ؛ يهون عليه وعليهم شأن التكذيب والجدل الذى يجدونه من المشركين ؛ وشأن الكتمان والجحود الذى يجدونه من بعض أهل الكتاب (فلا تكونن من الممترين) وما شك رسول الله ﷺ ولا امترى . ولقد ورد أنه ﷺ عندما أنزل الله عليه (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين). . قال:" لا أشك ، ولا أسأل " . ولكن هذا التوجيه وأمثاله ؛ وهذا التثبيت على الحق ونظائره ؛ تدل على ضخامة ما كان يلقاه ﷺ والجماعة المسلمة معه من الكيد والعنت والتكذيب والجحود ؛ ورحمة الله - سبحانه – به وبهم بهذا التوجيه والتثبيت (ويمضى السياق فى هذا الاتجاه ؛ يقرر أن كلمة الله الفاصلة قد تمت ؛ وأنه لا مبدل لها بفعل الخلق ، بالغاً ما بلغ كيدهم (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً , لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم) لقد تمت كلمة الله – سبحانه – صدقاً – فيما قال وقرر – وعدلاً – فيما شرع وحكم – فلم يبق بعد ذلك قول لقائل فى عقيدة أو تصور أو أصل أو مبدأ أو قيمة أو ميزان . ولم يبق بعد ذلك قول لقائل فى شريعة أو حكم ، أو عادة أو تقليد . . ولا معقب لحكمه ولا مجير عليه (وهو السميع العليم) الذى يسمع ما يقوله عباده ، ويعلم ما وراءه ، كما يعلم ما يصلح لهم ، وما يصلحهم . وإلى جانب تقرير أن "الحق" هو ما تضمنه الكتاب الذى أنزله الله ، يقرر أن ما يقرره البشر وما يرونه إن هو إلا اتباع الظن الذى لا يقين فيه ؛ واتباعه لا ينتهى إلا الى الضلال . وأن البشر لا يقولون الحق ولا يشيرون به إلا إذا أخذوه من ذلك المصدر الوحيد المستيقن ؛ ويحذر الرسول [ص] أن يطيع الناس فى شىء يشيرون به عليه من عند أنفسهم ؛ مهما بلغت كثرتهم ؛ فالجاهلية هى الجاهلية مهما كثر أتباعها الضالون (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله . إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون) ولقد كان أكثر من فى الأرض – كما هو الحال اليوم بالضبط – من أهل الجاهلية . . لم يكونوا يجعلون الله هو الحكم فى أمرهم كله ، ولم يكونوا يجعلون شريعة الله التى فى كتابه هى قانونهم كله . ولم يكونوا يستمدون تصوراتهم وأفكارهم ، ومناهج تفكيرهم ومناهج حياتهم من هدى الله وتوجيهه . . ومن ثم كانوا – كما هو الحال اليوم – فى ضلالة الجاهلية ؛ لا يملكون أن يشيروا برأى ولا بقول ولا بحكم يستند على الحق ويستمد منه ؛ ولا يقودون من يطيعهم ويتبعهم إلا الى الضلال . . كانوا – كما هم اليوم - يتركون العلم المستيقن ويتبعون الظن والحدس . . والظن والحدس لا ينتهيان إلا الى الضلال . . وكذلك حذر الله رسوله من طاعتهم واتباعهم كى لا يضلوا عن سبيل الله . . هكذا على وجه الإجمال . وإن كانت المناسبة الحاضرة حينذاك كانت هى مناسبة تحريم بعض الذبائح وتحليل بعضها كما سيجىء فى السياق . . ثم قرر أن الذى يحكم على العباد بأن هذا مهتد وهذا ضال هو الله وحده . لأن الله وحده هو الذى يعلم حقيقة العباد ، وهو الذى يقرر ما هو الهدى وما هو الضلال (إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) فلا بد من قاعدة للحكم على عقائد الناس وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ونشاطهم وأعمالهم . لا بد من قاعدة لتقرير ما هو الحق وما هو الباطل فى هذا كله – كى لا يكون الأمر فى هذه المقومات هو أمر هوى الناس المتقلب واصطلاحهم الذى لا يقوم على علم مستيقن . . ثم لا بد من جهة تضع الموازين لهذه المقومات ، ويتلقى منها الناس حكمها على العباد والقيم سواء . والله - سبحانه – يقرر هنا أنه هو – وحده – صاحب الحق فى وضع هذا الميزان . وصاحب الحق فى وزن الناس به ، وتقرير من هو المهتدى ، ومن هو الضال . إنه ليس "المجتمع" هو الذى يصدر هذه الأحكام وفق اصطلاحاته المتقلبة . . ليس المجتمع الذى تتغير أشكاله ومقوماته المادية ، فتتغير قيمه وأحكامه . . حيث تكون قيم وأخلاق للمجتمع الزراعى ، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الصناعى . وحيث تكون هناك قيم وأخلاق للمجتمع الرأسمالى البرجوازى ، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الاشتراكى أو الشيوعى . . ثم تختلف موازين الناس وموازين الأعمال وفق مصطلح هذه المجتمعات ! بعد هذا التمهيد التقريرى الطويل تجىء قضية الذبائح ، مبنية على القاعدة الأساسية التى أقامها ذلك التمهيد التقريرى الطويل (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بآياته مؤمنين . . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم – إلا ما اضطررتم إليه – وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه , إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه – وإنه لفسق –

وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) إنه يأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه . والذكر يقرر الوجهة ويحدد الاتجاه . ويعلق إيمان الناس بطاعة هذا الأمر الصادر إليهم من الله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بآياته مؤمنين) ثم يسألهم: وما لهم في الامتناع من الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وقد جعله الله لهم حلالا ؟ وقد بين لهم الحرام الذى لا يأكلونه إلا اضطراراً ؟ فانتهى بهذا البيان كل قول في حله وحرمته ؛ وفي الأكل منه أو تركه ؟ (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ؟) . . ولما كانت هذه النصوص تواجه قضية حاضرة إذ ذاك في البيئة ، حيث كان المشركون يمتنعون من ذبائح أحلها الله ؛ ويحلون ذبائح حرمها الله – ويزعمون أن هذا هو شرع الله - ! فإن السياق يفصل في أمر هؤلاء المشترعين المفترين على الله ، فيقرر أنهم إنما يشرعون بأهوائهم بغير علم ولا اتباع ، ويضلون الناس بما يشرعونه لهم من عند أنفسهم , ويعتدون على ألوهية الله وحاكميته بمزاولتهم لخصائص الألوهية وهم عبيد (وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم . . إن ربك هو أعلم بالمعتدين) ويأمرهم بأن يتركوا الإثم كله – ظاهره وخافيه – ومنه هذا الذى يزاولونه من إضلال الناس بالهوى وبغير علم ؛ وحملهم على شرائع ليست من عند الله ، وافتراء أنها شريعة الله ! ويحذرهم مغبة هذا الإثم الذى يقترفونه (وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) ثم ينهى عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح التى كانوا يذكرون عليها أسماء آلهتهم ؛ أو ينحرونها للميسر ويستقسمونها بالأزلام ؛ أو من الميتة التى كانوا يجادلون المسلمين في تحريمها ، يزعمون أن الله ذبحها ! فكيف يأكل المسلمون مما ذبحوا بأيديهم ، ولا يأكلون مما ذبح الله ؟! وهو تصور من تصورات الجاهلية التى لا حد لسخفها وتهافتها في جميع الجاهليات ! وهذا ما كانت الشياطين – من الإنس والجن – توسوس به لأوليائها ليجادلوا المسلمين فيه من أمر هذه الذبائح مما تشير إليه الآيات (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه – وإنه لفسق – وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون . .). . وأمام هذا التقرير الأخير نقف ، لنتدبر هذا الحسم وهذه الصراحة في شأن الحاكمية والطاعة والاتباع في هذا الدين . . بعد ذلك يجيء شوط كامل عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان . وعن قدر الله في أن يجعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها . وعن الكبر الذى يحيك في نفوس هؤلاء المجرمين الأكابر . ويمنعهم من الإسلام . ويختم الشوط بالتصوير الرائع الصادق لحالة الإيمان التي يشرح الله لها الصدر ، وحالة الكفر التى يجعل الصدر فيها ضيقاً حرجاً مكروب الأنفاس ! . . فيتصل هذا الشوط كله بموضوع التحريم والتحليل في الذبائح اتصال الأصل القاعدى بالفرع التطبيقي ؛ ويدل على عمق هذا الفرع وشدة علاقته بالأصل الكبير :(أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله . الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجاً كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) إن هذه الآيات في تصوير طبيعة الهدى وطبيعة الإيمان إنما تعبر تعبيراً حقيقياً واقعياً عن حقيقة واقعية كذلك .إن ما يبدو فيها من تشبيه ومجاز إنما هو لتجسيم هذه الحقيقة في الصورة الموحية المؤثرة ؛ ولكن العبارة في ذاتها حقيقية .

إن نوع الحقيقة التي تعبر هذه الآيات عنها هو الذى يقتضى هذه الايقاعات التصويرية . فهى حقيقة ، نعم . ولكنها حقيقة روحية وفكرية . حقيقة تذاق بالتجربة . ولا تملك العبارة إلا أن تستحضر مذاق التجربة ولكن لمن ذاقها فعلا ! إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية ، التى لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب . فهو موت . . وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله . . فهو موت . . وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . . فهو موت . . والإيمان اتصال ، واستمداد ، واستجابة . . فهو حياة . . إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراق الاستشراف والاطلاع . . فهو ظلمة . . وختم على الجوارح والمشاعر . . فهو ظلمة . . وتيه في التيه وضلال . . فهو ظلمة . . و الإيمان تفتح ورؤية ، وإدراك واستقامة . . فهو نور بكل مقومات النور (وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون) فليطمئن المؤمنون ! ثم يكشف السياق القرانى عن طبيعة الكبر في نفوس أعداء رسل الله ودينه . . الكبر الذى يمنعهم من الإسلام ؛ خيفة أن يرجعوا عباداً لله كسائر العباد ، فهم يطلبون امتيازاً ذاتياً يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع . ويكبر عليهم أن يؤمنوا للنبى فيسلموا له ، وقد تعودوا أن يكونوا في مقام الربوبية للأتباع ، وأن يشرعوا لهم فيقبلوا منهم التشريع ، وأن يأمروهم فيجدوا منهم الطاعة والخضوع . . من أجل ذلك يقولون قولتهم المنكرة الغبية كذلك: لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتى رسل الله (وإذا جاءتهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل

ما أوتي رسل الله) وقد قال الوليد بن المغيرة:لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك ، لأنى أكبر منك سنا ، وأكثر منك مالا ! وقال أبو جهل:والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً ، إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه ! وواضح أن الكبر النفسى ، وما اعتاده الأكابر من الخصوصية بين الأتباع ، ومظهر هذه الخصوصية الأول هو الأمر منهم والطاعة والاتباع من الأتباع ! . . واضح أن هذا من أسباب تزيين الكفر فى نفوسهم ، ووقوفهم من الرسل والدين موقف العداء . ويرد الله على قولتهم المنكرة الغبية . . أولا بتقرير أن أمر اختيار الرسل للرسالة موكول إلى علمه المحيط بمن يليق بهذا الأمر الكونى الخطير . . ويرد عليهم ثانيا بالتهديد والتحقير وسوء المصير (الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) إن الرسالة أمر هائل خطير . أمر كونى تتصل فيه الإرادة الأزلية الأبدية بحركة عبد من العبيد . ويتصل فيه الملأ الأعلى بعالم الإنسان المحدود . وتتصل فيه السماء بالأرض , والدنيا بالآخرة ، ويتمثل فيه الحق الكلى ، والله وحده – سبحانه – هو الذى يعلم أين يضع رسالته ، ويختار لها الذات التى تنتدب من بين ألوف الملايين ، ويقال لصاحبها:أنت منتدب لهذا الأمر الهائل الخطير . والذين يتطلعون إلى مقام الرسالة ؛ أو يطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتى الرسول . . هم أولا من طبيعة لا تصلح أساساً لهذا الأمر . فهم يتخذون من ذواتهم محوراً للوجود الكونى ! والرسل من طبيعة أخرى ، طبيعة من يتلقى الرسالة مستسلماً ، ويهب لها نفسه , وينسى فيها ذاته ، ويؤتاها من غير تطلع ولا ارتقاب: (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب , إلا رحمة من ربك). . ثم هم بعد ذلك جهال لا يدركون خطورة هذا الأمر الهائل , ولا يعلمون أن الله وحده هو الذى يقدر بعلمه على اختيار الرجل الصالح لذلك يجيبهم الرد الحاسم (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقد جعلها سبحانه حيث علم ، واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم ، وجعل الرسل هم ذلك الرهط الكريم ، حتى انتهت إلى محمد خير خلق الله وخاتم النبيين . ثم التهديد بالصغار والهوان على الله ، وبالعذاب الشديد المهين (سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) والصغار عند الله يقابل الاستعلاء عند الأتباع ، والاستكبار عن الحق ، والتطاول إلى مقام رسل الله ! . . والعذاب الشديد يقابل المكر الشديد ، والعداء للرسل ، والأذى للمؤمنين . ثم تختم الجولة بتصوير حالة الهدى وحالة الايمان فى داخل القلوب والنفوس (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) من يقدر الله له الهداية – وفق سنته الجارية من هداية من يرغب فى الهدى ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء (يشرح صدره للإسلام) فيتسع له ويستقبله فى يسر ورغبة ، ويتفاعل معه ، ويطمئن إليه ؛ ويستروح به ويستريح له . ومن يقدر له الضلال – وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته عنه ، يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . . فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة فى قبوله ، (كأنما يصعد فى السماء). . وهى حالة نفسية تجسم فى حالة حسية ، من ضيق النفس ، وكربة الصدر ، والرهق المضنى فى التصعد إلى السماء ! وبناء اللفظ ذاته يصعد – كما هو فى قراءة حفص – فيه هذا العسر والقبض والجهد . وجرسه يخيل هذا كله , فيتناسق المشهد الشاخص ، مع الحالة الواقعة ، مع التعبير اللفظى فى إيقاع واحد . وينتهى المشهد بهذا التعقيب المناسب (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) كذلك . . بمثل هذا الذى يجرى به قدر الله من شرح صدر الذى يريد الله به الهدى , ومن العسر والجهد والمشقة لمن يريد به الضلال . . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون .

ومن معانى الرجس العذاب . ومن معانيه كذلك الارتكاس – وكلاهما يلون هذا العذاب بمشهد الذى يرتكس فى العذاب ويعود إليه ولا يفارقه ! وهو الظل المقصود !

على أنه تبقى فى النفس بقية من الحديث عن قوله تعالى:(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون). . إن تصور الحقيقة التى يقررها هذا النص وأمثاله فى القرآن الكريم من النصوص التى تتعلق بالتعامل والارتباط بين مشيئة الله – سبحانه – واتجاهات البشر ؛ وما يصيبهم من الهدى والضلال ، وما ينالهم بعد ذلك من جزاء وثواب وعقاب . . إن هذا كله يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشرى وراء منطقة المنطق الذهنى ! وكل ما ثار من الجدل بشأن هذه القضية سواء فى تاريخ الفكر الإسلامى ، وبخاصة بين المعتزلة وأهل السنة والمرجئة – أو فى تاريخ اللاهوت والفلسفة – وكل القضايا والتعبيرات عنها , موسومة بطابع المنطق الذهنى . إن تصور هذه الحقيقة يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشرى وراء منطقة المنطق الذهنى . وكذلك يقتضى التعامل مع "الواقع الفعلى" لا مع "القضايا الذهنية . " فالقرآن يصور الحقيقة الفعلية فى الكينونة البشرية وفى الوجود الواقع

؛ وهذه الحقيقة يتراءى فيها التشابك بين مشيئة الله وقدره وبين إرادة الإنسان وعمله . في محيط لا يدركه المنطق الذهنى كله . فإذا قيل:إن إرادة الله تدفع الإنسان دفعا إلى الهدى أو الضلال . . لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية . وإذا قيل:إن إرادة الإنسان هى التي تقرر مصيره كله . . لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية كذلك ! إن الحقيقة الفعلية تتألف من نسب دقيقة – وغيبية كذلك - بين طلاقة المشيئة الإلهية وسلطانها الفاعل ، وبين اختيار العبد واتجاهه الإرادى . بلا تعارض بين هذه وتلك ولا تصادم . . ولكن تصور الحقيقة "الفعلية " كما هى فى واقعها هذا لا يمكن أن يتم فى حدود المنطق الذهنى . وفى شكل القضايا الذهنية والعبارة البشرية عنها . . إن نوع الحقيقة هو الذى يحدد منهج تناولها وأسلوب التعبير عنها . . وهذه الحقيقة لا يصلح لها منهج المنطق الذهنى ولا القضايا الجدلية . كذلك يحتاج تصور هذه الحقيقة كما هى فى واقعها الفعلى إلى تذوق كامل في تجربة روحية وعقلية . . إن الذى تتجه فطرته إلى الإسلام يجد فى صدره انشراحا له . . هو من صنع الله قطعا . . فالانشراح حدث لا يقع إلا بقدر من الله يخلقه ويبرزه . والذى تتجه فطرته إلى الضلال يجد فى صدره ضيقا وتقبضا وعسرا . . هو من صنع الله قطعا . . لأنه حدث لا يتم وقوعه الفعلى إلا بقدر من الله يخلقه ويجرى به كذلك . . وكلاهما من إرادة الله بالعبد . . ولكنها ليست إرادة القهر . إنما هى الإرادة التى انشأت السنة الجارية النافذة من أن يبتلى هذا الخلق المسمى بالإنسان بهذا القدر من الإرادة . وأن يجرى قدر الله بإنشاء ما يترتب على استخدامه لهذا القدر من الإرادة في الاتجاه للهدى أو للضلال . وحين توضع قضية ذهنية فى مواجهة قضية ذهنية . وحين يتم التعامل مع هذه القضايا ، بدون استصحاب الملامسة الباطنية للحقيقة ، والتجربة الواقعية فى التعامل معها ، فإنه لا يمكن أبدا أن يتم تصور كامل وصحيح لهذه الحقيقة . . وهذا ما وقع في الجدل الإسلامى . . وفى غيره كذلك ! إنه لا بد من منهج آخر ومن تذوق مباشر للتعامل مع هذه الحقيقة الكبيرة .

(وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ{١٢٦} لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{١٢٧} وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قِدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{١٢٨} وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{١٢٩} يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ{١٣٠} ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ{١٣١} وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ{١٣٢} وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ{١٣٣} إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ{١٣٤} قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ{١٣٥}

(وهذا صراط ربك مستقيما . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون . لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) هذا هو الصراط . . صراط ربك . . بهذه الإضافة المطمئنة الموحية بالثقة ؛ المبشرة بالنهاية . . هذه هى سنته فى الهدى والضلال ؛ وتلك هى شريعته فى الحل والحرمة . كلاهما سواء فى ميزان الله ، وكلاهما لحمة في سياق قرآنه . (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قِدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) بعد ما بين مصير الذين يستقيمون على صراط الله – وهو من ناحية استطراد فى قضية الإيمان والكفر التى تذكر فى هذا الموضع من السورة بمناسبة قضية الحاكمية والتشريع . وربط لهذه القضية الأخيرة بالحقائق الأساسية فى العقيدة الإسلامية ; ومنها حقيقة الجزاء فى الآخرة على الكسب فى الدنيا – بعد النذارة والبشارة - وحقيقة سلطان الله القادر على الذهاب بالشياطين وأوليائهم وبالناس جميعا واستبدال غيرهم بهم ، وحقيقة ضعف البشر جملة أمام بأس الله . وكلها حقائق عقيدية تذكر فى معرض الحديث عن التحليل والتحريم فى الذبائح – قبلها ... لقد مضى فى الحلقة السابقة حديث عن الذين يشرح الله صدورهم للإسلام ؛ فتبقى قلوبهم ذاكرة لاتغفل ؛ وأنهم ماضون إلى دار السلام ، منتهون إلى ولاية ربهم وكفالته . . فالآن يعرض الصفحة المقابلة فى المشهد – على طريقة القرآن الغالبة فى عرض " مشاهد القيامة " – يعرض شياطين الإنس والجن ، الذين قضوا الحياة يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا وخداعا وإضلالا ؛ ويقف بعضهم بمساندة بعض عدوا لكل نبى ؛ ويوحى بعضهم إلى بعض ليجادلوا المؤمنين فى ما شرعه الله لهم من الحلال والحرام . . يعرضهم فى مشهد شاخص حى ، حافل بالحوار والاعتراف والتأنيب والحكم والتعقيب ، فائض بالحياة التى تزخر بها مشاهد القيامة فى القرآن (ويوم يحشرهم جميعا: يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ! وقال أولياؤهم من

الإنس:ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ! قال: النار مثواكم خالدين فيها – إلا ما شاء الله – إن ربك حكيمعليم . . وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون . . يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا: شهدنا على أنفسنا ! وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) إن المشهد يبدأ معروضاً فى المستقبل ، يوم يحشرهم جميعا . . ولكنه يستحيل واقعا للسامع يتراءى له مواجهة . وذلك بحذف لفظة واحدة فى العبارة . فتقدير الكلام (ويوم يحشرهم جميعا)– فيقول – (يا معشر الجن والإنس . . .) ولكن حذف كلمة – يقول – ينتقل بالتعبير المصور نقلة بعيدة ؛ ويحيل السياق من مستقبل ينتظر ، إلى واقع ينظر ! وذلك من خصائص التصوير القرآنى العجيب . . . فلنتابع المشهد الشاخص المعروض (يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس !) استكثرتم من التابعين لكم من الإنس ، المستمعين لإيحائكم ، المطيعين لوسوستكم ، المتبعين لخطواتكم . . وهو إخبار لا يقصد به الإخبار فالجن يعلمون أنهم قد استكثروا من الإنس ! إنما يقصد به تسجيل الجريمة – جريمة إغواء هذا الحشد الكبير الذى نكاد نلمحه فى المشهد المعروض ! – ويقصد به التأنيب على هذه الجريمة التى تتجمع قرائنها الحية فى هذا الحشد المحشود ! لذلك لا يجيب الجن على هذا القول بشىء . . ولكن الأغرار الأغمار من الإنس المستخفين بوسوسة الشياطين يجيبون (وقال أولياؤهم من الإنس:ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) وهو جواب يكشف عن طبيعة الغفلة والخفة فى هؤلاء الأتباع ؛ كما يكشف عن مدخل الشيطان إلى نفوسهم فى دار الخداع . . لقد كانوا يستمتعون بإغواء الجن لهم وتزيينه ما كان يزين لهم من التصورات والأفكار ، ومن المكابرة والاستهتار ، ومن الإثم ظاهره وباطنه ! فمن منفذ الاستمتاع دخل إليهم الشيطان ! وكانت الشياطين تستمتع بهؤلاء الأغرار الأغفال . . كانت تستهويهم وتعبث بهم ؛ وتسخرهم لتحقيق هدف إبليس فى عالم الإنس ! وهؤلاء الأغرار المستخفون يحسبون أنه كان استمتاعا متبادلا ، وأنهم كانوا يمتعون فيه ويتمتعون ! ومن ثم يقولون (ربنا استمتع بعضنا ببعض !). . ودام هذا المتاع طوال فترة الحياة ، حتى حان الأجل ، الذى يعلمون اليوم فقط أن الله هو الذى أمهلهم إليه ؛ وأنهم كانوا فى قبضته فى أثناء ذلك المتاع (وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا)! عند ذلك يجىء الحكم الفاصل ، بالجزاء العادل (قال:النار مثواكم خالدين فيها – إلا ما شاء الله –) فالنار مثابة ومأوى . والمثوى للإقامة . وهى إقامة الدوام . . (إلا ما شاء الله) لتبقى صورة المشيئة الطليقة هى المسيطرة على التصور الاعتقادى . فطلاقة المشيئة الإلهية قاعدة من قواعد هذا التصور . والمشيئة لا تنحبس ولا تتقيد . ولا فى مقرراتها هى (إن ربك حكيم عليم) يمضى قدره بالناس عن حكمة وعن علم ؛ ينفرد بهما الحكيم العليم . . وقبل استئناف الحوار لإتمام المشهد ، يتحول السياق للتعقيب على شطر المشهد المنتهى(وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) بمثل هذا الذى قام بين الجن والإنس من ولاء ؛ وبمثل ما انتهى إليه هذا الولاء من مصير . . بمثل ذلك ، وعلى قاعدته ، نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون . نجعل بعضهم أولياء بعض ؛ بحكم ما بينهم من تشابه فى الطبع والحقيقة ؛ وبحكم ما بينهم من اتفاق فى الوجهة والهدف ، وبحكم ما ينتظرهم من وحدة فى المصير . . وإننا لنشهد فى هذه الفترة – ومنذ قرون كثيرة – تجمعا ضخما لشياطين الإنس من الصليبين والصهيونيين والوثنيين والشيوعيين – على اختلاف هذه المعسكرات فيما بينها - ولكنه تجمع موجه إلى الإسلام ، وإلى سحق طلائع حركات البعث الإسلامى فى الأرض كلها . وهو تجمع رهيب فعلا ، تجتمع له خبرة عشرات القرون فى حرب الإسلام ، مع القوى المادية والثقافية ، مع الأجهزة المسخرة فى المنطقة ذاتها للعمل وفق أهداف ذلك التجمع وخططه الشيطانية الماكرة . . وهو تجمع يتجلى فيه قول الله سبحانه (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) كما ينطبق عليه تطمين الله لنبيه ﷺ (ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) ولكن هذا التطمين يقتضى أن تكون هناك العصبة المؤمنة التى تسير على قدم رسول الله ﷺ وتعلم أنها تقوم مقامه فى هذه المعركة المشبوبة على هذا الدين ، وعلى المؤمنين ، ثم نعود مع السياق إلى شطر المشهد الأخير (يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) وهو سؤال للتقرير والتسجيل . فالله – سبحانه – يعلم ما كان من أمرهم فى الحياة الدنيا . والجواب عليه إقرار منهم باستحقاقهم هذا الجزاء فى الآخرة . . والخطاب موجه إلى الجن كما هو موجه إلى الإنس . . فهل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم كما أرسل إلى الإنس ؟ الله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر . ولكن النص يمكن تأويله بأن الجن كانوا يسمعون ما أنزل على الرسل ، وينطلقون إلى قومهم منذرين به . كالذى رواه القرآن الكريم من أمر الجن فى سورة الأحقاف (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا: أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ...) فجائز أن يكون السؤال والجواب للجن مع الإنس قائمين على هذه القاعدة . . والأمر كله مما اختص الله سبحانه بعلمه والبحث

فيما وراء هذا القدر لا طائل وراءه ! وعلى أية حال فقد أدرك المسؤولون من الجن والإنس ، أن السؤال ليس على وجهه . إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل ؛ كما أنه للتأنيب والتوبيخ ؛ فأخذوا فى الاعتراف الكامل ؛ وسجلوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه (قالوا:شهدنا على أنفسنا) وهنا يتدخل المعقب على المشهد ليقول (وغرتهم الحياة الدنيا ؛ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) وهو تعقيب لتقرير حقيقة حالهم فى الدنيا . فقد غرتهم هذه الحياة ؛ وقادهم الغرور إلى الكفر . ثم ها هم أولاء يشهدون على أنفسهم به ؛ حيث لا تجدى المكابرة والإنكار . . فأى مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه فى هذا المأزق ، الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه ، ولا بكلمة الإنكار ! ولا بكلمة الدفاع ! وعلى ختام المشهد يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله ﷺ ومن وراءه من المؤمنين ؛ وإلى الناس أجمعين ؛ ليعقب على هذا الحكم الصادر بجزاء الشياطين من الإنس والجن ؛ وبإحالة هذا الحشد الحاشد إلى النار ؛ وعلى إقرارهم بأن الرسل قد جاءت إليهم ، تقص عليهم آيات الله ، وتنذرهم لقاء يومهم هذا . . ليعقب على هذا المشهد وما كان فيه ، بأن عذاب الله لا ينال أحدا إلا بعد الإنذار ؛ وأن الله لا يأخذ العباد بظلمهم [أى بشركهم] إلا بعد أن ينبهوا من غفلتهم ؛ وتقص عليهم الآيات , وينذرهم المنذرون (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى – بظلم – وأهلها غافلون) لقد اقتضت رحمة الله بالناس ألا يؤاخذهم على الشرك والكفر حتى يرسل إليهم الرسل , على الرغم مما أودعه فطرتهم من الاتجاه إلى ربها – فقد تضل هذه الفطر – وعلى الرغم مما أعطاهم من قوة العقل والإدراك – فالعقل قد يضل تحت ضغط الشهوات – وعلى الرغم مما فى كتاب الكون المفتوح من آيات – فقد تتعطل أجهزة الاستقبال كلها فى الكيان البشرى . لقد ناط بالرسل والرسالات مهمة استنقاذ الفطرة من الركام لا واستنقاذ العقل من الانحراف , واستنقاذ البصائر والحواس من الانطماس . وجعل العذاب مرهونا بالتكذيب والكفر بعد البلاغ والإنذار . ثم يقرر السياق حقيقة أخرى فى شأن الجزاء . . للمؤمنين وللشياطين سواء (ولكل درجات مما عملوا . وما ربك بغافل عما يعملون) فالمؤمنين درجات: درجة فوق درجة . وللشياطين درجات: درجة تحت درجة ! وفق الأعمال . والأعمال مرصودة لا يغيب منها شىء: (وما ربك بغافل عما يعملون) إنها طرقات قوية وإيقاعات عنيفة على قلوب الظالمين من شياطين الإنس والجن الذين يمكرون ويتطاولون ، ويحرمون ويحللون ، ويجادلون فى شرع الله بما يشرعون . . وهم هكذا فى قبضة الله يبقيهم كيف شاء ، ويذهب بهم أنى شاء ، ويستخلف من بعدهم ما يشاء . . كما أنها ايقاعات من التثبيت والطمأنينة والثقة فى قلوب العصبة المسلمة ، التى تلقى العنت من كيد الشياطين ومكرهم ؛ ومن أذى المجرمين وعدائهم . . فهؤلاء هم فى قبضة الله ضعافا حتى وهم يتجبرون فى الأرض ويمكرون ! ثم إيقاع تهديدى آخر: (إن ما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين) إنكم فى يد الله وقبضته ، ورهن مشيئته وقدره . فلستم بمفلتين أو مستعصين . . ويوم الحشر الذى شاهدتم (قل:يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون) إنه تهديد الواثق من الحق الذى معه ، والحق الذى وراءه ؛ ومن القوة التى فى الحق ، والقوة التى وراء الحق . . التهديد من الرسول ﷺ بأنه نافض يديه من أمرهم ، واثق مما هو عليه من الحق ، واثق من منهجه وطريقه ، واثق كذلك مما هم عليه من الضلال ، وواثق من مصيرهم الذى هم إليه منتهون

الفهـــرس

٤بقية سورة النساء: ..... ص: ٤

سورة المائدة: ..... ص: ٧٥

سورة الأنعام : ..... ص: ١٣٨

الفهرس : ..... ص: ٢٠٦

الأستاذ : محمد رباعة من مواليد ٢١ أكتوبر ١٩٦٣ ب القراح (القرزى) بلدية أولاد رحمون ، ولاية قسنطينة ، (الجزائر) كاتب عصامى و صحفى مستقل ، مدير دار القبس للنشر الإلكترونى ، و رئيس تحرير مجلة القبس الشهرية السياسية الثقافية الإلكترونية ، الف العديد من الكتب أهمها: موسوعة النظام الجزائرى من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ التى تتكون من ستة (٦) أجزاء ، تقدم قراءة تحليلية موضوعية لأهم الأحداث و القرارات و المواقف و الإنجازات ، و كتب التصور الإسلامى لله و الحياة و الإنسان و هو معالجة عصرية لأهم عناصر العقيدة الإسلامية ، و مأزق الحداثة و مابعد الحداثة و موقف الإسلام منهما ، الذى عالج الموضوع بأسلوب بسيط قريب الى الأذهان و بعيد عن تعقيدات و غموض الكتابات الحداثية و العلمانية ، و الحراك الإسلامى فى الجزائر من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ ، و كتاب مختصر فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ، و كل كتبه مطبوعة بطريقة ألكترونية PDF طباعة راقية و أنيقة .